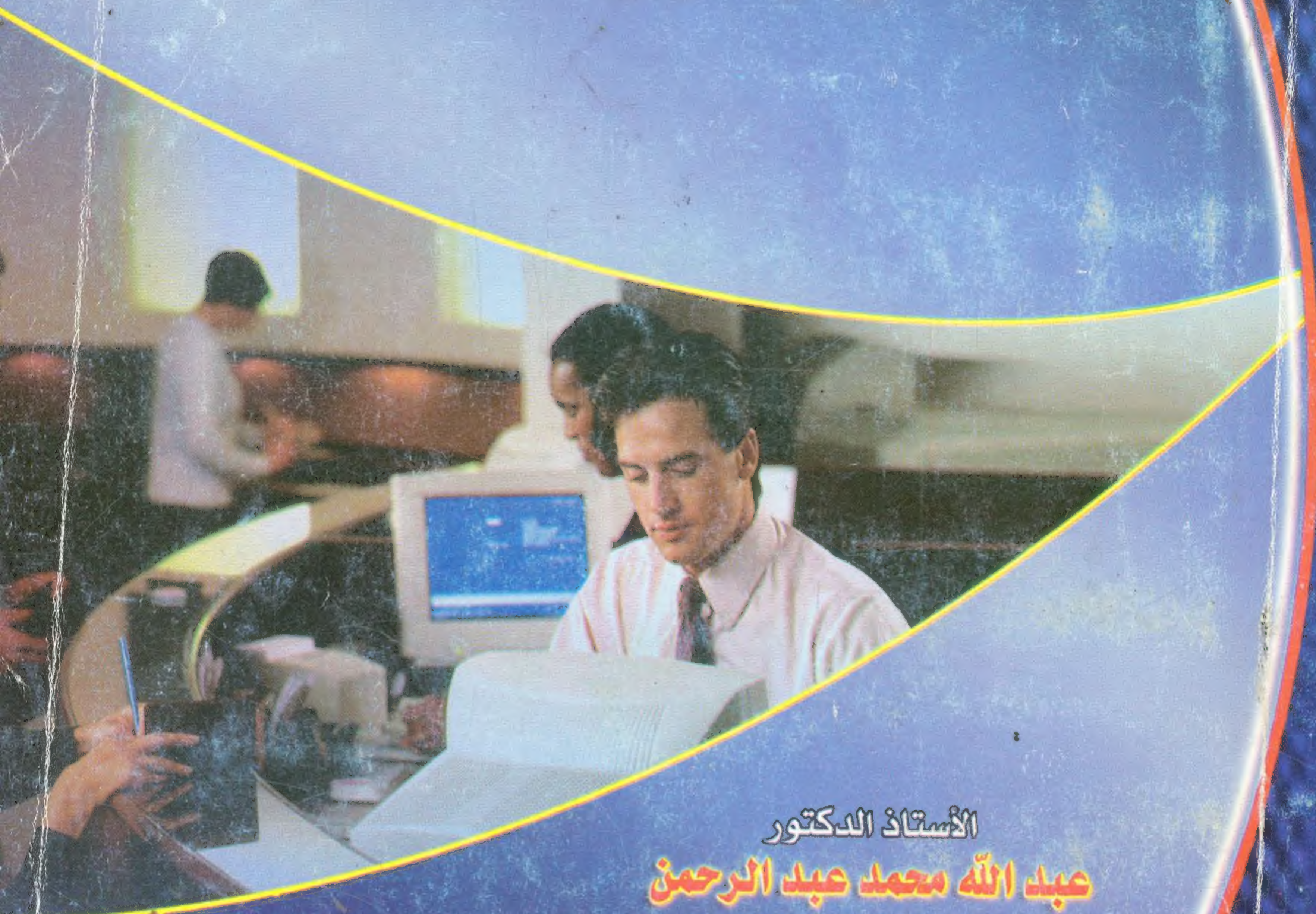


مناهج وطرق البحث الإجتماعية



الأستاذ الدكتور

عبد الله محمد عبد الرحمن

أستاذ ورئيس قسم الإجتماع

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دكتور

محمد علي البدوي

مدرس علم الإجتماع

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مناهج وطرق البحث الاجتماعى

الأستاذ الدكتور

عبد الله محمد عبد الرحمن

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

دكتور

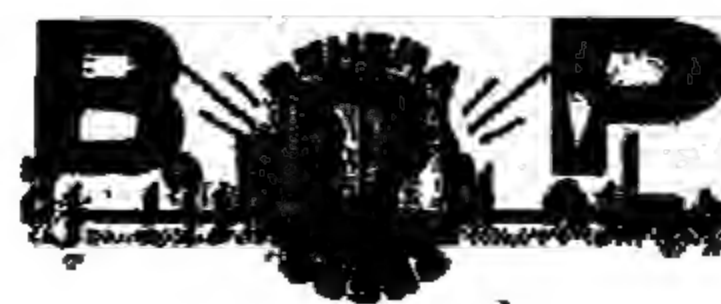
محمد على البدوى

مدرس علم الاجتماع

كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

٢٠٠٧



٠٤٥/٣٣٥١٨٦٥

مقدمة الطبعة الثانية

شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضي وبدايات الألفية الثالثة اهتمامات ملحوظة بعمليات البحث الاجتماعى وقضاياها النظرية والمنهجية، وذلك من جانب المتخصصين فى العلوم الطبيعية والاجتماعية عامة وعلم الاجتماع على وجه الخصوص، وهذا ما يفسر عمومًا التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السريعة التى تلقى بظلالها على مجتمعات وشعوب العالم الحديث. وبما يبدى هذه التطورات وأثارها المتعددة سواء على الفرد أو الأسرة أو المجتمع المحلى أو العالمى. كما أصبح الاهتمام بالبحث الاجتماعى ومشكلاته النظرية والمنهجية يوضح اهتمام مشترك من جانب المتخصصين فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية على حد سواء، ولاسيما بعد ظهور العديد من المشكلات والظواهر المجتمعية التى لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة الواقع الاجتماعى المتغير بصورة سريعة ومضطردة. وهذا ما يؤكد عليه علماء المناهج والبحث الاجتماعى الذين يصرون على ضرورة الاهتمام بالدراسات الواقعية الميدانية التى تفسر مدى تعقد الظواهر الاجتماعية والعوامل التى تتداخل مع تشكيلها أو تكوينها أو ما يعرف عمومًا بدراسة العوامل السببية المتداخلة فى ظهور المشاكل والظواهر الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، أصبح الاهتمام ملحوظاً بعلم الاجتماع وفروعه المتخصصة ولاسيما تلك الفروع التى تعالج القضايا البحثية والمنهجية بصورة واقعية وموضوعية وعلمية. وبالطبع أن هذا الاهتمام يعزز الدراسات الميدانية التى تفسر الواقع المجتمعى الذى يزداد تعقيداً بمرور الوقت، كما يطرح ذلك الاهتمام طبيعة معالجة النتائج التى تتوصل إليها هذه الدراسات والبحوث الميدانية وذلك فى إطار من الأطر النظرية والعلمية التى توجه هذه الدراسات. وهذا ما يجعل المتخصصون فى علم الاجتماع ولاسيما فى المناهج وطرق البحث الاجتماعى يعتمدون على مبدأ المرونة المنهجية واستخدام العديد من الطرق والأدوات البحثية التى تعالج

بصورة علمية محددة، كما يؤدي ذلك بالطبع للاهتمام بالدراسات الاستطلاعية و التي تتعرف على هذا الواقع من ناحية، والاهتمام أيضاً بما يعرف بالدراسات المستقبلية التنبؤية التي تعزز من أهمية البحوث الاجتماعية والمشتغلين في مجالاته المختلفة من ناحية أخرى.

المؤلفان

الإسكندرية ٢٠٠٧

مقدمة الطبعة الأولى

مع بداية الألفية الثالثة تزداد أهمية البحوث الاجتماعية وخاصة بعد أن تنوعت المشكلات والقضايا والظواهر المعقدة، التي توجد في مجتمعاتنا المعاصر. ولقد تركت أعوام القرن الماضي الكثير من هذه المشكلات بدون تقديم إجابات واضحة حول النتائج والآثار الناجمة عن تفاقم الظواهر الاجتماعية السلبية، على كل من الفرد والأسرة والمجتمع المحلي والقومي والعالمى فى نفس الوقت. فلم تصبح مشكلات المجتمع الحديث قاصرة على مجتمعات محلية معينة، بقدر ما تفتت نتائج هذه المشكلات وهددت الكثير من الروابط والعلاقات الاجتماعية والثقافية، التي كانت تنظم طبيعة الحياة اليومية داخل الأسرة أو بين أعضاء أفراد وجماعات المجتمع الواحد. وهذا ما جعل الكثير من العلماء والباحثين ورجال السياسة وصناع القرار وأيضاً الإنسان العادى ينادى بضرورة تطوير مؤسسات البحث العلمى الاجتماعى، سواء من الجامعات أو المعاهد العليا أو مراكز البحوث الاجتماعية المتخصصة، وذلك من اجل دراسة النتائج والآثار السلبية للمشكلة الاجتماعية التي تفاقمت بصورة مضطردة كما ظهر ذلك واضحاً خلال السنوات الأخيرة.

وهذا بالفعل، ما أهتم به علماء الاجتماع كغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، الذين بدؤوا فى توجيه نظرياتهم ومناهج وطرق بحوثهم، نحو دراسة أسباب تفاقم المشكلات والظواهر الاجتماعية، وتعدد خطورتها على مستقبل الحياة الاجتماعية اليومية، وأيضاً على طبيعة البناءات الاجتماعية ونظمها الأخلاقية الثقافية والدينية. فلقد ركز علماء الاجتماع بصورة خاصة على تطوير أساليب البحث العلمى وتحديثها لدراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية التي تمتاز بخصائص التعقيد والتداخل فيما بينها، وتنوع أسباب حدوثها وتكرارها، وأيضاً نتائجها وآثارها بصورة عامة. وجاءت محاولات التطوير لمناهج البحث العلمى الاجتماعى وطرقه وأدواته المختلفة، فى اطار عمليات التحديث المنهجى والنظري فى نفس الوقت، والتوجه بصورة أكبر نحو دراسة المشكلات الواقعية واستخدام العديد من المناهج وطرق الدراسة والتحليل الكمي والكيفي، وذلك من اجل التعرف على أسباب تفاقم المشكلات

الاجتماعية، ومحاولة تقديم تفسيرات علمية وواقعية لحدوثها وكيفية انصافها لها، وتقديم الحلول المناسبة والموضوعية.

وحقيقة، لقد جاء اهتمامنا الحالي بتأليف هذا الكتاب الذى يدور حول مناهج وأساليب البحث الاجتماعى، كمحاولة علمية لتعزيز الدور العلمى والبحثى والتنظيرى فى نفس الوقت، للعديد من المتخصصين فى مجال علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بصورة عامة، وإلى طلاب قسم الاجتماع وغيرهم من طلاب البحث العلمى فى العديد من التخصصات المختلفة لفروع العلوم الاجتماعية بصورة خاصة. ولاسيما، أن مشكلات البحث العلمى الاجتماعى فى عالمنا العربى، لا تزال تحاط بنوع من الغموض، ولاسيما للطلاب والباحثين المبتدئين فى مجال البحث الاجتماعى. نظراً لما تشتمل عليه من تحليلات منهجية ونظرية، نقلت بصورة غير فاحصة أو متعمقة، لإمكانات هؤلاء الباحثين والدارسين، أو ما يتلاءم عموماً مع نوعية المشكلات الاجتماعية التى تعيشها خصوصيات المجتمع العربى خاصة، ونوعية البناءات والنظم الاجتماعية التى توجد فى الدول النامية بصورة عامة. وهذا ما يتبلور بالفعل فى أذهان الكثير من علماء الاجتماع أو الباحثين الذين يتطلعون إلى ظهور فئة من الباحثين المتخصصين والمدرّبين والمؤهلين أيضاً على أسس علمية متعمقة، لتقوم بمهامها الوظيفية والمهنية، ومعرفة متطلبات وقواعد ومبادئ البحث العلمى الاجتماعى، وما ينبغى أن يكون عليه هذا البحث وأهدافه تجاه مجتمعنا الذى نعيش فيه حالياً.

على أية حال، لقد حرصنا خلال هذا الكتاب أن نطرح نتائج خبراتنا فى مجال البحث الاجتماعى الذى يمتد إلى أكثر من ربع قرن من الزمان وأن نقدم للقارئ والطالب والباحث العربى، ثمرة هذه الخبرة الواقعية، فى إطار طرح عدد من القضايا والموضوعات المنهجية والبحثية المتخصصة، وتقديمها بصورة مبسطة بعيداً عن التعقيد أو التجريد النظرى الخالص، الذى يعطى انطباعاً عكسياً لطلاب البحث الاجتماعى، ويزيد من هالة غموض البحث العلمى وهموم دراسة الواقع المتغير. وهذا بالفعل ما تبلور فى معالجة القضايا المنهجية التى يقوم عليها أدبيات وأسس البحث العلمى الاجتماعى، ومحاولة الكشف بين عناصر هذا البحث وغيره من البحوث العلمية الأخرى التى تطبق فى مجال العلوم الطبيعية. وأيضاً، معرفة كيفية الاستفادة من تحديث أساليب

وطرق البحث الاجتماعى، فى ضوء المتغيرات التكنولوجية والفنية والاجرائية الحديثة، التى تم تطبيقها فى مجالات البحث الاجتماعى، وتعزز عموماً من عمليات دراسة قضايا ومشكلات مجتمعاتنا النامية والعربية على وجه الخصوص.

وفى النهاية نتمنى أن نكون قد حققنا هدفنا الأساسى من هذا العمل، الذى يتبلور فى تبسيط أهم أسس وقواعد البحث الاجتماعى، والتى يجب أن يهتم بها طلابنا وأبنائنا الذين نتطلع فيهم مستقبلاً بأن يقوموا بدورهم المهنى والوظيفى والاجتماعى بصورة تحقق تطلعاتهم وأمانيتهم أيضاً، نحو مستقبل مجتمعاتهم وخدمة الانسانية عامة. وهذا ما يعكس عموماً أهم أهداف علم الاجتماع ورسالة العمل والخدمة والرعاية الاجتماعية، وتحقيق الرفاهية وتقديم المشورة والعون والمساعدة إلى كل من يحتاجها بصورة علمية ومشرفة. كما نرجو أن تكون مساهمتنا العلمية المتواضعة نواة لتطوير وتحديث مناهج وطرق وأساليب البحث العلمى الاجتماعى، وخاصة فى المرحلة المستقبلية. ولقد قام الأستاذ الدكتور/عبدالله محمد عبدالرحمن بتأليف الفصول من الأول حتى الخامس، والدكتور/محمد على البدوى بتأليف الفصول من السادس حتى الثانى عشر، آمين من الله سبحانه وتعالى بأن نكون قد حققنا هدفنا المنشود، والتطلع دائماً للمزيد من تطوير البحث العلمى الاجتماعى، والله الموفق دائماً لعبادة المصلحين.

المؤلفان

د/ محمد على البدوى

د/ عبد الله محمد عبد الرحمن

الفصل الأول

البحث الاجتماعي : المفاهيم التصورية والقضايا النظرية

تمهيد:

- ١ - المعرفة العلمية.
- ٢ - مفهوم العلم ووظائفه.
- ٣ - قضايا البحث العلمي.
- ٤ - القوانين والنظريات العلمية.
- ٥ - البحوث والنظريات العلمية.
- ٦ - أخلاقيات البحث الاجتماعي.

تمهيد:

ما من شك أن لغة العلم في العصر الحديث أصبحت السمة المسيطرة على نوعية الحياة التي نعيشها بالفعل في مجتمعاتنا المعاصرة، وسعى علماء العلوم الطبيعية مثل الفلك والطب والكيمياء والأحياء والهندسة وغيرها لتطور علومهم لكي تحدث المزيد من التغيرات في نواح الحياة العصرية الحديثة. وهذا بالفعل ما جعل أيضاً علماء العلوم الاجتماعية يركزون بدورهم على ضرورة تطوير علومهم من حيث المنهج والنظرية، لكي تتواءم مع التغيرات الناجمة عن تغير المجتمع الحديث بصورة عامة.

ومن ثم يمكن القول، بأن هدف العلوم الطبيعية والاجتماعية تتبلور جميعها حول كيفية تطور ذاتها بصورة تجعلها تتلائم مع الحياة العصرية الحديثة والمتغيرة، وتسعى أيضاً من أجل تطور هذه الحياة بصورة مستمرة، وتحقيق الرفاهية البشرية وسيطرة الإنسان على بيئته الطبيعية الاجتماعية التي يعيش فيها بالفعل.

ولكن عمليات تحديث العلوم سواء أكانت طبيعة أم اجتماعية، لا يمكن أن تحدث بصورة تلقائية أو عفوية إنما تركز على كل من النظريات والمناهج وأساليب الدراسة والتحليل وجمع البيانات، وما إلى ذلك من تقنيات العلم الحديث. وما يتطلب مثل ذلك من بلورة عدد من المفاهيم والقضايا التصورية والنظرية، التي تنعكس عموماً ما يمكن تسميته بلغة ومفاهيم العلم أو البحث العلمي الحديث سواء أكان ذلك في العلوم الطبيعية والاجتماعية. وهكذا يمكن أن نقول، بأن توضيح المفاهيم والتصورات والقضايا، لأي علم من العلوم الحديثة من شأنه أن يعزز طبيعة هذه العلوم، ويهدف لتوضيح معانيها ومفهوماتها بشكل عام، حتى يتمكن الباحثين أو المتخصصين، وأيضاً الإنسان البسيط أن يتعرف على لغة العلم وكيفية تداولها وتطورها ككل.

وإنطلاقاً من أهدافنا في هذا الكتاب، الذي يتركز حول دراسة طرق البحث العلمية الاجتماعية ومناهجه وأدوات جمع بياناته وتحليلها، ونعطي فكرة مبسطة للباحث أو المتخصص في علم الاجتماع خاصة والعلوم الانسانية والطبيعية عامة، طبيعة أهم المفاهيم والقضايا النظرية والتصورية، التي يهتم

بها علم الاجتماع وعلمانه، والتي أصبحت قضية علمية مشتركة في مجال البحث العلمي الاجتماعي ككل. وهذا ما ظهر خلال العقود الأخيرة من القرون الماضية (العشرين) والبدايات الأولى للقرن الحالي، والتي تعكس عموماً أهمية الدور الإيجابي الذي يقوم به علم الاجتماع في دراسة مشكلات المجتمع الحديث والتي تزداد بصورة تراكمية ملحوظة. ومن هذا المنطلق، سنركز خلال هذا الفصل لشرح عدد من المفاهيم والقضايا النظرية مثل، المعرفة العلمية وطبيعتها ونوعيتها المختلفة وطرح بعض التساؤلات للإجابة عليها مثل: ما هو المقصود بمفهوم العلم ووظائفه وخصائصه والسمات العامة التي يصطبغ بها، وماهي قضايا البحث العلمي عامة والاجتماعي خاصة؟، ثم تحليل ماهية وطبيعة القوانين والنظريات العلمية، وما المقصود بها عند التوصل إليها من خلال الدراسات النظرية والامبريقية (الميدانية)؟ هذا بالإضافة إلى تناول عدد من القضايا والمفاهيم التي ترتبط بالبحوث الاجتماعية خاصة، وكيفية أدائها سواء على المستوى النظري أو الواقعي ككل، وما هي أخلاقيات البحث الاجتماعي والشروط التي ينبغي أن تقوم عليها والأهداف التي توجه هذه البحوث في المجتمعات الحديثة؟.

١- المعرفة العلمية.

يزداد العموض والخلط لدى طلاب البحث الاجتماعي والمتخصصين في مجال البحث عامة، حول تحديد المفاهيم المختلفة التي تتداخل مع بعضها، ولاسيما في مجال الدراسات الاجتماعية. وهذا ما ينطبق على سبيل المثال، عندما نلاحظ التداخل الشديد في المفاهيم لدى طلاب وباحثي العلوم الاجتماعية مثل، تخيلهم للمعرفة العلمية من ناحية والعلم من ناحية أخرى. ولهذا نسعى حالياً لنوضح ذلك بصورة موجزة، ثم الإشارة إلى أهم تصنيفات أو تقسيمات المعرفة العلمية، حتى يستطيع القارئ أو الدارس المبتدئ للبحوث الاجتماعية، أن يتعرف بوضوح على طبيعة التمايز والاختلاف وأيضا التشابه بين هذه المفاهيم وبقية الفصل فيما بينها و تحديدها وتميزها بصورة علمية.

تتحدد المعرفة على أنها " مجموعة من المعاني والمفاهيم والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة، لفهم الظواهر والأشياء المعقدة به " (١). ويتضح من هذا المعنى، أن المعرفة لا تقتصر على شكل معين من أشكال المعرفة المختلفة، التي تحيط بالإنسان ولكنها تشمل جميع جوانب الحقائق التي تحيط به في بيئته الخارجية سواء أكانت إجتماعية أو فكرية أو طبيعية. فعندما ندرس طبيعة المعرفة العلمية التي كان يركز عليها المصريون القدماء وأفكارهم والتي أسست أفضل الحضارات البشرية، نجد أن معظم تفكيرهم كان موجهاً بفضل المعتقدات الدينية. وهذا ما جعل نظمهم الدينية والسياسية والاقتصادية، كلها مرتبطة بمجموعة المعارف والمعتقدات الإلهوتية (الدينية) التي كانت تقوم على حياة البعث أو الخلود بعد الممات.

أما حياة الشعوب القديمة الأخرى مثل اليونانيين على سبيل المثال، أو بالأحرى حضارة الإغريق، فكانت تقوم على نسق المعرفة العلمية، التي تعتمد على العقل أكثر من الدين. وهذا ما جعل من نظمهم السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية عامة، تعتمد على أساليب التفكير العقلي أو البشري، وبعيدا بصورة نسبية عن المعتقدات الدينية التي كانت موجودة لدى المصريين في العصور القديمة. وهذا ما ينطبق أيضاً، عندما نحلل أنساق المعرفة العلمية سواء في الحضارات الشرقية القديمة أو خلال العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية، فسوف نجد الكثير من المفارقات والاختلافات والتمايز والتشابه بين أنساق المعرفة العلمية وموجهاتها بصورة عامة. وهذا ما يجعلنا نبحث بصورة مستفيضة بين جوانب المعرفة العلمية من حيث مصدرها وأصولها وتطورها عبر العصور التاريخية، وخلال مراحل تطور المجتمعات والعقل البشري عامة.

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة وهبة،

ومن هذا المنطلق، نستطيع القول بأن مفهوم المعرفة العلمية، لا يمكن أن يكون مرادفا لمفهوم العلم ذاته، خاصة وأن المعرفة، كمصطلح أو لفظ ذو معنى، يعتبر أوسع وأشمل بكثير من مفهوم العلم.. خاصة، وأن المعرفة العلمية، تتضمن مجموعة من المعارف العلمية وغير العلمية. وهذا ما ظهر خلال طرحنا للمثال السابق عن نسق المعرفة لدى قدماء المصريين أو الإغريق، حيث شملت المعرفة مجموعة المعارف الروحية والوثنية العقائدية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية في نفس الوقت. ولهذا السبب يسعى الباحث أو المفكر الاجتماعي، لأن يتحرى الوقت في التمييز بين مفردات ومفاهيم البحث الاجتماعي العلمي التي يستخدمها. وبالطبع، يكون استخدام المنهج أو قواعد المنهج العلمي والتفكير السليم، هو الأساس الذي يعتمد عليه في تتبع أصول وتطور المعرفة العلمية وغير العلمية.

وتعكس تحليلات علماء المناهج والبحث الاجتماعي الكلاسيكية من أمثال " جود وهات " Goode & Hatt و " أوجست كونت " A. Comte وغيرهم آخرين، الذين يحددون الفرق الواضح بين المعرفة والعلم، وذلك عندما يشيرون إلى أن العلم ما هو إلا " المعرفة المنسقة " . أو كما يطرح مفهوم العلم، عملية منهجية لربط المعارف وتحديد مدى نطاقها.

كما يركز العلم على دراسة الموضوع أو القضية المشتركة بين أفراد المجتمع. كما أن العلم يبحث عن الحقيقة، ويستخدم المنهج العلمي للتوصل إليها بصورة عامة. ومن هذا المنطلق، يمكن أن نقول بأن المعرفة العلمية ما هي إلا حصيلة الحقائق والأفكار والمعتقدات والمعاني والرموز التي تتكون لدى الفرد وتزحم واقع البيئة الطبيعية والثقافية التي تحيط به ككل. أما العلم، ماهو إلا منهج للتفكير والتحليل والدراسة، بالإضافة إلى محتوى ومادة البحث، التي تقدم إلى الإنسان في صورة منسقة تعتمد على قواعد معينة تعرف بقواعد المنهج العلمي.

من ناحية أخرى، نجد أن بعض التحليلات المميزة لعلماء المناهج والبحث العلمي الاجتماعي، تتطرق بصورة أكثر لتمييز العلم عن المعرفة بمفهومها العام. حيث يعكس مفهوم العلم، بأنها ذلك النوع من المعرفة، التي يمكن تحقيقها بصورة فعلية. وبالطبع، أن وسيلة التحقيق لا يمكن أن تتم إلا

- عن طريق استخدام المنهج العلمى. وبهذا التحديد، يمكن أن نلاحظ أن العلم، ما هو إلا نوع من المعرفة العلمية، التى يطلق عليها صيغة العلمية أو التى اصطبغت بلغة العلم ومناهجه وأساليبه تحليله والتأكد من واقعيته وشروطه وإمكاناته. أما المعرفة بمفهومها العام، فتشمل كل من جوانب المعرفة العلمية، والتى ترادف مفهوم العلم، وأيضاً غير العلمية، والتى لا يمكن أن تكون قد تحققت بعد بواسطة الإنسان، ومن الصعوبة أن نطلق عليها بالمعرفة العلمية، لأنها غير حقيقية، أو لا تعبر عن الحقيقة الواقعة، ولم تستخدم الأسلوب أو المنهج العلمى فى تحديدها. ولكن بالطبع، تعتبر المعرفة العلمية، مثل الخيال الإنسانى، والأساطير، والنسق الفكرى والمعتقدات البشرية بصورة عامة، جزء من مكون المعرفة الانسانية، وهى حصيلة الانتاج الثقافى، حسب تحديد مفهوم الثقافة ومفهومها العام.

وبعد الإشارة إلى هذه التفرقة بين العلم، والمعرفة العلمية وغير العلمية، يجب أن نوضح حالياً طبيعة المعرفة العلمية أو العلم ما يتصف به من خصائص وهى:

أولاً: تقوم المعرفة العلمية بتصوير الواقع بصورة موضوعية.
ثانياً: تهدف المعرفة العلمية إلى التحكم والسيطرة فى هذا الواقع بقدر الإمكان.
ثالثاً: يستخدم العلم المنهج أو الطريقة أو الأسلوب العلمى فى دراسة الواقع وكيفية السيطرة عليه.

على أية حال، سنشير فيما يلى لأهم أنواع المعرفة العلمية التى أتفق حولها علماء العلوم الإنسانية، إلا أننا لابد وأن نوضح حقيقة هامة مؤداها : أن هذا التصنيف أو التقسيم لأنماط المعرفة لا يعتبر تقسيماً قاطعاً بين أنواع المعرفة، بقدر ما يساعد هذا التقسيم للتعرف بصورة كبيرة على التباين والإختلاف وأيضاً التداخل بين أنواع المعرفة، ولا سيما أنها تعتبر من حصيلة العقل البشرى بصورة عامة.

- النوع الأول : المعرفة العلمية Scientific Knowledge

ويشير هذا النوع من المعرفة إلى الخبرة العلمية التى استقادت بها الإنسان من خلال محاولته الدائمة للسيطرة على البيئة الطبيعية الخارجية التى تحيط به. وتشمل جوانب هذا النوع من المعرفة، الجوانب الفيزيائية،

والبيولوجية والاجتماعية، والتي يسعى الإنسان دائماً لإخضاعها قيد البحث والتجربة أو التعرف عليها بوسائل أكثر دقة. وبالطبع، تتميز هذه المعرفة بسهولة التعرف عليها من خلال الأساليب والمقاييس الدقيقة، كما يمكن التنبؤ بالكثير من جوانبها ومظاهرها. ويندرج تحت هذا النوع من المعرفة محاولة الإنسان الحديث في السيطرة على البيئة الخارجية وعالم الفضاء والكون الخارجي، مثل سعى الإنسان إلى اكتشاف كوكب الأرض والكواكب والأجرام السماوية الأخرى.

وكما يرى عدد من علماء الاجتماع ومنهج البحث العلمى، أن للمعرفة العلمية خصائص ومميزات تميزها عن غيرها من أنماط المعرفة الأخرى. وتتبلور أهم هذه المميزات والأساليب العلمية، التى تعتمد على الملاحظة المنظمة للظواهر، ونوعية الفروض التى يتم إقترحها بواسطة العلماء وقبل دراسة هذه الظواهر، وأيضاً إجراء التجارب المختلفة، والتركيز على جمع البيانات والمعلومات المرتبطة بالظواهر البيئية والطبيعية والاجتماعية الخارجية، ومحاولة التحقق من الفروض وصحتها سواء بالإيجاب أو السلب. فى نفس الوقت، يتميز هذا النوع من المعرفة (العلمية)، بأنها تسعى للتوصل إلى عدد من القوانين العلمية التى يمكن أن تتبلور بعد ذلك، فى مجموعة من النظريات العامة، كما يمكن التحقق من هذه الظواهر عن طريق التنبؤ بها مستقبلاً، أو إخضاع عدد منها وجعلها قيد البحث والتجريب العلمى (المعملى).

وبالإضافة على مجموعة المميزات والخصائص السابقة للمعرفة العلمية، ألا إننا نلاحظ أيضاً وجود مجموعة من المميزات التى تنفرد بها عن الأنماط الأخرى من المعرفة وهى:

١- تتميز المعرفة العلمية بأنها تعتمد على الأساليب والاجراءات الموضوعية المنظمة، والتى لايمكن قبولها إلا بعد الاختيار الدقيق والتحقق منها.

٢- تساعد الحقائق العلمية التى تتدرج تحت المعرفة على الاندماج فى مجموعة الحقائق الأخرى، فيساعد ذلك على تفسير جميع مكونات المعرفة العلمية والتحقق منها، وهذا بخلاف أنماط المعارف الأخرى.

٣- تعتمد المعرفة العلمية على التجربة، كأساس موضوعي لحسم الخلافات والتشكيك في الظواهر والقضايا المختلفة.

٤- بالإضافة إلى المميزات السابقة، تتميز المعرفة العلمية بصعوبة التداخل أو الإندماج فيها أو التأثير عليها بواسطة الباحث أو توجيهها حسب معتقداته وآرائه الخاصة والعامة، وهذا ما يجعل القوانين والنظريات التي تتوصل إليها المعرفة العلمية مختلفة عن غيرها من أشكال أو أنواع المعرفة الأخرى.

٥- تستخدم المعرفة العلمية، منهج مميز أو ما يسمى بالمنهج الإستقرائي العلمي، الذي يهدف إلى التوصل للقوانين والنظريات التي تسهم في تفسير الظواهر الكونية والطبيعية سواء أكانت ظواهر متفوتة فردية وجمعية، ويهدف عموماً هذا النوع من المنهج الاستقرائي العلمي، إلى إصدار التعميمات والكشف عن الحقائق والتنبؤ بحدوث الظواهر وتفسيرها.

- النوع الثاني : المعرفة الميتافيزيقية (الفلسفية) Metaphysics Knowledge.

ويشير هذا النوع من المعرفة إلى المعرفة التي تعكس مرحلة من مراحل التفكير البشري أو تطور المجتمعات الإنسانية، كما حدد ذلك عالم الاجتماع الفرنسي " أوجست كونت " A. Conte، عندما حاول أن يفسر لنا قانونه المعروف قانون المراحل الثلاث، والذي ركز فيه على أن العقل البشري يتطور بصورة تدريجية، وذلك عن طريق ما يحصل عليه من المعارف الخارجية أو الداخلية. وهذا ما يعكس عموماً تطور المجتمعات من المراحل القديمة، حيث كانت توجد أنماط المعرفة الدينية أو اللاهوتية، ثم تطور العقل البشري عن طريق تطور المعرفة الميتافيزيقية التي تعد انعكاساً حقيقياً لنمو هذا العقل وحصيلة المعارف التي يتوصل إليها، وتمثل ذلك في بحثه واستخدامه العقل لدراسة الأشياء والحقائق التي توجد فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). ثم بالطبع جاءت المرحلة الأخيرة، من تطور العقل والمجتمع الأنساني، وتمثل ذلك في مرحلة المعرفة العلمية أو المرحلة الواقعية.

ومن ثم، نجد أن المعرفة العلمية الميتافيزيقية تستند إلى الفلسفة ومناهجها المختلفة حيث لا يقتصر التفكير الفلسفي فيما هو موجود بالفعل، بقدر ما تسعى أيضاً لمعرفة الحقائق أو المعارف التي توجد خارج حدود العالم الطبيعي الذي نعيش فيه، أو ما يسمى بالعالم الميتافيزيقي والذي يشمل على سبيل المثال قضايا ميتافيزيقية مثل الوجود، وصفات الوجود، ومعرفة الخالق (الله) وإثبات وجوده وغير ذلك من قضايا أخرى كونية وطبيعية متعددة. ومن ثم، نجد أن المعرفة الفلسفية يتعذر فيها الرجوع دائماً إلى الحقائق الواقعية الملموسة، بقدر ما تذهب للبحث في القضايا المجردة. كما تميل معظم تحليلات الفلاسفة، أو من يهتمون بدراسات قضايا المعرفة الفلسفية الميتافيزيقية للتقيد بأرائهم أو آراء من يقتنعون بهم دون استخدام التجربة، أو الملاحظة في إثبات ذلك، لأن القضايا التي يبحثون فيها يتعذر دراستها عن طريق التجربة والبحث الواقعي.

في نفس الوقت، تتميز المعرفة الفلسفية الميتافيزيقية، بأنها لاتعتمد على دراسة الجزئيات أو الحقائق البسيطة، وإنما تركز على دراسة الكليات وتفسير الأشياء عن طريق معرفة العقل والأساليب والمبادئ الأولى التي تقوم عليها بصورة شاملة. كما يتميز هذا النوع من المعرفة الإنسانية، بأنها تستخدم منهج فلسفي، يختلف بالطبع حسب نوعية الفلسفة. وطبيعة المرحلة التاريخية التي نشئوا فيها. فلقد استخدم الفلاسفة الإغريق المنهج الفلسفي التأملي، الذي إصطبغ بالطابع العقلي، وهذا ما جاء في استخدام منهج القياس المنطقي عند أرسطو، والذي ظل المنهج الفلسفي أو فهم التفكير الفلسفي لأكثر من عشرين قرناً من الزمان دون تقيد أو تبديل ويطلق عليه بالقياس الصوري.

وبالطبع، يقوم هذا المنهج الفلسفي على إستخلاص النتائج من المعلومات، دون التركيز في أسباب حدوثها أو تصورها. فالقياس الصوري (كمنهج فلسفي) لا يؤهل العقل البشري إلى معرفة جديدة، بقدر ما يعتبر تحصيل حاصل، ويعتمد على الشكل أو الصورة التي يتوصل إليها الفيلسوف من خلال عرض مقدماته، دون معرفة الجوهر أو مكونات المادة العلمية أو الحقيقية التي يقوم بدراستها وتحليلها. وإن كان ذلك لا ينفي أيضاً إن الإعتداد على القياس الصوري كمنهج للمعرفة الفلسفية والميتافيزيقية، يساعد

على تنمية القدرة العقلية فى-الجدل أو النقاش، وربط الأفكار بصورة منطقية وشكلية صورية كبيرة، ولكن لا يمكن أن يتوصل الى الأسباب والعلل والنتائج الواقعية، ولا يقدر على إثبات المبادئ والاسس العلمية التى تقوم عليها الظواهر والحقائق، بفدر ما يهتم فقط بدراسة المقدمات والنتائج التى يتوصل إليها من خلال دراستها بصورة صورية. وهذا ما جعل فلاسفة الغرب المحدثين من أمثال " ديكارت " ، أن ينتقد هذه المنهج. ووصفه بأنه منهج عقيم، لا يهدف إلى تقديم معرفة علمية جديدة، ولا يستطيع أن يتعرف على الحقائق المجهولة فى العالم الواقعى.

- النوع الثالث : المعرفة الحسية (التجريبية) Eperimental Knowledge.

يقصد بهذا النوع من المعرفة التى يتم التوصل إليها الإنسان عن طريق مذكراته الحسية، ويتعرف عليها عن طريق الملاحظة البسيطة التى يمكن معرفتها عن طريق الحواس، دون بذل أى مجهود يذكر لمعرفة كيفية وأساليب حدوثها والعلاقات القائمة بينها. ولهذا سميت المعرفة الحسية، والتى لم تصل إلى مرحلة المعرفة العلمية الحقيقية التى بنيت على أسس وقواعد معرفية ومنهجية محددة. وبالطبع، أن حياة الأفراد والمجتمعات البشرية لجأت إلى هذا النوع من المعرفة عن طريق إكتساب الخبرات وتحديد المواقف ومعرفة المعانى المختلفة للأشياء والظواهر الخارجية.

ويمكن طرح عدد من الأمثلة التى توضح هذا النوع من المعرفة، عندما يتصور الإنسان العادى البسيط طبيعة ما يلاحظه فى العالم أو الكون الخارجى مثل تعاقب كل من الليل والنهار وإختلاف كل منهما من حيث الطول أو القصر، ودرجة الحرارة والبرودة، وطبيعة التعاقب المستمر بينهما، وما إلى ذلك من ملاحظات بسيطة يمكن إدراكها بصورة تلقائية وعفوية. ولكن فى نفس الوقت، لا يسعى الإنسان العادى البسيط بأن يتعرف على طبيعة إختلاف الليل والنهار وعلاقتها بعملية دوران كل من الأرض والشمس أو ما يعرف بتجربة الكون الخارجى، أو معرفة طبيعة الإختلاف من الليل والنهار، وتعاقب فصول السنة الأربعة، وما إلى ذلك من حقائق علمية متعددة يتعذر على الإنسان العادى البسيط تفسيرها بسهولة.

ولكن بالطبع، قد تتحول المعرفة الحسية (التجريبية) إلى أنواع أكثر واعمق من المعرفة مثل المعرفة العلمية، هذا إذا سعى الإنسان البسيط، لأن يطور من قدراته العقلية وأساليب تفكيره وتبنيه أنواع معينة من المناهج وطرق البحث والدراسة والتحليل، التى عن طريقها يمكن أن يميز طبيعة أكتشافه للحقائق عن طريق الخبرة، والادراك والملاحظة البسيطة إلى معرفة العلل والأسباب والعلاقات، والنتائج المترتبة على دراسة الحقائق الخارجية. ومن ناحية أخرى، محاولة الإنسان إلى استخدام التجربة والعملية لتفسير الظواهر أو إخضاع عدد منها وإعتبارها قيد البحث العلمى الدقيق .

وإن كانت المعرفة الحسية التى تعرف عليها الإنسان البسيط، هى حصيلة ما توصل إليها العقل البشرى فى مرحلة تاريخية سابقة بالفعل على مرحلة العصر الحديث التى نعيش فيها. فالإنسان البدائى منذ فجر التاريخ كان يفسر ظواهر معينة على أنها أشياء خارقة ولقد كان يفسرها بصورة غيبية. وهذا ما تمثل فى تفسير الإنسان البدائى للصواعق وكسوف الشمس وخسوف القمر، وانتشار الأوبئة والمجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية الأخرى، ويرجع معظم هذه الظواهر إلى علل غيبية وأسطورية لايمكن أن تصل للإنسان فى العصر الحديث الذى أهتدى إلى العلم والمنهج العلمى فى تتبع مثل هذه الظواهر ودراستها بصورة علمية ودقيقة.

ويرى علماء البحث العلمى، أن عملية تطور المعرفة الحسية، التى يحصل عليها الإنسان عن طريق الإدراك والملاحظة البسيطة والخبرة العادية المجردة، جاءت بعد مرور فترات تاريخية طويلة حرص فيها الإنسان على معرفة الحقيقة وتطور نسق المعرفة الحسية، حتى تصبح معرفة علمية متطورة، ولتساعده عموماً فى فهم العالم الخارجى الذى يعيش فيه، وزيادة قدرته وسيطرته والتحكم فيه. كما يرى علماء البحث العلمى السيكولوجى أن مرحلة الحياة العمرية للإنسان بصورة عامة، تعكس لنا نوع من تطور المعرفة الحسية، وهذا ما يتمثل فى مرحلة الطفولة المتأخرة عندما يسعى الأطفال إلى تفسير بعض الظواهر والحقائق الخارجية التى تحيط بهم والخوف والهلع منها، ثم يكبرون بعد ذلك ويدركون الطبيعة الحقيقية لهذه الظواهر، ويستخدمون عقولهم لتأويل هذه الظاهرة بصورة فلسفية ميتافيزيقية، ثم بعد

حصولهم على نوع من المعرفة والتعليم الرسمي والخبرة-التي يكتسبونها من المؤسسات التعليمية المختلفة، يستطيعون دراسة الأشياء والحقائق عن طريق تبني الأساليب والمناهج الدقيقة التي تعزز عموماً وصولهم إلى مرحلة المعرفة العلمية.

٢- مفهوم العلم ووظائفه.

أولاً : مفهوم العلم.

بعد الإشارة إلى طبيعة المعرفة ودراسة أنماطها المختلفة، وجدنا الكثير من التمايز والاختلاف بين هذه الأنواع، وإن كانت تمثل كل واحدة من المعارف الإنسانية، سواء أكانت معرفة حسية أم فلسفية (ميتافيزيقية)، أم معرفة علمية دقيقة، مرحلة تاريخية معينة مرت بها كل من المجتمعات والعقول البشرية، إلى أن وصلت إليه حتى الوقت الذي يسمى بعصر العلم الحديث. ومن ثم، السؤال الذي يطرح ذاته حالياً، ماهي طبيعة مفهوم العلم، وخصائصه ووظائفه الأساسية ؟ وللإجابة على هذا السؤال يتحتم علينا الإشارة بوضوح إلى، ماذا نقصد بالفعل من مفهوم العلم، ولأسيما بعد أن أوضحنا مفهوم وحقيقة المعرفة العلمية بصورة عامة. وهل توصلت العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى مرحلة العلم الحديث مثل العلوم الطبيعية الأخرى. أو بمعنى آخر هل حققت العلوم الاجتماعية متطلبات العلم الحديث ؟. وهل لديها الأدوات والمناهج وأساليب الدراسة والتحليل التي تمكنها من دراسة الظواهر والمشكلات التي تهتم بتحليلها ؟

حقيقة، أن مثل هذه التساؤلات السابقة، تدور بالفعل في أذهان الباحث والمبتدئ أو الدارس في تخصصات علم الاجتماع أو غيره من العلوم الاجتماعية، أو أيضاً من الباحثين والمتخصصين في العلوم الطبيعية الأخرى، الذين يسعون للاستفادة من الخبرات الواقعية المنهجية لكل من علماء العلوم الاجتماعية وتخصصاتهم المختلفة. ومن هذا المنطلق، نسعى حالياً لتحديد مفهوم العلم، ثم للإجابة على مجمل التساؤلات السابقة. فيقصد بمفهوم العلم، كما حدده الفيلسوف الفرنسي "هنري يونكاري" H. Poincare أن (العلم) هو "المعرفة التي لا تتعلق بالأشياء والظواهر ذاتها، وإنما (العلم) هو أن ندرك به ما يربط بين هذه الأشياء والظواهر من علاقات مختلفة ". ومن ثم، فيمكن أن نتعرف بوضوح من خلال هذا التعريف البسيط لمفهوم العلم، على أنه

معرفة القوانين ومجموعة المبادئ التى تحكم الظواهر بعضها ببعض أو الشئ الذى يبحث عن العلاقات السببية (العلية)، خاصة وأم هذا المطلب يعتبر جوهر المعرفة العلمية وغايتها الأساسية.

كما أننا نلاحظ أن استخدام مفهوم العلم يختلف بالنسبة للإنسان العادى أو الرجل المتخصص، فلسفة أو مفهوم العلم لدى الإنسان العادى، إنما تشير إلى مجموعة النتائج التطبيقية للمعرفة العلمية، وما ينتج عن ذلك من أفكار أو إنتاج سلع أو وسائل مادية تساعد على الراحة والرفاهية فى المجتمع الحديث. هذا بالرغم من أن كثر من وسائل الإنتاج والابتكار، تعتبر نوع من الإبداع أو الفن وليس علم، كما يفهم ذلك الفرد أو الباحث المتخصص. ومن ثم، يمكن أن نقول، أن مفهوم العلم قد يتضمن الكثير من الغموض والخلط والتشوش لدى الإنسان العادى، بالرغم من فهمه وتفسيره بصورة قريبة إلى الواقع و لذا نجد أن كثير من علماء البحث والمناهج، يركزون على وصف مفهوم العلم بصورة أكثر واقعية، وهذا ما سعى إليه "جورج سيمبون" G. Simposn، عندما حاول تحديد مفهوم العلم على أنه " المعرفة التى يتم التحقق منها ويمكن إثبات صحتها ونقلها إلى الآخرين ". والمقصود بكلمة التحقيق هى الوسيلة التى عن طريقها يمكن إثبات صحة التفسير، الذى يقوم بتحليله الباحث أو العالم للمادة العلمية الواقعية.

وربما تترادف تعريفات مفهوم العلم لدى الكثير من علماء المناهج والبحث الاجتماعى بصورة خاصة، وهذا ما أشار إليه كل من "جود و هات" Goode & Hate، حيث سعى إلى تحديد هذا المفهوم بأنه "تراكم للمعرفة المنظمة"^(١)، وذلك فى إطار ما قام بتحليله عموما لاستخدام هذا المفهوم وشيوعه لدى العلماء والمتخصصين إلا أن استخدام مفهوم العلم بهذا الشكل، قد لا يفيد كثيرا عند تحليلنا له بصورة أكثر واقعية وليس مجرد فقط تراكم لأنماط المعرفة العلمية. ولأسيما، إننا نفهم مصطلح أو مفهوم العلم على أنه المدخل أو الطريقة التى يستخدمها فى التعامل مع العالم الواقعى، والذى يعتمد بصورة كبيرة على الخبرة الإنسانية، ويتضح من هذا المفهوم للعلم، بأنه مدخل

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر :

- Goode, w.f P.Hatt. Methods in Social Research. N.Y, 1952

لإكتساب الحقيقة المطلقة، وأسلوب التحليل وينتج عنه استخلاص مجموعة من القضايا التي تفسر الواقع الذي نعيش فيه. وبالطبع، أن تحليلات "جود و هات" السابقة، إكتسبت شهرة كبيرة لدى العلماء والباحثين المتخصصين في مجال البحث والمنهج العلمي، بالرغم من اعتبارنا لأفكاره بأنها ذات طابع كلاسيكي، كما أن هذه التحليلات تؤيد فكرة أو وجهة النظر القائلة، بأن مفهوم العلم تتنازع فكرتان أساسيتان لوصف هذا المفهوم ذاته: الأولى، تؤكد أن العلم تراكم للحقائق والوقائع التي يسعى العلم للتوصل إليها. وهذه الفكرة إستماتيكية، أما الفكرة الثانية، فهي واقعية، حيث لا تنتظر إلى العلم أن يتركز على النتائج الواقعية التي تحصل عليها بصورة عامة.

ما من شك، أننا نؤيد وجهتي النظر السابقتين، لمفهوم العلم أو بصورتيه الإستماتيكية والواقعية في نفس الوقت، وصعوبة فصل كل منهما عن الآخر عند تحليل مفهوم العلم. ولأسيما أن التقدم العلمي ما هو نتاج لتراكم المعرفة وتطور كل من أساليب وأدوات البحث العلمي. وهذا ما يجعل التأكيد على ضرورة تحديد مفهوم العلم، بأنه بناء منظم للمعرفة، حيث يسعى في خطواته الأولى بدراسة المشكلات الواقعية ثم ينتهي في الخطوات النهائية له، في التوصل إلى نتائج مرتبطة بهذا الواقع ومشكلاته أو سعى عموماً للكشف عن الحقيقة التي يسعى الإنسان للتوصل إليها بصورة عامة.

ومن هذا المنطلق، نجد أن مفهوم العلم يستلزم كثير من الجهود لتوضيحه وتفسيره بصورة كبيرة، حتى لا يحدث حوله الكثير من الخلط والغموض في إستخداماته سواء من الأفراد العاديين أو المتخصصين في نفس الوقت. ولأسيما، أن عملية دراسة المعرفة العلمية، تعتبر عملية مزدوجة فهي تسعى أولاً، لوضع مفاهيم نظرية مناسبة لشرح وتفسير المعاني الأساسية التي تقوم عليها، والتي يهتم بها أي علم من العلوم المتخصصة. من ناحية أخرى، يمكن استخدام التجارب والملاحظات الدقيقة، لتوضيح كيفية حدوث الظواهر وتكرارها في الواقع، وكيفية استخدام المفاهيم المجردة، التي تعتبر هي في حد ذاتها لغة العلم وتصوراتها. ومن ثم يمكن القول، بأن أي تعريف مناسب للعلم، لابد وأن يشمل مجموعة الصفات المشتركة بين العلوم، ولكن بالرغم من ذلك ظهرت تعريفات متعددة لنفس هذه العلوم، وهذا ما يجعل كثير من العلماء والمتخصصين في مناهج البحث العلمي، يتفقون بأنه لا يوجد إتفاق عام حول مفهوم العلم.

هذا بالرغم من وجود عدد من المفاهيم الحديثة^(١) التي تشير إلى العلم ذاته، ومن أهمها تعريف "جميس كونانت" J. Conante. بأن العلم هو نتيجة عملية تكوين شبكة متداخلة من المفاهيم ومشروعات المفاهيم الناتجة عن التجارب والملاحظات ولتحقيق المزيد منها، كما سعى "باستير" Pasteur، إلى تحديد العلم على أنه المعرفة المكتسبة من المشاهدات والتجارب والاستدلالات المنظمة، كما حاول "توماس هكسلي" T. Huxley، بتحديد مفهوم العلم بأنه ذلك الإدراك السليم المنظم، أما تعريف "تشارلز سبنجر" C. Spenger، يرى أن العلم، ما هو إلا العملية التي تنتج عنها المعرفة، وعموماً أن هذه التعريفات تسعى لتحديد مفهوم العلم من وجهة نظر علمائها كما أنها ليست متناقضة، فالبعض فيها يركز على طرق وأساليب التوصل إلى المعرفة، والبعض الآخر يركز على المعرفة ذاتها، وجزء منها سعى للتأكيد على الجوانب الاجتماعية والواقعية التي نكتسب فيها المعرفة. وهذا ما يجعلنا نتفق مع العلماء الذين يؤكدون على أن العلم ما هو إلا المعرفة المحققة، أي ذلك النوع من المعرفة التي ثبت التحقق منها، وجدت حولها إتفاق عام. وهذا ما يجعلنا أيضاً نتفق على أن العلم له ثلاث مميزات أو خصائص عامة وهي :

- ١- أن العلم كطريقة يسعى للوصول إلى المعرفة.
 - ٢- أن العلم ما هو إلا تنظيم للمعرفة المكتسبة.
 - ٣- أن العلم ما هو إلا وسيلة لتنظيم جهود العلماء الذين يسعون إلى معرفة الحقيقة، والتوصل إلى جوهر وأصول الأشياء الواقعية.
- ثانياً : وظائف العلم.

عكست التحليلات السابقة عن طبيعة المعرفة العلمية، وماهية العلم ومفهوماته المختلفة، عن طبيعة التنوع في هذه المعرفة والمفاهيم والتصورات المرتبطة بها، وهذا ما يوضح لنا طبيعة الجهود التي تبذل من أجل تحديد المفاهيم، التي تعتبر بمثابة لغة العلم المتخصص، وتنعكس لنا نوعية سعي

١- للمزيد من التفاصيل إلى تعريفات العلم الحديثة أنظر المرجع التالي:

- Copal, H, An Introduction to Rrseurch Procedure in Social Sciencies, Bombai, Asia Publish comp. 1963, p.1.

العلماء المستمر لتطويرها من أجل التوصل إلى لغة علمية متعارف عليها بواسطة المتخصصين في مجال البحث العلمي، وأيضاً يستطيع فهمها بواسطة الأفراد العاديين. ومن هذا المنطلق نستطيع القول، بأن عملية استخلاص تعريف إجرائي للعلم، يوضح على أنه بناء منظم للمعرفة العلمية، الذي يعتمد على استخدام المنهج العلمي السليم، والذي يستند أيضاً إلى مجموعة من القواعد والعمليات، التي تهدف في النهاية إلى استخلاص عدد من النتائج المحددة. على أية حال، نسعى حالياً بعد تحليلنا لمفهوم العلم، أن نشير إلى عدد من الوظائف العامة للعلم، ونوعية المميزات والخصائص التي يتضمنها بالفعل

يركز بعض العلماء على أن وظيفة العلم الرئيسية تتبلور في فهم الواقع الفعلي الذي نعيش فيه، وهذا ما يجعل العلم وهدفه عموماً، تتركز في البحث عن الحقيقة الواقعية. حيث يستطيع العالم، أن يدرك المعاني ويحللها بصورة واضحة، ويتعرف على نوعية العلاقات المتداخلة بين الظواهر المختلفة وجزئيتها، كما يسعى إلى التنسيق بين هذه العلاقات، من أجل التوصل لعدد من النتائج والقوانين المجردة، والتي يمكن تعميمها بصورة تسمح لبلورة نظرية علمية محددة. كما يرى عدد من العلماء المتخصصين في مجالات البحث العلمي الحديث، أن وظيفة العلم الأساسية تهدف إلى إقامة القوانين العامة، التي من شأنها. أن تعزز عملية إكتشاف الأحداث الواقعية والقضايا المرتبطة بها، كما تساعدنا في تفسير هذه الأحداث والمعارف السابقة، التي توجد في الخبرة الإنسانية، حتى يمكن أن نتعرف على مثلثاتها بوضوح في المستقبل أو التنبؤ بها بصورة كبيرة. وهذا بالفعل ما سعت إليه العلوم الطبيعية في العقود الأخيرة من القرن الماضي (العشرين)، وتسعى إليه أيضاً العلوم الإنسانية بالرغم من مجموعة الصعوبات التي لا تزال تواجهها في الواقع عند دراسة المشكلات الاجتماعية المتعددة.

ومن هذا المنطلق، إن سعى علماء الاجتماع وخاصة المتخصصين في مجال البحث الاجتماعي العلمي، يركزون على بلورة مفاهيم هذا العلم (علم الاجتماع) كأحد العلوم الاجتماعية التي تبلورت وظائفها الأساسية في الحياة الاجتماعية اليومية وأصبحت من أهم العلوم المتخصصة، لما لديها من أهداف متعددة، ألا وهي التوصل إلى دراسة الحقيقة الواقعية، ونوعية

المشكلات الاجتماعية التي تزداد بصورة مضطردة وكبيرة. فالعلم الاجتماعي سواء أكان علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو علم النفس أو غيره، يسعى للتوصل إلى الحقيقة مثلهم مثل العلوم الطبيعية الأخرى، التي أَسْتَطَاعَتْ أَنْ تقطع شوطاً كبيراً في مجال البحث عن الحقيقة الخارجية أو الطبيعية. فالعلم، أى كان نوعه علم طبيعى أم اجتماعى، يهدف بالدرجة الأولى، لاكتشاف الحقيقة وتقديم الدلائل والبراهين عليها والتحقق منها بصورة مستمرة. كما يهدف إلى التوصل لعدد من القوانين العلمية المرتبطة بالظواهر والمشكلات والقضايا التي تم معالجتها بالفعل وهذا ما يعكس عموماً مجموعة الوظائف التي يقوم بها العلم الحديث في مجتمعاتنا المعاصرة.

عموماً، إن بلورة مجموعة وظائف العلم لا يمكن فهمها إلا من خلال تحديد أيضاً مجموعة من السمات العامة التي تميز العلم أو المعرفة العلمية ككل، وهي باختصار كما حددها "مارشال والكر" M. Walker في كتابه **طبيعة التفكير العلمى** ⁽¹⁾ كما يلي:

١- العلم واقعى: فالعلم يقوم على دراسة الأشياء الواقعية، ولا يسعى لدراسة الظواهر والحقائق بصورة تأملية فلسفية مجردة، بقدر ما يحاول فهم طبيعة الأشياء والعلاقات والظواهر المتداخلة التي توجد بالفعل في الواقع، هذا ما يجعل خاصية الواقعية من أهم خصائص العلم الحديثة.

٢- العلم يسعى للتوصليل للقضايا: تقوم أى معرف علمية على أساس دراسة الحقائق أو التحقق من صدق أو كذب العلاقات الموجودة بينها. وبالطبع، استفادة جميع العلوم بما فيها علم الاجتماع من علم المنطق، عند صياغة القضايا بصورة واقعية والبعد النسبى من التجريد المنطقى أو التنسيقي، وذلك يهدف معرفة الإتساق الفعلى بين القضايا ومستويات تدرجها وعموميتها وطبيعة احتمالاتها ومراجعتها في الواقع الفعلى.

٣- العلم يسعى إلى التحقق المنطقى، كشف الخاصية السابقة عن مدى استفادة العلم بقواعد المنطق، ولكن يسعى العلم الحديث بنوع من الاستقلالية عن المنطق، بالرغم من أن الأخير أداة معرفية لكل العلوم. حيث يساعد الباحث العلمى لاستخدام القواعد وعملية صياغة الفروض، والمفاهيم،

(1) Walker, M, The Nature of Scientific Thought, N.Y: prentic Hill, 1951.

وبناء النظريات ونشكيلها بصورة تنسم بالقواعد المنطقية.

٤- العلم يتسم بالعمومية، توضح هذه الخاصية، أن المعرفة العلمية تتميز عن غيرها من المعارف الأخرى، بأنها تسعى للتوصل إلى وجود اتفاق عام حولها بواسطة العلماء، وذلك عن طريق النتائج العامة والقوانين والدراسات التي تقوم بإجرائها أو تحقيقها والتأكد منها. كما تعكس عملية خاصية العمومية، بنوعية الطرق والأساليب المنهجية التي يستخدمها العلماء عند البحث عن الحقيقة أو المعرفة العلمية، حتى تصل إلى درجة العمومية، ويتوصل إلى القوانين والنظريات العامة حول الظواهر التي يتم دراستها بالفعل.

٥- العلم يتصف بالطابع الإجرائي، ترتبط هذه الخاصية بحقيقة مجموعة الإجراءات التي يستخدمها العلم والعلماء عند التعرف على الظواهر وإصدار تعريفات حولها بصورة واقعية، دون إصدار تعريفات مسبقة وغير دقيقة.

٦- العلم يتسم بالتجريد، يهدف العلم إلى التوصل لعدد من القضايا كالتى يتم صياغتها بصورة مجردة ومنطقية (عقلانية)، ولاسيما أن هذه القضايا تم التوصل إليها عن طريق الملاحظات المشتركة، التي تهدف جميعاً إلى إصدار مجموعة من القوانين والنظريات العامة (المجردة)^(١).

٧- العلم يهدف للتوصل لحل المشكلات، أن العلم سواء أكان طبيعياً أم اجتماعياً، يركز على المشكلات الفعلية والواقعية، تلك المشكلات التي تصاغ في عدد من التساؤلات أو الفروض، ويهدف العلم إلى تقديم إجابات مقنعة حولها، وذلك عن طريق إتباع أساليب وطرق البحث التي تساعد في تحقيق ذلك.

٨- العلم عملية مستمرة، يتسم العلم والمعرفة العلمية بأنها عملية تراكمية ومستمرة بصورة دائمة، وترتبط بالتراث التاريخي للمعرفة البشرية والدراسات والتجارب والأبحاث السابقة، التي تعزز من خصائص العلم التراكمي، والسعي عموماً للبحث عن الحقائق التي تشغل الإنسان والعقل البشري.

١- محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.

٣- قضايا البحث العلمي.

لا تزال مشكلة البحث العلمي من المشكلات التي يثار حولها الجدل المستمر، ولا سيما أن الإنسان يسعى دائماً لاستخدام العلم أو المنهج العلمي في دراسته الواقع الطبيعي والاجتماعي، الذي يعيش فيه أو يتعامل معه. وسوف يستمر ذلك الجدل، طالما أن الفرد في المجتمع الحديث يحرص كل الحرص على ضرورة تطوير إمكاناته وقدراته في السيطرة على البيئة الخارجية بصورة عامة. كما أن جزء كبيراً من مضمون هذا الجدل المثار حول البحث العلمي، يتمحور حول مشكلات هذا البحث، عندما يوجه لدراسة المشكلات أو القضايا والظواهر الإنسانية، أو بمعنى آخر، بالمشكلات المرتبطة بدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية والظواهر التي تعالجها بالفعل. علاوة على ذلك، أن هذه العلوم لا تزال تواجهها الكثير من الصعوبات والمشاكل المتعددة، عند تحديدها بطرق التفكير والبحث والدراسة والتحليل ما يعرف عموماً بقضايا البحث العلمي للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

وفي الواقع، أن كل هذه الأنواع من المشكلات أو القضايا المرتبطة بالبحث العلمي، لم تظهر خلال السنوات أو العقود الأخيرة التي تعاشينا معها خلال القرن الماضي (العشرين)، بقدر ما نجد أن هناك الكثير من تراث البحث العلمي الذي يكشف النقاب عن مدى حرص كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة، عندما توصلوا بالفعل لمشكلات البحث العلمي، وخاصة الذين ركزوا على دراسة القضايا والمشكلات الاجتماعية والإنسانية. وبالطبع، نجد أن المفكر العربي ابن خلدون، كان أول من حرص على ابتكار أو عرض هذا النوع من المشكلات، عندما يسعى لتجديد منهج علمي متميز، يعتمد على الكثير من القواعد والأدوات والسمات العامة التي تميزه، أو تجعل من دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية ممكناً وهذا ما طرحه على سبيل المثال، عندما حدد كيفية معالجته الأحداث التاريخية وبصورة واقعية وموضوعية. وهذا ما جعل (ابن خلدون)، ينتقد بشدة تساؤلات المؤرخين، عندما سردوا سير الأحداث التاريخية، بعيدة عن الواقع الاجتماعي الذي حدثت فيه وهذا ما سنعالجه لاحقاً.

وفى إطار عرضنا لأهم فصايف البحث العلمى الاجتماعى نتناول عدد منها التى تتسم بالطابع الجدلى بين علماء العلوم الاجتماعية منذ بداية القرن التاسع عشر فى الوقت الحالى بداية القرن الحادى والعشرين:

أولاً: الوضعىة Positivism

تعتبر هذه القضية من القضايا العامة التى تواجه البحث العلمى الاجتماعى منذ انفصلت العلوم الاجتماعية عامة عن العلم الأم (الفلسفة)، وإن كانت جذور هذه القضية ترجع أصولها الأولى إلى تحليلات المفكر العربى "أبن خلدون"، عندما حرص كل الحرص على إبراز أهمية استخدام العلماء والمفكرين والمؤرخين المنهج العلمى فى بحوثهم الاجتماعية، وخاصة عند جمعهم للحقائق والوقائع التاريخية والاجتماعية. وهذا بالفعل ما أكد عليه فى مقدمته الشهيرة، وإشترط على ضرورة أن يقوم الباحث بتناول هذه الوقائع وعرضها كما وقعت بالفعل، ومعرفة كيفية حدوثها، وتقصى أصولها الأولى. كما ركز على ضرورة أن يستخدم الباحث أو المفكر أو المؤرخ حواسه وخبرته الذاتيه فى تمحيص الحقائق وتشخيصها، ونقد الأفكار السابقة عليها وعدم التقيد بها. ولهذا أطلق أبن خلدون، مصطلح التشخيص المادى، أو التشخيص بمواد الوقائع والأحداث التاريخية، عندما حدد أسس وقواعد دراسة العمران البشرى والاجتماع الانسانى. وهذا ما جاء فى تحليلات العمران البشرى، وما يلحق هذا البحث من العوارض والأحوال (الأحداث) واحدة تلو الأخرى.

وعلى أية حال، لقد جاء حرص أبن خلدون، فى تأكيدده على ضرورة أن يقوم الباحثين بتقصى الحقائق والوقائع التى حدثت بالفعل، خاصة وأنه جعل مادة البحث الاجتماعى الدائم، ألا وهى الكائنات الاجتماعية (البشر) ومجموعة الأنشطة والأحداث التى ترتبط بهم فى مجتمعاتهم وبيئتهم التى يعيشون فيها، ومحاولة دراسة الأسباب التى تؤدى إلى حدوث وتكرار هذه الأنشطة والأحداث بصورة مستمرة. ويستطيع الباحث المتخصص فى تاريخ البحث العلمى الاجتماعى، أن يتعرف بوضوح على مدى أنتقاء أفكار أبن خلدون، حول قضايا هذا البحث وغيره من علماء الغرب الذين ظهوروا وبعد أكثر من خمسة قرون من الزمان على الأقل، من أمثال "أوجست كونت" A. Conte عالم الاجتماع الفرنسى، الذى أول من استخدم مصطلح الوضعىة، أو ما يقابل مصطلح التشخيص، عند أبن خلدون. هذا

بالرغم من وضوح هذا المصطلح عند المفكر العربى، ولم يتبلور بصورة تامة فى تحليلات كونت إلا عن طريق غير مباشر، عندما يهتم الباحث أو المتخصص، فى نهج البحث الاجتماعى ويتعرف على حقيقة ما كان يقصده "كونت" حول مصطلح الوضعية، والذى أضفى على علم الاجتماع خاصية أساسية وجعلته من أهم العلوم الاجتماعية فى الوقت الراهن.

وتجدر الإشارة بنا حالياً، إلى تحليل قضية الوضعية وإرتباطها بقضايا البحث العلمى الاجتماعى، كما جاءت فى تحليلات "كونت" السوسيولوجية، ولاسيما أن أفكار كونت الأولى كانت مرتبطة بالفلسفة الوضعية، أو كان يطلق على كتاباته عموماً بهذا المسمى الأخير. ونستطيع أن نستنتج تصورات "كونت" الوضعية، والتحقق منها عندما نهتم بتحليل أفكاره، حول العلاقة المتبادلة بين الإنسان والمجتمع، ودراسة الوقائع والأحداث التى تحدث بالفعل، وطبيعة تكوين الخبرات الذاتية والشخصية لدى الأفراد. وما حددها "كونت" بالتجارب الحسية، التى يمر بها فى مجتمعاتهم، وأعتبرها مصدر من مصادر المعرفة العلمية. وهذا ما تبلور على سبيل المثال، فى إصدار "كونت" قانونه المعروف عن المراحل الثلاث، حيث تحدث عملية التطور التاريخى لأنماط التفكير البشرى والمجتمعى خلال هذه المراحل الثلاث، المرحلة الأولى (اللاهوتية)، وكان التفكير فيها دينياً أسطورياً، ثم المرحلة الثانية (الميتافيزيقية) أى البحث فيما وراء الطبيعة، ثم المرحلة الثالثة (الوضعية). ومن خلال هذه المرحلة الأخيرة، استطاع العقل البشرى أن يستخدم العلم والعقل معاً فى دراسة الأحداث والوقائع الاجتماعية الخارجية، وتفسيرها على أساس من الوضعية وبعيداً عن التفسير الأسطورى أو الغيبى أو الميتافيزيقى، يحرص الإنسان على أن يستخلص حولها مجموعة من القوانين والنظريات العلمية التى تفسر عملية العلاقة الميتافيزيقا بين الإنسان والمجتمع والبيئة الطبيعية التى يعيش فيها.

ثانياً: التجريب Experimentation

تعد هذه القضية من القضايا التى تواجه البحث العلمى الاجتماعى ولاسيما بعد أن قطعت العلوم الطبيعية مرحلة كبيرة فى مجال التجريب أو استخدام التجربة والملاحظة المباشرة فى دراسة الظواهر والأحداث التى

تحدث في البيئة الطبيعية الخارجية. أما العلوم الاجتماعية التي تسعى منذ بدايات القرن الماضي، فلقد حققت مكانة هامة في مجال استخدام التجربة والملاحظة، ولاسيما بعد تطور عدد من هذه العلوم وخاصة علم الاجتماع والنفس، وتأكيدهما على ضرورة استخدام خطوات المنهج العلمي الحديث، بعد أن تأثروا بأفكار عدد من المفكرين الفلاسفة، الذين ظهروا بعد مرحلة عصر التنوير، أو مرحلة العصر الحديث مثل آراء "قرانيسيس بيكون"، وخطوات المنهج العلمي. كما جاءت آراء هؤلاء العلماء كغيرهم على كيفية اعتماد الباحث على الخبرة التجريبية، وما يطلق عليها غالباً بمفهوم الاختبارية أو الحسية التي تعتمد على مداخل معايشة الباحث للواقع ومشاهدتها، أو ملاحظتها بصورة حسية وواقعية^(١).

وبالطبع، تعد هذه القضية (التجريب) من القضايا التي شغلت إهتمام الكثير من المتخصصين في فروع علم الاجتماع والنفس مثل علم الاجتماع الصناعي، وعلم النفس الصناعي، وغيرهما زاد تخدامها للمصانع والشركات والسجون وغيرها وربط تجاربهم على طبيعة الإنسان الاجتماعية والنفسية والعقلية وما يطلق عليها عموماً بالبيئة الاجتماعية للإنسان. فلقد جاءت تجارب علماء الاجتماع الصناعي من أمثال "تايلور" Tylor، و"فايول" Fayol، والتي أجريت في الولايات المتحدة وخصائصها الكبرى مثل ويسترن اليكتريك وما يعرف عموماً تجارب "هاورثون"، وغيرها من استخدام التجربة والملاحظة، التي اعتمد عليها العلماء في دراسة مشكلات الحياة الصناعية الحيوية وبلورت حولها نظريات وقوانين معروفة لا تزال لها أهميتها العلمية حتى الوقت الحاضر مثل نظريات الإدارة العلمية، ونظريات العلاقات الإنسانية. في نفس الوقت، اعتمد الباحثين وعلماء النفس على التجربة والملاحظة ودراسة سلوك الإنسان والحيوان وكيفية تطوير مستويات الذكاء والنضج العقلي والتقليد والمحاكاة وغيرها^(٢). وبالرغم من تطور العلوم

(١) توجد تحليلات كثيرة حول مفهوم التجريب والتجربة والفصل بينهما، أنظر ما كتب في

الفصل الخامس حول المنهج التجريبي.

(٢) نظراً لأهمية هذه التجارب سنشير إليها بصورة أكثر تحليلاً في الفصل الخامس من هذا

الكتاب.

الاجتماعية وإستخدامها للتجريب والملاحظة المباشرة، إلا أن ذلك لا يزال يعتبر قضية أساسية من قضايا البحث العلمى الاجتماعى، ولا سيما أن هناك الكثير من القيود والحدود، التى لا تزال تواجه عمليات هذا البحث، وتغوق كثير من عمليات التوصل إلى نتائج إيجابية أو إصدار تعميمات وقوانين ونظريات شاملة، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وتكمن هذه الصعوبة أو القضية فى مجال البحث العلمى، نظراً لطبيعة دراسة هذه الظواهر والسلوك الاجتماعى، ومشكلات الإنسان التى تزداد تعقيداً بمرور الوقت. فالظواهر الاجتماعية ظواهر معقدة مركبة ومتداخلة العوامل والأسباب فى نفس الوقت، وهذا ما جعلها صعبة الدراسة والتحليل مقارنة بالظواهر الطبيعية الأخرى، التى من السهل أيضاً إخضاعها إلى التجريب والملاحظة العملية ويربط بين المشاهدات وتكرار حدوثها بصورة منتظمة مثل مظاهر سقوط الأمطار، وتمدد الحرارة وكسوف وخسوف الشمس والقمر، وغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى. أما المشكلات الاجتماعية مثل الجريمة والانحراف، والفقر، وغيرها يصعب إخضاعها للبحث العلمى التجريبى.

ثالثاً: الموضوعية Objectivism.

ترتبط قضية الموضوعية بالعديد من القضايا الأخرى التى تواجه الباحثين فى مجال العلوم الاجتماعية، كما تعد هذه القضية من القضايا التى أعاق كثير من تقدم هذه العلوم وتطورها والتى تهدف للتطوير أسوة بالعلوم الطبيعية. ولقد كانت ولا تزال هذه القضية موضع إهتمام المتخصصين فى هذه العلوم ومنها بالطبع علماء علم الاجتماع. فلقد أشار "دور كايم" منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى أن مهمة علم الاجتماع ومعالجته لدراسة الظواهر الاجتماعية، يجب أن يلتزم بالموضوعية، والحياد العلمى، وينظر إلى الظواهر باعتبارها حقائق As Facts. وهذا أيضاً ما أشار إليه "ماكس فيبر"، فى معالجته لقواعد المنهج العلمى، ومقولة الفهم الإنسانى، وكيفية التزام الباحث من الناحية العلمية والأخلاقية بقواعد هذا المنهج بصورة عامة.

وبالطبع، أرتبطت قضية الموضوعية، بقضايا التجريب، والوضعية، التى أشار إليها "أوجست كونت" فى إطار تصوراتهِ عن الفلسفة الوضعية، التى بنى عليها أفكاره الأولى فى نشأة علم الاجتماع وضرورة إستخدام العقل الإنسانى وخطوات التحليل العلمى، الذى يفسر به كل من المعطيات والظواهر

و الشواهد العقلية من ناحية، والحسية او المعرفية والواقعية من ناحية أخرى. وهذا ما أراد به كونت عندما ميز بين التفكير البدائي او الغيبي او الميتافيزيقي (الانتقالي)، ثم التفكير العلمى الذى يجب أن يلتزم بالموضوعية التامة. فدراسة الظواهر الطبيعية مثل الزلازل، والبراكين، والثورات السياسية وغيرها من الأحداث الطبيعية والبشرية يجب فهمها وتفسيرها بصورة موضوعية وعقلانية.

كما يقصد بالموضوعية^(١)، هى النظرة العلمية التى تستند على الشواهد، والتجربة، والمبادئ العلمية، التى تستبعد الأهواء الذاتية Subjective، والتى تقوم على الفروض العلمية، وتستند إلى التحقيق Verification، وتخضع إلى استخدام التجارب العلمية عند الحكم على الظواهر والشواهد والأحداث الخارجية. ومن ثم، إن مرحلة العلم الوضعى، تعكس أعلى مراحل الالتزام بالموضوعية، لما يشمل هذا العلم من قضايا وقوانين تم التحقق منها، وإستاده إلى الملاحظات والشواهد الامبريقية Empirical Observation، كما يسعى للتوصل إلى قوانين عامة إلى درجة التعميم Generalization.

رابعاً : التعميم Generalization.

من أهداف البحث العلمى أن يصل إلى تعميمات عامة، يمكن أن تطور بعد ذلك لتصبح نظريات علمية محددة بعد أن يتفق حولها العلماء والباحثين المهتمين بطبيعة ظاهرة أو مجال علمى معين. ولكن لا يمكن أن تأتى هذه التعميمات إلا بعد محاولة الباحثين دراسة الظواهر أو الأشياء التى يسعون إلى تفسيرها بصورة علمية محددة. وأن يتوصلوا إلى قوانين محددة حسب هذه الظواهر، ولذا يطلق على جملة القوانين التى يتفق حولها العلماء والباحثين، وإستنباطها بصورة محددة، بعد ذلك بالقوانين العامة أو التعميمات.

ومن ثم، فمن أهم أهداف البحث العلمى استنباط القوانين العامة، التى يمكن الحكم بها على الاشياء أو الظواهر قيد البحث أو الدراسة. فالباحث أو

(١) إرجع إلى: حسن السعائى، تصميم البحوث الاجتماعية، بيروت، دار النهضة،

العالم المتخصص فى مجال معين لا يسعى فقط إلى وصف هذا المجال أو الظاهرة قيد البحث والدراسة، بل يسعى فى النهاية إلى التوصل لإكتشاف القانون العام الذى يحكم هذه الظاهرة أو الظواهر وتحليلها بصورة علمية. فإجراء تجارب عن الحرارة أو التمدد للمعادن، أو إنكماشها نتيجة للبرودة أو التجمد ينتج . نها قوانين معينة، نطلق عليها بقوانين الحرارة أو البرودة. وهذا ما ينطبق أيضاً على قوانين عامة تم وصولها إلى درجة التعميم مثل قوانين الجاذبية، والطفو وغيرها من القوانين الأخرى التى تحدد وتفسر ما وراء العالم الطبيعى الخارجى.

إلا أن مرحلة التعميم التى وصلت إليها العلوم الطبيعية لم تحققها بعد العلوم الاجتماعية، التى تدرس ظواهر اجتماعية وسلوكية وإنسانية بالغة التعقيد والصعوبة. فعلماء الفلك والفيزياء توصلوا إلى قوانين وتعميمات عامة ومحددة، نظراً لطبيعة الظاهرة التى يخضعونها قيد البحث والملاحظة، والتجريب والقياس الدقيق. أما علماء العلوم الاجتماعية، من الصعب توصلهم لتعميمات أو قوانين عامة حول الجريمة أو الفقر وتطبيقها على كافة المجتمعات وعلى مختلف العصور والأزمنة. فلا يوجد شئ حتمى ومحدد حول طبيعة المشكلات والظواهر الاجتماعية، لا يمكن فهمها إلا فى سياقات ثقافية وتاريخية واجتماعية معينة، حيث تختلف من مجتمع لآخر، أو داخل المجتمع ذاته فى نفس الوقت. وهذا ما يجعل عموماً صعوبات متعددة حول التعميم عند دراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما يعتبر فى حد ذاته أحد أحد مشكلات وقضايا البحث العلمى.

٤- القوانين والنظريات العلمية.

تهدف العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء إلى ضرورة الوصول إلى قوانين عامة، يمكن الاعتماد عليها فى وضع نظريات علمية يتفق عليها جميع أو معظم المشتغلين والمتخصصين بهذه العلوم. ولكن هذا الهدف لا يمكن أن تحرزه إلا بعد إتباع الكثير من خطوات المنهج العلمى، الذى يسهم فى تحليل الظواهر والمشكلات الجزئية والكلية، والتى يهتم بها العلماء والمتخصصون فى مجالات دراساتهم وأبحاثهم. وهذا ما سنشير إليه بصورة أكثر تفصيلاً فى عرضنا لطبيعة مناهج البحث العلمى، وعلاقة هذه

المناهج بدراسة كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت. على أية حال، نركز حالياً على تحليل أهم خصائص وأنواع وتعريفات القوانين وطبيعة النظريات العلمية، وما المقصود بها وشروطها وخصائصها وفائدتها عموماً في مجال العلم أو تطور الحياة العلمية والعملية بصورة عامة.

(١) القوانين.

أولاً : تعريف القوانين وأنواعها.

اهتم علماء الاجتماع والمتخصصون في مجال البحث الاجتماعي عموماً بمحاولتهم لوضع تعريف محدد للقوانين، إلا أن تلك الاهتمامات قد تباينت فيما بينها حول تحديد ماهية القوانين؟. ولكن هذا التباين لا يختلف من حيث الجوهر ولكن فقط من حيث الشكل العام، الذي يمكن أن تصاغ منه القوانين. ويتفق الكثير من العلماء على وجود تعريف موجز للقانون وهو: " علاقة ضرورية تقوم بين ظاهرتين أو أكثر "، ويعكس هذا التعريف الموجز أو المختصر جداً، طبيعة القوانين ووظائفها، حيث يتضح لنا من هذا التعريف، أن القوانين العلمية نوعان هما القوانين السببية والقوانين الوظيفية. ويمكن أن نوضح بصورة مختصرة التمييز بين هذين النوعين من القوانين كما يلي:

(أ) القوانين السببية: وهو ذلك النوع من القوانين الذي يعبر عن كل علاقة ثابتة بين ظاهرتين، يؤدي التغير الذي يطرأ على خواص إحداها إلى تغير خواص الظاهرة الأخرى.

وبالطبع، لا يمكن الإغتراف بهذه القوانين أو التحقق منها، إلا بعد أن يقوم الباحث بالكشف والدراسة والتفريق اللازم حول وجود العلاقة السببية، التي تفسر العلاقة بين الظاهرتين أو مجموعة الظواهر، التي تدخل كل منهما في علاقة مع الأخرى. وربما تجئ تحليلات "جون ستيورت ميل" J. S. Mill^(١)، وتعريفه المختصر عن السبب، بأنه " ظاهرة أو مجموعة من الظواهر التي تلزم عنها ضرورة ظواهر أخرى، تكون بمثابة نتيجة لها" ومن ثم، يكشف لنا هذا التعريف السابق عن (السبب)، وأن الظاهرة الأولى

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

Mill, j,s, A system of Logic, London: Longman group. 1970.

تكون الظاهرة القوية أو الموجبة التي تحدث تأثيراً في الظاهرة الأخرى، كما تكون (الظاهرة الأخرى) تابعة أو نتيجة لحدوث الظاهرة الأولى، التي تعتبر بمثابة السبب الأول أو المحرك لها. وهذا ما يظهر في الأمثلة التالية، فالحرارة تعتبر السبب الأول، الذي يؤدي إلى تمدد الأجسام الصلبة مثل (المعادن)، أو أن البردوه، هي التي تؤدي إلى إنكماش أو تقلص حجم وأبعاد هذه الأجسام في نفس الوقت، وهذا ما ينطبق أيضاً على الكثير من القوانين السببية الأخرى مثل قوانين الجاذبية وغيرها.

(ب) القوانين الوظيفية: يقصد بهذا النوع من القوانين التي تفسر العلاقة بين الظواهر، دون أن تكون هناك علاقات سببية لحدوث الظاهرة الثانية. ولكن علاقة وظيفية بينهما، حيث تتواجد وتترابط عملية حدوث الظاهرتين في وقت واحد. كما أن عملية التغيير النسبي الذي يحدث بين كل منهما يعد شرطاً ضرورياً ووظيفياً في حدوث أو وجود الأخرى. ولكن من الصعب أيضاً، أن نحدد بأن أحد الظاهرتين، يكون سبباً أو مقدمة للحدث، والثانية تابعاً أو نتيجة لوجود الظاهرة الأولى.

وهذا ما يمكن تفسيره بعرض أحد القوانين الوظيفية مثل دراسة قانون الضغط الجوي، فإذا حاولنا قياس الضغط الجوي، فلا بد وأن نشاهد العلاقة الوظيفية بين الضغط وبين إرتفاع الزئبق في مقياس الضغط (البارومتر) أو إنخفاضه في نفس الوقت. أو بكلمات أخرى، أن كل إرتفاع أو إنخفاض في الضغط يصحبه، حتماً إرتفاع أو إنخفاض في مقياس الضغط ذاته، الذي يعتبر مؤشراً لإنخفاض أو إرتفاع الضغط الجوي.

وبالرغم من عملية التصنيف بين أنواع القوانين، وتصنيفها إلى قوانين سببية وأخرى وظيفية، لم تلق إهتماماً كبيراً لدى الكثير من علماء المناهج والمفسرين للعلوم الاجتماعية. خاصة، وأن طبيعة الظاهرة الاجتماعية أو الإنسانية معقدة للغاية، ولا يمكن أن يفسر حدوثها إلى عامل سببي واحد، مثل الحرارة والبرودة أو قوانين النمو والإنكماش، كما يحدث عند دراستنا في العلوم الطبيعية. ولا سيما أن الظواهر الاجتماعية معقدة الأسباب وينتج عن تفسيرها الكثير من العلاقات المتداخلة. فلا يمكن على سبيل المثال، أن تفسر ظاهرة الإنحراف والجريمة، أو الطلاق مثلاً إلى سبب واحد فقط، ولكن هناك

العديد من الأسباب البيئية الأسرية، والشخصية (التنشئة الاجتماعية)، والتشريعية القانونية، والأخلاقية، والدينية، التي تلعب دوراً أساسياً في تفسير هذه المشكلات. هذا بالإضافة إلى إختلاف الظواهر ومعدلاتها بالنسبة للمجتمع الواحد، وايضاً بالنسبة لحدوثها في فترات تاريخية وساسية معينة.

ثانياً: خصائص القوانين وأهميتها:

(أ) خصائص القوانين:

أوضحت التحليلات السابقة عن تعريف القوانين وأنوعها وتميزها بصورة عامة مدى أقتناع العلماء و الباحثين وخاصة في العلوم الإنسانية، بل أن القوانين الوظيفية، تعد أفضل بكثير من القوانين السببية، نظراً لأن القوانين الأخرى تؤكد على وجود السبب بين الظواهر وحدثها وتكرارها. أما القوانين الوظيفية، التي تؤكد على أهمية وجود علاقة وظيفية بين حدوث ظاهرة أخرى، كانت محل تأثير من جانب العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت. فالقوانين العلمية (الطبيعية) لم تعد تبحث عن علل الظواهر (أسبابها)، بقدر ما تهتم بدراسة نظم العلاقات أوتتلائم عند حدوثها أو تكرارها عاملة. وبعد هذه الإشارة السوجزة لأنواع القوانين، هناك أيضاً عدد من الخصائص العامة التي تعكس طبيعة أنواع القوانين العلمية وإستخدامها بواسطة الباحثين، وهي كما يلي^(١):

- ١- القوانين العلمية غير مطلقة (محددة)، فالقوانين العلمية لايمكن أن تحدد لها عناصر الزمان والمكان، لأن هذه القوانين وخاصة قوانين العلوم الإجتماعية نسبية، وترتبط غالباً بطبيعة المجتمعات وزمانها وحدودها الجغرافية. فقوانين الجريمة، التي تطبق في مجتمع معين، قد لا تطبق ذاتها في مجتمع آخر، أو نفس المجتمع في فترة زمنية أخرى.
- ٢- القوانين العلمية تقريبية، تتركز مهمة البحث العلمي والمتخصصين في مجالاته عامة حول إكتشاف قوانين ترتبط بنوعية الظواهر أو المشكلات التي يدرسونها فقط. كما يمكن أن يتسع نطاق مجالات البحث العلمي والباحثين إهتماماتهم. ومن ثم، فقد يتوصلون إلى قوانين مغايرة، أو معدله

١- أنظر المرجع التالي: عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق.

للقوانين التى تم إصدارها من قبل حتى تصبح أكثر دقة وتحديدا. وهذا ما ظهر بوضوح فى قوانين الطيران والنسبية، والضوء، والطفو وغيرها من القوانين العلمية المختلفة. هذا بالإضافة، إلى أن عدم دقة القوانين العلمية، تعكس بصورة عامة، نوعية التجارب، والملاحظات والمشاهدات، التى يقوم بها الباحثين عند إجراء دراساتهم على فترات تاريخية قد تستمر سنوات أو عقود من الزمان. كما أن مقاييس إجراء هذه التجارب والدراسات تتغير بصورة سريعة ومضطردة. وهذا ما يجعل الكثير من العلماء يؤكدون على مقولة (برتراند راسيل) بأنه لا يوجد علم دقيق تماماً، مثلما لا توجد الحقيقة أو الدقة الكاملة أو التامة.

٣- القوانين العلمية متغيرة، يقصد بذلك الخاصية، أن القوانين تتغير بمرور الوقت ويتم تعديلها باستمرار. ولكن ذلك لاينفى على الإطلاق، أن العلم والعلماء يستخدمون قوانينهم العلمية التى مر عليها الزمن بصورة مطلقة. نظراً لأن العلم وقوانين الحصول على المعرفة العلمية والإحتفاظ بها يعكس طبيعة أن العلم والقوانين العلمية تراكمية. ومن ثم، فليس من السهل، أن تستبعد كل جوانب المعرفة أو القوانين العلمية، لأن جزء كبير منها يستمر بصورة كبيرة.

(ب) أهمية القوانين:

ما من شك، أن للقوانين العلمية أهمية لأنها تساعد الباحثين للكشف عن الحقيقة ودراسة ومعرفة الظواهر الخارجية التى تحدث فى البيئة الاجتماعية والطبيعية فى نفس الوقت. ويمكن أن نوجز أهمية القوانين كما يلى:

١- تيسر لنا القوانين ضم عدد كبير من الحقائق فى صيغة واحدة، وتحقيق نوع من الإستثمار الفكرى والمعرفى.

٢- تساعد القوانين الإنسان فى فهم وتفسير الحقائق، التى لا يستطيع العقل البشرى تفسيرها فى وقت محدد من الزمان، كما تساعد فى الكشف عن العلاقات المتداخلة بين حدوث الظواهر أو تكرارها.

٣- تساعد القوانين على التنبؤ بحدوث الظواهر فى أوقات محددة مثل العلوم الطبيعية، وأيضاً بصورة تقريبية فى العلوم الاجتماعية.

٤- ساعدت القوانين الإنسان كثيراً على السيطرة على البيئة الطبيعية، وإيضاً الاجتماعية المعقدة.

٥- تساعد القوانين الإنسان في التخطيط المستقبلي ومواجهة المشكلات الطبيعية والاجتماعية، التي قد تكلف الكثير في حالة وقوعها بصورة فجائية.

(٢) النظريات العلمية.

أولاً : تعريف النظرية وخصائصها:

١- تعريف النظرية:

تعددت تعريفات النظرية العلمية، ولا سيما بعد أن تنوعت إهتمامات العلماء والباحثين وطبيعة مجالات دراساتهم وتخصصاتهم التي تنتوع بدورها بصورة مستمرة. إلا أن هذا التنوع لم ينفي أهمية وجود نظرية علمية، يتفق حولها العلماء كل في مجال تخصصه. كما أن هذا الإتفاق قد شمل أيضاً علماء العلوم الاجتماعية والطبيعية الذين أكدوا جميعهم على أهمية وجود نظرية علمية، وإعتبارها أهم أركان العلم أو البحث العلمي، وهذا ما ظهر على سبيل المثال، في التمييز بين العلم والفن. فالعلم تحدده موجهات نظرية وعلمية محددة، أما الفن، فلايقوم إطلاقاً على أساس محور نظري يتفق حوله العلماء، بقدر ما يكون مصدره الإلهام والإبداع والرؤى الشخصية وغير ذلك من أشياء أخرى تحكم الفن عامة.

وتجئ إهتمامات بعض علماء الإجتماع المعاصرين من أمثال "نيقولا تيماشيف" N.Timashef الذي يعرف لنا النظرية في كتابه المميز عن النظرية السوسيولوجية Sociologic Theory " بأنها مجموعة من القضايا تتوافر فيها شروط متعددة من أهمها: أن تكون القضايا مستندة إلى أفكار محددة تماماً، وأن تكون القضايا متسقة الواحدة مع الأخرى وأن تكون على صورة يمكن أن تستمد منها تعميمات، بإتباع الأسلوب الإستقرائي، وأن تكون القضايا المكونة للنظرية ذات فائدة، بحيث يمكن أن تعود الباحثين إلى مزيد من الملاحظات والتعميمات لتوسيع نطاق المعرفة^(١) ويتضح لنا من هذا التعريف السابق، أن تيماشيف حاول أن يعرف النظرية (العلمية) السوسيولوجية، من خلال تأكيده أيضاً على مجموعة معينة من الشروط التي يجب توافرها في

(1) N.Timasheff, Sociological Theory, N.Y: 1955, P.9.

هذه النظرية، ولا سيما أن النظرية باعتبارها تركيب عقلي Mental Construction، يقوم بها الباحث أو العالم المتخصص، ويكون لديه نظرية شمولية لجمع المعارف والحقائق الجزئية، والتنسيق بين أنماط المعرفة المختلفة، ومن أجل ذلك تعتبر النظرية أعلى مستويات المعرفة العلمية.

وحسب وجهة نظرنا، أن تيماشيف بإعتباره من أحد المنظرين السوسيولوجين لا تختلف آرائه عن آراء العديد من علماء الاجتماع الكلاسيكين أو المعاصرين، من أمثال "جود وهات" Goode & Hatt، حيث سعيًا في كتابهما عن مناهج البحث الاجتماعي Methods in Social Research⁽¹⁾، أن يعرفا النظرية بأنها "عبارة عن إطار فكري (تصورى) يفسر مجموعة من الحقائق العلمية، ووضعها في نسق علمي مترابط" يؤكد على ذلك التعريف أيضاً "أرنولد روس" A. Ross، حيث يوضح في كتابه المميز عن النظرية والمنهج في العلوم الاجتماعية، تعريف النظرية "أنها بناء متكامل، يضم مجموعة من التعريفات، والإفتراسات والقضايا العامة التي تتعلق بظاهرة معينة، بحيث يمكن أن يستنبط منها منطقياً مجموعة من الفروض القابلة للاختبار"⁽²⁾. كما حاول "كابلان" Kaplan، أن يوضح العلاقة بين القوانين والنظرية، مشيراً إلى تعريف محدد للنظرية بأنه "بناء فرضي رمزي، يتضمن مجموعة من القوانين المتسقة منطقياً، فكل قانون يستنتج مباشرة من القانون السابق عليه، والقانون يفسر الواقعة عن طريق ربطها بالواقع"⁽³⁾.

وهكذا يشير التعريف الأخير، إلى أن العلاقة بين القائد والنظرية علاقة متداخلة، فالقانون أو مجموعة القوانين المتسقة منطقياً هي التي تكون النظرية، كما أن النظرية ما هي إلا مجموعة من القوانين التي تم إستنتاجها عند دراسة الواقع أو الظواهر المدروسة التي وضعت قيد الدراسة والتحليل

(1) Goode W. & P.Hatt, Methods in Social Research , 1952, p.56.

(2) Ross, A, Theory and Method in Social Sciences: Minnesota, The Univ. Press, 1954, p.3.

(3) Kaplan. A, The Conduct of Inquiry. California: Chadiapub. Comp., 1954, p.292.

والإختبار. وهذا ما يعكس لنا عموماً، طبيعة العلاقة بين النظرية والواقع الذى يهتم بدراسته وتحليله، وخاصة أن النظرية، ماهى إلا أداة يتم تحقيق العلم بواسطتها، وهى بمثابة الغاية التى يسعى كل باحث علمى إلى تحقيقه.

(ب) خصائص النظرية:

كشفت التعريفات السابقة للنظرية، مدى تعدد هذه التعريفات كما أشرنا إلى ذلك سلفاً، كما أن للنظريات عدد من الخصائص الهامة التى تسعى لتحديدتها بصورة موجزة كما يلى:

(١) النظرية والقوانين العلمية نسبية وتقريبية. حاولنا فى التعريفات السابقة أن نشير إلى أن القوانين العلمية تكون محددة ودقيقة، إلا أنها جاءت بصورة تراكمية ونسبية. وهذا ما ينطبق أيضاً على النظريات العلمية حيث تخضع النظريات العلمية للتعديل، والتغير المستمر حيث لا يوجد نظرية علمية يطلق عليها بأنها نظرية عامة أو مطلقة.

(٢) النظرية العلمية ماهى إلا فرض عام تم التحقق منه. لا يمكن قبول النظرية العلمية على أنها حقيقة يسلم بها بصورة مستمرة، بقدر ما تعتبر النظرية موجه عام يسعى الباحث أو العالم للتحقق منها، فهى بمثابة فرض علمى تم التحقق منه بواسطة جمع كبير من العلماء الباحثين، وذلك عن طريق العديد من الوسائل التى يستخدمها العلماء فى التحقق من فروضهم وتحليلاتهم.

(٣) النظرية العلمية تشمل عدد كبير من القوانين المفسرة للظواهر. ولا يمكن أن يطلق مصطلح النظرية، إلا بعد تأكد العلماء بأنها (النظرية) ثم دراستها وتحليلها وإخضاعها للتجربة، ولذا، كما أشرنا سابقاً، أن النظرية تخضع دائماً للتعديل والتطور، لأنها ترتبط بالمعرفة والحقائق، التى يسعى الإنسان لجمعها ودراستها. وبما أن الحقائق والمعرفة الإنسانية متغيرة، فلا بد أن تتسم النظرية بنفس هذه الخاصية^(١).

(١) يمكن الرجوع للمزيد من التفاصيل حول النظرية إلى :

- عبدالله محمد عبد الرحمن، النظرية السوسولوجية (الكلاسيكية) (الجزء الأول)،

الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.

ثانياً: وظائف النظرية.

بعد الإشارة الموجزة، لأهم تعريفات النظرية وخصائصها العامة، نحاول فيما يلي أن نشير إلى أهم وظائف النظرية:

(١) تعتبر النظرية أداة للتوجيه العلمى والبحث: يتفق العلماء والباحثين على مهمة النظرية فى توجيهها لهم خلال دراساتهم وتحليلهم للظواهر والمشكلات التى يقومون بدراستها بصورة مستفيضة. كما تساعد النظرية فى تحديد أنواع الحقائق التى ينبغى أن يستخدمها الباحث فى ميدان دراسته. ولذا، يرى معظم العلماء، أن بدون النظرية سوف تتداخل ميادين ومجالات البحث. ولذا، فهى تساعد على تصنيف البيانات والشواهد التى يتم جمعها من الواقع. علاوة على ذلك، فإن للنظرية وظيفة أخرى، تتبلور فى إنتقاء الحقائق التى يتم جمعها من الواقع ذاته.

(٢) تقوم النظرية بصياغة المفاهيم والمصطلحات العلمية: لكل علم من العلوم مفاهيمه Concepts، أو مصطلحاته الفنية التى يستخدمها، وتعتبر هذه المفاهيم، أهم خصائص هذا العلم وتفرده عن العلوم الأخرى، حتى ولو كانت هذه العلوم تنتمى لمجالات عامة ومشاركة مثل العلوم الطبيعية أو الاجتماعية. فعالم الطب، أو الفلك، أو الكيمياء لكل منهم مفاهيمه، ومصطلحاته الخاصة بعلمه ومجاله. وهذا ما ينطبق أيضاً على مجالات العلوم الاجتماعية. فعالم الاجتماع لديه مفاهيم ومصطلحات لا تطابق تماماً ما يستخدمه علماء النفس أو التاريخ، أو الأنثروبولوجية، أو الجغرافيا وهكذا. ولكن الذى يحدد لغة المفاهيم المتخصصة، هى النظرية العلمية التى يستخدمها العلماء والباحثين فى مجالات دراساتهم وتحليلاتهم.

فى نفس الوقت، نجد أن العلم الواحد مثل علم الاجتماع، لديه نظريات مختلفة ومتباينة، ولكل مجموعة من العلماء الذين يتبنون هذه النظريات مفاهيم مختلفة يميزهم عن غيرهم. مثال ذلك، علماء النظرية الماركسية لديهم مصطلحات ومفاهيم مختلفة، عن علماء النظرية البنائية الوظيفية أيضاً. كما أن عملية تطور النظريات ترتبط بأنماط معينة من المفاهيم والمصطلحات، فهناك تمايز فى المفاهيم التى تستخدمها النظرية البنائية المحدثه، أو الماركسية المحدثه، عن هاتين النظريتين فى مرحلتيهما التقليدية أو الكلاسيكية.

(٣) تقوم النظرية بتلخيص الكثير من الحقائق العلمية ومعرفة العلاقات فيما بينها: حيث تقوم النظرية بجمع الحقائق التفصيلية التي ترتبط بظاهرة أو مشكلة أو مجال معين، نظراً لشعب هذه المعارف التي ترتبط بكل منها. فمهمة النظرية أنها تساعد على تجميع البيانات والحقائق وتصنيفها، حتى يسهل الرجوع إليها أو تحليلها. ها بالإضافة إلى أن النظرية العلمية، تقوم بتحليل العلاقات المتداخلة بين الحقائق أو المعارف أو البيانات، التي يتم الحصول عليها، حتى يتمكن الباحث أن يبرهن على ذلك بصورة علمية ومميزة.

(٤) تكشف النظرية عن مدى القصور في المعارف العلمية: إن مهمة النظرية تتركز في تضمينها للحقائق العلمية ولاسيما، ذلك النوع من الحقائق التي لم تبحث من قبل. كما تهدف النظرية في إطار وظائفها العامة ودورها في خدمة العلم، أنها تخضع كل المعارف للبحث والتحقق منها ومعرفة العلاقات المتداخلة فيما بينها. كما تهدف أيضاً، إلى استبعاد المعارف العلمية التي يتم تعديلها. أو بمعنى آخر تقوم بتبني الحقائق المعرفية الجديدة، ولاسيما، أن المعارف الجديدة تساعد العلم والعلماء على فتح مجالات جديدة للبحث والدراسة. كما تساعد العلماء في طرح فروض علمية جديدة، يجب أن تخضع للدراسة والتحليل والتجريب العملي، حتى يتم التحقق منها وتسهم في بلورة قوانين جديدة، والتي تعزز بدورها أيضاً المكونات العامة للنظرية العلمية، أي كان مجال تخصصها الدقيق.

(٥) تساعد النظرية على التنبؤ العلمي: إن النظرية ووظائفها المتعددة تبرهن على دورها وأهميتها في عملية التنبؤ، وتساعد العلماء والباحثين بتوقع حدوث الظواهر والمشكلات، والتخطيط لها مسبقاً بصورة علمية. وبالطبع، إن عملية التنبؤ الناتج عن تطور النظريات، لاتأتي من فراغ، بقدر ما تنتج من إتاحة الفرصة أمام الباحثين للتعرف على الظواهر أو المشكلات المدروسة ومعرفة اتجاهاتها وعلاقاتها السببية أو أسباب حدوثها وتكرارها، وتوقع ذلك الحدث أو التكرار في فترات زمنية، وأماكن جغرافية أو أيكولوجية محددة. علاوة على ذلك، أن تطور النظرية بصورة عامة، طور أيضاً من مهامها الوظيفية في التنبؤ بما يحدث في الواقع بصورة مسبقة وهذا ما يعزز عموماً من دور النظرية أو الاستفادة من النظريات العلمية.

على أية حال، إن تحليل وظائف النظرية قد يطول ويحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل، أو تصنيف هذه الوظائف بصورة أكثر ولكننا نهدف حالياً لإعطاء القارئ صورة مبسطة لأهم الوظائف العامة للنظرية. وهذا ما يجعلنا أن نلخص هذه الوظائف في إطار تحديد الأدوار الرئيسية التي تقوم بها النظريات في تطور العلم الحديث، ومن أهم هذه الأدوار مايلي:

١- تقوم النظرية بتحديد مجالات البحث العلمي أمام الباحثين وتوجههم لإختيار المعلومات والحقائق والظواهر التي يجب دراستها وتحليلها.

٢- تقدم النظرية، الإطار التصوري العام الذي يصنف به المعلومات والحقائق كما ينتج عند دراسة الظواهر ومعرفة العلاقات المتدخلة بينها.

٣- تقوم النظرية بتلخيص الوقائع ووضعها في صورة من التعميمات، في نسق منطقي مميز.

٤- تعتبر النظرية بمثابة (الأداة) التي عن طريقها يستطيع العلم والباحثين، بالتنبؤ المستقبلي حول العديد من الظواهر والمشكلات أو الظواهر التي توجد في الواقع الخارجي.

٥- تقوم النظرية بتحديد الثغرات أو ما يسمى بالثغرات العلمية، أو مواضع النقص العلمي الذي يوجد في المعرفة الإنسانية.

٦- تساعد النظرية في مجال التطبيق العلمي وتعزز من قدرة الإنسان على سيطرته المستمرة على البيئة الطبيعية الخارجية، وأيضاً في معرفة بيئته الاجتماعية المعقدة بقدر الإمكان.

٧- تساعد النظرية في تنظيم إجراءات البحث العلمي واساليبه وأدوات جمع البيانات أي ما يعرف بالخطوات المنهجية للبحث العلمي عموماً.

٥- البحوث الاجتماعية النظرية والواقعية.

” في إطار تحليلنا لطبيعة المفاهيم المرتبطة بقضايا البحث العلمي الاجتماعي، ونوعية تحديد هذه المفاهيم خاصة بالنسبة للباحث المبتدئ، الذي يحتاج إلى المزيد من التحليل والدراسة والتعريف بهذه المفاهيم ولاسيما المرتبطة بعملية البحث الاجتماعي، والأسس النظرية والمنهجية التي يقوم عليها هذا البحث. نحاول أن نتعرف على طبيعة البحوث الاجتماعية والنظرية والواقعية (الميدانية) وهل يوجد اختلاف وتمايز بينهما ؟ وهل ظهرت هذه

الأنماط من البحوث مثل الأخرى؟ وماهى العلاقة بين كل من البحوث النظرية والميدانية وهل تثرى كل من هذه البحوث وتسهم فى تطور النظرية العلمية السوسيولوجية ؟ أو ما علاقة البحوث النظرية والميدانية فسى تطوير أسس النظرية والمهنية للبحث الإجتماعى عامة، والبحث السوسيولوجى خاصة؟.

للإجابة على هذه التساؤلات، التى لاتزال تشغل إهتمام ليس فقط المبتدئين أو القارئ العادى فى علم الاجتماع أو العلوم الاجتماعية، ولكن أيضاً الكثير من الباحثين المتخصصين فى هذه العلوم فى نفس الوقت ونحاول فيما يلى أن نعرض لطبيعة الاختلاف والتمايز بين البحوث النظرية والمقصود بها وبين البحوث الميدانية (الواقعية).

أولاً: البحوث النظرية.

يقصد بهذا النوع من البحوث مجموعة الدراسات النظرية التى تسهم بمناقشة قضايا ومشكلات وظواهر تشغل العقل الإنسانى بصورة كبيرة، وتم تحليلها بصورة نظرية مجردة فقط، دون استخدام طرق وأدوات للبحث الاجتماعى التى تركز على دراسة الواقع (الإمبيريقى). علاوة على دراسة، أن هذا النوع من البحوث، قد يعتمد على الطابع (المكتبى)، أو يعتمد على ذلك الوثائق والسجلات مثل البحوث الاجتماعية التاريخية. فقد يحاول الباحث أن يحل قضية اجتماعية معينة من الناحية النظرية دون اللجوء إلى أساليب البحث الاجتماعى الواقعى محاولاً أن يطرح أفكاره وتصورات من أجل تعزيز أساليب البحث النظرى والمنهجى فى نفس الوقت.

ويوضح لنا تحليل التراث السوسيولوجى للبحوث الاجتماعية النظرية، أن هذا النوع من البحوث (النظرية)، كانت الشغل الشاغل لاهتمامات العلماء والباحثين فى علم الاجتماع منذ نشأته الأولى. فلقد حاول " أوجست كونت " A. Comte، أن يناقش قضايا علم الاجتماع ومبررات نشأته وأهميته ومجالاته من خلال الاعتماد على التحليلات النظرية الخالصة Theoretical. Pare Analysis وهذا ما ظهر فى تحليلات وأبحاث كونت، حول قانون المراحل الثلاث وتطور المجتمعات من المرحلة اللاهوتية، إلى الميتافيزيقية، ثم المرحلة الوضعية أو العلمية. كما جاءت تحليلات " دوركايم " Durkeim وخاصة تحليلاته من الناحية الموضوعية، ومحاولة إرساء قواعد المنهج العلمى. أو

دراساته النظرية حول تطور المجتمع من المرحلة الآلية إلى المرحلة العضوية، أو دراساته المميزة حول تطور النظم القانونية والتربوية والأخلاقية.

كما كانت تصورات "كارل ماركس" K. Marx، التي تناول فيها تحليلاته عن رأس المال، والأيدولوجية، والإغتراب، والصراع الطبقي، والمجتمع الشيوعي، وغير ذلك من تصورات جاءت جميعها دراسات أو بحوث نظرية خالصة، حيث لم يقم ماركس بأى دراسة ميدانية أو إمبريقية على الإطلاق. وإن كانت وجهت هذه التحليلات أو الدراسات النظرية، العديد من البحوث والدراسات الميدانية أو الواقعية بعد ذلك، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً، عندما حاولنا إثبات الدور الوظيفي للنظرية العلمية، مثل (النظرية الماركسية) فى توجيه الباحث لدراسة الواقع بصورة شاملة.

وربما تعتبر دراسات "ماكس فيبر" M. Wober وغيره من رواد علم الاجتماع الألماني من أمثال "زيل"، و"توينز"، "سيمون"، و"مانهايم" وغير ذلك من العلماء الآخرين من الدراسات النظرية، ولاسيما دراساتهم الأولى. ولكن بالطبع هناك إسهامات لـ "فيبر" على سبيل المثال فى مجال البحوث التطبيقية (الواقعية) فلقد حرص "فيبر" على أن يطرح العديد من النماذج التصورية التى بلورها ببراعة فى فكرته عن النماذج المثالية Ideal Types، لتلك الفكرة التى شملت تحليلات نظرية رائعة مثل النماذج المثالية المرتبطة بالبيروقراطية أو العقل الإنسانى، أو مقولة الفهم، التى تعتبر فكرة نظرية خالصة، ولكنها تعتبر بعد ذلك موجهاً لإجراء الدراسات الميدانية، نظراً لأنها من أهم الأفكار المنهجية والنظرية التى طرحها "فيبر" لتوجيه البحوث الإجتماعية، كما ظهر ذلك فى قواعد المنهج عند "دوركهايم" على سبيل المثال.

وبالطبع، أن البحوث النظرية الاجتماعية التى ظهرت منذ ظهور علم الاجتماع حتى الآن كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، لم تنتهى حتى الآن، ولاسيما، أن هناك مجالات متخصصة لعلم الاجتماع مثل مجال علم الاجتماع النظرى Theoretical Sociology. الذى يركز على دراسة النظريات السوسيولوجية أو نقد النظرية السوسيولوجية. وهذا ما تبلور حديثاً فى الإتجاهات والمداخل النظرية (النقدية) التى تهدف إلى تعديل الخطوط العامة للنظرية السوسيولوجية بصورة مستمرة وربما تعكس تحليلات مدرسة فرانكفورت Frankfurt

School ذات الطابع التقليدي حالياً، مثلاً واضحاً على هذا النموذج من التحليلات ولا سيما أنها تنتمي إلى المدرسة السوسيولوجية الألمانية التي هاجرت إلى أوروبا والولايات المتحدة، واكتسبت خبرات واقعية كثيرة ناقشت فيها الكثير من قضايا المجتمع الحديث بصورة عامة.

بإيجاز، يمكن القول، بأن البحوث الاجتماعية قد نشأت منذ ظهور علم الاجتماع، ولا تزال تثرى هذا العلم ومجالاته التي تعددت وتتنوع بفضل هذا النوع من الدراسات النظرية المجردة. كما لا يزال تعد النظرية السوسيولوجية، أو مجال دراسة النظرية من المجالات (المجردة) التي تعتبر جوهر ولب علم الاجتماع ذاته. ولكن يجب أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن العلاقة بين النظرية أو البحوث الاجتماعية النظرية، والبحاث الاجتماعية الميدانية (الواقعية)، هي علاقة متبادلة ومتداخلة. فالبحاث النظرية، تعبّر الموجه الأول للدراسات الواقعية (الميدانية)، كما أن هذه الدراسات تسهم في صقل واختبار وتوجيه وتعديل الدراسات النظرية. وهذا ما أشرنا إليه عامة عندما حاولنا تحليل طبيعة القوانين والنظريات العلمية في بداية هذا الفصل.

ومن هذا المنطلق، يجب أن نشير إلى أن جميع العلوم يدور استثناء سواء أكانت علوم طبيعية أم اجتماعية، فإنها تشمل نوعين من البحوث (البحاث النظرية)، و(البحاث الميدانية) أو الواقعية. كما أن كثير من الدراسات أو البحوث النظرية تهتم بمعالجة مشكلات وظواهر وقضايا تهتم جميعها بدراسة الواقع الذي نعيش فيه. كما أن البحوث الميدانية أي كان نوعها تسهم في صقل طبيعة الدراسات النظرية، حتى ولو كانت هذه الدراسات هي النظريات العلمية التي توجه البحوث الميدانية ذاتها.

ثانياً : البحوث الواقعية (الميدانية).

يقصد بهذا النوع من البحوث، الدراسات الميدانية التي تركز على دراسة الواقع مستخدمه العديد من الأساليب البحثية والمنهجية، التي تجمع فيها البيانات اللازمة حول الظاهرة، أو المشكلة، والقضية المراد دراستها وتحليلها. وبالطبع، أن هذا النوع من البحوث تعتبر مكملاً للدراسات (النظرية) الخالصة، والتي تسهم جميعها في تطوير البحث العلمي والنظريات والأساليب المنهجية في نفس الوقت وفي الواقع، لم يهتم علماء الاجتماع بهذا النوع من

الدراسات فى بادئ الأمر، وهذا ما جاء فى تحليلات " أوجست كونت " على سبيل المثال. أو أفكار "هبريت سبنسر"، أو تصورات "إميل دوركايم" التى تميزت فى مرحلتها الأولى بالتركيز على الدراسات النظرية بصورة أساسية.

لكن مع نشأت وتطور علم الاجتماع، وإسهامات العلوم الاجتماعية الأخرى وخاصة علم الأنثروبولوجيا، وعلم النفس على سبيل المثال، تم توجيه جانب كبير من دراسات علم الاجتماع، إلى الدراسات الميدانية (الامبريقية). كما كانت قد تبلورت ملامح النظرية السوسيولوجية العلمية، التى أسهمت بدورها فى وضع الأسس المنهجية، كما كانت إسهامات علماء الاجتماع المتخصصين فى مجالات مناهج وطرق البحث الاجتماعى دور كبير فى التخطيط لمثل هذا النوع من البحوث والدراسات (الميدانية)، وخير مثال على ذلك الإهتمام، دراسات "إميل دوركايم"، التى ركزت على الدراسات النظرية أولاً، ثم الدراسات المنهجية ثانياً، ثم الدراسات الميدانية ثالثاً، وهذا ما تبلور فى دراسته الشهيرة عن (الانتحار)، التى تزال من الدراسات السوسيولوجية الواقعية (الميدانية) المميزة فى هذا المجال. وحاول فيها أن يطور نظريته وإهتماماته السوسيولوجية النظرية الخالصة عن التضامن الاجتماعى Social Solidarity، ثم ركز فيها على اختبار تصورات المنهجية عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع. كما حاول أن يختبر كل من التصورات النظرية والمنهجية معاً فى دراسة ميدانية نادرة حول الانتحار.

وبالطبع، سعى "دوركايم" إلى أن يحلل أفكاره النظرية حول (التضامن الاجتماعى) فى دراسات متعددة مثل دراسة حول المناهج وطرق التدريس والمقرارات الدراسية فى فرنسا ومقارنتها فى ألمانيا والعديد من الدول الأوروبية الأخرى. وإن كان "دوركايم" لم يجرى دراسة ميدانية واحدة (غير دراسته عن الانتحار)، بقدر ما أجرى دراسات واقعية متنوعة.

وهذا ما ينطبق أيضاً على دراسات "فيبر" الواقعية الميدانية، والتى تم تصنيفها فى إطار إسهاماته الإمبريقية، وما يعرف بالجانب التطبيقى (الميدانى) لـ "فيبر"^(١). وهذا ما أشرنا إليه فى دراستنا حول علم اجتماع التنظيم Sociology of Organization، حيث سعى "فيبر" لإنشاء منظمة السياسة

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر، عبد الله عبد الرحمن، علم اجتماع التنظيم،

الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧.

الاجتماعية Social Policy Organization. وإهتم من خلالها بإجراء مجموعة من الدراسات الميدانية في ألمانيا ومن أهم هذه الدراسات التطبيقية:

- (١) دراسة مشاكل مصانع النسيج والكتان.
- (٢) دراسة عن تباطئ العمل في مؤسسات الإنتاج.
- (٣) دراسة إقتناء السلع وقت الأزمات والحروب.
- (٤) دراسة العلاقة بين الملاك والمستأجرين في القطاع الزراعى.

حقيقة، لسنا فى موضع لأن نسرّد طبيعة الدراسات الميدانية والامبريقية، التى قام بها علماء الاجتماع الأوائل، أو المعاصرين منهم، أوحى الدراسات الحديثة التى تعددت وتتنوع، بقدر ما نطرح بعض الأمثلة التى أشرنا فيها إلى إسهامات كل من "دور كايم"، و"فبير" على سبيل المثال. وكيف حرص كل منهما على إختبار تصورات النظرية والمنهجية معاً فى إجراء عدد من الدراسات الواقعية (التطبيقية) التى تعد من أهم الدراسات السوسولوجية فى علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر. ولأسيما، أن الدراسات الاجتماعية الامبريقية، جاءت لإختيار الإطار التصورى (النظرى) من ناحية، وتأسيس الأطر المنهجية التى ينبغى أن تتبع عند إجراء هذا النوع من الدراسات (الميدانية) من ناحية أخرى. وهذا ما تبلور عموماً فى قواعد المنهج عند "دور كايم"، أو مجموعة الدراسات الامبريقية التى أجراها "فبير" بصورة عامة.

بإيجاز، إن تصنيف الدراسات النظرية والواقعية (الامبريقية)، يوضح لنا مدى تداخل الدراسات الاجتماعية، ولكن بالطبع إن عملية التطور التاريخى الذى شهده علم الاجتماع وفروعه المتخصصة المختلفة، تعكس لنا أن علم الاجتماع جاء أولاً، من خلال تصورات نظرية خالصة ولكنها حاولت إختيار قضايا ومشكلات وظواهر واقعية ملموسة. وهذا ما تبلور فى فلسفة "كونت" الوضعية، وقواعد المنهج الدوركايمى، ومقولة الفهم والنموذج المثالى عند "فبير"، وما إلى ذلك من دراسات أخرى معقدة. ولكن ما لبث أن أنتشرت الدراسات الامبريقية (الواقعية)، التى كان لها دوراً كبيراً فى صقل الأبعاد النظرية والتصورية لعلم الاجتماع، وعدلت كثير من هذه التصورات بفضل إختبارها وتحليلها على الواقع الاجتماعى الملموس أو بفضل تطور مناهج البحث العلمى وطرق جمع بياناته المختلفة.

٦- أخلاقيات البحث الاجتماعي.

يصعب على الباحث الاجتماعي، أن يتناول أخلاقيات البحث الاجتماعي بصورة موضوعية تامة، ولا سيما أن الحكم على طبيعة موضوعية أو حياده العلمي أمراً يرجع إلى الآخرين وحكمهم على ذلك. كما يصعب أيضاً، أن نتناول قضية أخلاقيات البحث الاجتماعي بصورة عامة تشمل كافة جوانب متطلبات العمل الاجتماعي ومستوياته تجاه العلم، والمجتمع، وتحقيق الأهداف العامة للمؤسسات البحثية التي تنوعت بصورة كبيرة خلال السنوات الأخيرة. علاوة على ذلك، أن أخلاقيات البحث الاجتماعي، قد أصبحت من القضايا والموضوعات الهامة التي يتم معالجتها بواسطة الباحثين الاجتماعيين أنفسهم أو المهتمين عموماً بأخلاقيات وأدبيات البحوث الاجتماعية والطبيعية في نفس الوقت. حقيقة، أن أيديولوجيات البحث الاجتماعي أو ما يعرف بسياسات البحوث الاجتماعية على اختلاف أنواعها وأنماطها، قد لعبت دوراً كبيراً في توجيه مجريات وأهداف ونتائج هذه البحوث، والشواهد والأحداث ملبنة بتلك الوقائع والأحداث التي جريت بصورة كبيرة خلال القرن العشرين.

على أية حال، إن إهتمامنا الحالي يتركز بصورة أساسية لإعطاء الباحث الاجتماعي المبتدئ، بعد الأفكار العامة التي تدور حول أخلاقيات البحث الاجتماعي ومسئوليته التي تشمل كل من البحوث ذاتها وأهدافها، وأيضاً المسؤولية المهنية Professional Responsibilities، للعاملين في مجال البحوث الاجتماعية. ولا سيما، أن معظم قارئ هذا الكتاب، سوف يصبحون بصورة أو بأخرى باحثين اجتماعيين وينضمون إلى فئة المهتمين عموماً بالمشكلات الاجتماعية (كمحترفين)، يجب أن نوضح لهم بعض المعايير والأسس العامة لأخلاقيات البحث الاجتماعي، وما ينبغي أن تكون عليه مسؤوليات مهنهم تجاه مجتمعاتهم ومؤسساتهم ونظمهم وإيضاً في أدوارهم البشرية عموماً. ومن هذا المنطلق، سوف نعالج أخلاقيات البحث الاجتماعي من خلال تناولنا لها من عدة مستويات وهي كما يلي:

أولاً: تراث دراسة أخلاقيات البحث الاجتماعي.

حقيقة، أن تحليل التراث السوسيولوجي والاجتماعي لأخلاقيات البحث الاجتماعي، كانت موضع اهتمام كبير من جانب علماء العلوم الاجتماعية، وهذا ما تبلور في تحليلات رواده الأوائل من أمثال "أوجست كونت"، و "دور كايم"، و "سبنسر" وغيرهم آخرون. ولكن بالطبع، يجب أن نشير إلى تراث العلامة العربي "أبن خلدون" في مقدمته الشهيرة، عندما حدد متطلبات البحث العلمي والمعرفي والتاريخي، وما يجب أن يكون عليه صفات المؤرخ للأحداث الاجتماعية، الذي يجب أن يتوخى الدقة التامة، وأن يعالج أحداثه التاريخية ليس كمجرد سرد لأحداث مجردة عن واقعها الاجتماعي، ولكن يجب أن يهتم بتحليلها في سياقها المجتمعي الذي حدثت فيه. وهذا ما جاء في إنتقاد أبن خلدون للمؤرخ الشهير "الماسعودي" عند دراسته للتاريخ بصورة مجردة وجوفاء. علاوة على ذلك، لقد كان أبن خلدون ذاته مثالا للباحث الاجتماعي الذي لم يعتمد على جمع البيانات بصورة تقليدية، بقدر ما جاءت معاشته وتقلاته وترحاله من المغرب إلى المشرق العربي، علامة كبيرة لما ينبغي أن يقوم به الباحث عند جمع بياناته وتحليلها وكتابتها بصورة علمية وواقعية.

كما جاءت إهتمامات "كونت" عن الفلسفة الوضعية مؤشرا كبيرا لما ينبغي أن يهتم به الباحث الاجتماعي، والذي يجب أن يبتعد عن المثالية، واليوتوبية (المثالية) الفلسفية، ويسعى لأن يكون موضوعياً في تحليل أفكاره وتصوراتها. كما ركز "دوركايم" في قواعد المنهج في علم الاجتماع، إلى أهم أدبيات الباحث والبحث الاجتماعي عموماً، وكيفية الالتزام بالحياد العلمي، والموضوعية، ومعالجة الظواهر على أنها حقائق As Facts، وغير ذلك من قواعد المنهج العلمي، الذي يجب أن يحتذى به الباحث عند تناول دراساتهم وبحوثهم النظرية والميدانية. وهذا ما أهتم به "ماكس فيبر"، عند معالجته لأخلاقيات البحث العلمي والدور الاجتماعي والمهني الذي ينبغي أن يقوم به طلاب البحث الاجتماعي وأيضاً أساتذتهم، ومؤسساتهم العلمية وأصبحت مثل الجامعات والمراكز العلمية. ولاسيما أن "فيبر"، كان مديراً لمنظمة للبحوث الاجتماعية (منظمة السياسة الاجتماعية) التي أسهمت كثيراً في دراسة العديد من المشكلات والظواهر التي كانت توجد في ألمانيا وأوروبا خلال القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين^(١).

حقيقة، أن الاهتمام بدراسة أدبيات وأخلاقيات البحث الاجتماعي تعتبر من المجالات الهامة ولاسيما أن جانباً كبيراً من هذه البحوث، توصف بأنها بحوث تقويمية Evaluation Researches، أو بحوث تشخيصية Dignosis Researches، أو غير ذلك من أنواع مختلفة من البحوث الاجتماعية التي تنوعت في السنوات الأخيرة. ولكن بالطبع، هناك الكثير من التساؤلات التي تدور حول أخلاقيات هذه البحوث ومستوياتها الاجتماعية، كما تدور تساؤلات كثيرة حول أخلاقيات الباحثين، وما ينبغي أن تكون عليه هذه الفئة المهنية، بعد أن تزايد عددهم في القرن الماضي، وتنوعت الإعباء المهنية والأخلاقية، التي يتحلوا بها عند معالجتهم للمشكلات والظواهر الاجتماعية، لأن مثل هذه المسؤوليات وأهدافها هي التي تحدد القيمة العلمية والفائدة النفعية والاجتماعية من هذه البحوث عامة.

ثانياً " أخلاقيات البحث الاجتماعي.

في الواقع، أن هذه الأخلاقيات التي نطرحها حالياً، تجيء من خلال خبرة الباحث وتجاربه في مجال البحوث الاجتماعية طيلة الثلاثون عاماً الماضية، والتي نطرحها بصراحة وموضوعية عن طبيعة أخلاقيات البحث الاجتماعي، وما ينبغي أن تكون عليه هذه البحوث. ثم سنشير بعد ذلك، إلى أهم أخلاقيات الباحث الاجتماعي، في إطار تحليلنا بصورة مختصرة للمسؤولية المهنية والأخلاقية والاجتماعية للباحثين في مجال البحوث الاجتماعية عامة، والسوسيولوجية خاصة.

١- أهمية المشاكل البحثية: يجب أن تكون البحوث الاجتماعية جديرة بطرح قضايا ومشكلات بحثية، تحتاج إلى المعالجة والدراسة والتحليل، وذلك من أجل التوصل إلى علاج لهذه المشكلات، أو التصدي لها مستقبلاً، وهذا ما يعكس عموماً طبيعة أهداف البحث الاجتماعي عامة.

٢- التوجهات الأيديولوجية للبحث: يجب أن تكون الخطة العامة للبحث بعيداً

(١) توجد تحليلات هامة حول أخلاقيات المهن الاجتماعية في المرجع التالي:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، إدارة المؤسسات الاجتماعية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١.

عن التوجهات السياسية والايديولوجية، التى تؤدى إلى الانحياز وعدم الحياد العلمى، فكثيراً ما تضيع أخلاقيات البحث العلمى الاجتماعى، نتيجة هذا النوع من التوجهات الايديولوجية والعنصرية أو السلافية أو الطائفية.

٣- موضوعية النتائج: يجب أن تحدد النتائج العامة للبحث بصورة دقيقة، بدون التدخل فى النتائج الأخيرة، التى يتوصل إليها، حتى يمكن أن توصف البحوث ونتائجها بالموضوعية، ووصف الحقائق كما هى بعيداً عن الأهداف غير الأخلاقية للبحث.

٤- الإهتمام بالبيانات والإحصاءات الفعلية: يجب أن يكون البحث وخطته العامة مركزه على جمع البيانات الواقعية، وما هو موجود فى الواقع، دون ارتكاب أخطاء متعمده، أو كتابة بيانات ناقصة، أو التعمد فى إخفاء أى بيانات مرتبطة بالقضايا والمشكلات المدروسة.

٥- التحديث والتجديد فى قضايا البحوث الاجتماعية: يجب أن توجه البحوث الاجتماعية، نحو معالجة قضايا اجتماعية جديدة بالدراسة والتحليل، وما أكثر هذا النوع من القضايا التى تفرض ذاتها أمام الباحثين نتيجة للمشكلات المتزايدة التى حدثت فى المجتمع الحديث.

٦- ترابط الأفكار والعناصر العامة للبحث: لا بد لأى بحث علمى، أن تكون عناصره وأفكاره متسلسلة سلسلاً منطقياً، وأن يعالج أفكار محددة وواضحة، ويهدف إلى إصدار نتائج ترتبط أساساً بأفكاره وتصورات الآلية التى وضعها مسبقاً للإجابة عليها.

ثالثاً : أخلاقيات الباحث الاجتماعى.

هذه القضية تعرض لأهم مكونات المسؤولية المهنية والأخلاقية للباحثين الاجتماعيين، الذين يعتبرون من أهم الفئات المهنية التى توجد فى المجتمعات الحديثة. وبالطبع، أن هذه المسؤولية المهنية والأخلاقية تدرج تحت إطار المسؤولية الاجتماعية Social Responsibility، التى تعد من أهم القضايا العامة التى تواجه الفئات المهنية فى الوقت الحاضر، ويمكن الإشارة إلى عدد من المبادئ التى يجب أن يتبعها الباحث الاجتماعى:

١- النضج العلمى والوعى الكاف بمتطلبات البحث العلمى: يجب على الباحث أن يكون قد أتم مرحلة إعدادة جيداً، ويكون لديه خبره كافية بمتطلبات البحث العلمى بدء من جمع البيانات، حتى كتابة التقرير النهائى للبحوث الاجتماعية، ويشمل ذلك معرفة الأساليب النظرية والمنهجية، وتحليل البيانات وغيرها من خطوات فنية وإجرائية لازمة.

٢- ضرورة التغلب على الصعوبات بمزيد من العلم والصبر: لكل بحث من البحوث الاجتماعية مشكلات جمه، فهناك مقدمات نظرية، ومنهجية، وإجرائية، وغير ذلك، فعلى الباحث أن يتسلح بالعلم والصبر، فى أداء مهنته وعلمه، حتى يشبع أولويات وضروريات هذه المهنة، أهمها الإشباع والرضا التام بالضمير الأخلاقى والمهنى.

٣- الأمانة الموضوعية: إن رسالة الباحث العلمى من الرسائل الاجتماعية الهامة والتى تنتج عموماً تحت إطار المسؤولية الاجتماعية، فيجب أن يكون الباحث أميناً فى نقل المعلومات والمعارف، وأن يراعى الأسس المنهجية المتفق عليها، كما يجب أن يلتزم بالموضوعية والحياد العلمى كشرط ضرورى لتحقيق رسالته المهنية والأخلاقية.

٤- سرية البحث العلمى: يجب أن يراعى الباحث سرية البحوث العلمية التى يقوم بإجرائها، كما يجب أن يحافظ على سرية المبحوثين، دون التعرض لإيذائهم، ولاسيما الفئات الاجتماعية البسيطة، التى أعطت له كثيراً من أفكارها وآرائها وتصوراتها، وتوسمت فيه الثقة الكاملة على جزء من حرياتهما ومبادئهما.

٥- وضوح أهداف البحث وتحديد مسبقاً: من أهم متطلبات البحث العلمى وما ينبغى أن يقوم به الباحثين الاجتماعيين، وضوح الأهداف أو الأفكار العامة التى يسعى إلى تحقيقها. وهذا ما يجب أن يشير إليه الباحث للمبحوثين دون خداعهم فى بادئ الأمر، حتى يحصل على ما يريد دون مراعاة إحترام المبادئ وأخلاقيات البحث العامة، وهى المحافظة على حريات ورغبات وآراء الآخرين.

٦- تبنى فكرة العلاقات العامة فى البحث الاجتماعى^(١): ويقصد بتلك الفكرة أن البحث الاجتماعى، يتطلب نوع من العلاقات العامة بين فريق البحث، ولاسيما إذا كانت عملية إجراء البحث تتطلب العمل الجماعى والتنسيق عموماً من أجل تحقيق أهداف البحث، وتنفيذ متطلباته الأساسية، ويشمل ذلك: التعاون التام، والأمانة العلمية، والسرية، والإتصال السريع مع الهيئات والمؤسسات أو عينات البحث، وغير ذلك من متطلبات مهنية وأخلاقية متعددة.

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر: حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٥.

الفصل الثانى

نشأة البحث الاجتماعى وتطوره

تمهيد:

- ١- مرحلة ما قبل ظهور الاجتماع.
- ٢- مرحلة النشأة المبكرة لعلم الاجتماع.
- ٣- مرحلة المداخل البحثية السوسيولوجية الحديثة.

- (أ) المدخل التنظيمى الحديث.
- (ب) المدخل الايكولوجى.
- (ج) المدخل التفاعلى الرمزى.
- (د) المدخل الفينومينولوجى.
- (و) المدخل الأثنوميثودولوجى.

تعتبر عملية النشأة التطورية لكل من علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى من الدراسات الهامة، التي تساعد القارئ أو الدارس المبتدئ، أن يتعرف بوضوح على مجموعة العوامل والأسباب التي أدت إلى وجود هذه العلوم وكيفية تطورها خلال العصر الحديث. كما تعكس لنا عملية دراسة تطور البحث الاجتماعي، طبيعة تطور العقل الاجتماعي من ناحية، وتطور المجتمعات من ناحية أخرى، هذا بالإضافة إلى معرفة الظواهر والمشكلات والقضايا التي تم طرحها بواسطة علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى خلال مرحلة العصر الحديث. في نفس الوقت، إن دراسة هذه القضايا والمشكلات تعكس لنا طبيعة الحاجات المجتمعية، التي جعلت من هذه القضايا والمشكلات - قضايا بحثية - تم معالجتها بصورة علمية ومميزة. حقيقة، أن دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية لم تأتي من فراغ، بقدر ما جاءت كإعكاس لحاجة المجتمع بضرورة دراسة هذه المشكلات، ولأنما أن المجتمع الحديث يسعى دائماً للتغلب على كل من العوامل والظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت.

ومن هذا المنطلق، يهتم علماء المناهج والبحث العلمي السوسيولوجي، بدراسة كيفية تطور البحوث والدراسات الاجتماعية ولأنما خلال القرن العشرين، أو لتحديد خلال العصر الحديث. وخاصة، أن النشأة التطورية الأولى لعلم الاجتماع، كأحد العلوم الاجتماعية الهامة، جاء مع ظهور المجتمع الحديث، ليتناول بصورة خاصة لمجموعة التغيرات الاجتماعية والإقتصادية والثقافية التي نتجت عن هذه التغيرات وإعكاسها على كل من البناءات والنظم والسياسات الاجتماعية المختلفة. من ناحية أخرى، أن عملية تطور البحث الاجتماعي لم تحدث فجأة في العصر الحديث، بقدر ما جاءت نتيجة لتطور تاريخ البحث الاجتماعي، أو بعبارة أخرى، نتيجة لتطور الفكر الاجتماعي عبر العصور التاريخية السابقة. إلا أن عملية الدراسة والبحث العلمي الحديث، إرتبطت بالطبع بظهور علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الحديثة، التي صاحبت عملية تطور المجتمعات البشرية الحديثة.

على أية حال، نسعى خلال هذا الفصل للتركيز على نشأة البحث الاجتماعي وتطوره، متناولين أولاً، كيف تطور هذا البحث قبل ظهور علم الاجتماع، وخاصة أن تاريخ الفكر الاجتماعي جاء منذ فترة بعيدة قبل ظهور علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية. كما سنعالج أيضاً، كيف تطور البحث الاجتماعي (السوسيولوجي) بصورة خاصة خلال مرحلة نشأة علم الاجتماع، أو ما يعرف بمرحلة عصر الرواد الأوائل الذين أسسوا هذا العلم؟ ولاسيما، أن إسهامات هؤلاء الرواد عكست بصورة مميزة كيفية تطور الأسس النظرية، والقضايا المنهجية البحثية، التي كان يعالجها علماء الاجتماع بصورة عامة. من ناحية أخرى، سنركز أيضاً على كيفية تطور هذه الإسهامات السوسيولوجية والبحثية المنهجية، وكيفية معالجة علماء الاجتماع لقضايا المجتمع، التي عاصروها بالفعل وخاصة الجيل الثاني من علماء الاجتماع بصورة عامة، وكيفية تأسيسهم لمجموعة من المداخل السوسيولوجية النظرية والمنهجية، التي تستخدم في دراسة المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية، التي أصبحت موضع إهتمام للعديد من المهتمين عموماً بقضايا البحث العلمي في الوقت الحاضر.

١- مرحلة ما قبل ظهور علم الاجتماع.

ما من شك أن مرحلة تطور العلم قد سبقت بكثير نشأة علم الاجتماع، الذي يعتبر أحد العلوم الحديثة نسبياً مقارنة بغيره من العلوم الإنسانية والطبيعية. هذا إذا ما حاولنا أن نحدد النشأة الأولى لهذا العلم، وإن كان بالطبع، إهتمامات ابن خلدون في علم العمران، الذي أشار إليه في مقدمته الشهيرة، وتنسب إليه تسميته لعلم الاجتماع خلال العصور الوسطى الإسلامية. كما أن تاريخ الفكر الاجتماعي يمتد جذوره إلى قبل هذه العصور، ولاسيما أن تطور الفكر الإنساني يرجع إلى مرحلة ظهور الحضارات الأولى، وخاصة الحضارات الشرقية القديمة (الفرعونية - البابلية - الآشورية - والهندية - والصينية) وغيرها، كما أيضاً إلى حضارات الغرب التي تمثلت في الحضارة الإغريقية (اليونانية القديمة). على أية حال، إن إهتمامنا الحالي سنوف يشير بصورة موجزة إلى طبيعة تطور أساليب التحليل العلمي والنظري والمنهجي، التي عززت بعد ذلك من نشأة مناهج البحث العلمي المتطور، والتي ظهرت مع نشأة علم الاجتماع خلال البدايات الأولى من القرن التاسع عشر

ومن هذا المنطلق، سنعرض أهم أنماط التحليل العلمى والبحث للمشكلات الاجتماعية أو التى شغلت الفكر الإنسانى خلال مرحلة ما قبل ظهور علم الاجتماع، والتى يمكن أن نصنفها من خلال عرضنا للمراحل التصنيفية التقليدية للتطور التاريخى لنشأة العلم كما يلى:

(١) العصور القديمة^(١).

أولاً: الحضارات الشرقية:

كشفت تحليلات المؤرخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا والسياسة والفلسفة، وغيرهم، عن طبيعة أنماط من التحليل العلمى المميز الذى كان موجوداً خلال العصور القديمة (الفرعونية). فلقد أهتم الفراعنة باستخدام مناهج علمية وبحثية، لاتزال لغزاً محيراً لكل من يهتم بدراسة هذه الظاهرة حتى الوقت الراهن. كما أهتم الفراعنة بدراسة مشكلاتهم البيئية والإقتصادية والسياسية فى إطار معتقداتهم الدينية التى كانت، مصدراً للإلهام والتفكير المستمر، وذلك لأيمانهم بحياة البعث بعد الموت. كما يعالج الفراعنة تصوراتهم عن الآله، والاساطير ودراساتهم للهندسة والعمارة والزراعة والرى، من خلال تبنيهم لأساليب علمية ودقيقة جداً أتبع فيها أحدث التصورات التى ساهمت عموماً فى بناء حضارة شامخة لاتزال تتحدى التاريخ عبر العصور المختلفة، ولتكون شاهد عيان على نوعية استخدام الفراعنة كافة الأساليب البحثية، التى ربطت بين حياتهم الطبيعية (البيئية) والاجتماعية بحياتهم الدينية بصورة عامة.

كما جاءت معالجات علماء ومفكرى الحضارة الهندية والصينية القديمة، لتعكس لنا مدى تفوق هذه الحضارة فى مرحلة كان فيها الغرب يعيش فى ظلام مستمر. فلقد أهتم الصينيون القدماء بأساليب متطورة فى بحث المشكلات والقضايا والظواهر التى كانت توجد فى محيطهم البيئى الطبيعى والاجتماعى. فإهتموا ببناء السدود لتنظيم عمليات الرى وتطور الزراعة وإنتاج المحاصيل الزراعية التى تشبع حاجات شعوبهم وتعكس عموماً طبيعة

(١) يمكن الرجوع للمرجع التالى للمزيد من التفاصيل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة، ١٩٩٩.

التقدم الحضارى والعلمى الذى ساعدهم فى السيطرة على هذه الطبيعة -
جاءت ايضاً، اهتماماتهم فى مجال الرى والزراعة والهندسة وبناء الأسوار
الكبرى (مثل صور الصين العظيم) الذى يعد أحد المعالم الاثرية الكبرى حتى
الوقت الحاضر، ولتعكس مدى العلاقة بين أنماط الفكر الصينى (المادى) الذى
سعى للسيطرة على البيئة الخارجية، والتعاليم الكونفوشوسية التى بنيت على
أساس أخلاقى ودينى فى نفس الوقت. ولا تزال حتى الوقت الحاضر تبرهن
على مدى العلاقة بين التقدم العلمى المادى والطابع الأخلاقى، الذى يقوم على
أسس ومبادئ سامية وتعكس نزعية التراث الشرقى الصينى القديم.

وهذا ما تبلور أيضاً فى حضارة الهند القديمة، التى لم تظهر إلا من
خلال نسق معين من التفكير السليم وإستنتاج طرق وأساليب معينة، للتغلب
على المشكلات والظواهر البيئية الاجتماعية والطبيعية المادية فى نفس الوقت.
فلقد أهتم الإنسان فى الهند القديمة بدراسة كيفية تغلبه على الطبيعة الخارجية،
فى إطار مجموعة من التعاليم الأخلاقية والدينية القديمة، وهذا ما جاء فى
التعاليم (البوذية) التى كانت بمثابة مجموعة من المبادئ والقواعد العامة التى
يجب أن يحتذى بها كل من العلماء والفلاسفة والمفكرين وأيضاً الأفراد
العاديين. تلك التعاليم الأرضية التى لا تزال تسيطر على نسق، المعتقدات
الفكرية والأيدولوجية العامة، والتى توجه حياة الشعب الهندى حتى الوقت
الراهن وإن كان بالطبع، تم تحديث الكثير من أساليب التغير والبحث العلمى
المتطور، الذى جعل من الهند دولة متقدمة إقتصادياً وسياسياً بالرغم من
مشاكلها الداخلية مثل السلالات واللغة والفقر وغيرها. بإيجاز إن نمط الحياة
الهندية القديمة، لا يختلف كثيراً عن نمط الفكر وأساليب دراسة الظواهر
والمشكلات البيئية والطبيعية والاجتماعية التى كانت موجودة فى الحضارة
الشرقية القديمة، والتى ربطت بين نمط التفكير المادى والبحث فى الأشياء
والظواهر المادية من خلال التفكير الدينى والأخلاق.

ثانياً: الحضارة الإغريقية:

بدأت الحضارة الإغريقية من منظور بحثى ومهنى مختلف نسبياً عن
الحضارات الشرقية مثل الفرعونية أو الهندية أو الصينية القديمة، حيث جاءت
آراء كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، على سبيل المثال لتجعل من العقل

البشرى أداة للتفكير أو البحث العقلانى، الذى يتناول بالدراسة والتحليل كافة الظواهر والمشكلات الواقعية، والميتافيزيقية، و الفلسفية فى نفس الوقت. فلقد استخدم سقراط على سبيل المثال، منهج بحثى مميز يسمى منهج التحكم والتوليد، من أجل تحليل الأفكار والآراء والمعتقدات لدى الآخرين، ثم يبدأ مرحلة أخرى، وهى الإزدراء والتهكم عليها، من أجل خلق نوع من الشك وعدم اليقين عند خصومة من الفلاسفة أو السفسطائيين. ثم يبدأ مرحلة أخيرة، وهى بث الأفكار والآراء الجديدة، التى يسعى لأخضاع خصومة بقبولها بدلاً من أفكارهم الأصلية، وتسمى مرحلة التوليد، للأفكار الجديدة. وهذا ما استخدمه سقراط فى منهجه العلمى المميز، الذى لا يزال يرتبط بمحاور دراسته الفلسفية المعروفة. كما جاءت أفكار سقراط وتصوراته فى محاربة الأفكار والإدعاءات التى تسعى أعداؤه لتفريقها إليه، وإن يناقش هذه الإسهامات بصورة عقلانية، ومتبنياً أسلوب البحث أو المحاور الفيلسوف الشجاع، الذى يدافع عن أفكاره بصورة منطقية وفلسفية وأخلاقية فى نفس الوقت، وهذا ما ظهر فى محاوراته أو دفاعه أمام عملية محاكمته الشهيرة.

أما تلميذه أفلاطون، فلقد بنى مدخلاً فلسفياً مثالياً طرح فيها تصورات الخالصة، والميتافيزيقية وأصبحت فيما وراء الطبيعة، كما حرص على دراسة المشكلات والظواهر الواقعية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بصورة تحليلية، تعكس فى مجملها طبيعة النسق العلمى أو العقلى لدى فلاسفة الإغريق. كما طرح أروءه المثالية عن المدينة الفاضلة (المثالية) بصورة تحليلية رائعة لا تزال تشغل العقل البشرى حتى الوقت الراهن، حيث جاءت أفكار أفلاطون المثالية، لتناقش قضايا واقعية شغلت إهتمامه كمواطن إغريقى وفيلسوف متميز مثل تصوراتهِ عن الطبقات الاجتماعية، وعلاقة الحاكم بالمحكومين، وطبيعة المهن الاجتماعية، والحاجة إلى التعاون، وحجم وأنواع السكان، وطبيعة الغذاء، وغير ذلك من آراء ومشكلات طرحها للمعالجة على أساس التفكير العقلى الواقعى والمثالى فى نفس الوقت.

أما أرسطو، تلميذ أفلاطون، فتوصف تحليلاته الفلسفية والسياسية والاقتصادية والمنطقية فى إنها تحليلات واقعية وموضوعية، وبعيدة عن التصورات المثالية التى ظهرت فى فكر استاذهِ فلقد ناقش أرسطو فى

محاوراته المتعددة طبيعة السياسة، والدولة القومية، والسلطة السياسية، وأنواع الحكومات وتصنيفاتها المنطقية سواء أكانت فاسدة أم ناجحة. كما ناقش قضايا أخرى ترتبط بالعلاقات الاجتماعية بين الفئات المتصارعة في المجتمع البشرى، وعلاقة الإنسان بالمجتمع، ونوعية البناءات الأسرية والجماعات الاجتماعية، وعملية التغيير الاجتماعي، وأنماط الثورات الاجتماعية، والسياسية، وحقوق المواطنة، وطبيعة الثروة والملكية، وكيفية شغل وقت الفراغ والعمليات الثقافية والترفيهية، التي يجب أن يتمتع بها المواطن في دويلات الإغريق القديمة، وغير ذلك من قضايا ومشكلات وظواهر اجتماعية تعتمد فيها على أبعاد تحليلية ومنهجية بحثية متميزة، وخاصة استخدامه للعقل الإنساني كمحور للتفكير ودراسة طبائع الأشياء التي توجد في البيئة الخارجية. كما استخدم الملاحظة في تحليله لكثير من هذه المشكلات التي حلها بصورة واقعية ومنطقية، لا تزال في مجملها تعكس نمط الفكر المنهجي الأرسطي حتى الوقت الحاضر.

(٢) العصور الوسطى:

أولاً: العصور الوسطى المسيحية:

جاءت العصور الوسطى المسيحية بأنماط أخرى من التفكير والتحليل والدراسة البحثية، التي إرتبطت بالنسق الدينى الكنيسى الذى سيطر على العقل البشرى فى أوروبا لعدة قرون طويلة، وهذا ما جاء فى تحليلات القديس أوغسطين ST. Augustine، والقديس تونى لاقوينى ST. T. Aquinas، على سبيل المثال. فلقد أهتم الأول بطرح نمط معين من التفكير العلمى الذى أّسم بالطابع الدينى والأخلاقى المسيحى، وناقش العديد من القضايا الهامة ولاسيما قضية المعرفة الإنسانية Human Knowledge حيث حاول أوغسطين أن يستخدم التحليل العقلى المنطقى فى دراسته للكتاب المقدس، وأن يتعمق فى معانيه وأفكاره وفهمه ومبادئه. وإن كان يرى بعض المحللين لأفكار وأسلوب أوغسطين فى الدراسة والبحث العلمى أنها تشبه إلى حد كبير تحليلات أفلاطون المثالية: وإن كانت مثالية أوغسطين قد جعلت بين المسيح عليه السلام والكتاب المقدس مثالا، يجب أن يحتذى بهما من قبل المؤمن أو المواطن المسيحى سواء فى المعاملات السلوكية البشرية، أو الإيمانية

العقائدية^(١). وهذا ما ظهر على سبيل المثال في تحليله لمكونات المعرفة الإنسانية وأحداثها، ومن أجل سعى الإنسان للتزود بها وتحقيق الرضا النفسى والسكينة، والسعادة عن طريق إستخدامه للعقل ذاته. هذا بالإضافة، إلى أن أوغسطين، سعى أيضاً لدراسة العديد من القضايا الفكرية التى شغلت العقل الإنسانى خلال العصور الوسطى أو حتى الوقت الحاضر، قبل دراسته المميزة عن الإدارة، والتغير والتطور، ودراسته لأنماط الفترات التاريخية، والقانون الملكية وغيرها من القضايا البحثية والفكرية الهامة.

أما تومى لاكوينى، فجاءت أفكاره وتصوراته العقلية والبحثية من خلال طرحها فى مؤلفاته التى أطلق عليها بالخلاصات، مثل الخلاصة الأولى (فن الوثنيين) ، والخلاصة الثانية، اللاهوتية، وركز من خلالها يتفسير وشرح أعمال أرسطو الواقعية، ومن أهمها تفسير العبارة، والبرهان، والسماع الطبيعى، والسماء والعالم، والنفس، والحس والمحسوس. وما بعد الطبيعة، والسياسة، والكون والفساد، كما حاول لاكوينى، أن يركز على إستخدام العقل بصورة أكثر واقعية عن أوغسطين، الذى أشتملت تحليلاته بالفكر المسيحى (اللاهوتى)، حيث أهتم لاكوينى، بضرورة فصل العديد من الفلسفة، وحرص إهتمامه للربط بين الأبحاث والمعرفة الطبيعية، وما يعرف بالصلة بين العقل والفعل. حيث أكد على وجود سبقة جدلية للعقل على المعرفة الطبيعية أو الإدراك الإنسانى وعلى أية حال، لقد تأثر لاكوينى كثيراً بالمنهج التحليلى الجدلى عند أرسطو، وأكد على أن العقل يعتمد على الخبرات الحسية فى تكوينه للمعرفة الإنسانية سواء أكانت معرفة محسوسة أم مادية أو عقلية خالصة. كما يعالج لاكوينى أيضاً، قضايا فلسفية ومنهجية هامة عند تحليله لمشكلة السياسية والقانون، والحرية والملكية، والأخلاق، تلك القضايا التى إستمدتها أولاً من الفلسفة الإغريقية وإيضاً من الديانة المسيحية، ومحاولاً أن يبرهن على قدرة العقل الإنسانى فى البحث وبرهنة الأشياء والحقائق.

(١) أنظر على سبيل المثال:

Foster, M.B, Master of Political Thought vol.(1), London: Geoyge: Group LTD, 1981.

ثانياً: العصور الوسطى الإسلامية:

جاء الفكر الاسلامي ليضيف أبعاداً جديدة في طرحه الدراسة والتحليل وتعقل الأشياء، وخاصة لإستخدام العقل الإنساني كأداة معرفية للتحقق من الظواهر والشواهد الواقعية، وإعطاء الحرية الكافية للفرد في دراسة ما حوله من ظواهر دنيوية ودينية في نفس الوقت وخاصة، بعد أن سيطرت أنماط عقلية جامدة على منطقة الشرق الأوسط خلال فترة الحكم الروماني وفترات المسيحية، التي جعلت من الآراء الكنيسية مصدراً أساسياً، لكل من يحاول أن يبحث في الحقائق الخارجية أو الدينية عامة. وجاءت المراحل الأولى من نشأة الدولة الإسلامية لتعزز منزلة العلم والعلماء، وتجعلهم في المرتبة التالية للأنبياء، إحتراماً لمكاناتهم وعقليتهم في بحث دراسة وتحليل الأشياء الخارجية التي تحيط بالبشرية. كما تطورت مكانة العلم والعلماء المسلمين، ولاسيما بعد أن تبناوا العديد من المناهج التجريبية والأساليب العلمية، التي تعتمد على التجربة والملاحظة والشواهد الحسية المتعددة وهذا ما أسهم عموماً في تكوين الحضارة الإسلامية، وبرز علمائها في الطب، الهندسة، والكيمياء، والفلك من أمثال "أبن سينا" و "جابر ابن حيان"، و "الرازي"، و "الطبري"، "أبن الهيثم" وغيرهم آخرون.

وجاءت معظم تصورات هؤلاء العلماء والمفكرين والفلاسفة لتضيف للعقلية الشرقية والعربية خاصة، أمجاد هائلة في مجال البحث العلمي، التي تعددت مجالاته بصورة عامة. وفي إطار تبادلنا لتطور أنماط وبحوث الاجتماعية نشير بإيجاز شديد إلى كل من أحمد المقریزی (١٣٦٤م-١٤٤٢م)، ايضاً أستاذه ابن خلدون (١٣٣٢م-١٤٠٦م). حيث تميزت تحليلات كل منها بطابع مميز في البحث العلمي وخاصة إهتماماتهم بالتحليلات الاجتماعية وطرق البحث الاجتماعي فقد أهتم المقریزی في كتابه الشهير آغاثة الأمة بكشف الغمة، أن يطرح منهجاً علمياً مميزاً عند دراسته الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والطبيعية أيضاً. ولاسيما، أيضاً أنه يعمل بمجال الإدارة، والتدريس لسنوات طويلة في مصر وهذا ما وضعه في مؤلفه عن الخطط المقريزية، التي تشمل بعداً تحليلياً اجتماعياً وتاريخياً وسياسياً وإقتصادياً في نفس الوقت. ولن نناقش كثيراً من القضايا والمشكلات التي

طرحها المقرري، بقدر ما نشير إلى المنهج العلمي الذي تميزت به تحليلاته: فلقد تبنى عدد من الأدوات البحثية والمنهجية والتي لا تزال تعتبر مرجعاً أساسياً، للعديد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجية، والسياسة والاقتصاد حتى الآن. وخاصة أنه تناول مشكلات إجتماعية مثل الجماعة، والنساء والعديد من المشكلات الاقتصادية والسياسية التي ظهرت في مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ومن أهم الأدوات التي إستخدامها المقرري هي: (١) الملاحظة بالمشاركة، (٢) المقارنة، (٣) الإطلاع على الدراسات السابقة، (٤) إستخدام الإخباريون^(١).

أما العلامة العربي (ابن خلدون) وفكره ومنهجه المتميز، قد فرض ذاته على جميع علماء الاجتماع الأوروبيين خاصة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ولأسيما العلماء الذين سعوا للتحقق من فروضهم العامة التي طرحها حول من هو مؤسس علم الاجتماع الحقيقي؟. هل هو ابن خلدون أم أوجست كونت ودوركايم؟. حقيقة أن تحليل التراث المعرفي والاجتماعي، يوضح أن هناك العديد من المقالات والكتابات التي سعت إلى تثبيت العالم العربي (ابن خلدون) وجعله المؤسس الأول لعلم الاجتماع أو ما أسماه بعلم العمران. ولأسيما، أن ظهر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أي قبل كونت، بما يقرب من خمس قرون من الزمان. كما جاء هذا الإهتمام الغربي بعد نشر مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية عام ١٨٠٦م بواسطة "إسحاق دي ساس" J.Sacy وذلك باللغة الفرنسية. كما توالى بعد ذلك نشر هذه المقدمة، ومفالات مطولة وحولها باللغة الألمانية خلال الفترة من ١٨١٢- ١٨١٦ لتبرهن على حتمية إنتقال تحليلات ابن خلدون إلى العالم الأوروبي قبل نشأة أو ظهور المدارس الأوروبية الاجتماعية المبكرة.

على أية حال، أن ما يعنينا حالياً، هو إعطاء فكرة موجزة عن إسهامات ابن خلدون المنهجية حيث يعد المنهج الخلدوني من أهم المناهج الاجتماعية المميزة، فلقد أعتمد في دراسته للمشكلات والظواهر الاجتماعية

(١) لمزيد من التفاصيل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،

على ملاحظة هذه الظواهر ودراسنها وتحليلها بصورة واعية وملموسة. وجاء ذلك عن طريق الترحال والسفر، والملاحظة بالمشاهدة، ومعرفة كباتع الأشياء والشعوب والجماعات والطبقات الاجتماعية. كما ساعد ذلك أيضاً التعرف بوضوح على طبيعة حدوث وتكرار الظواهر والتفكير فى أسباب حدوثها، وتفسير العلاقات المتداخلة بينها والعوامل التى تشكلها وتحدثها عموماً. وعلى أية حال، يتكون المنهج العلمى عند ابن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية، ويستخدم هذا المنهج فى مرحلتين أساسيتين وهما: أولاً مرحلة الملاحظات الحسية التاريخية لظواهر الاجتماع، وثانياً: مرحلة دراسة العمليات العقلية، التى يمر بها على الظواهر المراد دراستها وتحليلها. ويهدف هذا المنهج، لإعطاء فرصة للباحث لأن يصل إلى ما يصبو أو يهدف إليه من العلم، ألا وهو الكشف عن القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية وتفسيرها. تفسيراً علمياً وبايجاز، يمكن القول بأن خطوات المنهج العلمى عند ابن خلدون تتمثل فى المجموعة من الخطوات التالية^(١):

١- الشك والتمحيص.

٢- التشخيص المادى الدقيق.

٣- معرفة أسباب الظواهر وطبيعة العمران.

٤- استخدام القياس والاستدلال بالشواهد.

٥- تفسير البيانات وتحليلها.

٦- التصميم والوصول إلى القوانين بصورة جذرية.

تلك هى أهم خطوات المنهج العلمى الاجتماعى الذى تبناه ابن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية. التى أسس بها علم الاجتماع العمرانى أو الإنسانى، والتى سبق فيها غيره من علماء الاجتماع.

٣- عصر الإصلاح والتنوير.

أُسمت التحليلات الفلسفية والسياسية التى ظهرت خلال العصور الوسطى المسيحية بالطابع الدينى (اللاهوتى) والأخلاقي، والتى جاءت نتيجة سيطرة السلطة الدينية الكنيسية فى أوروبا لعدة قرون طويلة سميت حسب تصورات العلماء الغربيين أنفسهم، بأنها عصور الظلام الدامس. نظراً لأن تلك

(١) أنظر : عبد الله محمد عبد الرحمن، المرجع السابق.

الفترة لم تسمح للعقل البشرى، بأن يتقدم خطوه واحدة تجاه البحث عن الحقيقة أو التمحيص فى الظواهر والأشياء التى توجد فى البيئة الطبيعية الخارجية. وإن كانت قد ظهرت عدة محاولات جريئة للبحث عن علل الظواهر ومعرفة أسباب حدوثها وتكرارها، إلا أن تلك المحاولات تم التصدى لها ببطش وقوة من جانب رجال الكنيسة الأوروبية. وهذا ما جعل الفكر الأوروبى الغربى خلال تلك العصور مرتبطاً بالتغيرات الدينية والاخلاقية كما أشرنا إلى ذلك سلفاً. فى مقابل ذلك، وجدنا نهضة إسلامية شرقية ظهرت فى العالم العربى، وأهتمت باستخدام العقل والمنطق والتحليل العلمى فى مختلف التخصصات، التى عكست بعد ذلك نهضة وحضارة إسلامية مهدت، كلية لتطور الفكر الأوروبى خلال عصور النهضة والإصلاح بصورة عامة.

وجاءت الاستكشافات الجغرافية للعديد من دول أوروبا التى امتدت إلى نصف الكرة الجنوبى والولايات المتحدة، لتبنى أسلوب البحث العلمى والتحرر النسبى من السيطرة الكنسية، والبحث عموماً من أجل الثروة والمال والسيطرة عن طريق تطوير أساليب البحث العلمى بكل معانيه. وتعكس العديد من مؤلفات وكتابات رواد عصر النهضة والإصلاح الأوروبين خلال القرنين الخامس عشرن مطبوعة أساليب البحث العلمى الواقعى التى تبنتها هذه المؤلفات. والتى ظهرت فيها أيضاً حركات التمرد ضد السلطة والكنيسة، وإن كانت مصطبعة بالإسلوب الفلسفى فى بادئ الأمر. ولاسيما يعتبر كتاب الأمير The Prince لميكافيللى Machiavelli وإيضاً مؤلف الجمهورية The Reupublic لجان بودان J. Bodin خبر تمثيل لهذه الفترة فلقد ظهرت أفكار ميكافيللى (١٤٦٩-١٥٢٧)^(١) لإبراز طبيعة البشر الإنسانية وطموحهم لتحقيق الثروات والحياه والسلطة، بأى وسيلة إن كانت سواء عن طريق المؤامرات السياسية أو الثورات أو الفساد وما إلى ذلك من وسائل مشروعة وغير مشروعة، تؤكد على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة تلك النزعة الميكافيلية التى عكست بصورة عامة ضرورة استخدام كافة الوسائل فى تحقيق الأهداف وإن كانت تحليلات

(١) أنظر على سبيل المثال:

Fletcher, R, The Macking of Sociology vol. (1) London: Thoma Nelson, 1972

ميكافلي جاءت من خلال إقتناع بضرورة وجود قيادة سياسية قوية تبرز فيها دور الأمراء والحاكم الذى يستغل كل شئ فضيلة أم رزيلة لبلوغ غاية وهدف لإقامة دولة قوية ذات طابع سياسى.

أما آراء "بودان" التى ظهرت فى السادس عشر فى كتابه (الجمهورية) فلقد شمل أهتمامه على دراسة وتحليل عدد من القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية والدينية التى شغلت مفكرى عصر النهضة ولاسيما قضايا (السيادة) والإصلاح السياسى، وحدود السلطات الدينية وعلاقتها بالسلطة السياسية، وإمميزات النبلاء والطبقات الحاكمة، وتأثير العوامل الداخلية والخارجية على بناءات السلطة، وقضية إنشاء الدولة القومية، وإصلاح القوانين السياسية والإقتصادية، والإدارية وغير ذلك من قضايا متعددة. ولقد إستخدم بودان فى تحليلاته المدخل أو المنهج التحليلى المقارن ولاسيما عندما جعل هذه القضايا السابقة، ومحاولاً أن يتنبأ بالشواهد والدولة التاريخية والقانونية. ويسمى من الناحية المنهجية والبحثية. الإستعانة بالتاريخ مدخل أو منهج مميز للدراسة والتحليل^(١). من ناحية أخرى، لقد أنتهج بودان، نظرية عامة جعلها نقطة انطلاق تصورات بالسياسية والدينية، وهى نظرية الحكم المطلق (الملكية) أو نظرية السلطة الملكية المطلقة التى ظهرت فى الدول القومية الأوروبية والتى تمتعت بالمبدأ العام المرتبط بالحق الإلهى للملوك، وساهمت فى التخلص من الحكم المطلق أو التفويض الإلهى للسلطة الكنيسة البابوية.

وخلال القرن السادس عشر والبدائيات تنتشر فى أوروبا السابع عشر، ظهور علم الإحصاء كأحد العلوم الوظيفية. التى بدأت تنتشر فى أوروبا بأسرها ولاسيما، بعد ظهور علماء الحاسبون السياسيون^(٢) Political Arichmeticans، الذين ظهرو منذ بداية العصر العلمى، ولاسيما، بعد أن تولت إستخدام البحث العلمى فى العديد من المجالات الطبيعية مثل (الفيزياء)، والتى أكدت على أهمية الملاحظة والتجربة كأساليب للبحث العلمى كافة. كما ظهر هذه الفترة مجموعة العلماء البارزين من أمثال فرنسيس بيكون، وجاليلو،

(١) Foster, M.B, Master of Politicat Thought op: cit.

(٢) لمزيد من التفاصيل :أنظر، السيد عبد العاطى السيد، علم إجتماع السكان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨.

وهارفى، وكبلر، الذين أكدوا على أهمية منهج الملاحظة العلمية فى دراسة وفهم مشكلات وظواهر العالم الطبيعى. كما جاءت اهتمامات الحاسبون السياسيون مختلفة فى تحليلات كل من "جون جرونت" J. Graunt، وسيرولهم بيتى S.W.Petty، وجوهان سيسملش J. Sussilch، وغيرهم آخرون لتؤكد على أهمية إستخدام الإحصاء ودراسة كافة المشكلات الإقتصادية والاجتماعية وهذا ما ظهر فى تحليلهم لإعداد أو إحصاء السكان. وقوائم المواليد، والموظفات، والضرائب، وأسعار السلع والأطيان، والمحاصيل الزراعية، ورأس المال والثروة، وعذد الجيوش، وغير ذلك من تحليلات إعتمدت على المنهج الإحصائى الاجتماعى، الذى إستخدام بصورة كبيرة، على أسسه علم السكان. والإحصاء، وكان الباعث الأول لظهور تحليلات مالتوس الهامة بعد ذلك. وبإيجاز، أن أفكار الحاسبون السياسيون، جاءت معاصرة لأفكار العالم الشهير إسحق نيوتن J. Newton، الذى كان له الفضل الأكبر فى تأكيدده على الأسلوب العلمى لإكتشاف القوانين الطبيعية.

ما من شك، أن تطور حركة البحث العلمى أخذت أنماط أكثر أنتشار ولاسيما بعد ظهور أصحاب نظرية العقد الاجتماعى Social Contract Theory، التى ظهرت خلال القرن السابع عشر ممثلة فى تحليلات كل من توماس هوبز T. Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) وجولولوك J. Lock (١٦٢٢ - ١٧٠٤)، وجان جاك J.Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨).^(١) وركزت آراء هذه النظرية على أهمية إستخدام العقل والمنطق كاسلوب للدراسة والتحليل لأستبدال نظرية (العقد الاجتماعى) بدلاً عن نظرية (التقويض الإلهى المطلق) ومحاولة أن تختبر مجموعة الخصائص السيكولوجية والذاتية والغريزية لدى الإنسان سواء فى مجتمعه الاول (البدايى) وحتى المجتمع الحديث، وايضاً تكشف مجموعة العوامل الخارجية (البئية) التى تحيط بالبشر كمخلوقات إجتماعية وتتعرف على حدود هذه العوامل وتسعى من أجل تكوين سلطة سياسية عليا، عن طريق إيرام تعاقد إجتماعى معها من أجل حفظ النظام والإحترام المتبادل بين الجميع وحسب وجه نظرنا، إن أسلوب الدراسة

(١) لمزيد من التحليلات على سبيل المثال:

J.J. Rousseau, The Social Contract, Cerdon: Peng uuin Books, 1968.

والتحليل العلمى، الذى تتبعه رواد نظرية العقد الاجتماعى، حرص على استخدام الكثير من الشواهد والبراهين التاريخية من ناحية والظروف والسمات السيكولوجية والاجتماعية والبيئية الأيكولوجية، من ناحية الأخرى، التى تدعم وجهات نظر رواد هذه النظرية حول أهميتها وضرورة قيام العقد الاجتماعى الذى يكون أهم مقدمات المجتمع المدنى الحديث Modern Civil Society.

ومع أواخر القرن السابع عشر و أوائل الثامن عشر، تغيرت أساليب البحث العلمى نتيجة لحدوث طفرة كبيرة فى مجال العلوم الطبيعية، ونتيجة للإسهامات مجموعة من العلماء الطبيعيين الذين ظهوروا خلال القرن السابع عشر من أمثال بيكون، ونيوتن، وغيرهما كما ساعدت هذه العلوم على تطور النظريات السياسية والإحصاء الرياضى، ودراسات السكان وغيرها. كما ظهرت خلال القرن الثامن عشر مجموعة من النظريات الاجتماعية، التى تبلورت فى إطار مجموعة من القوانين الاجتماعية، التى يجب أن تماثل القوانين الطبيعية، عند دراستها للظواهر البيئية الخارجية، وبدأت هذه النظريات وقوانينها المختلفة، تتبنى أساليب من البحث العلمى، الذى يقوم على الملاحظة والتجربة كأساس للبحث العلمى وبدلاً عن النظريات المعرفية والمثالية والأخلاقية الدينية وهذا ما جاء على سبيل المثال، فى تحليلات "مونتسكيو" Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥)، و"كندروسية" Condorcet (١٧٤٣-١٧٩٤)^(١). وخاصة كتابه الأول (روح القوانين) The Spirite of The Caws، الذى استخدم فيه "مونتسكيو" المدخل المقارن، فى دراسته لأبعاد التاريخية والجغرافية والسياسية والفلسفية والإقتصادية والقانونية، وحاول أن يناقش فكرة القانون الطبيعى The Natural Law من منظور اجتماعى وسياسى وعلمى واقعى، وبعيداً عن التغيرات اللاهوتية عامة. وكما حاول كندروسية أن يستخدم مفهوم التقدم ليحلل بصورة تاريخية مقارنة كيفية تطور العقل البشرى عبر العصور التاريخية، وأن يعطى فكرها لتطور التقدم الشامل الذى يحدث لكل من المجتمعات الإنسانية والطبيعية فى نفس الوقت. وهذا ما ظهر بعد ذلك بوضوح فى تغير أسلوب البحث العلمى عند علماء الاجتماع من أمثال أوجست كونت الذى تأثر بكتابات وتحليلات العلماء فى القرن السابع والتاسع عشر.

(١) Arobr, A , Durkhein, Montesqueean and Roussea Michiam Dress. 1960.

٢- مرحلة النشأة المبكرة لعلم الاجتماع.

حقيقة، أن البحث الاجتماعي يعتبر سلسلة متصلة الحلقات يصعب تجزئتها لمعرفة الحدود الفاصلة بين كل حلقة وأخرى، إلا أن عملية تميز بين مرحلة وأخرى شيء من السهل معرفته وتحليله بواسطة المهتمين بقضايا التطور التاريخي لمراحل البحث الاجتماعي، وهذا هو موضع اهتمامنا الحالي الذي يدور بصورة أساسية، حول معرفته أهم المراحل التاريخية التي عززت من أهمية وجود وتطور البحث الاجتماعي بصورة عامة. وما من شك، أن علم الاجتماع سواء من الناحية النظرية أو المنهجية (البحثية) لم يأت من فراغ بقدر ما جاء من خلال إرهاصات علمية (بحثية منهجية ونظرية) في نفس الوقت. وهو ما يؤكد عليه عموماً علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي في الوقت الحالي، حينما يؤرخون لتطور كل من مناهجهم، وطرق وأدوات بحثهم، التي تطورت في مجملها مع مجموعة العلوم الطبيعية والاجتماعية بصورة عامة. فطبيعة البحث العلمي لجميع العلوم لا بد وأن تتح في إطار مجموعة من العناصر الأساسية وهي:

أولاً: العلماء والباحثين، الذين لديهم الفضل الأول في الدراسة والتحليل، وتناول القضايا والظواهر والمشكلات التي يسعون لدراستها وتحليلها والتي توجد في مجتمعاتهم وبيئاتهم وخلال حياتهم التي عاشوا فيها بالفعل.

ثانياً: النظريات العلمية، وهي مجموعة النظريات التي يتم إستخلاصها من القوانين والتصميمات العامة التي تعكس جملة الإسهام العلمي.

ثالثاً: مناهج وطرق وأدوات البحث العلمي، وهي بمثابة الأساليب أو الأدوات، التي عن طريقها يستطيع العلماء الباحثين تناول قضاياهم ومشكلاتهم والظواهر التي يقومون بدراستها بصورة علمية ومنهجية واضحة المعالم.

على أية حال، نسعى حالياً في إطار إشارتنا الموجزة، لعمليات التطور التاريخي للبحث الاجتماعي، وأن نوضح أهم مرحلة تاريخية لظهور البحث الاجتماعي عامة، والتي عاصرتها نشأة علم الاجتماع وظهور ونظرياته، ومناهجه وطرق وأدوات بحثه بصورة عامة. ولكن قبل الإشارة

لأهم الإسهامات يمكن تعريفهم بمرحلة الرواد الأوائل لعلم الاجتماع، يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: إننا لسنا في موضع عرض هذه الإسهامات بصورة مستفيضة، بقدر ما نركز أساساً على الإسهامات المنهجية والبحثية والتي ظهرت خلال مرحلة الرواد، وذلك للإجابة على تساؤلين أساسيين وهما: أولاً: إلى أي حد جاءت هذه الإسهامات انعكاساً لتطور البحث الاجتماعي والعلمي خلال المرحلة السابقة على القرن التاسع عشر والعشرين؟. ثانياً: كيف أسهمت تحليلات علماء الاجتماع (المنهجية) في تطور أساليب ومناهج وطرق البحث العلمي عامة، والسوسيولوجية خاصة؟.

وعموماً، سوف نجئ إشارتنا الموجزة إلى مرحلة الرواد في علم الاجتماع لإسهاماتهم البحثية الاجتماعية، وذلك من خلال إعتدنا على تصنيف إسهاماتهم حسب إنتمائهم السياسية، أو حسب الموطن الأصلي لهؤلاء الرواد.

(١) البحث الاجتماعي في فرنسا:

ما من شك، أن عملية تطور البحث الاجتماعي قد إنتشرت في أنحاء أوروبا مع أواخر فترة الإصلاح أو النهضة، وهذا ما أشرنا إليه خلال الصفحات السابقة وإن كانت بصورة موجزة ولكننا نلاحظ أن إسهامات العلماء والمفكرين الفرنسيين، كانت لهم النصيب في هذا التطور للبحوث الاجتماعية، ويمثل ذلك في تحليلات روسو، و مونتسكيو، وكندروسية من العلماء الذين أشرنا إليهم. ولكن بالطبع، هناك إسهامات أخرى عززت من عملية تحديث الفكر العقلي والعلمي، وهذا ما جاء في أفكار رائد المدرسة الاجتماعية الفرنسية وهو سان سيمون S.Simon، أو مؤسس الفكر الاشتراكي الفرنسي. خلال القرن التاسع عشر، ويعتبر أستاذ علم الإنسان، للوقوف على سير العلوم وتطورها من الناحية المهنية والبحثية، من ضرورة أن تتداخل جميع العلوم في وحدة منهجية، حتى تتضح أهمية وفائدة هذه العلوم (الطبيعية والاجتماعية) مجتمعة، ويطلق على العلم الجديد بالعلم العام، وبإيجاز تلك الفكرة التي مهدت سبيل بعد ذلك، إلى ظهور الفلسفة الوضعية عند كل من تلميذه كونت ودوركايم وتحديدها لقواعد المنهج العلمي في العلم الاجتماع وتأسيس هذا العلم كلية، وهذا ما سنعالجه بصورة موجزة أيضاً في إطار تحليلنا للإسهام الزمني في تطور مجالات البحث الاجتماعي.

أولاً : أوجست كونت. A.Conte (١٧٩٨-١٨٥٧م).

يعد كونت أول من أستخدم كلمة سوسولوجى Sociologie، بعد أن كان يطلق على علمه الجديد ما يسمى أولاً بالفيزياء الاجتماعية Social Phppsics وذلك فى كتاباته الأولى، ولكن انعالم " أدولف كتليه " قد نشر عام ١٨٣٥ بعد الدراسات الاجتماعية الإحصائية تحت هذا العنوان (الفيزياء الاجتماعية)، ومن ثم فلقد سبق كونت فى وضع وإستخدام هذا العنوان. وعموماً جاءت إستخدامات كونت لمصطلح الاجتماع، أكثر إهتماماً وإنتشاراً بعد ذلك ولاسيما تبنى العديد من العلماء الاوروبيين الغربيين من إستخدام ذات المصطلح عن أمثال هربرت سبنسر 'H.Spencer. وتبدو لنا من خلال إستخدام كونت وتسميته الأولى لعلم الاجتماع بمفهوم الفيزياء الاجتماعية، إن كونت كان يحرص أولاً على أن يكون هناك علماً اجتماعياً على غرار الفيزياء. ولاسيما، أنه لاحظ، أن العلوم الطبيعية ومنها (الفيزياء) قد تطورت كثيراً أو سبقت العلوم الاجتماعية التى كانت موحدة بالفعل مثل السياسة، والنفس، والقانون، والإقتصاد وغيرها. ومن ثم، يجب أن يظهر علم جديد ألا وهو علم الاجتماع، لىستخدم منهجية بحثية جديدة فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وأن يتوصل إلى مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً، التى يمكن عن طريقها أن يصل إلى مرحلة التعميم وتصيغ نظريات اجتماعية، تهتم بدراسة المشكلات والقضايا التى تحيط بالإنسان وبيئته الاجتماعية، ويمكن عن طريقها دراستها بصورة علمية، طالما أن الإنسان إستخدام العلوم الطبيعية، فى دراسة الظواهر أو البيئة الطبيعية التى تحيط به وجعلها بصورة دقيقة ومحددة.

وتظهر إهتمامات أوجست كونت بالقضايا البحثية المنهجية بصورة خاصة، ليس فقط من خلال طرحه لمفهوم علم الاجتماع، ويمكن من خلال تركيزه على الأسس المنهجية، التى يجب أن يقوم عليها علمه الجديد. وهذا ما ظهر فى أوائل حياته العلمية، ففي الرابعة والعشرين من عمره وما لتحديد عام ١٨٢٢، نشر أول كتاب له تحت عنوان "خطة البحوث العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع". ويتضح لنا من هذا العنوان وموضوعه مدى إهتمام كونت أولاً بمنهجه البحث الاجتماعى العلمى، وظيفه هذا البحث فى تنظيم المجتمع

الصناعي، الذي تلازم من عملية نظوره ونشأته الأولى مع ظهور افتر كونت...
السوسيولوجية بصورة عامة. كما أن رغبة كونت الميحي. جعلته أن يوظف
هذا العلم الجديد (علم الاجتماع)، من أجل إعادة تسلسل العلوم بأكملها على
اسس من الموضوعية، ومدى الاستفادة من هذه العلوم بعضها البعض. هذا
المبدأ الذي أسسفه كونت من إستاذة سان سيمون، حينما نادى بأهمية وجود
العلم العالم، أو العلم الشامل الذي يجب أن يحتزى به العلوم كافة من الناحية
المنهجية والبحثية وإن كان سيمون لم يشر إلا أنه علم الاجتماع، إلا أن
التسمية ترجع إلى كونت ذاته.

ومن ثم، يمكن القول بأن كونت حرص أن يوضح المنهج العلمي،
الذي يجب أن يستخدم بواسطة علم الاجتماع، ويهتم أولاً وأخيراً بملاحظة
الظواهر والسعى لتصنيفها. كما حرص أيضاً، على أن يحدد خطوات المنهج
العلمي أو مقومات البحث الاجتماعي العلمي من خلال تأكيد على مبدأ معرفة
الأسباب التي تشكل حدوث الظواهر الاجتماعية عن تكرارها على غرار
دراسة الظواهر الطبيعية العلية أو المسببة لهذه الظواهر عامة. في نفس
الوقت، حرص كونت على إستبعاد كافة التفسيرات الغيبية أو الميتافيزيقية،
والتي تهتم بدراسة وتبرير الظواهر الاجتماعية بصورة غب وضعية أو
علمية. كما أن في خطوة منهجية أخرى، إن مهمة علم الاجتماع، تهدف إلى
الوصول للحقائق التأملية، وليس لتبرير الظواهر التي يدرسها على أسس
لاهوتية دينية أو أخلاقية.

من ناحية أخرى، نجد أن كونت حرص لعقد مقارنة بين العلوم
الإنسانية والطبيعية، مرتزاً على أن نستخلص من هذه المقارنة بعض
الملاحظات والحقائق، المنهجية والبحثية الهامة، والتي تمثلت في أن العلوم
الطبيعية استطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً في مجال دراستها للظواهر الطبيعية
أو البيئية التي تقدم تحليلها عن طريق الملاحظة، والتجربة، ومعرفة الشواهد
والبراهين، والأسباب العلية. وإذا، أكد على أهمية، أن تطور العلوم الاجتماعية
من أساليبها وطرق دراستها البحثية المختلفة منها بالطبع، علم الاجتماع، من
أجل أن تماثل العلوم الطبيعية. وهذا ما أكد عليه بالفعل، في مهمة علم
الاجتماع الأولى، والتي تتبلور بإيجاز شديد، في استخدام المنهج العلمي

ودراسته للظواهر الاجتماعية، وذلك من أجل إعادة تنظيم المجتمع الذى تنشأ فيه الكثير من التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى أحدثتها الثورة الفرنسية ليس فقط فى فرنسا ولكنه فى أوروبا والعالم بأسره.

وعموماً، تتبلور أهمية إسهامات كونت فى تطور البحث الاجتماعى، من خلال تركيزه على أهم مقومات وعناصر المنهج العلمى، الذى يجب أن يتبناه علم الاجتماع وعلمائه. وهذا ما حدده فيما أسماه كونت بالإجراءات الأربعة للمنهج العلمى، والتى ظهرت بالتحديد فى نظريته عن المعرفة الوضعية *The Positive Science*. أو المعرفة الوصفية، وهذه العناصر: (١)

١- الملاحظة. ٢- التجربة.

٣- المقارنة. ٤- المنهج التاريخى.

كما حرص كونت على أن يطرح قواعد المنهج العلمى ويربطها عموماً بنظريته عامة توجه البحث العلمى الاجتماعى ككل، وتسعى إلى التوصل لعدد من القوانين الاجتماعية العلمية، التى تهتم بعد ذلك بدراسة وتحليل الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية. وهذا ما ظهر بوضوح فى طرحه لقانون المراحل والحالات الثلاث *The Law of Three Stages*، وغيره من القوانين الاجتماعية التى تميزت كلية ملامح البحث الاجتماعى عامة، والسوسيولوجى بصورة خاصة.

ثانياً: أميل دوركايم *E. Durkheim* (١٨٥٨-١٩١٧م).

ينسب إلى دور كايم أولاً وإلى المدرسة السوسيولوجية الفرنسية ثانياً عملية نشأة علم الاجتماع، كعلم أكاديمى وخاصة خلال المراحل الأولى لظهور تحليلات الأخير، ذات تأثير بالغ على نهضة علم الاجتماع، وتطور البحث الاجتماعى. إلا أن إسهامات دور كايم تعتبر من الإسهامات السوسيولوجية المميزة لأنها جاءت من إهتمامات عالم اجتماعى أكاديمى عمل بالجامعات الفرنسية كأستاذ، لعلم الاجتماع، وفى العديد من الجامعات الأوروبية. كما تتبلور أهمية تحليلات دور كايم من خلال الخطوط العامة التى

(١) أنظر: عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع النشأة والتطور، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.

حددها لتطور البحث الاجتماعي عامة، والسوسيولوجي خاصة. وهذا ما تبلور في كتابه المميز عن قواعد المنهج في علم الاجتماع، الذي يعتبر المؤلف الأول في تحديد لما ينبغي أن تقوم عليه الاسس المنهجية في نفس الوقت أو إسهامات دور كايم البحثية، لم تقتصر على المعالجات النظرية أو التحليلية للمشكلات والظواهر الاجتماعية التي عاصرها بالفعل، بقدر ما حاول أن يطبق قواعد المنهج العلمي، وأسس البحث الاجتماعي على مجموعة من الدراسات أو الظواهر التي تم معالجتها بالفعل.

ومن ثم، سنشير بإيجاز شديد، إلى إسهامات دور كايم عن قواعد المنهج في علم الاجتماع، وإيضاً نعرض لتحليلاته الواقعية والميدانية البحثية خاصة لدراسة ظاهرة الإنتحار، وإيضاً رؤيته لعلاقة علم الاجتماع وقضية المنهج في فرنسا، كنموذجين فقط يعبران عن إسهامات دور كايم، في مجال تطور البحث الاجتماعي، وتحديد قواعد المنهجية التي يقوم عليها علم الاجتماع.

(أ) قواعد المنهج في علم الاجتماع.

يعتبر هذا المؤلف، ثانياً مؤلف نشره دور كايم عام ١٨٩٥، بعد نشر رسالته للدكتوراه حول تقسيم العمل عام ١٨٩٣^(١). وحاول فيه دور كايم أن يطرح مجموعة من القواعد المنهجية والبحثية التي يجب أن يتبناها كل من علم الاجتماع والمهتمين بهذا العلم عامة. ويمكن فيما يلي أن نلخص أهم القواعد أو المبادئ العامة التي حددها دور كايم كما يلي^(٢):

(١) يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء أو حقائق As Facts: بمعنى أن الظواهر الاجتماعية تماثل الظواهر الطبيعية وتوجد في الواقع الخارجي، ويمكن إخضاعها للملاحظة، والتجريب، والتحليل والتفسير بصورة عامة.

(١) للمزيد من التحليلات إرجع إلى:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(2) Durkheim, E, Thhe Rules of Sociological Methed. N.Y: The Free Dress, 1961.

(٢) يجب عدم التسليم بصدق قضية معينة: أى ضرورة أن يتوخى الباحث الحذر والسرية، عند دراسته لقضايا أو مشكلات معينة أو يكون لديه أحكام مسبقة حول صدق أو كذب هذه القضية إلا بعد خضوعها للدراسة والتحليل.

(٣) يجب على الباحث أن يتحرر من كل فكرة سابقة يعلمها عن الظاهرة الاجتماعية: بمعنى أن الباحث الاجتماعى يجب أن لا يكون متحيزاً أو متأثراً بمشاعر أو أفكار أو أيديولوجيات محددة التى تبعده كثيراً عن جوهر القضية موضوع الدراسة.

(٤) يجب أن يضع الباحث فى ذهنه فكرتى التحليل والتركيب: أى يجب على الباحث أن يستخدم أسلوب التصنيف أو التقسيم العلمى والمنطقى الذى يبدأ من القضايا البسيطة حتى ينتهى إلى القضايا المركبة، وأن تساعد القضايا الأولى فى بناء قضايا لاحقة.

(٥) يجب أن تكون أهداف البحث واضحة تماماً: تتبلور أهمية البحث فى وضوح هدفه وهو البحث عن الحقيقة والوصول إلى تفسيرات علمية محددة تجاهها، لأن ذلك يعتبر الغاية الأساسية من البحث العلمى عامة.

(٦) يجب أن تكون عناصر البحث مترابطة: يقصد بذلك الترابط أن البحث يبنى مكوناته من مجموعة من الأجزاء أو القضايا، التى يهتم بتفسيرها ومعالجتها، ومن ثم يجب أن تكون هذه القضايا المعاصرة والأجزاء متجانسة وغير متناقضة.

(٧) يجب أن لا يشمل البحث على تعريفات بعيدة عن موضوعه، وتعد هذه المسلمة ذات أهمية جوهرية، ولا سيما أن تعريفات أو المفاهيم تعتبر اللغة العلمية التى يستعين بها فى تفسير الظواهر والأشياء بصورة مقبولة ومتعارف عاينها.

(٨) يجب على الباحث أن يكون على علم بالقوانين والنظريات العلمية: إن مهمة علم الاجتماع تتركز من أجل التوصل إلى مجموعة من القوانين والنظريات العلمية، على غرار العلوم الطبيعية ولا سيما أن هذه القوانين والنظريات، تلعب دوراً أساسياً فى تفسير الظاهرة الاجتماعية، على غرار دراسة الظواهر الطبيعية والكونية.

(٩) يجب على الباحث أن لا يقتصر استخدامه على منهج واحد في دراسته للظواهر: وهذا ما أكد عليه "دور كايم"، وخاصة ما يعرف بمبدأ المرونة المنهجية، الذي يتيح فرصة أكبر للاستخدام أكثر من منهج لدراسة الظواهر وتحدد عملية الموضوعية والحياد العلمي للباحثين عند دراستهم لهذه الظواهر والمشكلات قيد البحث.

(١٠) ضرورة أن يحدد الباحث أفضل الطرق والوسائل التي ينبغي الاعتماد إليها في دراسته العلمية: ولأسيما أن عملية اختيار هذه الوسائل تساعد في تحديد مصادر البيانات وأهداف البحث، ومناهجه وتسهم في النهاية إلى دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية وموضوعية^(١).

وبإيجاز، إن المبادئ العشر السابقة، التي طرحها "دور كايم" في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع، تعتبر بمثابة مسلمات أو مبادئ عامة يجب أن يهتم بها هذا العلم، والمتخصصين به بصورة عامة. وهذا بالفعل ما يلاحظه علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي في الوقت الحاضر، إن آراء "دور كايم" السابقة، تعتبر الموجه الأول لهم عند دراستهم وتحليلهم لطبيعة هذه المناهج والطرق والأدوات البحثية بصورة شائعة.

(ب) دراسة الانتحار Suicide.

تعتبر هذه الدراسة نموذجاً هاماً للدراسات السوسيولوجية، التي ركزت على مجموعة القواعد والأسس المنهجية التي تعتمد عليها "دور كايم" وطرح عدد من المبادئ أو المسلمات الهامة التي يجب الإهتمام بها بواسطة علماء الاجتماع والمشتغلين عمومًا بالعلوم الاجتماعية. ولأسيما، أن "دور كايم" حرص على أن يعرض مشكلة الانتحار، كظاهرة اجتماعية، أعطى إليها أولوية هامة بين الناحية البحثية والمنهجية، وحاول فيها أن يثير نظريته السوسيولوجية المعروفة عن التضامن الاجتماعي Social Solidarity كما سعى لطرح عدد من الأهداف العامة والإفتراضات العلمية، التي يجب أن يطرحها الباحث على هيئة تساؤلات يسعى البحث لتحقيقها وتفسيرها بصورة موضوعية وحاول أيضا "دور كايم"، أن يتعرف بصورة واقعية على أهم الفئات الاجتماعية والمهنية، والنوعية، والدينية، التي ترتكب الانتحار، وأن

(١) أنظر : غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، صص ٢١-٢٢.

يحقق فيما بينها حساب المؤشرات الأعلى من الإنتحار. علاوة على ذلك، حرص " دوركايم"، على إستخدام المنهج الإحصائي Statistical Mothod لتحليل هذه الظاهرة^(١). خاصة أنه إعتد على الإحصاءات المنشورة، والتي كانت متاحة في أوروبا خلال إجراءات الدراسة. ودون الدخول في تفاصيل كثيرة حول هذه الدراسة العلمية الرائدة، إى إننا نلاحظ أن " دور كايم" حرص على أن يتوصل إلى عدد من النتائج الهامة مثل أن الإنتحار يرتبط ارتباطاً عكسياً مع درجة التكامل للجماعات الاجتماعية.

(جـ) علم الاجتماعى وقضية المنهج فى فرنسا^(٢):

يعتبر هذا المؤلف العلمى " لدور كايم" من أواخر الأعمال العلمية التى نشرت له وكان ذلك فى عام ١٩١٦، أى قبل وفاته بعام واحد. ولقد طرحنا للإشارة إليه بإيجاز شديد، كمثال نمونجى وعلمى ومنهجى، لإستخدام فيه دور كايم كافة الاساليب البحثية والمنهجية التى طرحها مسبقاً فى قواعد المنهج لعلم الاجتماع، وإستخدام فيها خبرته كأستاذ للتربية فى العديد من الجامعات الفرنسية الشهيرة ولاسيما جامعة السربون وباريس. وحاول " دور كايم" أن يناقش قضية المناهج والمقررات الدراسية التى توجد فى فرنسا، مستخدماً فى ذلك عدد من الاساليب البحثية وطرق البحث الاجتماعى مثل: الإحصاءات، والوثائق، والملاحظة، والمقابلة، وتحليل المضمون وغيرها. ولاسيما، أن حرص على تحليل المحتوى العلمى لمناهج الدراسة ومقررات التدريس فى المراحل التعليمية المختلفة فى فرنسا، ومقارنتها بغيرها من الدول الأوروبية التى قد قطعت شوطاً كبيراً فى هذا المجال العلمى ولاسيما ألمانيا. وبإيجاز، لقد حرص " دور كايم" على أن ينشر آراءه العلمية والمهنية والبحثية فى أهم حوليات علم الاجتماع التى أسسها فى فرنسا منذ عام ١٨٩٨، لنشر تصورات المنهجية والبحثية، والنظرية، ومعالجته لقضايا ومشكلات مجتمعه التى عاصرها بالفعل.

(١) إرجع إلى: Durkheim, E, Suicidie, N.Y: The Free Press, 1961.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،

١٩٩٨.

تعتبر المدرسة الألمانية من المدارس الاجتماعية الهامة، التي زودت الفكر الاجتماعي خلال العصر الحديث بالعديد من المفكرين والفلاسفة والعلماء، الذين طوروا كثيراً من معالم هذا العصر، بفضل إرهابات علمهم وأفكارهم ونظرياتهم المتنوعة في مجالات مختلفة، ومنها بالطبع مجال العلوم الاجتماعية. ولكننا لسنا في موضع تقديم حصر أو إحصاء شامل لهذه الإسهامات، بقدر ما نركز حالياً إلى مدى إسهام المدرسة الألمانية في تطور البحث الاجتماعي. ولا سيما، في مرحلة عصر رواد علم الاجتماع الأوائل. ولكن قبل إشارتنا إلى هذا الإسهام، نود أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن الفكر الألماني الذي ظهر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان له الفضل الأكبر في تطور مجالات التفكير الاجتماعي، سواء من الناحية النظرية، أو المنهج، أو أساليب التفكير، أو نوعية القضايا والمشكلات التي تم طرحها للمعالجة. وأدى هذا الفكر في مجمله إلى تطور البحث الاجتماعي والعلوم الاجتماعية كافة خلال القرنين التاسع عشر والعشرون.

وربما تعتبر إسهامات فلاسفة التاريخ الألمان من أمثال " أمانيول كانت " E.Kant^(١) (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)، من أهم الإسهامات التي وضعت الجذور الأولى للفكر الاجتماعي ونظرياته المختلفة فيما بعد ذلك. فلتد حوصص " كانت " ، على أن يستخدم بصورة منهجية وبخثية متطورة العديد من المناهج العلمية لدراسة التاريخ، ولا سيما ما يسمى بالمنهج التحليلي التاريخي المقلرن. كما جاءت أفكاره من الناحية المنهجية والبحثية لنضع ما يسمى بالنظريات الفلسفية التاريخية النقدية، التي مهدت في النهاية لتحليل كافة النظريات المعرفية والإنسانية، التي حاولت تفسير تاريخ البشرية وتطور المجتمعات الإنسانية. ثم محاولته بعد ذلك صياغة نظرية علمية تفهم من خلال عملية ضرورة التاريخ أو إعادة كتابة هذه النظريات بصورة موضوعية، تجعل من حركة التاريخ، إطاراً عاماً لفهم حياة الإنسان وتطور الحضارات البشرية. كما حاول أيضاً، أن يستخدم أساليب للبحث العلمي، لفهم طبيعة الصراع التاريخي،

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر ما كتبناه في مؤلفات أخرى مثل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعي، مرجع سابق.

الذى يوجد داخل النفس البشرية أو الحضارات الإنسانية، وذلك من أجل وجود نظام سياسى يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الحريات العامة ويقلل من العداء المستمر أو الصراع الدائم الذى يوجد بين المجتمعات أو النفس البشرية.

على أية حال، أن إسهامات "كانت" فى فلسفة التاريخ كانت لها اثراً عميقاً فى الحركة النقدية الفلسفية، واسلوبها فى الدراسة والتحليل للظواهر والحقائق والأشياء التى توجد فى البيئة الطبيعية الاجتماعية فى نفس الوقت. وتعتبر الإسهامات نوع من تقييم الأساليب المنهجية والبحثية التى كانت تعرف بالنظريات المثالية الأخلاقية، ومن النظريات الواقعية الوصفية. وبإيجاز، سوف نركز اهتمامنا حالياً للإشارة إلى كل من إسهامات "كارل ماركس"، و "ماكس فيبر" كنموذجين متميزين للبحث الاجتماعى الألمانى، ويمثلان مرحلة الرواد المبكرة فى علم الاجتماع.

أولاً: كارل ماركس K.Marx (١٨١٨-١٨٨٢م).

تمكن أهمية إسهامات "ماركس"، لأنها جاءت فى الفترة الأولى نشأة علم الاجتماع، وإن كان لم يستخدم هذا المفهوم (علم الاجتماع) مثل "كونت" أو غيره من رواد هذا العلم، ولكن أفكاره الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمجتمعية بصورة عامة كانت تنتشر بسرعة شديدة بين علماء ومفكرى القرن التاسع عشر، نظراً لأنها تعالج قضايا هامة، لم يعرفها المجتمع البشرى من قبل وخاصة تحليله لقضية الصراع الطبقي Class Conflict وما يعنيه حالياً، هو أن "ماركس" متبنى المنهج الجدلى (الرياليكي)، الذى قد استمد فحواه مضمونه من أستاذه الروسى، "هيجل" Hegel ذلك الفيلسوف المثالى الألمانى، الذى يعتبر رثاء المدرسة المثالية الاجتماعية الحديثة. وهذا ما جعل ماركس وزميله أنجلر Engler، بطرح أفكارها ونظريتها عن المادية الجدلية، أو المادية التاريخية^(١) من خلال تبنيها لأنساق معينة من التحليل والدراسة والتفكير، وذلك عن طريق استخدامهم للتاريخ، كمصدراً حياً لعرض أفكارهم حول هذه النظرية علاوة على ذلك، لقد استخدم "ماكس" الملاحظة، والملاحظة بالمشاركة فى نقده للظواهر الاجتماعية والقضايا والمشكلات التى عاصرها تطورها بالفعل، خلال وجوده فى مراحل حياته الأولى حول

(١) يمكن الرجوع لمزيد من التحليلات إلى المرجع التالى:

- Lefebvre, The Sociology of K.Marx, London: Allen Lane. 1968.

الطبقات الفقيرة (العامة) في ألمانيا، أو خلال هجرته إلى العديد من الدول الأوروبية الرأسمالية الأخرى.

ومن هذا المنطلق، فإننا نرى أن منهجية "ماركس" لم تأتى من فراغ، بقدر ما جاءت نتيجة للإسهامات الهيجيلية، وإيضاً إعتماده على التاريخ أو المنهج التحليلي المقارن، الذى برعت فى إستخدامه المدرسة الألمانية فى علم الاجتماع ككل. كما إهتم "ماركس" بفكرة (التقدم) والتطور أو ما سُمى بالنزعة التطورية، التى كانت تؤمن بأساليب ومناهج دراسة الظواهر الطبيعية وكيفية تحليلها لفهم الأسباب أو العلل التى تؤثر فى حدوثها. ولا سيما، أن هذه التفرقة (التطورية) كانت تؤمن بأن الطبيعة قد وضعت نظاماً محدداً للتطور، وأن جميع الكائنات الموجودة فى هذه الطبيعة، بما فيها (الإنسان)، ولا بد وأن يخضع لهذا النظام كقانون حتمى للتطور. وهذا ما آمن به "كونت" مؤسس علم الاجتماع، وحرص أيضاً "ماركس" على إستخدامه بصورة محددة يقينية، فإن كل المجتمعات سوف تمر بمراحل التطور. وقد حددها فى عدة مراحل تاريخية وتمثلت فى نظريته عن تطور المجتمعات البشرية، تلك المراحل التى تتشابه مع العديد من تحليلات علماء الاجتماع وخاصة "كونت". إلا أن أساليب ماركس التحليلية والمنهجية، كانت تختلف عن غيره من علماء الاجتماع، ولا سيما أن حرصه على ضرورة إستخدام (الثورة)، كعامل يسبب لإسراع حركة التطور والتغير فى المجتمع، وهذا ما طرحه بصورة تحليلية متميزة فى أفكاره حول أهمية البروليتاريا أو الطبقة العمالية فى المجتمع الحديث.

ثانياً: ماكس فيبر M.Weber (١٨٦٤-١٩٢٠م).

تعد إسهامات فيبر من أهم الإسهامات المنهجية، التى وضعت أسس علم الاجتماع وحددت معالمه النظرية والبحثية بصورة عامة. ويصعب علينا عرض هذه الإسهامات المنهجية والبحثية بصورة مفصلة، بقدر ما نحرص حالياً أن نشير إليها بصورة موجزة جداً لأعتبارات مكانية ترتبط بطبيعة عرض الموضوع وإسهامات (فيبر) فى مجال فترة رواد علم الاجتماع الأوائل. وحقيقة، لا يوجد مؤلف واحد لم يعرض فيه فيبر منطلقاته النظرية والأسس المنهجية، التى بنى عليها تحليلاته العلمية التى لا تزال تغذى التطور العام لمناهج وطرق البحث الاجتماعى. وربما تجئ إسهاماته عن المنهج

وطرق البحث الاجتماعى فى عدد من المؤلفات التى تركها ومن أهمها: مقالات علم الاجتماع (١٩٤٦)، ونظرية التنظيم الإقتصادى والاجتماعى (١٩٤٧)، منهجية العلوم الاجتماعية (١٩٤٩)^(١). على أية حال، نركز حالياً للإشارة إلى، إسهامات فيبر المنهجية والبحثية النظرية، وثانياً، إلى إسهاماته الإمبريقية (الميدانية).

(أ) الإسهامات المنهجية والبحثية (النظرية).

١ - الفهم السببى:

سعى فيبر منذ البداية لأن يحدد ماهية علم الاجتماع من تحديد المنهج العلمى الذى يقوم عليه هذا العلم، وجاء ذلك فى منهجه أو مقولته عن الفهم السببى Interpretive Understanding، الذى أشار فيه لنا ينبغى أن تكون عليه العلوم الاجتماعية ومنها بالطبع علم الاجتماع، وإعتمادها على المعايير الموضوعية الدقيقة فى دراستها وتحليلها للظواهر والحقائق والمشكلات الاجتماعية الواقعية. وطرح فيبر هذا المنهج، ليقوم بعملية تحليل وفهم المعانى الخاصة بالفعل والسلوك الاجتماعى (البشرى) أو دراسته للظاهرة الاجتماعية. ولا سيما أن هذه الظاهرة لا يمكن تحليلها ودراستها بدون تقديم فهم سببى لها، ومعرفة كيفية حدوثها وتكرارها بصورة مستمرة. وهذا ما أكد عليه فيبر بضرورة أن يسعى العالم الاجتماعى ببنى هذا المنهج من أجل دراسة وسبر أغوار الظاهرة الاجتماعية لأنها تتميز بالصعوبة والتعقيد مقارنة بدراسة العالم الطبيعى عند دراسته للظواهر الطبيعية. فى نفس الوقت، حرص فيبر، على ضرورة أن يحدد مهام مقولة أو منهج الفهم السببى، لأنها تساعد الأفراد العاديين فى تكوين معنى ذاتى، يؤهلهم لدراسة سلوك أفعال الآخرين من ناحية، وتعقل الأشياء والظواهر الاجتماعية التى توجد فى العالم الطبيعى والاجتماعى من ناحية أخرى.

(١) بالطبع نشرت هذه المؤلفات بعد ترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية وللمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، مرجع سابق.

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم اجتماع التنظيم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،

١٩٨٨.

٢- النماذج المثالية:

طرح فيبر النماذج المثالية Ideal Types، باعتبارها من الأدوات المنهجية والبحثية الهامة، التي تنسب إليه و إلى غيره من علماء المدرسة الألمانية الاجتماعية من أمثال توينز، وزيمل، وغيره من أنصار المدرسة المحدثين. ولكن إرتبطت النماذج المثالية بتحليلات فيبر المنهجية، خاصة وأنه حرص على طرح هذه النماذج، كمحاولة لتعزيز الأدوات المنهجية التي يجب أن يستخدمها العالم الاجتماعي، عند دراسته للظواهر والمشكلات الاجتماعية. كما هدف أيضاً، إلى وجود هذه النماذج في إسهامها في فهم العقل الإنساني، وتقديم تفسيرات سببية ذو معنى لهذا الفعل، ومجموعة الأفعال والسلوكيات والأنشطة البشرية عامة.

ومن هذا المنطلق، حدد فيبر المقصود بالنماذج المثالية بأنها ما هي إلا بناءات (تصورية) عقلية Mehtal Constructions، يطرحها الباحث مسبقاً كفرض أو فكرة مثالية، يحاول بعد ذلك اختبار مدى وجودها أو عدمه في الواقع. إذن، يمكن القول، بأن النماذج المثالية، ما هي إلا فكرة ذهنية مجردة يطرحها الباحث الاجتماعي بصورة مثالية من واقع فهمه وخياله وتصوره الذاتي، كما يراد دراسة وتحليله. ثم يحاول بعد ذلك الباحث، أن يقارن بين هذه الفكرة والنموذج المثالي، وبين الواقعية التي يهتم بمعالجتها وتحليلها. ولكن أكد فيبر، على أن هذه النماذج - تعتبر أدوات منهجية وبحثية تحليلية من الدرجة الأولى- وهي ليست بمثابة فروض علمية، بقدر ما هي وسائل وأدوات يمكن الإسترشاد بها في دراسة الواقع وظواهره ومشكلاته المختلفة. كما إنها تساعد على بلورة مفاهيمه وأفكاره وصياغته للقوانين والإستنتاجات التي يتوصل إليها بشأن الظاهرة المدروسة. وعموماً أو بصورة موجزة، فإن مهمة أو وظيفة النماذج المثالية - بالرغم من الإنتقادات التي وجهت إليها- إلا أنها كانت من الأدوات المنهجية التي عززت عملية تطور البحث الاجتماعي خلال القرن العشرين، ولقد إستخدم فيبر هذه النماذج في تحليلاته عن السلطة السياسية، والبيروقراطية، والمدنية وغير ذلك من القضايا التي عالجها بصورة واقعية وملموسة.

(ب) الإسهامات المنهجية والبحثية (الميدانية).

تُكمن أهمية إسهامات فيبر في علم الاجتماع عامة، وتطور مجال البحث الاجتماعي خاصة لأنها جمعت بين إطارين متميزين من التمثيل هما: أولاً: الإطار النظري (التصورى) الذى يتبلور فى منهجه عن مقولة الفهم السببى، والنماذج المثالية. وثانياً: تحليلاته الميدانية التى قام بها فى ألمانيا وأجرى دراسات إمبريقية مكثفة. فلقد كون فيبر منظمة تسمى السياسة الاجتماعية Social Policy Organization، تهدف بالدرجة الأولى، لإجراء بحوث اجتماعية وتعالج مشكلات وقضايا فى كافة القطاعات الاقتصادية والإنتاجية، والزراعية، والمشكلات الواقعية التى تواجه المجتمع الألمانى عامة خلال الفترة من (١٨٤٨-١٩١٤). ولقد استخدم فيبر كافة أدوات البحث الاجتماعى وطرقه المختلفة ممثلاً فى الملاحظة المباشرة، والملاحظة بالمشاركة، وإستمارة البحث (الإستبيان)، ووضع العديد من الأساليب البحثية والمنهجية فى الكثير من الدراسات الميدانية التى إهتم بها ويمكن إيجازها بشدة كما يلى^(١):

١ - دراسته عن مشاكل العمال الصناعية فى ألمانيا:

إستغرقت هذه الدراسة قرابة عامين فى الفترة من (١٩٠٩-١٩١١) للكشف عن مشكلات العمل الصناعى فى الشركات الإنتاجية الألمانية وخاصة فى قطاع أو مصانع النسيج والكتان، وحاول فيبر أن يتعرف بصورة واقعية على طبيعة كل من ظروف العمل الإدارية، والمهنية، والظروف الفيزيقية (الضوضاء - التهوية - وضع الآلات وغيرها). وإستخدم فيبر إستمارة البحث كأداة لجمع البيانات الواقعية سواء من العمال أو الإدارة حول مشكلات العمل. بهذه المصانع. وحدد فيبر الإطار المنهجى للبحث فى ثلاث أقسام متميزة حدد فى القسم الأول: انملاح العامة للبحث، والقسم الثانى، المشاكل العلمية التى تواجه البحث، والقسم الثالث، منهج البحث الاجتماعى. كما حدد أهداف البحث بصورة واضحة خلال بداية دراسته الميدانية، كما توصل إلى العديد من النتائج العامة التى أسهمت بعد ذلك فى حل مشكلات العمل فى الشركات أو القطاعات الصناعية التى قام بدراساتها وتحليلها بصورة عامة.

(١) أنظر: عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الصناعى، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٩.

فى فترة ما قبل الحرب العلمية الأولى، ظهرت فى ألمانيا مشكلة تباطؤ العمال فى المصانع والشركات، بهدف الحد من الإنتاج أو تقييده بصورة لا تجعل العمال خارجين عن قوانين العمل، نظراً لعدم تمتعهم بحق الإضراب عن العمل كلية، ولا سيما أن الدولة كانت تهى نفسها لدخول الحرب العلمية الأولى. ومن ثم، تعتمد العمال، تقييد العمل بصورة مقصودة وذلك بهدف حل مشكلات العمل الداخلية. وتم إسناد حل هذه المشكلة إلى ماكس فيبر، الذى حاول أن يختبر بصورة واقعية الأسباب وراء هذه الظاهرة التى أنتشرت فى جميع الشركات الصناعية الألمانية. وحاول فيها أن يستخدم العديد من طرق وأدوات البحث الميدانية، مثل الملاحظة المباشرة، والإحصاءات، وإستمارة بحثية، والمقابلة وغيرها من الأدوات التى طرحها لتعزيز عملية جمع البيانات. وتوصل إلى عدد من النتائج العامة التى ترتبط بهذه الظاهرة، متمثلة فى طبيعة الأمور، وظروف العمل الداخلية، ونسق الأداة التنظيمية، وأهميته وجود النقابات أو إتحادات العمل لحل مشكلات الإنتاج مع الإدارة.

٣ - دراسة لمشكلة العلاقة المستأجرين وملاك الأراضى الزراعية^(١):

بدأت الدول الأوروبية منذ بداية القرن العشرين، بتطوير اساليب العمل والإنتاج فى كافة القطاعات الإنتاجية. وهذا ما حدث فى ألمانيا كأحد الدول التى أهتمت بمشكلات العلاقة المتبادلة بين الملاك والمستأجرين وخاصة فى القطاع الزراعى. وتحديد القيمة الإيجارية (النفة) لأستغلال الأرض، والعائد المادى الذى يجب أن يحصل عليه فئة الملاك (أصحاب الأرض). ولقد أجرى فيبر دراسته المميزة فى القطاع الزراعى لوضع سياسة زراعية ملائمة يراعى فيها حقوق وواجبات كما من أصحاب الأرض والمستأجرين. ولقد إستخدم فيبر إستمارة البحث، التى طبقت على عينة منها بلغت أكثر من (٣ آلاف حالة). وعن طريق تحليله البيانات الإقتصادية، وملاحظته للمشكلات الواقعية، طرح فيبر، النتائج العامة التى توصل إليها من خلال دراسته الميدانية، ومجموعة

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التنظيم، مرجع سابق.

من التوصيات إلى السلطات الرسمية لوضع سياسات وقوانين وتشريعات لتنظيم العلاقة بين الملاك والمستأجرين، وتهدف في النهاية زيادة الإنتاج الزراعى القومى.

٣- البحث الاجتماعى فى بريطانيا.

(١) تشارلز داروين C.Darwin.

ارتبطت آراء المدرسة البريطانية الكلاسيكية خلال القرن الثامن عشر والتاسع بآراء بعض العلماء البارزين من أمثال " هيرت سبنسر " H.Spencer، و " تشارلز داروين " C.Darwin، وإن كانت آراء الأول ترتبط بالتحليلات السوسولوجية المتميزة التى لاتزال تجد صداها العلمى فى الأوساط الأكاديمية حتى الوقت الراهن. ولكن قبل الإشارة إلى آراء سبنسر، يجب أن نوضح بعض الحقائق العامة التى ساعدت على تطور البحث الاجتماعى وإسهمت بصورة فعالة فى الترويج لأفكار سبنسر وغيره من علماء الاجتماع. ومن بين هذه الحقائق هى ظهور أفكسار داروين وكتابته الشهير عن أصل الأنواع، الذى نشر عام ١٨٥٩م. وحاول فيه أن يستخدم عدد من المناهج البحثية والتحليلية، التى إعتمدت على العلوم الطبيعية وخاصة البيولوجيا، ومحاولته التوصل إلى عدد من القوانين الاجتماعية مماثلة للقوانين الطبيعية التى تحكم العالم الطبيعى. وهذا ما جاء فى قانون الانتخاب الطبيعى، الذى توصل إليه داروين، والذى عن طريقه يمكن تفسير عملية تطور أبسط الكائنات العضوية إلى أشكال أكثر تخصصاً وتعقيداً.

كما نجد أن " داروين "، قد رفض النظريات الطبيعية والفلسفية والأخلاقية الدينية، التى كانت منتشرة فى بريطانيا وأوروبا، وحاول أن يطرح بصورة منهجية وعلمية، كيفية الإستعانة بالمنهج الطبيعية والبيولوجية، وخاصة عند دراسته لتطور الكائنات الحية العضوية بما فيها الإنسان ذاته، وهذا ما أسماه بفكرة التطور الطبيعى، إلا أن آراء " داروين " وجدت من يؤيدها ويعارضها فى نفس الوقت. ولأسىما، الفريق المعارض، الذى يؤكد على ضرورة أن يتوصل الإنسان أو مقدرته الإنسان فى تغير مسيرة حياته التطورية، والتى تختلف عن الكائنات العضوية أو الحية الأخرى. وهذا ما أكد عليه العلماء إلى ضرورة التأكيد على " إدارة الإنسان ورغبته " ومن هذا

المنطلق، فإننى أرى أن افكار " داروين " إستمدت أصولها الأولى من خلال الأفكار المالتوسية (نسبة إلى مالتوس)، وأفكاره التشاؤمية عن الزيادة السكانية. ولاسيما أن كل منهما يعبران عن مراحل التطور فى طرق البحث العلمى الذى ظهر فى بريطانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأيضاً آراء المدرسة البريطانية التى أهتمت بالترعة العلمية التطورية، ومستخدمه فى ذلك العديد من النظريات والأساليب المنهجية والبحثية التى توجد فى العلوم الطبيعية.

٢- هـربرت سبنسر H.Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣م).

ما من شك أن سبنسر عاش فى فترة ظهور علم الاجتماع على أيدي كونت، وتطوره بواسطة دوركايم، وهذا ما جعل "سبنسر" يؤيد " كونت " فى إستخدامه لمصطلح علم الاجتماع منذ بادئ الأمر. كما تعكس تحليلات "سبنسر" العديد من الأبعاد التطورية لمناهج البحث الاجتماعى عامة، والسوسيولوجى خاصة. كما يعكس ذلك مجموعة المؤلفات العلمية، التى نشرها " سبنسر " وإرتبطت بالمناهج وطرق البحث الاجتماعى، مثل الإحصاء الاجتماعى ١٨٥٣، ومبادئ البيولوجيا ١٨٦٤، ودراسة علم الاجتماع ١٨٧٣ وإهتم فيها بصورة عامة لنشر نظريته الشهيرة عن المماثلة البيولوجية. وحقيقة، أن هذه المماثلة لم تكن نظرية سوسيولوجية فحسب، بقدر ما تعكس عموماً منهجاً متميزاً فى علم الاجتماع، وتعبّر عن بدء ظهور مرحلة جديدة من جانب علماء الاجتماع الذين يؤكدون على ضرورة الإستعانة بالعلوم الطبيعية، وخاصة البيولوجيا، وهذا الإلتقاء الفكرى والمنهجى كان مماثلاً بين " كونت " و " سبنسر " ، فلقد حرص الأول، على ضرورة وجود علم اجتماعى أسماه بالفيزياء الاجتماعية، ثم أسماه بعد ذلك بعلم الاجتماع. أما " سبنسر " فأكد على ضرورة إتباع عالم الاجتماع لمناهج واساليب التحليل وخاصة علم الأحياء، ودراسته الظواهر الاجتماعية بصورة علمية ودقيقة.

ولقد حاول " سبنسر " ، أن يتصور المجتمع على أنه كان عضوى حتى يتكون من مجموعة من التحليلات التى لها وظائف معينة، مثل الكائن العضوى الذى يتكون من بناء (عضوى) ، وسوسيولوجى وظيفى. وإذا حدث خلل وظيفى فى مكونات البناء، فسوف يؤثر على بقية الوظائف والتبادلات

الأخرى. وبايجاز شديد، لقد حرص "سبنسر" في مماثلته البيولوجية، على أن يطرح ابعاداً منهجية وبحثية جديدة، لم تتبلور إلا في أفكار المدرسة البريطانية. ولكن بالطبع، أن أفكار "سبنسر" لاقت إنتشاراً كبيراً، ولاسيما بعد أن طرح أيضاً "داروين" أفكاره في كتابه عن أصل الأنواع. ولقد حاول "سبنسر" أن يوظف أفكاره أو الأفكار التطورية الأخرى، من أجل طرح عدد من المناهج وطرق البحث الاجتماعى الحديث، التى عن طريقها يمكن دراسة التغير الذى حدث على التنظيمات الاجتماعية. وهذا ما جعله يحل بصورة مقارنة بين عمليات التغير التى تحدث على التنظيمات الاجتماعية العسكرية التقليدية، والتنظيمات الصناعية الحديثة. وهذا ما أثر عموماً في تطور المناهج البحثية السوسيولوجية، ولاسيما تلك المناهج التى إعتمدت عليها المدرسة البنائية الوظيفية. وباختصار، أن المدرسة البريطانية، كما حاعت في أفكار "داروين" و"سبنسر" تمتد جذورها ذات النزعة التطورية والبيولوجية من الفكر البريطانى الذى ظهر خلال القرن السابع عشر عند مالتوس وتزايد أو تكاثر الإنسان. تلك الفكرة البيولوجية التطورية كانت بمثابة المنهج البحثى والعلمى لدراسة عملية الإستتساخ في القرن العشرين في بريطانيا على وجه الخصوص.

٤ - البحث الاجتماعى في إيطاليا.

تعكس طبيعة المجتمع الإيطالى من الناحية الجغرافية والتاريخية، دور هذا المجتمع في تطور حركة البحث الاجتماعى خلال العصور الوسطى (المسيحية)، وايضاً خلال عصر الإصلاح والتتوير. وحيث تعتبر "روما" عاصمة الإمبراطورية الرومانية، من أمثال "شيشرون" وغيره، ثم تطورت حركة البحث الاجتماعى خلال العصور الوسطى المسيحية، وتدخل إيطاليا في مرحلة مظلمة سادت فيها الأفكار التسلطية الدينية المسيحية، التى لم تسمح باستخدام العقل الإنسانى في دراسة الأشياء الطبيعية الخارجية، إلا في إطار تعاليم الكنيسة المحددة. ولكن طبيعة العلم لايمكن أن تقبل هذه التعاليم أو الحدود لأن العلم وتطوره لا حدود له على الإطلاق. فظهرت مرحلة جديدة بعد أن تضاءلت فيها إسهامات القساوسة المس يحيين من أمثال "أوغسطين" و"لاكوينى"، وظهرت أفكار عدد من الفلاسفة والمفكرين والسياسين، الذين

مهدوا أيضاً، لظهور عدد من العلماء البارزين من أمثال " جاليليو " على سبيل المثال، ومن أهم هؤلاء المفكرين الذين ظهروا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أحد فلاسفة التاريخ البارزين وهو " فيكو " G.Vico، الذى أسهم كثيراً فى تطور وإحياء مرحلة التطور العلمى والبحثى خلال عصر النهضة، وكان له الفضل الأول، فى إلهام العديد من العلماء الاجتماعيين، بعد ذلك من أمثال " باريتو " Parito، الذى يعد من أهم رواد علم الاجتماع، الذين أسهموا فى أفكار حركة البحث الاجتماعى خلال القرن العشرين. وسوف نشير لهادين العالمين بصورة موجزة فى إطار تحليلنا لأسهامات العلماء الإيطاليين فى تطور البحث الاجتماعى.

(أ) فيكو G.Vico (١٦٦٨-١٧٤٤).

صنفت أفكار " فيكو " الإيطالى فى إطار فلاسفة التاريخ، الذين وضعوا أسس التفكير العلمى خلال عصر النهضة، حيث حاول هذا المفكر أن يطور نمط واساليب البحث العلمى ومنهجيته، ويستبعد تماماً التحليلات المنهجية، التى تعتمد على الفلسفة المسيحية المثالية والأخلاقية، والتى ركزت على الدفاع المستمر لنظرية التفويض أو الحق الإلهى . وحاول " فيكو " أن يقيم مدخلاً علمياً يعتمد على المنهج التحليلى والنقدى، مستخدماً الشواهد التاريخية، كأدلة للإسترشاد بها على صحة تحليلاته وأفكاره وتصوراتة. فلقـد ركـز " فيكو " على إستخدام البعد الثقافى والسيكولوجى والتاريخى، فى دراسة مكونات طبيعة الشخصية البشرية، والسلوك الإنسانى وطبيعة البناءات والنظم السايـسة والأنثروبولوجية، التى تسهم فى نقل التراث الثقافى للأجيال عبر العصور التاريخية^(١). فى نفس الوقت إستخدم " فيكو " تحليل المضمون كأداة بحثية ومنهجية متميزة لدراسة طبيعة اللغة والأساطير، ومدى إسهامات تكوين البناء الايديولوجى لكل من الأفراد أو الشعوب، والتى يمكن الإستفادة منها فى تعزيز عملية التضامن والتماسك الاجتماعى.

(١) أنظر على سبيل المثال:

- Coser, L., Masters of Sociological Thought, N.Y: Harcourt Bance, 1977.

من ناحية أخرى، تظهر إسهامات "فيكنو" في تطوير البحث الاجتماعي، عن طريق استخدامه للمنهج التاريخي، بإعتباره واحداً من أهم فلاسفة التاريخ، الذين ركزوا على استخدام فكرة (التطور) والتقدم، لمحور أساسي للدراسة والتحليل ليس فقط كل من الأفراد والمجتمعات، ويمكن أيضاً المجتمعات والحضارات البشرية. وهذا ما جعله يقوم بتقسيم المراحل التطورية التي يمر بها كل من الأفراد والمجتمعات والحضارات. وهذا ما جعله يتوصل إلى عدد من التصنيفات التي لعبت دوراً أساسياً في تشكيل أنماط البحث الاجتماعي عند غيره من العلماء الاجتماعيين الأوروبيين وخاصة "كونت"، و "ماركس". فلقد حدد "فيكو" المراحل التطورية إلى ثلاث مراحل وهي: المرحلة اللاهوتية، ومرحلة ظهور البطولات، ومرحلة العلم الواقعي. وتكشف هذه المراحل مدى التشابه الكبير بينها وبين أفكار "كونت" و "سبنسر" و "ماركس" وغيرهم من علماء الاجتماع الذين تبني فكرة التطور في نفس الوقت، بل قد استخدم "فيكو" العديد من المفاهيم والتصورات السوسيولوجية، التي تركز على دراسة عملية التغير الاجتماعي، وكيفية حدوثه عن طريق الطفرات، أو الشكل الدائري، أو التراكمي (المعرفي). وتعتبر هذه الأفكار من أهم القضايا التي ركزت على دراسة العلاقة بين البناء الاجتماعي والثقافة والتغير المستمر، تلك الفكرة التحليلية والبحثية، التي وجدت إهتمامات ملحوظة عن الكثير من علماء الاجتماع من أمثال "سوروكين" و "فيبر" على سبيل المثال.

٢- فلوريدو باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣م).

تكمن أهمية إسهامات "باريتو" في المدرسة الإيطالية، التي وضع جذورها الأولى خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من خلال استخدامه للمنهج الرياضي التحليلي في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وبعد هذا الاستخدام المنهجي لباريتو، نوعاً من الإنعكاس العلمي والمهني، حيث كان يعمل مهندساً للسكك الحديدية في إيطاليا، كما يظهر استخدامه للمنهج الرياضي والهندسي في رسالته للدكتوراة عن العناصر

الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة^(١)، كما تبنى بعد ذلك " باريتو " المنهج الإحصائي ولا سيما أنه استطاع أن يؤسس أكبر مدرسة للإقتصاد فى أوروبا، وهى مدرسة كوزان، الذى أسسها عالم الإقتصاد الشهير " والاراس " Walars، ثم عمل بعد ذلك " باريتو " أستاذ للإقتصاد السياسى Polical Economy فى جامعة لوزان Lausanne Univ لسنوات طويلة. وهذا ما يعكس لنا عموماً، طبيعة العمل العلمى والمهنى الذى لا يشكل فقط طبيعة النظريات والأفكار، التى يتبناها العالم فى تجليلاته، ولكن أيضاً يوضح طبيعة المنهج العلمى الى يستخدمه فى دراسة القضايا والمشكلات والظواهر التى يتناولها بالفعل.

فى نفس الوقت، تعكس بعض مؤلفات " باريتو " وخاصة كتابة العقل والمجتمع The Mind and Society الذى نشر باللغة الإنجليزية تحت هذا العنوان عام ١٩٣٥، ولكن النسخة الاصلية نشرت عام ١٩٠٦ بعنوان The Treatise on General . وحاول فيه أن يبنى أيضاً العديد من المناهج الطبيعية والكيميائية، بالإضافة إلى المنهج الرياضى، والمنهج الإحصائى فى دراسة الظواهر الاجتماعية والمشكلات الواقعية التى إهتم بدراستها وتجليها. ويرى بعض المحللين تطور البحث الاجتماعى والمنهجى عند " باريتو "، إن هذا العالم قد شهد مرحلة تطورية علمية ومنهجية كبيرة، ولا سيما بعد أن إهتم العديد من العلماء الطبيعيين بدراسة الظواهر الاجتماعية، وكان من بينهم بالطبع " باريتو ". وهذا ما ظهر فى استخدامه للمناهج الطبيعية، وحاول تطبيقها بصورة كبيرة، بالرغم من الصعوبات التى واجهته فى ذلك، إلا أنها فى مجملها كانت نوع من الطموح العلمى والبحثى لتبنى المناهج الكمية والطبيعية فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

علاوة على ذلك، تكمن أهمية إسهامات " باريتو " فى تطور البحث الاجتماعى، نظراً لتنوع استخداماته لطبيعة المناهج العلمية والتفسيرية التى استخدمها فى دراسته للقضايا والظواهر الاجتماعية. بالإضافة إلى المناهج (الرياضية) والطبيعية، والكيمياء. وإستخدم أيضاً المنهج السيكولوجى فى

(١) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى: عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية السوسولوجية الكلاسيكية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١.

دراسته للعديد من الظواهر والمشكلات السيكولوجية والاجتماعية، وهذا ما ظهر في تحليلاته عن فكرتي (الرواسب - والمشكلات)، أو تحليله للأفعال المنطقية أو غير المنطقية، التي حاول فيها أن يضيق المنهج السيكولوجي والمنهج الإحصائي، والمنهج الرياضي في دراسته وتحليله لهذه القضايا، التي عززت كثيراً من عمليات البحث والتحليل بعد ذلك. وهذا ما جعل " باريتو " يطرح نظريته السوسولوجية، وأن يشير إلى منهجية حديثة لعلم الاجتماع، وتصوره بأنه علم رياضي، منطقي، تجريبي، وهذا ما أكد عليه في مقدمة مؤلفه عن علم الاجتماع. وهذا بالإضافة إلى، أن " باريتو " حرص على أن يفتح المجال سواء لعلماء الاجتماع، أو النفس، أو الاقتصاد، أو السياسة لتطور مناهج هذه العلوم وإعتمادها على الملاحظة والتجربة ومكانيتها في التوصل إلى قوانين علمية تساعد على التنبؤ المستقبلي، وذلك عن طريق إستخدامه للمنهج العلمي الوصفي الكمي الشامل.

بايجاز، لقد طرح " باريتو " ست خطوات أساسية توضح منهجه العلمي كما يلي:

- ١- لا يندرج تحت نطاق البحث العلمي إلا ما يخضع للملاحظة والتجربة.
- ٢- تعتبر الظواهر الاجتماعية متسلسلة وظيفياً.
- ٣- تستبعد نهائياً الظواهر المؤقتة من نطاق البحث العلمي، لأن العلم لا يهتم إلا بالظواهر الدائمة.
- ٤- ضرورة دراسة القضايا المشتركة والتي لها صفة العمومية بين المجتمعات.
- ٥- ضرورة وجود علم الاجتماع المقارن الذي يمهّد الطريق لأقامة علم اجتماع عام.
- ٦- يعتبر المنهج الوصفي الكمي، من أفضل المناهج العلمية لدراسة الحقائق الواقعية، والذي يسعى لأقامة معرفة يقينية بعيدة عن الخيال.

٣- مرحلة المداخل البحثية السوسولوجية الحديثة.

تركت مرحلة الرواد إسهامات متعددة في مجال تطور البحوث الاجتماعية، وإن كنا لاحظنا أن طبيعة النشأة الأولى لعلم الاجتماع، أهتمت بتناول العديد من القضايا والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي توجد في المجتمع الحديث، ولا سيما أن عملية نشأة علم الاجتماع قد تلازمة مع ظهور المجتمع الصناعي، وهذا ما ظهر في تحليلات كل من " كوست " و "

ماركس"، و "سبنسر" و "فيبر" وغيرهم. كما ظهر خلال هذه المرحلة أنماط مختلفة من مناهج البحث العلمى وطرقه وأدواته المختلفة، وخاصة أن الكثير من هؤلاء الرواد الأوائل حرصوا على أهمية تبنى المناهج العلمية المختلفة مثل المنهج التاريخى، والمنهج التجريبي، والإحصائي (الرياضي)، وغير ذلك من مناهج وطرق وأدوات بحثية ومنهجية متنوعة. وقد إستعان هؤلاء العلماء بالملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والإستبيان (إستمارة البحث)، وتحليل المضمون، والسجلات والإحصاءات والوثائق، وغير ذلك من وسائل متعددة أسهمت فى مجملها إلى تنوع البحوث والنتائج والتعليمات، التى توصلت إليها بصورة عامة.

إلا إن عملية تطور البحث الاجتماعى منذ البدايات الأولى من القرن الماضى (العشرين)، أخذت أبعاداً تحليلية ومنهجية متعددة الأنواع، وجاء هذا التنوع لعدد من الأسباب التالية:

أولاً: تطور النظرية السوسيولوجية العامة، والتى تعتبر الموجه الأول لإجواء الدراسات سواء أكانت نظرية أم إمبريقية (ميدانية).

ثانياً: تنوع التخصصات الفرعية المختلفة لعلم الاجتماع، والعلوم الاجتماعية الأخرى، وهذا ما أسهم فى تطور عمليات التعاون البحثى والمنهجى بين العلوم الاجتماعية من ناحية، والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى.

ثالثاً: التركيز على كل من الملاحظة، والتجربة، كأساس لتطور البحوث الاجتماعية وإخضاع الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعية قيد البحث العلمى الدقيق.

رابعاً: ظهور عدد من المداخل البحثية السوسيولوجية المتطورة، التى حدثت بكل من مناهج وطرق وأدوات البحث الاجتماعى، وطبيعة تناول ودراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية التى توجد فى الوقت الراهن بصورة عامة.

خامساً: تطور مؤسسات البحث الاجتماعى سواء فى الدول المتقدمة والنامية، أو الجامعات أو المعاهد البحثية العليا المتخصصة، إيماناً بالدور الإيجابى وأهمية البحث العلمى الاجتماعى فى حل المشكلات الواقعية.

على أية حال، سنركز اهتمامنا الحالي، للإشارة إلى أهم هذه المداخل وكيفية إسهامها في تطور البحث السوسيولوجي خاصة، والبحوث الاجتماعية والطبيعية عامة.

١ - المدخل التنظيمي الحديث Modern Organizational Approach.

منذ أن وضع "ماكس فيبر" نظريته عن التنظيم البيروقراطي، حاول أن يطبق هذه النظرية وإختبارها من الناحية الميدانية خاصة عندما درس عدد من التنظيمات الصناعية في المجتمع الألماني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومستخدماً العديد من المناهج والطرق وأدوات البحث الاجتماعي، ويتحقق من مدى صحة نظريته ووجودها في الواقع الاجتماعي الذي عاش فيه. كما حرص أيضاً، على أن يختبر العديد من الأدوات المنهجية البحثية، التي إصططبت بإسمه مثل النماذج المثالية، وغيرها التي طرحها لتكون موجهة نظرياً عاماً، يسعى الباحث لدراسته وتحليله، بإعتبارها تصور عقلي، وعلمي في نفس الوقت. إلا أن طبيعة الإهتمام بدراسة التنظيمات الاجتماعية. أي كان نوعها مثل المستشفيات، والمصانع، والشركات التجارية، والمدارس، والجامعات، وغيرها يتخذ أبعاداً تحليلية وبحثية ومنهجية جديدة، نتيجة لتطورات البحوث الاجتماعية، ونوعية النظريات، وأدوات البحث وطرقه المختلفة، وتنوع التخصصات العلمية التي شاركت في هذه البحوث.

وما نقصده حالياً، بالمدخل التنظيمي الحديث وأثره في تطور البحوث الاجتماعية (السوسيولوجية)، وهو الإهتمام بدراسة التنظيم كمؤسسة اجتماعية حديثة بدأت تستقطب إهتمام الكثير من العلماء والمتخصصين في مجالات متعددة ومتنوعة مثل قطاع الشركات الصناعية على سبيل المثال. ولقد أجريت دراسات ميدانية منذ العقود الأولى من القرن الماضي (العشرين) من أمثال دراسة "فريدريك تايلور" F.Taylor صاحب نظرية الإدارة العلمية Scientific Managment Theory، والذي حاول أن يدرس كيفية تطور أساليب العمل والإنتاج في الشركات الصناعية الأوروبية والأمريكية، مستخدماً الكثير من الأساليب البحثية والمنهجية ولاسيما، الملاحظة، والتجربة، وتطبيقها على العمال وفئات المهنية الأخرى وذلك من أجل زيادة إنتاجاتهم. كما استخدم مقاييس كمية لقياس حجم العمل والإنتاج، أو ما يعرف بإستخدامه

لأساليب بحثية ومنهجية دقيقة لقياس كل من الحركة والزمن، ووصف كل عملية إنتاجية بصورة دقيقة. تم حاول بعد ذلك، أن يحدث من أساليب العمل والإنتاج عن طريق استخدام وسائل وطرق البحث الاجتماعي المتعددة. وكانت لدراسات " تيلور " وإعتماده على التجارب الميدانية والملاحظة المباشرة أثر كبير في ظهور دراسات أخرى لرواد نظرية العلاقات الإنسانية Human Relations Theory ومن أمثال " التون مايو " A. Mayo وزملاؤه، الذين سعوا لتبني الكثير من أساليب البحث ومناهج وطرق جمع البيانات اللازمة والتي ركزت على استخدام التجربة العلمية داخل الشركات الصناعية، مثل تجارب مصنع " هاورثون " Hawthorne التابعة لشركة ويسترن اليكتروك في الولايات المتحدة، وذلك في الفترة من ١٩٣٢/٢٧، ثم وحدة البحوث الثانية في الفترة ١٩٤٢/٤٠. وحاولت هذه الدراسات، أن تبني المنهج التجريبي، عن طريق استخدام مجموعات من العمال وتطبيق الأساليب العلمية عليهم خلال عمليات البحث والدراسة، ثم تطور هذا النوع من البحوث إلى خارج الولايات المتحدة، وانتقلت إلى أوروبا، لتطبق بواسطة " بارديه " Bar]det في فرنسا، ودراسة معهد " تافستوك " Tavistock في إنجلترا بإشراف " اليوت جالكيس " E.Jaques^(١).

إلا أن مجال دراسة التنظيمات قد تنوع بعد ذلك، خلال الخمسينات وحتى السبعينات، حيث ظهرت مجموعة من العلماء الذين يطلق عليهم علماء علم إجتماع التنظيم الحديث، الذين تأثرو بكتابات " روبرت ميرتون " R. Merton، و " تالكوت بارسونز " T.Pursons وتعزيزهما لعدد من النظريات السوسيولوجية ذات الطابع التنظيمي وخاصة النظريات الفرعية، والتي يطلق عليها بنظرية الأنساق الاجتماعية Social Systems Theory، والتي حاولت أن تنظر إلى التنظيمات الحديثة على أنها أنساق فرعية، تتأثر بالعوامل الداخلية والخارجية التي توجد في المجتمع الخارجي. وهذا ما يتبلور على سبيل المثال في دراسات " بارسونز " و " سيملر " Semelser، على عدد من التنظيمات التعليمية والتربوية، سواء في الولايات المتحدة أو في بريطانيا

(١) للمزيد من التفاصيل على استعمال التجربة بواسطة هؤلاء العلماء : إرجع إلى ما كتبناه في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

وغيرها من الدول الأوروبية. ولقد استخدم هؤلاء العلماء العديد من المناهج التجريبية، والإحصائية (الرياضية)، مثل دراسات "سميلسر" على المدراس البريطانية، وتطبيقه للعديد من المناهج الكمية والكيفية، ولاسيما، تحليل المضمون. هذا بالإضافة إلى الإعتماد على الملاحظة المباشرة، والوثائق والسجلات، وغير ذلك من أدوات البحث الاجتماعي التي ركزت على التنظيم، باعتباره وحده للدراسة والتحليل أو نسق من الأنساق الاجتماعية التي تتأثر ببقية الأنساق الأخرى.

ولقد تطور هذا الإهتمام خلال الثمانينات والتسعينات ودراسة التنظيمات الاجتماعية الأخرى، مثل الجيوش والتنظيمات العسكرية، والمؤسسات العلاجية مثل المستشفيات على سبيل المثال وتعتبر دراسات "اليون فريد سون" E.Firedson، على عدد من المستشفيات كنموذج على هذا التحديث فقد حاول أن يختبر عدد من التصورات النظرية المرتبطة بطبيعة البناءات التنظيمية للمستشفيات، كتنظيمات خدمية Organizations Services، ويعمل بها العديد من الفئات المهنية والطبيعية والإدارية المتخصصة، والتي تزايدت مؤخراً بعد تحديث ما يعرف بالتكنولوجيا الطبيعية Medical Technology ويدخل هذا النوع من الدراسات أيضاً تحت إدارة المستشفيات Mangament of Hospital، كما حاول الباحث أن يؤكد على طبيعة التباين والاختلاف بين التنظيمات الاجتماعية (الإنتاجية وغير الإنتاجية) وما تعرف بتنظيمات الخدمات، ومستخدمها الكثير من المناهج التجريبية والكمية في دراسة المستشفيات. وهذا ما حاولنا أيضاً دراسته على عدد من مستشفيات المصرية بمدينة الإسكندرية، حيث يركز البحث على استخدام عدد من الأساليب المنهجية والبحثية وطرق أدوات جمع البيانات المتعددة سواء عن طريق الملاحظة، أو استمارة الاستبيان، أو الملاحظة بالمشاركة، أو الإحصاءات، أو الوثائق، والبيانات غير الجاهزة، وذلك لتقييم كل من مدخلات ومخرجات Inputs- Outputs، العملية الإنتاجية للمستشفى كتنظيم اجتماعي، وإيضاً للفئات المهنية العاملة به.

هذا بالإضافة إلى ظهور العديد من الدراسات التنظيمية التي تعرف بدراسات العامل التحليلي الأوحده، والمقصود بهذا النوع من الدراسات هو التركيز على عامل واحد يؤثر في بقية العوامل والعمليات الداخلية للتنظيم مثل عامل التكنولوجيا Technology ، أو عامل إتخاذ القرارات Decision Macking يمثل النوع الأول من الدراسات دراسة " تشارلز بيرو " C.Perow ، والتي تركز على بُعد التكنولوجيا كعامل مؤثر في جميع مدخلات ومخرجات دراسة التنظيم. كما يمثل دراسة إتخاذ القرار بُعداً آخر بواسطة " مارش وسيمون " March & Simon. وبالرغم من هذه الدراسة قد ظهرت في الستينيات من القرن العشرين، إلا أن الدراسات الحديثة في مجال التنظيم تعتبر إطاراً مرجعياً لدراسة أنماط العلاقات والتفاعل من خلال تحليل عملية إتخاذ القرار..... بالطبع، تعتبر دراسات كا من " تيرنر " Turner ، " لورنس " Lawrence ، و " ديوين " Dubin ، و " بافيلاس " Baveles من هذا النوع من الدراسات التي اعتمدت على كل من الملاحظة المباشرة، والمقابلة وإستمارة البحث، كأدوات للبحث الاجتماعي. بالإضافة إلى المنهج التحليلي المقارن، والمنهج التجريبي، والإحصائي لتطوير هذا النوع من الدراسات التي اعتمدت على كل من المقاييس الكمية والكيفية. وإيجاز، لقد تطور الاهتمام بالدخل التنظيمي الحديث لدراسة الكثير من أنماط التنظيمات الحديث، مثل الشركات العالمية الصناعية Multinal Gorporation ، والمؤسسات الإعلامية Mass Media Organizations ، ومؤسسات إدارة العدالة (القضائية) Justics Organization ، والتي استخدمت فيها كافة المناهج البحثية وأدوات وطرق البحث الاجتماعي المختلفة بصورة عامة.

٢- المدخل الأيكولوجي Ecological Approach.

يعتبر المدخل الأيكولوجي (البيئي) من المداخل السوسيولوجية، التي تمتد جذورها الأولى إلى اهتمامات علماء الاجتماع الأوئل، الذين جعلوا البيئة الأيكولوجية نقطة إهتمامة الأساسي، وهذا ما ظهر في دراسات كل من " سبنسر " و " ودر كايم " و " ماكس فيبر " ، فلقد إهتم الأول بالمماثلة البيولوجية. كنمهج للدراسة والتحليل والمقارنة بين المجتمع كائن اجتماعي والكائن العضوي (الحى)، الذى يتأثر كل منهما بالبيئة الخارجية التى يعيش

فيها. كما عالج " دوركايم " طبيعة تقسيم المجتمع المحلي، إلى مجتمعات آليه، ومجتمعات عضوية، كما ناقش فكرتي الجوانب الايكولوجية الإستراتيجية والديناميكية في المجتمعات، وتأثير كل من حجم السكان، والتقدم التكنولوجي والإقتصادي، وأنساق الإتصال، وتغير ايكولوجية المجتمعات من مجتمعات معزولة إلى مجتمعات متحضرة. أما رؤية "قيير" للأيكولوجيا، كما جاءت في تحليلاته الكثيرة عن المدينة، والتقدم الحضري، وظهور المجتمعات الميتروبوليتية الكبرى، المرتبطة بتقسيم العمل والتخصص وغير ذلك من آراء أخرى. وعموماً تطور المدخل الايكولوجي في إجراء بحوث علم الاجتماع، أو ظهور ما يعرف بالمدرسة الجغرافية أو الأيكولوجية كما جاءت في دراسات " لامارك " Lamarck، و " كارل ريتز " K.Ritter، و " فريدريك لوبلاي " F.Leplay، وغيرهم آخرون من الذين ركزوا على إستخدام المناهج والابعاد التحليلية والبحثية المتعددة ودراسة العلاقة بين البيئة (الايكولوجية) وطبيعة التنظيم الاجتماعي، والسلوك البشري، والتدرج في الطبقة الاجتماعية، والتوطين الصناعي والحضري، والتوزيع المكاني والايكولوجي.

إلا أن فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية، نشطت خلالها الدراسات السوسيولوجية، التي تبنت المدخل الايكولوجي ولا سيما، بعد أن تطورت إسهامات المدرسة الأمريكية السوسيولوجية. كما جاءت في نشأة علم الاجتماع الحضري Urban Sociology، وإهتمام مجموعة من العلماء بإستخدام المناهج السوسيولوجية التي تم تحديثها بصورة سيئة عما كان عليه خلال القرن التاسع عشر والثامن عشر. كما ركزت على دراسة الكثير من المناطق الأيكولوجية الحضرية أو المتخلفة، مثل دراسات "كليفورد"، و "سميث" و "بارك" و "ماكينزي"^(١). وغيرهم آخرون. الذين ركزوا على إستخدام مناهج البحث الاجتماعي لدراسة الوحدات الجغرافية والايكولوجية والإقليمية وتأثيرها على السلوك الإنساني أو البشري، ومعرفة تأثير الحراك أو التنقل الاجتماعي، وعلاقة الإنسان بالأرض، والمسكن أو البيئة ومعدلات الجريمة. ومشكلات التخطيط الحضري والعمراني، وجماعات الأحداث، وغير

(١) أنظر لمزيد من التفاصيل:

.. السيد عبد العاطي السيد، البيئة والمجتمع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.

ذلك من دراسات معقدة ثم استخدام كل من الملاحظة، والمقابلة، وإستمرارات البحث، والإحصاءات، والخرائط والرسوم والاشكال البيانية التي تظهر علاقة البيئة الأيكولوجية بالظواهر والمشكلات المدونة.

ويحدد " جورج ميثودورسون " G.Theodorson للتطور التاريخي للمدخل الأيكولوجي في علم الإجتماع بأربعة مراحل أساسية وهي بإيجاز:

١- المرحلة الكلاسيكية: وتعكس تحليلات (بارك) أهم ملامح هذه المرحلة. وتميز في مجملها بين المجتمعات الإنسانية والمملكات البدائية في تأثير كل منهما بالبعد الأيكولوجي والبيئي.

٢- المدخل التقليدي المحدث: وخلال هذه المرحلة التي ظهر ما بعد الثلاثينيات من القرن العشرين وتجاوز إعادة تقييم واستخدام المدخل الأيكولوجي سواء من ناحية المفاهيم، أو التصورات النظرية، أو المناهج التحليلية وذلك من أجل معرفة العلاقة بين توطين الإنسان ببيئته الأيكولوجية ومستوى تقدمه وتطوره.

٣- المرحلة السوسيوثقافية: وهذا ما ظهر في تحليلات " والتر فايرز " W.Fixey، الذي إستخدم الجوانب السوسيوولوجية والثقافية في دراسة البيئة أو العمليات الأيكولوجية دون التأكيد على الجوانب أو العوامل الحيوية أو الإقتصادية. وهذا ما ظهر في تحليلاته للثقافة أو القيم الثقافية، على تلعب دوراً أساسياً في تحديد العلاقة بين الإنسان والمجتمع من جانب، وبين الفيريقية المكانية، من جانب آخر.

٤- مرحلة مدخل تحليل المناطق الاجتماعية: ذلك المدخل الذي يؤكد على أهمية العلاقات المكانية ومجموعة العوامل الأخرى التي تفسر علاقات الإنسان ببيئته الأيكولوجية. وهذا ما ظهر في تحليلات كل من شيكى " E.Sheky و " دونل بيل " W.Bell. وتعتبر الأسس المنهجية والبحثية التي ظهرت خلال هذه المرحلة من أهم الأسس المنهجية والبحثية السوسيوولوجية عموماً، والتي ظهرت بواسطة الإعتماد على المدخل الأيكولوجي والتي تعرف في الوقت الحاضر بمدخل التحليل العاملي، أو الأيكولوجيا العمالية.

وبإيجاز، إن الإهتمام بالمدخل الايكولوجي، ساعد على تطور المناهج البحثية المختلفة لعلم الاجتماعى وغيره من العلوم الاجتماعية والطبيعية فى نفس الوقت. ولاسيما، أن علماء المناهج والبحث العلمى فى هذه العلوم تؤكد على أهمية وجود نوع من التقارب بين إهتمامات المتخصصين سواء فى العلوم الاجتماعية والطبيعية، للإستفادة من خبراتهم البحثية النظرية والميدانية. وهذا ما جعل علماء الطب عند دراساتهم للأمراض المتوطنة أو المعدية يركزون على أهمية دراسة العوامل البيئية والاجتماعية، أو عندما يهتم علماء الهندسة وخاصة تخطيط المدن الحديثة أن يهتموا بدراسة طبيعة أنماط التوطن الحضري. والتخطيط العمرانى سواء من ناحية المرور أو الكثافة السكانية، وتوسيع الخدمات والمرافق وغير ذلك من علماء العلوم الاجتماعية.

٣- المدخل التفاعلى الرمزي Symbolic Interaction Approach.

يعكس هذا المدخل التقارب المنهجى والبحثى بين العلوم الاجتماعية، ولاسيما بين علم الاجتماع، وعلم النفس، ذلك التقارب الذى ترجم إلى بعض التخصصات العلمية المشتركة مثل علم النفس الاجتماعى Social Psychology، وغيره من التخصصات الأخرى التى تطورت منذ العقود الأولى من القرن العشرين، والتى ركزت على ضرورة الإستفادة من المناهج السيكلوجية والسوسيولوجية فى دراسة المشاكل والقضايا الاجتماعية، ولاسيما أن إستفادة العلوم الاجتماعية للتقارب المنهجى والبحثى بين العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والأحياء والطبيعة والفلك وغيرها والتى إستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى دراستها للظواهر الطبيعية ومقدرتها على التنبؤ المستقبلى لها. وعلى أية حال، أن تطور المدخل التفاعلى الرمزي، يرجع إلى إسهامات علماء النفس الاجتماعى الأوائل من أمثال " تشارلز كولى " C.Cooly، و " جورج هومانز " G.Homims، وغيرهم من العلماء الأولين الذين إهتموا بدراسة الجماعة Group Study وإستفاد منهم بعد ذلك علماء مدرسة العلاقات الإنسانية فى دراساتهم لأنماط التفاعل فى الشركات بين الجماعات العمالية وجاء ذلك فى دراسات كل من " وليام هويت " W.White فى دراسته لجماعات الناصية Street فى كورنيل بمدينة نيويورك، ثم دراسته أيضاً على جماعات العمل فى المطاعم الكبرى^(١).

(١) أنظر ما كتبناه فى الفصل الخامس على التجربة فى مجال دراسات الجماعة

كما تتبع تطور هذا المذخل إسهامات علماء مدرسة مييتشجن من أمثال " ليكرت " R.Likert، الذي حاول أن يدرس طبيعة عملية القيادة والإشراف Leadership & Supervision وعلاقتها بعمليات الإنتاج، وطبيعة أنساق العلاقات الإنسانية والاجتماعية. كما كانت هذه الدراسات حافزاً لدراسات أجراها أم. حاب مدرسة جامعة أوهايو مثل دراسات كل من " كارول " Karol، و " شايلز " Chapple و " تشاتل " Shattle، و " أستوجول " Stogdill، حول طبيعة الرضا في العمل، والمكافأة والجزاء، والضبط الرسمي وغير الرسمي. وبإذ غم من يقود المناهج السوسيو- سيكولوجية، وأدوات البحث الاجتماعي التقليدي مثل الملاحظة، وإستمارة البحث، والمقابلات المكثفة، والإحصاءات، والوثائق والسجلات، وتحليل المضمون. إلا أن تطورات دراسات الجماعة أخذ أبعاداً أخرى، منهجية وبحثية لدراسة العلاقات الاجتماعية داخل الجماعات، وإجراء العديد من التجارب على الكثير من التنظيمات والمؤسسات الصناعية والإنتاجية والخدمية. عمومأ، جاء هذا التطور بعد إجراء " مورينو " Moreno للعديد من الدراسات الميدانية ومحاولأ أن يستخدم المقاييس السوسيو مترى Socio-Meter، وذلك بقياس شبكة العلاقات الاجتماعية بصورة كمية. ثم تطورت بعد ذلك إستخدام المقاييس الكمية لمعرفة العلاقات بين أفراد الجماعة، وجاء ذلك فى إطار إختراع مقاييس للتفاعل (الكوتوجراف)، وهو بمثابة آلة حاسبة للقياس الكمي للعلاقات بين أفراد الجماعة. ثم ظهرت مقاييس كمية لدراسة العلاقات أكثر تطور من المقاييس الأكثر دقة وهى السوسيو جرام Socio-Grams.

الشخصيات الفردية. ولقد تلازم هذا التطور مع تطور آراء علماء النفس الاجتماعي من أمثال " جورج ميد " G.Mead، و " هـلبرت بلومر " H. Blaomer، الذين حاولوا استخدام المدخل التفاعلي الرمزي، لدراسة طبيعة العلاقات داخل المدرسة أو المؤسسات التربوية الأخرى، ومعرفة كيفية اختلاف أنماط التفاعل والمواقف العامة وسلوكيات التلاميذ والفئات المهنية التربوية الإدارية، ومدى انعكاس العلاقات المتبادلة بين المدرسة والتنظيمات التعليمية بالوسط البيئي والثقافي، والسياسي، الذي يوجد في المجتمع الخارجي.

وبالطبع، لقد تم استخدام العديد من المناهج التاريخية، والتجريبية، وأدوات البحث الاجتماعي التي تم تعزيزها بالمناهج الرياضية، التي استطاع الكثير من أنصار المدخل التفاعلي الرمزي، ولاسيما ذلك النوع من المقاييس الكمية سواء أكانت سوسيومترية أم أنثوجرافية أو سوسيوجرافية. لكن مع تطور الحاسب الآلي (الكمبيوتر)، ثم تعزيز المقاييس الكمية، في دراستها للظواهر والمشكلات الاجتماعية بصورة عامة، كما ساعدت هذه الأجهزة التكنولوجية المتقدمة على سرعة الحصول على البيانات والمعلومات. وإن كانت دراسات أنصار المدخل التفاعلي الرمزي، تركزت للجمع بين إيجابيات كل من المقاييس الكمية والكيفية في نفس الوقت، وذلك من أجل تعزيز النتائج التي تهدف إلى تحقيقها والتعميمات المنتظرة من هذه النتائج وربما تعتبر دراسات كل من " أرون سيكرول " A.Cicourol، و " جون كيتوس " J.Kitsuse. في دراسة التنظيمات والمؤسسات التربوية مثل الجامعات بالولايات المتحدة خير دليل على ذلك. ولاسيما، عند تركيزها على دراسة عملية صنع القرار Decision Making داخل هذه المؤسسات. واستطاع الباحثين للتوصل إلى عدد من القوانين والتعميمات حول الدور الوظيفي والمهني، الذي تلعبه القيادات التعليمية سواء على مستوى القطاعات الحكومية العامة، أو على مستوى النظام التعليمي المحلي، أو على مستوى المدرسة في صنع عملية القرار التربوي. وبالطبع، أعتمد الباحثين من المقاييس البحثية والواقعية دراسة أنماط تفاعل والعلاقات الاجتماعية نتيجة صدور هذه القرارات.

إلا أن مجال استخدام المدخل التفاعلي الرمزي قد تطور بعد ذلك، وشمل أيضاً العديد من التنظيمات العلاجية أو الطبية، مثل المستشفيات سواء أكانت علاجية عادية أو مؤقتة أم دائمة مثل مستشفيات الصحة العقلية

Mental Health Hospital. وحاول بعض علماء علم الاجتماع الطبى Medical Sociology، أن يتعرفوا على أنماط التفاعل والعلاقات سواء بين المرضى، أو بين الفئات الطبية والعلاجية المتخصصة، مثل الجراحين، والأطباء، السيكولوجيين، أو هيئات التمريض. كما حاول البعض أن يدرس العلاقة بين الأطباء. أو المرضى وما سميت بدراسة Patients - Doctors Relationship، ولتى تعكس فى مجملها العديد من أنماط التفاعل، ونوعية المواقف، وتقبل القرار الطبى، والإمتثال لقواعد المستشفى، وإحترام مواعيد الدواء وغير ذلك من عمليات وسلوكيات متعددة وتمثل دراسات كـ " من " رينر " Renner، و " أوبر " Auber، و " كينج " King، و " توماسك " Tomasic، خير مثال على ذلك. ولقد استخدم هؤلاء الباحثين العديد من مناهج البحث السوسولوجى والسيكولوجى والطبى فى نفس الوقت. ولقد طور من أساليب المدخل التفاعلى الرمزي عن طريق التركيز على فكرة أهمية الفريق المعالج Medical Team، الذى يشمل نوع من المعالجات الطبيعية ذات الطابع التعارضى أو مشترك بين أفراد المهن الطبية. وهذا ما يظهر سواء فى العلاقات السوسولوجية أو الجسمانية أو السيكولوجية عامة. وعموماً، نجد أن تطور المدخل التفاعلى الرمزي، جاء نتيجة تحديث كل من المناهج السوسولوجية والسيكولوجية، وإيضاً الطبية معاً مع التركيز على عامل الملاحظة، والتجربة، كأساس للدراسة والتحليل، وتحديث أيضاً الأساليب والمقاييس الكمية والكيفية والإستفادة منها فى دراسة المشاكل الاجتماعية فى العديد من المؤسسات الطبية والعسكرية والإقتصادية، والسياسية. وأيضاً فى دراسات الجريمة والانحراف.

٤ - المدخل الفينومينولوجى Phenomenology Approach.

تمتد جذور هذا المدخل إلى الفكر الفلسفى الذى ظهر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وخاصة بعد أن نشرت أعمال رائد هذا الإتجاه الفينومينولوجى أو ما يسمى بالإتجاه الظاهراتى أو دراسة الظاهرة عند " إدموند هومسرل " E. Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨)، ولكن ما لبث أن إنتقل إلى علم الاجتماع تحت المسمى ذاته، وإستخدام بصورة كبيرة ولاسيما بعد أن تناوله العالم الألمانى الاجتماعى " الفرد شوتر " A. Schutz (١٨٩٩ - ١٩٥٩)

الذى رفض الكثير من الإتجاهات-السوسيولوجية الوضعية ومناهجها المختلفة لأكتشاف الحقيقة أو دراسة الظواهر الخارجية. وحاول " شوتز " أن يستخدم هذا المدخل (الفينومينولوجى) من أجل إيجاد منهج علمى جديد، يركز فيه على أهمية الدور الإيجابى الفعال للفرد أو الذات. ولاسيما، أن طبيعة الواقع الاجتماعى والبيئة المعرفية والثقافية، ماضى إلا نتيجة طبيعية للأفعال والسلوكيات والأنشطة، التى يقوم بها الأفراد والجماعات فى حياتهم اليومية. كما حاول " شوتز " بهذا المعنى، أن يطور منهجه علم الاجتماع، وجعل الأفعال ذات المعنى، هى جوهر إهتمام هذا العلم وموضوعه الأساسى.

وإنطلاقاً من هذا التفسير السابق، للمدخل الفينومينولوجى، سواء من منطلقاته الفلسفية أو الاجتماعية (السوسيولوجية)، فإنه يسعى لتبنى منهج علمى جديد، يجمع بين المناهج التحليلية الفلسفية التى تؤثر على حتمية الذات الإنسانية فى دراسة وتعلل الأشياء والأفعال التى توجد فى الحياة اليومية. كما تتبنى الآراء السوسيولوجية التى تعتمد على هذه الفكرة الفلسفية فى درجة الواقع الاجتماعى، وتحليل معناه بصورة موضوعية. وعموماً يعتمد المنهج الظاهراتى أو الفينومينولوجى على مسلمتين أساسيتين وهما^(١):

أولاً: الإمتناع عن إصدار أية أحكام تتعلق بالواقع الموضوعى، وعن تجاوز حدود التجربة الذاتية.

ثانياً: اعتبار عملية المعرفة، وموضوعها هى الوعى الخالص وليس الوجود الحقيقى. تلك المسلمتين اللتان ظهرا فى أفكار رائد هذا الإتجاه الفلسفى هو " سرل " الذى غنى أساساً بفكرة بناء الوعى وعلاقته الذاتيه بالمنهج العلمى. ولاسيما إنه كان يؤكد على أن منهجية أى علم من العلوم لم تأت من فراغ، بقدر ما ظهرت هذه المنهجية إنعكاساً ونتيجة حقيقية لطبيعة القضايا المعرفية التى سبقت مرحلة المنهج العلمى بمراحل طويلة.

ومن هذا المنطلق، أن منهجية البحث الاجتماعى قد تطورت بفضل تبنى العديد من الإتجاهات الفلسفية والسيكولوجية والإقتصادية والرياضية والإحصائية بالإضافة إلى إسهامات المناهج فى العلوم الطبيعية الأخرى مثل الأحياء. وهذا ما ظهر خلال التقارب الفلسفى - السوسيولوجى ونتج عن تبنى

(١) أنظر : سمير نعيم، النظرية الاجتماعية، القاهرة: مكتبة سعيد رافت، ١٩٧٧.

المنهج الفينومينولوجي - أو الإتجاه الظاهراتي في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. ولاسيما، أن أنصار الفلسفة الظاهراتية يرون أن معرفتنا بالعالم الطبيعي الخارجي، إنما تأتي عن طريق خبرتنا الذاتية، وهذه الخبرة هي التي تمكننا من إدراك جوهر الأشياء. وهذا يعني بكلمات أخرى، هو إهمال كل المعارف السابقة عن الأشياء الخارجية، قبل إصدار أحكام معينة حولها. وبالطبع، أن هذه الفكرة ترجع إلى آراء العديد من الفلاسفة من أمثال " كانت "، إلا أن هذه الأفكار كإسلوب منهجي للحصول على المعرفة، وجدت قبولاً كبيراً من العديد من علماء الاجتماع من أمثال " ماكس شيلر " M.Scheler، و " شولتز " Schutz، و " جوفمان " Goffman، و " جارفينكل " Garfinkel، و " بيتر برجر " B.Berger، وغيرهم آخرون.

وما يعنينا حالياً، أن المدخل الفينومينولوجي، تركز على استخدام منهج علمي وتحليلي جديد، حاول فيه أن يدمج الكثير من الأفكار والمفاهيم المختلفة مثل (الوعي)، و(الغيرة)، والتجربة، والشعور، والمعرفة، والظاهرة. علاوة على ذلك، فإن أنصار المدخل يعترفون بالولاء إلى تحليلات " ماكس فيبر " M.Weber، ولاسيما أن هناك الكثير من المماثلة والتشابه بين تحليلات ودراسات أنصار المدخل الفينومينولوجي المحدث، وأفكار فيبر التقليدية حول المنهج العلمي، الذي ينطلق من مقولة الفهم أو المعنى الذاتي للأفعال الإنسانية، والتي تعتمد على كل من النماذج المثالية والتصورات العقلانية كمسلمات أو بديهات منهجية تعزز من عملية البحث السوسولوجي ودراسة القضايا والظواهر التي يواجهها العالم الخارجي. وخاصة، أن تحليل عملية المعرفة الإنسانية Human Knowledge، تحتاج إلى نوع من المناهج الكيفية، بصورة خاصة، وتعتمد على، شمولية العقل وتفسير الأشياء، ومعرفة الأسباب والعوامل وراء تكرار حدوث الظواهر، أو الإعتماد على كل الخبرة العقلية، والملاحظة، والتجربة العلمية في نفس الوقت.

وفي الواقع، لقد استخدم علماء الاجتماع المدخل الفينومينولوجي منذ بداية الستينيات من القرن الماضي (العشرين)، ومحاولين أن يحدثوا من أساليب البحث الاجتماعي، نوعية المناهج المستخدمة في دراسة المشاكل والقضايا الاجتماعية. ولاسيما، بعد أن تعددت استخدامات المناهج الكمية وتطور

الحاسبات الآلية، وإجراء البحوث التي تعتمد في جمع بياناتها على المناهج الكيفية في نفس الوقت. وهذا ما ظهر على سبيل المثال في دراسات علماء إجتماع التربية Sociology of Education، خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، محاولين دراسة نسق التربية ونظام المعرفة الإنسانية، التي يتلقاها الفرد أو النشئ في مؤسسات التعليم المختلفي، ومحاولتهم تمثيل مستويات الشعور، والتفاعل، الإدراك، والوعي، والخبرة، وتحليل المعاني والمفردات، وأنماط المعارف المختلفة التي يحصل عليها التلميذ في المؤسسة التعليمية. وهذا ما ظهر في دراسات عالم الإجتماع البريطاني "ميشيل يونج"^(١) M. Young، الذي سعى لتطبيق المدخل الفينومينولوجي، وإعتباره منهجاً جديداً يسهم في دراسة العديد من المشاكل والقضايا التي ترتبط بأنساق ومؤسسات المعرفة الثقافية، مثل المؤسسات التربوية، متحليل دور هذه المؤسسات، ومدى مساهمتها في تطوير النسق المعرفي والثقافي لتلاميذ أو الأجيال عبر العصور.

وفي السنوات الأخيرة، ظهرت دراسات متعددة في العديد من تخصصات وفروع علم الاجتماع الحديثة، التي تهتم بتبني المدخل الفينومينولوجي في دراسة المشكلات والقضايا الاجتماعية الواقعية، عن طريق استخدام أساليب البحث العلمي المتطور الذي يعتمد على المنهج الكيفي، الذي يعتمد عليه غالباً أنصار هذا المدخل. ولكننا لسنا حالياً، في إطار سرد جميع هذه الدراسات، بقدر ما نشير هنا إلى أن إسهامات (يونغ) السابقة، قد عززت بالعديد من الدراسات الميدانية سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة أو الدول النامية، مثل دراسات "كرايل" Karabel، و "هالس" Haslsey، و "جيرالد" Gerald، التي بدأت تناقش قضايا معرفية وثقافية، لا ترتبط فقط بطبيعة الدور الذي تلعبه مؤسسات التعليم في إمتلاك الثقافة، ولكن أيضاً دور المؤسسات الإعلامية. مثل الصحافة، والتلفزيون، والسينما، والإنترنت،

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر :

- Young , M.(ed) Knowledge and Contrd: New Direction For Sociology of Education , London: Macmillon, 1971.

وغيرها من وسائل الإتصال الجماهيرى^(١). وحاولت هذه الدراسات أن تتلّقى على سبيل المثال، الدور الوظيفى والمهنى لمؤسسات المعرفة الثقافية الحديثة سواء كانت مؤسسات تربوية تقليدية، أم مؤسسات إعلامية فى تشكيل البناء المعرفى والثقافى للجماهير والمجتمعات.

٥- المدخل الإثنوميثودولوجى Ethnomethodology Approach.

يرتبط هذا المدخل بالدراسات الظاهرية (الفينومينولوجية) وايضاً المداخل السلوكية (التفاعلية الرمزية)، التى أثرت كل منها فى مناهج البحث والدراسة فى علم الاجتماع، وغيرها من العلوم الاجتماعية. وإن كان المدخل الإثنوميثودولوجى، قد تطور منذ أواخر الستينيات من القرن الماضى (العشرين) على يد "هارولد جارفنكل" H. Garfinkel. أما مصطلح (الإثنوميثودولوجى) فإنه يشير إلى جزئين أو مقطعين أساسيين هما: الإثنو Ethno، وتوضح حجم المعرفة التى عن طريقها يستطيع الفاعل أو الذات البشرية أن تصف الأشياء الخارجية المادية أو اللامادية، وذلك طبقاً لما هو شائع استخدامه بواسطة أفراد المجتمع أو ما هو معروف واقعياً. أما مصطلح ميثو Mothod، فهى المنهج أو الوسيلة التى عن طريقها يستطيع الأفراد أن يحلّو أو يصفوا أو يتعلّوا معانى الأشياء الذاتية والواقعية وما تسعى لتحليله حالياً، ليس دراسة الإتجاه الإثنوميثودولوجى كإتجاه نظرى بقدر ما نركز على علاقة هذا الإتجاه بتطوير البحوث الاجتماعية عامة، البحوث السوسولوجية خاصة. ولأسيما، أن المدخل الإثنوميثودولوجى يتبنى مناهج بحثية تحليلية، تعتمد على المقاييس الكيفية من الدراجة الأولى، لأنها تسعى للكشف عن أصل الأشياء والوسائل، التى يمكن عن طريقها أن نتعلّق حقائق الأشياء وأنماط المعرفة الإنسانية وحياتنا اليومية والسلوك البشرى، وذلك عن طريق استخدام ميكانيزمات بحثية ومنهجية معينة.

(١) للمزيد من التحليلات إرجع إلى:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، سوسولوجيا الإتصال والإعلام، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.

ويعرف البعض المنهج الإثنوميثودولوجي، بمنهج، الشعوبية، أو منهج الطرق الشعبية السابق، التي تحدث في الحياة اليومية العادية، ولا سيما أن سلوكيات الأفراد خلال ممارستهم اليومية وشعوبياتهم وأفعالهم تحدث بصورة تلقائية أو عفوية روتينية، لذا فإن مهمة علم الاجتماع ومناهجه يجب أن تتطور لدراسة هذه الممارسات والسلوكيات اليومية ومعرفة المعاني الضمنية والذاتية التي تحملها وتشير إليها. إذن يمكن القول، بأن المنهج أو المدخل الإثنوميثودولوجي من وجهة نظر علماء الاجتماع، يهدف إلى فهم الموقف الاجتماعي Social Situation. من الداخل، وكما يبدو للناس الذين يعيشون ويحسون به. كما أم مهمة علم الاجتماع، يجب أن تهتم بدراسة الجانب (غير المرئي)، الذي لا تحس به أو قد يكون مألوفاً لدى كثير من الأفراد ومن ثم، فإن مهمة علم الاجتماع يجب أن تركز منهجياً هموماً، والكشف عن هذا الجانب، وجعل الناس يدركونه والإحساس به، ربما عن طريق معرفة مخالقاتهم له. وهذا ما يظهر بوضوح عند معرفة أسباب خروج الفرد عن القواعد والسلوكيات العامة المعترف بها اجتماعياً.

ومن الناحية المنهجية والبحثية لأستخدامات المنهج الإثنوميثودولوجي، الذي يركز على كيفية استخدام المقاييس الكمية والكيفية لدراسة الأشياء أو المعلومات الذاتية التي توصف بالبيانات المعرفية في نفس الوقت. فلقد طور علماء علم الاجتماع القانوني، وسوسيولوجيا الإتصال والإعلام، وعلم الاجتماع الطبي، وغير ذلك من التخصصات التي تهتم بدراسة وديناميات الجماعة، وتفسر السلوك الاجتماعي المتطور والمعقد بمرور الوقت، وذلك عن طريقه استخدام المنهج الإثنوميثودولوجي، الذي يمكن تعريفه أولاً، على أنه يستخدم مجموعة من الطرق والأساليب البحثية لدراسة سلوك الأفراد الذين قاموا بتنفيذ أفعال وسلوكيات معينة، وجعل هذه الأفعال والسلوكيات في موقف Situation، يمكن إعادة إنتاجية Reproducing، مرة أخرى، وبصورة تجعل الباحثين أو الأفراد الآخرين ودراسته وتحليله. ومن ثم، يمكن القول بإيجاز شديد، أن الهدف الأساسي من المنهج والمدخل الإثنوميثودولوجي هو جعل أفعال وسلوكيات الأفراد وطرق حدوثها في مواقف تجريبية وإجتماعية معينة، من أجل خضوعها للدراسة

والتحليل أو تفسير أسباب حدوثها، وذلك من قبل مجموعة من (المحكمين) سواء كانوا من الباحثين أو الأفراد العاديين المهتمين، بدراستها هذه السلوكيات، وذلك من أجل وضع تقارير مكتوبة حول هذه السلوكيات وطرق أدائها ككل.

وفي الواقع، لقد تطورت الدراسات الأنثوميثودولوجية في السنوات الأخيرة، وأصبحت تستخدم في العديد من البحوث الاجتماعية والسوسيولوجية المختلفة. ونشير هنا حالياً، لإستخدامها في مجال علم الاجتماع القانون، وعلم الإتصال والإعلام، كمثال فقط للإشارة لتنوع إستخدامات المتخصصين في علم الاجتماع ككل. ففي المجال الأول (علم الاجتماع القانوني)^(١). إهتم عدد من العلماء من أمثال " هارت " Hart، و " جايس " Jayyuse، و " هيستر " Hester و " بولوز " Polner و " مازر " Mother وغيرهم آخرون بإستخدام المنهج الأنثوميثودولوجي. وذلك عند تحليلهم ودراساتهم إلى طبيعة إرتكاب الجرائم بواسطة المجرمين، ولأسيما في حالة جرائم الإغتصاب، والسرقة بالإكراه، والقتل المتعمد وغير ذلك. حاول الباحثين، أن يتعرفوا من الناحية المهنية على طبيعة الدوافع Motives، والأسباب التي عن طريقها يقوم المجرم بأسباب الجريمة، كما يحاول رجال القانون والسرقة، معرفة الأسباب والدوافع وملابسات الجريمة، حتى يمكن الإستفادة منها في إجراء أبحاثهم المستقبلية، نظراً لتنوع وإختلاف ظروف دوافع وملابسات كل جريمة عن أخرى وخلال عملية وصف المجرم وإجباره، على تمثيل عملية إرتكابه الجريمة، يقوم المحققون والباحثون بدراسة الأساليب والطرق التي عن طريقها يمكن معرفة كل التفاصيل المرتبطة بها، ويكتبون تقارير عنها، مستخدمين في ذلك وسائل الملاحظة، والتجربة، والمقابلات، وإستمارة البحث، والتسجيل المرئي والصوتي والموقفى عموماً السلوك المجرم خلال عملية تمثيله لكيفية إرتكاب الجريمة بصورة عامة.

(١) أنظر على سبيل المثال:

- Feeley , M, The Process in The Punishment Handling Cases in Lower Coures, N.Y: Rassel SAGE, 1979.

كما تكشف أيضاً، معظم الدراسات الإثنوميثودولوجية مثل دراسة "مازر" Mather على محاكم لوس أنجلوس^(١)، Los Angeles، نوع من التطور البحثي والمنهجي، لأساليب وأدوات جمع البيانات المرتبطة بمجال الجريمة والانحراف وإدارة العدالة القضائية. ولا سيما، أن استخدام الأدوات التقليدية مثل الملاحظة، وكتابة التقارير تحتاج إلى نوع من التطور والتحديث، وخاصة لدى الفئات المهنية القانونية التي تعمل في المؤسسات القضائية مثل المحاكم سواء أكانوا قضاة، أو محامين، أو هيئات المحلفين، أو محققين إداريين وشرطة أو ممثلي الإدعاء والنيابة العامة. لهذه الفئات لابد وأن تتعرف على المزيد من المعلومات والبيانات التي ترتبط بالمجرمين والخارجين على القانون وما يعرف عموماً بالمعرفة الثقافية القانونية، التي تمكنهم من تفسير السلوك الإجرامي، وكيفية التعرف على الأسباب وظروف وسلوكيات مرتكبي هذا السلوك المعقد. في نفس الوقت، طور الباحث بعض الأساليب والأدوات البحثية التي تمكن هذه الفئات من تطور قدراتهم بصورة عامة. ولقد تطور المنهج الإثنوميثودولوجي دراسة أيضاً عمليات المناقشات والمفاوضات التي تحدث بين هيئات المحلفين، أو بين المحامين والقضاة قبل إصدار الأحكام القانونية.

وفي مجال الاتصال والإعلام، نجد أن الكثير من القائمين على وضع البرامج الإعلامية (القائمين بالعملية الاتصالية)، يهدفون إلى جعل المشاهد إلى هذه البرامج، في موقف اجتماعي معين، يستطيع أن يحكم على الأشياء أو السلوكيات أو الأفعال، أو المواقف التي يتم تمثيلها بصورة تعتمد على المناهج الإثنوميثودولوجية التي تسعى إلى تجسيد رؤية المشاهد في الأفلام والمسلسلات، وإعطاء فرصة للجمهور للحكم عليها من وجهة نظرهم الخاصة. وبعد ذلك يحدث نوع من التقييم الذاتي للجمهور لطبيعة سلوكياته، وأفعاله وحياته اليومية الروتينية، والتي يمكن عن طريقها أن يقيم الفرد ذاته من خلال حكمه على أفعال وسلوكيات الآخرين، حتى ولو تم تصورهما في مشاهد سينمائية أو تلفزيونية فكاهية أو درامية.

(١) لمزيد من التفاصيل انظر:

- Mather, I, *Peta Bargaining or Trail. The Proces of Criminal. Case.* Longton: Mass, 1979.

الفصل الثالث

طبيعة المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية

تمهيد:

- ١- تعريف المنهج العلمى وخصائصه.
- ٢- خطوات المنهج العلمى.
- ٣- المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية.
- ٤- حدود المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية.

تمهيد:

مع بداية القرن الحادى والعشرون يتدلى علماء الاجتماع وغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، نحو المزيد من التقدم العلمى فى مجالات بحوثهم وتخصصاتهم المختلفة، بما حققه علماء العلوم الطبيعية، والطفرة العلمية التى تم إنجازها فى مجالات الطب، والفلك، والأحياء، والهندسة، والكيمياء وغير ذلك من تخصصات مشتركة ظهرت مع نهاية القرن العشرين مثل الهندسة الحيوية، والبيوكيمياء، وغير ذلك من فروع حديثة جاءت نتيجة للتعاون العلمى والبحث المنهجى بين علماء العلوم الطبيعية المختلفة. وهذا ما ظهر فى الإنجازات العلمية التى حدثت خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين قبل عملية الاستنساخ، والهندسة الوراثية، وغير ذلك من إنجازات لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق تبنى أساليب بحثية ومنهجية حديثة ومتطورة، إهتم فيها علماء العلوم الطبيعية بتحديث أنماط تفكيرهم ومعالجتهم للقضايا والمشكلات الطبيعية عن طريق استخدام الملاحظة، والتجربة، والفروض العلمية، والتوصل إلى قوانين ونظريات أكثر حداثة وتطوراً عما كانت عليه خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن الماضى (العشرين).

ومن ثم، أصبحت قضية المنهج العلمى Scientific Method، من أهم القضايا التى تشغل إهتمام كل العلماء والباحثين فى تخصصاتهم الاجتماعية والطبيعية. وهذا ما ظهر خلال البدايات الأولى لظهور المجتمع الحديث، وإهتمام علماء الاجتماع والعلوم الانسانية، بأهمية تبنى أساليب البحث العلمى والمنهجى، التى توجد فى العلوم الطبيعية، نظراً لما حققته هذه العلوم من تقدم ملحوظ فى دراساتهم والظواهر التى يهتمون بمعالجتها بصورة مستمرة. ولقد لاحظنا خلال الفصول السابقة، مدى تطور البحث الاجتماعى عامة والسيولوجى خاصة، خلال القرنين التاسع عشر والعشرون، ولاسيما فى الدول المتقدمة التى لاتزال تعطى إهتماماً ملحوظاً لقضايا البحث العلمى والمتطلبات المرتبطة به. وإن كانت هناك عدد من الدول النامية التى إهتمت بمراكز البحث العلمى، رغبة منها فى تحقيق التقدم والتطور الذى لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق الإهتمام بمجال البحوث العلمية سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية. وبالفعل لقد ظهرت محاولات جادة من جانب علماء الاجتماع خلال

القرن العشرين، الذين إهتموا بالمنهج العلمى وتطور أساليب الدراسة والتحليل، عند تناولهم للظواهر والمشكلات التى يعالجونها فى الواقع. ولاسيما التركيز على الملاحظة، والتجربة، كأساس منهجى لتتبع حدوث الظواهر ومعرفة أسبابها بصورة علمية ومدروسة.

وفى إطار إهتمامنا بدراسة مناهج البحث العلمى الاجتماعى، وأدواته ووسائل جمع بياناته المختلفة، نركز حالياً على تحليل عدد من القضايا المنهجية والبحثية، التى تعد موضوعات هامة بالنسبة لطلاب علم الاجتماع خاصة، والعلوم الاجتماعية عامة، وأيضاً إلى الباحثين المبتدئين الذين بدأوا بالفعل ممارسة العمل والخدمة الاجتماعية، سواء على المستوى النظرى أو الامبيريقى والميدانى، أى فى مجال البحوث الواقعية، أو ممارسة العمل والنشاط الاجتماعى فى مختلف المؤسسات الاجتماعية المختلفة. ومن أهم هذه القضايا البحثية، التعرف على طبيعة المنهج العلمى المستخدم فى الدراسات الاجتماعية، ومن أهم تعريفاته وخصائصه المختلفة، وإلى أى حد يمكن تمييز تحديد صعوبة هذا المنهج من قبل العلماء الاجتماعيين المتخصصين فى مجال المناهج والبحوث الاجتماعية. وإيضاً، تناول أهم الخطوات الأساسية التى يتكون منها المنهج العلمى، ومعرفة إلى أى حد تطورت هذه الخطوات أو المكونات الأساسية للمنهج خلال المرحلة السابقة. هذا بالإضافة إلى معرفة مدى إمكانية استخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وهل يوجد تباين وإختلاف بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية عند استخدامها للمنهج العلمى؟. وأخيراً، سنشير بإيجاز، إلى أهم حدود أو قصور المنهج العلمى واستخداماته فى البحوث الاجتماعية، وما حققته هذه البحوث عند تبنيها لهذا المنهج، ولاسيما فى مجال البحوث السوسولوجية خلال النصف الأخير من القرن الماضى؟.

١- تعريف المنهج العلمى وخصائصه.

حقيقة، يعكس لنا تحليل التراث للمنهج العلمى منذ القرن الثامن عشر، أن هناك تعريفات متعددة قد إرتبطت بهذا المنهج ولاسيما بعد حدوث طفرة البحث العلمى التى مهدت لظهور المجتمع الحديث وتقدمه. ومن ثم، يصعب علينا حالياً، أن نشير إلى هذا الكم الهائل من تصورات وآراء العلماء أو الباحثين وتميزهم للمنهج العلمى، بقدر ما نسعى حالياً للإشارة لأهم التعريفات التى إختلفت على

المنهج العلمي، وخاصة استخداماته في مجال البحوث والدراسات السوسولوجية، أو بالتحديد آراء علماء مناهج وطرق البحث الاجتماعي، الذين أدلو بذلوقهم في قضية البحث العلمي الاجتماعي، ونوعية مناهجه وأنواع جمع البيانات التي أرتبأت به. ومن ثم، نود أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها : إننا سنعرض فقط، وبإيجاز لأشئلة من تعريفات هؤلاء العلماء وتصوراتهم للمنهج العلمي، وخاصة استخداماته في مجال الدراسات الاجتماعية وهي كمايلي:

أولاً التعريفات العربية:

(١) تعريف عبد الرحمن بدوي، الذي يرى أن المنهج العلمي " هو الطريق المؤدى للكشف عن الحقيقة في العلوم المختلفة. وعن طريق مجموعة من القواعد العامة، التي تسيطر على سير العقل، وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة " (١).

(٢) تعريف محمد طلعت عيسى، بتصوير مناهج البحث العلمي " على أنها جميعاً تسترئ في وصفها بأسلوب للتفسير العلي المنظم، الذي يعتمد على الملاحظة العلمية. والحقائق والأرقام، في دراسة أنظوائهم الاجتماعي والاقتصادية، دراسة موضوعية بعيدة عن المؤثرات الشخصية أو الاتجاهات التي تمايها المصالح الذاتية " (٢).

(٣) تعريف كل من إبراهيم أبولغد ولويس، مليكه بأن المنهج العلمي " هو الطريقة العلمية، أو الأسلوب الإستقرائي في التفكير، ويبدأ بملاحظة الظواهر، وتؤدي الملاحظة إلى فرض الفروض، وهي علاقات نخيلها بين الظواهر لملاحظتها، ثم نحاول التحقق من صدقها " (٣).

(٤) تعريف جمال زكي، الذي يرى " المنهج العلمي على أنه الوسيلة التي عن طريقها يمكن الحصول إلى الحقيقة أو مجموعة الحقائق، في أي موقف من المواقف، ومحاولة إختبارها للتأكد من صلاحيتها في مواقف أخرى،

(١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٨، ص ٥.

(٢) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٣، ص ٣٥.

(٣) إبراهيم أبو لغد، لويس مليكه، البحث الاجتماعي: مناهجه وأدواته، القاهرة، سرس الليان، ١٩٥١، ص ١٠.

وتقييمها لنصل إلى ما نطلق عليه إصطلاح نظرية، وهي هدف كل بحث علمي^(١).

(٥) تعريف عبد الباسط عبد المعطى، الذى يرى المنهج العلمى فى علم الاجتماع " بإعتباره رؤية العلم، وتناوله للبيئة الاجتماعية، وحركتها وظواهرها، ومكوناتها وعلاقاتها. كما تتألف هذه الرؤية من خلال إعتمادها على مسلمات العلم عامة، ومسلمات علم الاجتماع خاصة " (٢).

ثانياً: التعريفات الأجنبية.

(١) تعريف "جورج ليند برج" G. Lundberg. المنهج العلمى "هو الوسيلة التى عن طريقها يكون لدينا قدرة للتنبؤ، ودراسة الظواهر تحت ظروف أو شروط معينة تمكنا من دراستها بصورة علمية".

ويظهر من خلال التعريف السابق، أن لندبرج، حاول أن يربط بين المنهج وطبيعة العلم، خاصة وأن هناك تمايز بين العلوم ومجالات دراساتها وتحليلها، ومن ثم فهى (العلوم) أيضاً تتبنى نظريات Theories معينة، وتتناول ظواهر معينة أيضاً. وهذا ما يجعل طبيعة المناهج ترتبط بكل من النظريات، ومحصلة العلم والمعرفة. وهذا ما جعل (اليندبرج) يطلق على المنهج العلمى أيضاً " بأنه وسيلة المعرفة، التى تصمم فى إطار علم مميز، بغض النظر عن طبيعة الموضوع أو القضايا التى تهتم بدراسته وتحليله " (٣).

(٢) تعريف بيتر مان P. Mann الذى يرى أن " المنهج العلمى يتميز عن المناهج العلمية بوسائل متعددة، منها، إن المنهج العلمى يتميز بأن لديه أهداف محددة، هذه الأهداف تجعله قادراً على إكتشاف الحقيقة، بل الحقيقة بذاتها " (٤).

(١) جمال زكى، السيد ياسين، أسس البحث الاجتماعى، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٦٢، ص ٨.

(٢) عبد الباسط محمد عبد المعطى، البحث الاجتماعى: الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص ٥٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- Lundberg, G, Social Research, London: 1948, pp. 4-5.

(4) Mann. H. P. Methods of Sociological Enquiry, Oxford: Basil Blackwell, 1977, p.30.

كما يحاول (بيترمان)، أن يضيف إلى أن المنهج العلمي، وأهدافه ترتبط بأهداف العلم وخاصة الالتزام بالموضوعية Objectivity، والحياد العلمي، والإعتماد على الملاحظة. وهذه هي أهداف العلم، ومن ثم فإن علم الاجتماع ومنهجه العلمي يجعله علماً متميزاً وفريداً في دراسته للظواهر الاجتماعية.

(٣) تعريف إبراهيم كابلان A. Kaplan، الذي يسعى لتعريف المنهج العلمي لأستخدامه بصورة برجماتية (عملية) "باعتباره الوسيلة التي عن طريق إستخدامها يزداد فاعليتها، وزيادة معرفتنا وفهمنا للحقائق، وهي أيضاً (المنهج العلمي) وسيلة عملية ومفيدة لكل من الفرد والمجتمع" (١).

(٤) تعريف بيرنارد فيليبس B. Phillips (٢) الذي يعرف المنهج العلمي بأنه "الوسيلة التي عن طريقها يمكن زيادة فهمنا للظواهر من عدة نواحي وهي ١- تحديد المشاكل أو الظواهر المراد دراستها وزيادة معرفتنا لأسباب حدوثها، ٢- الحصول على البيانات والمعلومات الأساسية المرتبطة بالمشاكل والظواهر المراد معالجتها، ٣- تحليل وتفسير هذه البيانات، في ضوء القواعد التي يتم تصنيفها عليها، ٤- النوصل إلى نتائج عامة ترتبط بالظواهر أو المشكلات التي نهتم بمعالجتها".

وفي الواقع، إن حصيلة التعريفات السابقة الخاصة بالمنهج العلمي سواء أكانت تعريفات عربية أم أجنبية توضح عدد من النقاط التالية التي نستطيع أن نوجزها كما يلي:

١- أن طبيعة المنهج العلمي تعكس نوعية إهتمامات البحث الاجتماعي، الذي يرتبط بعلم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية، ولاسيما أن هذا المنهج ما هو إلا وسيلة لزيادة معارفنا وقدراتنا لدراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة.

٢- أن للمنهج العلمي فوائد علمية وتطبيقية هامة، فهو ليس مجرد وسيلة لجمع البيانات، ولكن أيضاً يساعد للتنبؤ بها وكيفية حدوثها وتطورها بصورة عامة.

(1) Kaplan, A , The Conduct of Inquiry: Methodology for Behavioral Science: San Francisco: Chandler, 1964, p.4.

(2) Phillips, S, P, Social Research: Strategy and Tacticss, N.Y: Macmillan Publish. co, 1979. p. 4.

٣- أن المنهج العلمي يتميز عن غيره من المعارف الإنسانية، نظراً لإرتباطه بالعلم، وللعلم أهداف يسعى لتحقيقها وذلك في ضوء المسلمات المرتبطة بالعلم ذاته.

٤- يساعد المنهج العلمي، ليس فقط لجمع البيانات حول الظواهر المراد معالجتها، بل أيضاً يسهم في تصنيفها وتفسيرها وتحليلها، والتوصل إلى نتائج عامة حولها.

٥- أن المنهج العلمي لا يمكن تفسيره أو استخدامه من الناحية العملية، إلا عن طريق إرتباطه بالنظرية العلمية، ولا سيما أنها تعتبر الموجه الأساسي لكل من الباحثين ومفاهيمهم المستخدمة في دراسة الواقع.

وبإيجاز، يمكن أن نعرف المنهج العلمي بأنه " طريقة للتفكير، والبحث العلمي، الذي يعتمد على مسلمات العلم الأساسية مثل الملاحظة، والفروض، والتجربة، والنظرية، كما يسهم المنهج العلمي من الناحية (العملية)، بتحديد المشكلات الاجتماعية، وجمع البيانات المرتبطة بها، وتفسيرها وتحليلها، والتنبؤ بها، والوصول إلى عدد من القوانين العامة التي تعزز مجال الدراسات الاجتماعية مستقبلاً."

- الخصائص العامة للمنهج العلمي:

حقيقة، طرحت التعريفات السابقة للمنهج العلمي العديد من الأفكار المرتبطة بطبيعته والمفاهيم المتصلة به، وأهدافه، ولقد أشرنا في السطور السابقة بعض التصورات العامة حول هذه التعريفات، والتي أشارت إلى عدد من الخصائص المتعلقة بالمنهج العلمي. ونظراً لأهمية هذه الخصائص نحاول أن نصنفها بصورة أكثر تحليلاً في ضوء مراجعتنا لثراث ما يتناوله علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي، حول هذا الموضوع، ويمكن إيجاز هذه الخصائص كما يلي^(١):

(١) يعتبر المنهج العلمي أفضل الأدوات التي يستخدمها الفرد من أجل زيادة معارفه وإدراكه للحقائق والأشياء والظواهر المراد دراستها وتحليلها، وتوسيع حصيلة المعرفة المرتبطة بهذه الظواهر. ومن ثم، فإن المنهج العلمي يعتبر

(١) أنظر:

- عمر محمد الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١، ص ٥٦ وما بعدها.

من أهم الوسائل التى يسهم فى زيادة المعارف الإنسانية والبيئية والطبيعية ومحاولة التحقق منها بصورة علمية ومدروسة.

(٢) يرفض المنهج العلمى الإعتماد كلية على، آراء السابقين وخاصة الآراء والتصورات التى لا تستند إلى الأسلوب العلمى أو تستند إلى التفسيرات الغيبية، أو التى لديها أحكام غير موضوعية أو ذاتية أو أيديولوجية. ومن ثم، فإن الباحث العلمى والاجتماعى، يجب أن يتحرى الدقة فى الآراء السابقة، ولا يحق له أن يصدر أحكام مسبقة، حول ظواهر أو مشكلات أو قضايا معينة ومن إختيارها بصورة علمية، ويعتمد فيها كلية على أساليب المنهج العلمى وخطواته الأساسية.

(٣) إن الحقائق التى يصل إليها المنهج العلمى، يجب أن تكون هى ذاتها قابلة للدراسة والتحليل، وأيضاً قابلة للغير والتعديل، نظراً لأن المنهج العلمى ما هو إلا وسيلة للتفكير المنظم والمتطور. علاوة على ذلك، إن هذا المنهج يهتم بدراسة قضايا ومشكلات وظواهر متغيرة بمرور الزمن وتتباين حسب معدلات الوقت والمكان أو البيئة الاجتماعية والجغرافية. ومن ثم، كما يرى بعض علماء المناهج، إن كل بحث علمى تم إختياره بواسطة المناهج العلمية، حقائقه وقوانينه التى توصل إليها، هى حقائق كمية مؤقتة. وهذا ما يجعل التطبيق العلمى للمنهج قابل للتغير والتدريب المستمر.

(٤) يقوم المنهج العلمى فى دراسته للظواهر والحقائق على كل من الملاحظة، والتجربة كأساس لدراسة هذه الأشياء بصورة دقيقة، ولذا يستلزم الباحث الاجتماعى عند تطبيقه للمنهج العلمى، أن يستخدم هذه الوسائل (الملاحظة، والتجربة). كما يحرص على تعقل معانى الأشياء عن طريق إستخدامه لهذه الوسائل ولاسيما أنها تساعد فى تحقيق الموضوعية والبعد عن الذاتية بقدر الإمكان أو ما يعرف بالحياد العلمى. وهذا ما أكد عليه " إميل دور كايم " E. Durkheim فى كتابه المميز (قواعد المنهج فى علم الاجتماع) ، بأن الظواهر الاجتماعية يجب دراستها على أنها أشياء أو حقائق As Facts^(١).

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى :

- إميل دور كايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة / محمود قاسم، القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٦١، ص ٩٠، ص ١١٦.

(٥) يجمع المنهج العلمى بين الإستنباط والإستقراء، وبالتالى بين الفكر والملاحظة، وهذا ما يعتبر فى حد ذاته أحد خصائص المنهج العلمى، الذى ينتقل ما بين الإستنباط والإستقراء، بإعتبارهما أساس التفكير التأملى، الذى يستخدم بواسطة العلم للبحث عن الحقيقة. فالإستقراء، يمهد لتكوين الفروض وصياغتها، أما الإستنباط، يهدف لإكتشاف النتائج المنطقية الناتجة من طرح الفروض العلمية، وبالطبع إستبعاد البعض منها. ومن ثم، فإن كل من الإستنباط والإستقراء، بإعتبارها أساس التفكير التأملى، يجب أن يستخدمها الباحث الاجتماعى، من أجل بناء نسق من المعرفة الموثوق بها، والتى تبدأ منذ طرح الفروض العلمية، ومحاولة التحقق منها، ثم إصدار تعميمات عامة تعتبر بمثابة نتائج علمية ثم التوصل إليها.

(٦) يتميز المنهج العلمى بإستبعاد العاطفة البشرية، أو ما يسمى بالتحيز الإنفعالى والعاطفى، وأن لا يكون لدى الباحث الاجتماعى -الموضوعى- أى دوافع ذاتية أو شخصية أو تنصيرية أو سلافية أو دينية، قد تقصف بنتائج دراساته وأبحاثه بعيداً عن الموضوعية كأساس للبحث العلمى، ويجعله عرضة للشك والخطأ سواء من جانب ضميره العلمى، أو من خلال نتائج دراسات الباحثين الآخرين حول النتائج التى توصل إليها هو فى دراساته، التى بنيت على أسس غير موضوعية أو منطقية.

(٧) يمتاز المنهج العلمى بخاصية المرونة والقابلية عموماً للتطبيق، لدراسة العديد من الظواهر والمشكلات والقضايا التى قد تتنوع حسب طبيعة ومجالات العلوم وتخصصاتهم الفرعية. وهذا ما أكد عليه الكثير من العلماء، بأن المنهج العلمى لا يمكن أن يقوم على مجموعة من القواعد المنطقية الجامدة (الإستاتيكية) الغير قابلة للتعديل بصورة مستمرة. ولاسيما، أن جميع العلوم سواء أكانت طبيعية أم إنسانية متنوعة المجالات والتخصصات وتختلف فيما بينها على أسس معيارية أو تحليلية.

(٨) يتميز المنهج العلمى بأنه منهج واحد فى كل العلوم سواء أكانت اجتماعية أم طبيعية، وقد يرى البعض خطأ أن طبيعة المنهج العلمى تتغير داخل العلم الواحد، وهذا ما يجعل داخل علم الاجتماع العديد من المناهج المستخدمة مثل المنهج التجريبي، والمنهج التاريخي، وبالمنهج الوصفى، والمنهج المقارن وما

إلى ذلك من تسميات أخرى، تؤكد في مجملها إلى عدم أوحادية المنهج العلمي المستخدم في العلوم ومنها علم الاجتماع بالطبع. ولكن الحقيقة أن المنهج العلمي هو منهج واحد في جميع العلوم بما فيها علم الاجتماع، ولكن الذي يتغير هو الأساليب والإجراءات الفنية، التي تجعل داخل العلم ذاته مناهج متعددة مثل التي ذكرت من قبل. وهذا ما يؤكد عليه علماء المناهج " بأن المنهج العلمي واحد والأساليب هي المتعددة " (١).

عموماً، تلك أهم الخصائص العامة التي تم إستخلاصها من خلال تحليلنا للتراث العلمي المرتبط بالكتابات وإهتمامات علماء المناهج والبحث العلمي عامة، والاجتماعي والسياسي خاصة، والتي أكدت على عدد من المميزات التي يتصف بها المنهج العلمي، ويوضح كثيراً من التعريفات، التي طرحت مسبقاً حول المنهج العلمي وإستخداماته بواسطة العلماء المتخصصين في مجال البحث العلمي الاجتماعي. حقيقة، أن تطور البحث الاجتماعي، مرهون بالتطور الذي يحدث في الخصائص العامة لهذا المنهج وطبيعة إستخداماته كأداة للتفكير العلمي المنظم، والذي تتميز به العلوم الحديثة عن بقية المعارف (غير العلمية) الأخرى، التي قد يهتم بها الإنسان. علاوة على ذلك، أن للمنهج العلمي تطبيقات عملية أو إستخدامات (برجماتية)، كما حاول بعض العلماء، تحديثها في تعريفاتهم للمنهج العلمي، كما لاحظنا في تعريف "كابلان" Kaplan على سبيل المثال.

٣- خطوات المنهج العلمي.

أشرنا في بداية تحليلنا بأن قضية البحث العلمي من القضايا التي شغلت العقل البشري منذ قرون طويلة، ولاسيما أن هذا العقل يسعى دائماً للبحث عن الحقيقة وهذا ما بدأه لدراسة الأشياء التي تحيط بعالمه الطبيعي الخارجي أو الذاتي العقلي. وإذا، نرى أن البحث العلمي لم يحدث فجأة بقدر ما ظهر على مراحل عدة، وهذا ما يتضح لنا من خلال مناقشتنا لتطور كل من البحوث الاجتماعية، والمنهج العلمي المستخدم في هذه البحوث والدراسات.

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى:

عبد الباقى عبد المعطي، مرجع سابق، ص ٤٣.

فالبحوث العلمية التي قامت على أسس منهجية أو إستخدمت المنهج العلمي الحديث، قد تطورت بعد التطور الهائل الذي حدث في مجال التفكير العلمي Scientific Thought، وذلك التفكير الذي قام على إستخدام العقل والتأمل أو ما يعرف بالتفكير التأملى، وهو أيضاً من أنماط التفكير العقلانى المنظم، الذى يستخدم العقل فى دراسة المشكلات وحلها، أو التى تواجه الجنس البشرى. ومن ثم، يمكن القول، بأن كل من التفكير العلمى أو التفكير التأملى، مرادفات تستخدم من قبل الباحثين للإشارة إلى تطور البحث العلمى عامة.

والتفكير العلمى فى مجمله نوع من ألوان التفكير الإنسانى، الذى يساعد الإنسان للتوصل إلى حل مشكلاته، ولكنه يشمل أكبر قدر من هذه الألوان أو الأنواع. خاصة، وأن التفكير العلمى يشمل كل من التفكير الإستقرائى، والتفكير الإستنباطى، والتفكير الإستدلالى، ويمكن الإشارة إلى هذه الأنماط بإيجاز شديد كما يلى:

(١) التفكير الإستقرائى The Inductive Thought، هو ذلك النوع من التفكير الذى يقوم على إستقراء الجزئيات والأمثلة، وربط الحقائق بعضها ببعض، ومعرفة أسباب حدوثها، والخبرات المكتسبة والوصول عموماً إلى قاعدة عامة أو قانون عام.

(٢) التفكير الإستنباطى The Deductive Thought، ويستخدم هذا المصطلح أيضاً بمفهوم (القياس)، الذى يحاول فيه الشخص أن يطبق القاعدة العامة، أو القانون العام على الجزئيات، والحالات الخاصة الجديدة، التى تعرض له بمجرد أن يدرك ترابطها بالقانون العام.

(٣) التفكير الإستدلالى Reasoning Thought، هو ذلك النوع من التفكير الذى يبدأ من قضايا يسلم بها ويستدل منها على قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، دون إستخدام التجربة، أو تستخدم الأقيسة والقواعد المنطقية الخالصة، ولذا يطلق على هذا النوع بالتفكير المنطقى أو غير التجريبي أحياناً^(١).

(١) عبد الرحمن بدوى، مناهج البحث العلمى، مرجع سابق، ص ٨٢.

على أية حال، إن ما نقصده بعرض هذه التعريفات المبسطة السابقة لأنماط التفكير العلمى وأنواعه المختلفة، والتي نترادف إستخداماتها بواسطة الباحثين في مجال مناهج وطرق البحث الاجتماعى، حرصاً منا (أولاً) على توضيح هذه التعريفات والتباين النسبى بين هذه الأنماط من التفكير، والتي قد يستخدم البعض على أنها مناهج علمية، دلت عليه، للإشارة إلى طبيعة التنوع العلمى أو التفكير العلمى الذى يستخدمه العقل البشرى فى دراسته الحقائق أو الأشياء أو المشكلات التى تشغله عموماً. وبإيجاز. يمكن القول بأن العقل الإنسانى يستخدم هذه الأنماط المختلفة من التفكير سواء أكانت إستقرائية، أم إستنباطية، أم إستدلالية، والتي جميعها تتدرج تحت مفهوم التفكير العلمى. بصورة عامة. ولكن ما نسعى إليه حالياً، أن نهتم بدراسة مناهج البحث العلمى الحديث، التى قد تطورت بالطبع نتيجة لتطور أنماط التفكير العلمى بأنواعه المختلفة على نحو ما اشرنا إليه سابقاً. وعلى أية حال، لقد أتسمت تحليلات علماء مناهج البحث العلمى الاجتماعى، بتركيزها على مجموعة من الخطوات أو أسس المنهج العلمى والتي نحالها بصورة مختصرة كما يلى:

(١) الملاحظة العلمية The Scientific Observation.

تعتبر الملاحظة من أهم أدوات البحث الاجتماعى، كما تعد أولى خطوات المنهج العلمى أى كان إستخدامه فى أى فرع من فروع العلوم المختلفة سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. ولذا نجد أن الكثير من علماء الاجتماع يحددون الملاحظة بأنها قاعدة العلم، لأنها نقطة البدء عند جميع الأفراد والباحثين، الذين يهتمون بدراسة المشاكل والظواهر المختلفة. ولذا لا يمكن أن باحث أو متخصص يصل إلى أى نتيجة ويستطيع أن يصوغ قانون، أو يطرح تساؤلات أو فرضاً علمياً، دون أن يعتمد على الملاحظة. كما أن الملاحظة العادية، أو ما يطلق عليها بالملاحظة العابرة، قد أفادت الكشف العلمى بالكثير من البيانات والمعلومات. بل أن البعض منها قاد العلم والعلماء إلى نظريات وقوانين هامة مثل قوانين الجاذبية على سبيل المثال إلا أن الملاحظة العلمية تمثل محاولة منهجية، وتقوم على أسس وخطوات مدروسة وتهدف للكشف عن الظواهر، وتسعى للتوصل إلى القوانين.

وللملاحظة أنواع متعددة من التصنيفات، فهناك من بصنفها على أنها نوعان وهما:

١- الملاحظة البسيطة (غير المقصودة)، وهي لا تهدف للكشف عن حقائق علمية محددة، ونظرية معينة. وهذا النوع من الملاحظة يمثل جزء من المعرفة الحسية (التجريبية)، كما إنها تسهم في تفسير الظواهر وتحليلها، وتقيد في زيادة معارفنا النظرية، وتشجع على التفكير النظري الخالص أيضاً. كما توجد عدة خصائص للملاحظة غير المقصودة (البسيطة) وهي^(١):

(أ) تأتي من غير عمد Unanticipated، أى غير مقصودة، قد يلاحظ الباحث شئ ما، ولكن خلال عملية مشاهدته، يشاهد حقيقة أخرى لم يكن يسعى أو يهدف أساساً إلى مشاهدتها.

(ب) تدعو للدهشة Anomalous، لأن الحقائق التى تحصل عليها الملاحظة قد تثير نوع من الدهشة، لأنها قد تقيد الحقائق السابقة، التى حصل عليها الباحث، ولم تكن معروفة فى الوسط العلمى سابقاً.

(ج) قد تصبح ذات أهمية علمية Scientific Strategy، لأنها قد توصل الباحث إلى حقائق علمية جديدة، وخاصة أن مثل هذا النوع من الحقائق يملك التأكد من صدقها، وتعتبر من الآراء والنظريات السابقة.

وهناك الكثير على حدوث هذا النوع من الملاحظات البسيطة أو غير المقصودة، وهى ملاحظة التفاحة وسقوطها بواسطة العالم الطبيعى الشهير نيوتن. فسعى لدراسة ظاهرة سقوط الأجسام وتوصل فى النهاية إلى وضع قانون الجاذبية الأرضية. وفى مجال العلوم الإنسانية، استطاع العالم الروسى بافلوف، أن يقوم بإبحاث علمية تجريبية على الكلاب وإطعامهم بواسطة مؤثرات شرطية مقرونة بتقديم الطعام لهم، وهذا ما جعله يتوصل إلى فكرة الإنعكاس الشرطى والوصول عموماً إلى نظرية التعلم الشرطى فى علم النفس.

٢- الملاحظة العلمية (المقصودة) وهى تتميز بالوضوح وتحديد الأهداف والغايات التى تسعى إليها، ويمكن تحديدها وتعريفها بصورة موجزة فيما يلى

(١) أنظر : عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤١٩.

فهي محاولة منهجية يقوم بها الباحث بدقة تامة، وفق قواعد محددة، للكشف عن تفاصيل الظواهر ولمعرفة العلاقات التي تربط بين عناصرها. ولذا، فهي تتميز ببعض الخصائص عن الملاحظات العابرة (البسيطة أو غير المقصودة):
(أ) مخططة ومنظمة Organized & Planned وذلك عن طريق مجموعة من الخطوات والإجراءات التي يتبعها الباحث بصورة دقيقة.

(ب) تهدف لتحقيق أهداف معينة To Achieve Specific Goals، أي إنها تركز من أجل إنجاز عدد من الأهداف التي يسعى إليها الباحث لتحقيقها.
(ج) تستخدم تسجيلات دقيقة Certain Recorded، لا بد وان يهتم الباحث بتسجيل البيانات التي يصل إليها بصورة مستمرة ومنظمة حول الظاهرة المدروسة، حتى يتأكد من صحة بياناته وتكرارها.

(د) تسمح بدراسة تكرار الظواهر للتحقق منها Examined Phenomenon، تعتمد الملاحظة العلمية على مدى تكرار حدوث الظواهر لتثبت البيانات والتفاصيل المرتبطة بحدوثها، ومراجعة العوامل والأسباب والعلاقات المتداخلة بين الحقائق أو الأشياء المكونة لذات الظاهرة.

وعموماً، لقد ساعدت الملاحظة العلمية البحوث التطبيقية في كافة المجالات التي سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. فلقد تقدمت علوم الفلك، والطب، والهندسة، والكيمياء، والأحياء، وغير ذلك من التخصصات المشتركة بينها عن طريق استخدام الملاحظة العلمية. أما في مجال العلوم الاجتماعية، فلقد اهتم علماء النفس، والأنثروبولوجيا، والإجتماع، بصورة خاصة بالملاحظة العلمية في دراسة المشكلات والظواهر التي توجد في المجتمع. فدراسة سلوك الاجتماعى لطبقة العمال في المصانع كانت موضع دراسات نفسية وإجتماعية وإقتصادية متعددة وهذا ما ظهر في مجموعة دراسات علماء نظرية الإدارة العلمية، من أمثال "فريدريك تايلور" F. Taylor، وملاحظاته على كيفية زيادة الإنتاجية للعمال في المصانع والشركات. وهذا ما ظهر أيضاً في خلال أبحاث مدرسة العلاقات الإنسانية Human Relations School بقيادة "التون مايو" E. Mayo وزملاؤه التي أجريت على شركة وسترن اليكتريك ما سمى بتجارب هاوثورن خلال العشرينات وحتى نهاية الأربعينات من القرن الماضي (العشرين) ويكشف الكثير من العلاقات

الإنسانية وأثرها على تطور الإنتاج، وملاحظة العلاقات غير الرسمية إلى جانب العلاقات الرسمية بين العمال والإدارة، وأدى ذلك كله إلى ظهور نظريات الإدارة والبيروقراطية وغيرها من النظريات نتيجة إلى استخدام الملاحظة العلمية.

ويإيجاز، أن المنهج العلمى يقوم أساساً على الملاحظة العلمية التى تهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أو التحقق من الفروض والتساؤلات، التى يطرحها الباحث للإجابة عليها حول الظاهرة أو المشكلة المراد دراستها وتحليلها. وإن كانت هناك مجموعة أخرى من الشروط التى يجب توافرها عند استخدام الملاحظة، فيجب أن تشمل كافة العوامل والظروف المرتبطة بالظاهرة، وثانياً يجب أن تكون الملاحظة موضوعية، ومن الضرورى الإستعانة بالعديد من الوسائل والأدوات التى تسمح بتسجيلها ومعرفة كافة البيانات المرتبطة بها عموماً.

(٢) الفروض Hypotheses.

أولاً : أهمية الفروض وتعريفاتها:

تعتبر الفروض من أهم مكونات المنهج العلمى وخطواته الأساسية، وتتكون من حصيلة المعرفة الإنسانية والخبرة التى يكتسبها الباحث خلال حياته اليومية أو ممارسة أعماله العلمية. كما أنها ترتبط بجميع أنماط التفكير العلمى سواء أكانت معرفة إستقرائية أم إستنتاجية إم إستدلالية، نظراً لأنها تعتمد على أبعاد كثيرة، فى تكوينها سواء عن الملاحظة، أو التأمل الذاتى المرتبط بظاهرة أو مشكلة معينة تدور فى ذهن الباحث أو تكون موضع إهتمامه الأساسى. وهناك ترادف لإستخدام أو معنى الفروض، لأنها ببساطة نوع من التساؤلات، التى يطرحها الباحث أو تشغل عقله، ويحددها بصورة علمية من أجل الإجابة عليها، أو يخضعها للبحث العلمى التجريبى.

ومن ثم فإن الفروض لايمكن أن تكون قاصرة على ميدان البحث العلمى، بقدر ما تظهر فى حياة الفرد اليومية، ولاسيما أن طبيعة الحياة ومشكلاتها تطرح أمامه العديد من التساؤلات والإستفسارات بشأن هذه المشكلات. فالإنسان العاقل يحاول جاهداً أن يفسر ما يدور حوله من مشكلات وظواهر تواجه حياته أو يشاهدها بصورة ملحوظة. ويسعى الإنسان لطرح

عدد من الإحتمالات، قد تكون إجابات محدّدة أو شبه محدّدة لطبيعة التساؤلات التي يطرحها مسبقاً. ومن ثم، فإن أهمية الفروض متعددة في البحث أو التفكير العلمي، هذا ما يؤكد علماء المناهج الذين كثيراً ما يرادفون بين الفروض والنظرية، ويرون بأن الأخيرة، ماهي إلا مجموعة من الفروض التي تم تكوينها بواسطة العقل الإنساني. ولكن بالطبع، يوجد إختلاف واضح بين الإثنين، وهذا ما جعلنا نحدد تعريف مميز للفروض على إنها " قضايا تصاغ من أجل إختبارها ميدانياً، وقد تجئ نتائج الإختبار محققة لتلك الفروض، وقد تدفعنا نفس هذه النتائج إلى التخلي عن الفروض، فنبحث عن فروض أخرى تخضع للإختبار أيضاً" (١).

ثانياً: متطلبات الفروض:

يوضح التعريف السابق للفروض، على أنها مجرد تساؤلات يطرحها الباحث بصورة مسبقة حول المشكلة أو الظاهرة، التي يحاول تفسيرها والتحقق منها سواء عن طريق الملاحظة أو التجربة، ويجعلها قيد البحث العلمي. ولكن هناك عدد من المتطلبات التي يجب توافرها عند طرح وإستخدام الفروض منها:

١- يجب أن يكون للفرض العلمي إجابة محدّدة حول طبيعة المشكلة التي يدرسها، أي يجب أن يرتبط الفرض بدراسة المشكلة والإجابة على التساؤلات المفروضة حولها أو على الأقل أن يقدم إجابات مرتبطة ببعض جوانب المشكلة أو البحث.

٢- يجب أن يكون الفرض مبسطاً ليقدم إجابة مبسطة حول الظاهرة المدروسة: فلا يمكن أن تصاغ الفروض بصورة معقدة أو مركبة يتعذر علينا فهمها أو بحثها بصورة واضحة أو كاملة وإذا كانت الفروض غامضة فإنها سوف تكون مبهمة ومضللة، ولا جدوى لها في البحث العلمي.

٣- يجب أن يكون الفرض قابلاً للتحقق منه: بمعنى إذا تم صياغة الفروض بصورة يصعب التحقق منها وتحليلها، فإنها تكون عديمة الجدوى. ولهذا يجب أن يسمح الفرض بالتحقق منه عن طريق التجربة، ومعرفة مدى

(١) محمد علي محمد، المنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٩٦.

صدقه أم بطلانه. وهذا ما يجعل الفروض العلمية متميزة عن الفروض الفلسفية حيث أن الأخيرة قد تبدو صحيحة من ناحية التركيب والقضايا، ولكنها لا تخضع للتحقق منها، وهذا ما أدى إلى فشل الكثير من الفروض الفلسفية خلال العصور الوسطى.

٤- يجب أن تصاغ الفروض على نحو يسمح بإثبات بطلانه، فالفروض مما هي إلا مجموعة من التساؤلات، التي تخضع للتحقق منها عن طريق التجربة، ومن ثم، فإن الفروض التي لم تسمح بالتحقق منها غير علمية عموماً.

ثالثاً: صعوبات تواجه صياغة الفروض:

في الواقع، إن عملية صياغة الفروض لا تعتبر من الخطوات والعمليات السهلة عند إجراء البحوث العلمية أو تبنى خطوات المنهج العلمي بصورة دقيقة، ولاسيما أن الفرض العلمي يعتبر من أهم أسس البحث العلمي التجريبي. في نفس الوقت، إن الفروض ما هي إلا حلقة إتصال بين النظرية والبحث والتي تساعد على الكشف عن الحقائق وإضافة المعلومات المرتبطة بدراساتها وتحليلها. وعلى أية حال، هناك عدد من الصعوبات التي ترتبط بعملية صياغة الفروض يمكن إيجازها كما يلي:

١- عدم وجود إطار نظري مناسب: فالنظرية تعتبر الموجه العلمي والاساس للبحث والباحثين، ويجب أن يكون لكل بحث نظرية محددة وواضحة من البداية

٢- فقدان القدرة العلمية والمنطقية للإستعانة بالإطار العام للنظرية: أي، إن البحث العلمي أي كان نوعه، لا بد وأن يحدد معالم النظرية التي يستخدمها. ولاسيما النظرية نعتبر الموجه لكل مكونات البحث، بالإضافة إلى أن تحديد الإطار العام بصورة منطقية، يعد مطلباً أساسياً، حتى يمكن تحديد الفروض والإجابة عليها خلال مراحل البحث (الإمبيريقى) المتعدد المراحل.

٣- عدم معرفة أساليب البحث السائدة: تعتبر الفروض مجموعة من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات مقنعة ومحددة، وعدم دراية الباحث بطبيعة الأساليب البحثية أو طرق البحث الاجتماعى وأدواته المختلفة مثل الملاحظة، المقابلة، إستمارة البحث وغيرها وكيفية إستخدام كل منهما،

حسب نوعية البحث ومتطلباته العامة، قد تؤدي عموماً إلى تقديم إجابات كافية حول هذه الفروض أو التساؤلات المطروحة مسبقاً.

رابعاً : أنواع الفروض:

يوضح تحليل التراث لدراسة استخدامات المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية، أن هناك أنماط متعددة للفروض التي تم استخدامها بواسطة علماء الاجتماع، ويمكن فيما يلي أن نعرض لأهم هذه الأنواع بإيجاز:

١- الفروض التي تعزز وجود إرتباطات أو إطاراد بين ظواهر واقعية: ويشمل هذا النوع من الفروض، التي تظهر في المسوح الاجتماعية والتي تهتم بالكشف عن المعالجات الإحصائية بين الظواهر والمشكلات المدروسة: فهناك دراسات تهتم بمعرفة الأحوال الاجتماعية للطبقة العاملة، أو مشكلة النساء العاملات وتربية أطفالهن، أو الإرتباط بين حجم الأسرة والهجرة الريفية الحضرية. كما توجد أيضاً، أنماط من الدراسات التي تستخدم هذا النوع من الفروض مثل، وصف سلوك الطلاب، أو الشباب، أو المراهقين، أو عصابات الاحداث وغيرها وهذا النوع من الفروض عموماً تعتبر من الفروض البسيطة المستخدمة في البحث الاجتماعي.

٢- الفروض التي تتناول نماذج مثالية مركبة Complex Ideal Type: ويهدف هذا النوع من الفروض للتحقق من وجود علاقات منطقية بين الإرتباطات الواقعية، ويظهر ذلك في دراسات علماء الايكولوجيا البشرية التي خلصت إلى إرتباطات إحصائية بين متغيرات مثل: قيمة الارض، التوطن الصناعي، طبيعة الإدارة، الجماعات العنصرية، وغير ذلك من متغيرات توجد علاقات منطقية ومركبة فيما بينها. ولذا أمكن إخضاعها للإختبار الميداني، وتم إستخلاص عدد من النماذج المثالية، مثل نماذج تطور المدينة، التي يمكن أن تظل فرضاً عاماً للعديد من المدن في العالم.

٣- الفروض التي تتناول العلاقة بين متغيرات تحليلية Analyzed Variables وهذا النوع من الفروض يهتم بمعرفة العلاقة بين ما يطرأ على المتغيرات الاجتماعية، أو معرفة التغير الملحوظ عليها بعد خضوعها للتجريب، أو الإختبار والمتغير هنا، ينطوي على قيمتين أو أكثر، مثل حجم الأسرة أو

تماسك الأسرة أو تفككها، فجميعها متغيرات سوسولوجية. وفي الدراسات السوسولوجية يوجد العديد من الارتباطات بين متغيرات وأخرى، فطبيعة التعليم، لديها ارتباطات متعددة مع متغيرات أخرى مثل الثروة، الدخل، وطبيعة الوظائف و المهن، والمستوى الثقافي، وغيرها. ويمكن للباحث أن يحدد العلاقة بين التعليم كمتغير، والدخل كمتغير آخر، ويعرف ما يحدث من متغيرات نتيجة للتعليم، أو قد يتناول بالدراسة والاختبار بين الدخل وبقية المتغيرات السابقة جميعاً. وبالطبع، يستلزم ذلك العديد من المقاييس والأساليب البحثية الدقيقة التي تؤدي إلى نماذج الاختبار الميداني.

(٣) اختبار الفروض. The Examination of Hypotheses.

كشفت التحليلات السابقة، أن الفروض باعتبارها تساؤلات علمية لا جدوى لها إلا عن طريق اختبار صحتها عن طريق التجربة، ومن ثم فإن الفرض لابد وأن يتبع بمرحلة أخرى مكتملة له عن طريق إجراء التجارب، وذلك للتأكد من صحتها، وملاحظة حقائق علمية أخرى، قد تحدث على معطيات البحث والدراسة التي يقوم بها الباحث خلال عملية تتبعه لخطوات المنهج العلمي في إجراء البحوث الاجتماعية. وهذا ما ظهر واضحاً خلال تناولنا لعدد من أنماط الفروض الشائع إستخدامها بين علماء الاجتماع، ولاحظنا بالفعل أن طبيعة هذه الفروض، أي كان نوعها، لا يمكن التحقق منها، إلا عن طريق التجربة أو الاختبار الإمبريقي. ولأسف، أن بعض أنواع البحوث الاجتماعية العلمية، لا يمكن التحقق منها عن طريق التجربة العملية، كما توجد في الدراسات والبحوث التطبيقية، ولكن هناك الكثير من البدائل عن المنهج التجريبي، أو إستخدام التجربة، مثل المنهج التاريخي مثلاً، ولكن بالطبع أن إستخدام التجربة على أسس علمية تعتبر من الوسائل الهامة التي يهتم بها علماء العلوم الاجتماعية في نفس الوقت، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً في الفصول القادمة، عند تناولنا لكل من المنهج التاريخي، والمنهج التجريبي وذلك بمزيد من التفصيل.

وعموماً، إن عملية اختبار الفروض وإستخدام التجربة، تهدف للتعرف على ما يحدث بين المتغيرات والارتباطات التي توجد بينهما، وخاصة أن للظواهر الاجتماعية جوانب متعددة، يصعب الكشف عنها بسهولة ويسر،

بقدر ما نحتاج إلى معرفة كل الإرتباطات المتداخلة بين المتغيرات بعضها وبعض. وهذا ما ظهر في علاقة التعليم، بالدخل، أو الثروة، والمستوى الإقتصادي، والطبقي وما إلى ذلك من جوانب أو متغيرات أخرى، يصعب فهمها إلا عن طريق الإختبار أو التجربة. وبالطبع، هناك الكثير من الفروض التي تم طرحها مسبقاً بواسطة العلماء وتم دراستها وتحليلها للتحقق منها، مثال على ذلك الفرض القائل، بأن هناك أثراً واضحاً بين الوراثة و البيئة وبين إرتكاب الجرائم أو السلوك الإجرامي أو الذكاء^(١). ولقد لجأ العلماء إلى تثبيت أحد المتغيرات (الوراثة والبيئة) لدراسة أثر الآخر. وإهتم العلماء للتحقق من ذلك. حيث حاولوا أولاً معرفة أثر البيئة على الذكاء، حيث ثبتوا عامل الوراثة وقاموا بإجراء أبحاثهم على التوائم المتشابهة، الذين تم تنشئتهم في بيئات مختلفة. وثانياً، حينما حاولوا دراسة أثر الوراثة على الذكاء، فإنهم على عكس مما سبق، فقد ثبتوا عامل البيئة وأجروا أبحاثهم على أطفال منتسبين لأباء مختلفين، وأجريت تنشئتهم معاً في أماكن أخرى مثل أطفال الملاحي.

وتوجد بالطبع، مجموعة من المتطلبات الهامة التي يجب إتباعها عند إجراء إختبار الفروض ومن أهمها:

(أ) ضرورة عدم إختبار أكثر من فرض في وقت واحد: أي أن على الباحث التركيز في دراسة أحد الفروض، دون طرح فروض أخرى في نفس الوقت للإجابة عليها، وإلا حدث نوع من الخلط وعدم التركيز عند معرفة ودراسة وإختبار الفرض الأساسي الذي يهتم بمعالجته.

(ب) يجب أن لا يتحيز الباحث للفرض الذي طرحه للإجابة عليه: حقيقة أن عملية التحيز، أي كان نوعها حتماً ستؤدي إلى إرتكاب أخطاء عديدة، وتبعد الباحث وموضوع بحثه عن تحقيق الموضوعية وعدم التدخل في مجريات ومسيرة عملية البحث.

(جـ) يجب الاستفادة عموماً من عملية إختبار الفروض التي تم التحقق منها أو الأخرى التي تم بطلانها في نفس الوقت: أن مهمة المنهج العلمي ليس فقط في معرفة الحقائق الصحيحة، ولكن أيضاً لا بد وأن يعرف الباحث

(١) عبد الباسط حسن، مرجع سابق، ص ٣٩.

لماذا إستبعدت حقائق أخرى كاذبة. لأن ذلك يسهم فى إثراء عملية تفسير الظواهر والحقائق المرتبطة بها سواء أكانت صحيحة أو غير صحيحة.

(ء) يجب أن تؤدي عملية إختيار الفروض إلى تقديم إجابات شاملة حول الظاهرة أو المشكلة المدروسة. لأن ذلك سيؤدي بالطبع إلى إصدار تعميمات وقوانين ونظريات علمية بعد ذلك، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً حول بقية خطوات المنهج العلمى.

عموماً، إن عملية إختبار الفروض تعتبر من العمليات أو الخطوات المنهجية الهامة، التى تستخدم فى إجراء الدراسات والبحوث الاجتماعية، وبالرغم من عدم إستخدام التجربة فى هذا النوع من الدراسات مقارنة بغيرها من الدراسات التطبيقية (الطبيعية)، إلا أن تاريخ البحث الاجتماعى خلال القرن العشرين، يكشف لنا عن الكثير من الدراسات السوسولوجية العالمية، التى حدثت فى الكثير من القطاعات والمؤسسات الاجتماعية، مثل المصانع والشركات الإنتاجية، والمستشفيات، والمدارس والجامعات، وغيرها من المؤسسات الأخرى، وحقق نتائج ملحوظة وأسهمت فى تطور عمليات البحث العلمى عامة. وبإيجاز، أن البحوث التجريبية تسهم فى التحقق من الفروض العلمية التى يطرحها الباحث، إلا أن هذا النوع من البحوث أيضاً، يحتاج إلى عدد من الخطوات والقواعد العامة، التى يجب غتباعها خلال عملية إجراء التجربة أو الإختبار الميدانى، وهذا ما سنعالجه بصورة أكثر تحليلاً عند تناولنا لأسس وقواعد المنهج التجريبى بصورة خاصة.

(٤) التعميمات والقوانين Genalizations & Laws.

تتلخص قيمة المنهج العلمى وخطواته المختلفة فى تحقيق الأهداف العامة، التى يصبوا إلى تحقيقها، ألا وهى الوصول إلى مرحلة التعميم وصياغة القوانين أو النظريات العلمية. فإن قيمة البحث العلمى، أى كان نوعه لابد وأن يتوج بمرحلة هامة، وهى المرحلة التى يسعى كل من الباحثين وأهداف بحوثهم نحو تحقيقها، وهذا ما حدث بالفعل فى مجال إستخدام المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية. فبدأ بإستخدام الملاحظة العلمية، وبطبيعة طرح الفروض حول الظواهر والمشكلات والقضايا، ومحاولة إخضاع هذه الفروض للإختبار الإمبريقي (الميدانى) أو التجربة العملية، لينتج عن ذلك

مجموعة من التعميمات والنتائج العامة المرتبطة بنوعية المشكلات والقضايا،
التي تم تحديدها مسبقاً بواسطة الباحثين، والتي تعتبر محور الدراسة العلمية
والمنهج العلمي والبحث العلمي ككل.

ومن ثم، فإذا أيدت نتائج عملية التحقق من الفروض، وأصبح الفرض
العلمي صحيحاً، ولا يوجد أي نوع من الفروض أو التساؤلات التي تعارضه،
ينتقل هذا الفرض العلمي (الصحيح) إلى مرحلة القانون، وعن طريق تكوين
مجموعة من الفروض الصحيحة، التي وصلت إلى مرحلة القانون، يمكن
تكوين مجموعة من القوانين العلمية، التي أصبحت لها صفة التعميم، والتي
تفسر جميعاً عدد من الظواهر أو القضايا أو المشكلات، فإن هذه التعميمات أو
القوانين يمكن أن يطلق عليها بمرحلة قانون القانون. ويمثل هذا النوع من
القوانين، بأنها تشمل على أكبر قدر من القوانين المستقلة أو الجزئية، وبالطبع،
أن هذه المرحلة بلغت الكثير من العلوم الطبيعية ولاسيما، الفيزياء، التي بها
عدد كبير من القوانين العامة، والتي عززت مكانة هذا العلم. وبالطبع لقد جاء
ذلك عن طريق التوصل إلى العديد من القوانين، التي تم التوصل إليها عن
طريق فحص واختبار الفروض، واستخدام التجربة والمقاييس العلمية الدقيقة.

في نفس الوقت، أن عملية التوصل إلى هذه القوانين والتعميمات في
الدراسات الاجتماعية، قد حدثت بالفعل من خلال تقدم هذا النوع من
الدراسات، التي تبنت جميع خطوات المنهج العلمي، وإن كان ذلك النوع
لا ينفى على الإطلاق، وجود حدود وصعوبات لا تزال تواجه دراسة البحوث
الاجتماعية، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً خلال هذا الفصل. ولكن بالطبع، إن
عملية الوصول إلى قوانين علمية لا يمكن أن يكون نهاية المطاف للباحثين
والعلماء. وخاصة، أن عملية وضع القوانين، يدعو عامة إلى طرح عدد من
النظريات العلمية Scientific Theories، التي تعمل على تفسير الحقائق
والقوانين، التي أمكن التوصل إليها مسبقاً بواسطة البحث التجريبي
والإمبيرفي (الميداني). فالنظرية العلمية، ما هي إلا استخلاص لعديد من
القوانين العلمية، التي وصلت إلى مرحلة التعميم، أو تم الاتفاق حولها بواسطة
مجموعة كبيرة من الباحثين العلماء، وأصبحت جزءاً من مكونات العلم
الحديث. في نفس الوقت، أن الوصول إلى نظريات علمية، تصبح أكثر من

إحتمالاً للصدق والواقع، إذا استطاعت هذه النظريات ان تفسر أكبر قدر من الحقائق والقوانين العلمية. وبالطبع، إن تاريخ البحث العلمي، يكشف لنا عن مجموعة كبيرة من النظريات، التي تم إستخلاصها من مجموعة النتائج والقوانين، التي إصطبغت بخاصية التعميم، وأصبحت (النظريات) بمثابة موضع الإختبار والفحص والتدقيق المستمر من جانب أجيال الباحثين والمهتمين بالعلم الحديث.

وعموماً، يكشف لنا تحليل التراث الحديث للمنهج العلمي وإستخداماته في العلوم والدراسات الاجتماعية، أن عملية الوصول إلى تعميمات وقوانين ونظريات عامة، أصبحت في الواقع شيئاً هاماً في مجال تطور هذه الدراسات على مختلف أنواعها. فلقد ظهرت نظريات في علم النفس مثل نظريات التعليم، ونظريات الذكاء. وفي علم الاجتماع ظهرت أيضاً مجموعات كبيرة من النظريات السوسيولوجية العامة، مثل النظرية البنائية الوظيفية، سواء كانت تقليدية أم محدثة، وأيضاً النظريات الماركسية التقليدية والحديثة. كما ظهرت أيضاً نظريات إجتماعية وسوسيولوجية من العديد من فروع علم الاجتماع مثل نظريات التنظيم والإدارة مثل الإدارة العلمية، ونظريات العلاقات الإنسانية ونظرية البيروقراطية. كما توجد نظريات أخرى. في علوم الإتصال والتنمية مثل نظريات التنمية الرأسمالية، أو التنمية الماركسية (التبعية) أو التبعية الثقافية، ونظريات التحديث ونظريات التغير الاجتماعي، وما إلى ذلك من نظريات علمية تم التوصل إليها بواسطة علماء الاجتماع. وبإيجاز، أن هذه النظريات العلمية جاءت نتيجة لأستخدام المنهج العلمي، وتتبع خطواته الأساسية، ولاسيما ان الخطوة النهائية، هي الوصول إلى تعميمات وقوانين ونظريات، تصبح بعد ذلك خاضعة للتطور، والتعديل والتغير المستمر، لأن ذلك من خصائص كل من النظريات والمناهج العلمية على حد سواء.

٣- المنهج العلمي ودراسة الظواهر الاجتماعية.

تطورت إهتمامات علماء الاجتماع خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، لتركز على دراسة أهم مكونات علمهم وأسس النظرية والمنهجية، وهذا ما ظهر بالفعل في تحليلات علماء النظرية السوسيولوجية، وعلماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي. وأية كانت هذه التحليلات سواء المرتبطة

بالنظرية وبالمناهج تعتبر تخصصات فرعية وكل التخصصات العامة لعلم الاجتماع، إلا أن طبيعة تناول النظرية والمنهج تعتبر من أهم المتطلبات العامة، التي يسعى للإهتمام بها كل باحث، أو متخصص في هذا العلم، ولاسيما أن كل من هاتين القضيتين النظرية والمنهج، تعتبران جوهر علم الاجتماع، وأهم الركائز العلمية التي يقوم عليها بصورة عامة. وفي إطار إهتمامنا بدراسة طبيعة المنهج العلمي في الدراسات السوسيولوجية لقد حدث جدل طويل حول طبيعة هذا المنهج، ومدى إستخدامه في ابحاث ودراسات علم الاجتماع سواء على المستوى النظرية السوسيولوجية، أو على مستوى إجواء الدراسات والبحوث الإمبريقية (الميدانية). بالطبع، يعكس هذا الجدل بين المشتغلين في علم الاجتماع خاصة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية عامة، حول مدى تطبيق وإستخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية.

وفي الواقع أن الإجابة على هذا التساؤل، هو الذي جعلنا نهتم منذ البداية بدراسة أهم مكونات المعرفة العلمية، وما طبيعة خصائص المعرفة العلمية وتميزها عن المعرفة غير العلمية ؟ كما جعلنا أيضا نعالج مفهوم العلم ووظائفه وإستخداماته من جانب المتخصصين في العلوم الحديثة المختلفة. ولاسيما أن العلم يهتم بدراسة الواقع، ويسعى للتحقيق المنطقي، والوصول إلى عدد من القضايا والقوانين، كما يتسم العلم بالعمومية، والتجريد، علاوة على ذلك، فإن العلم يعتبر عملية مستمرة من ناحية أخرى، لقد تناولنا بعض المشكلات والقضايا الهامة التي تم إثارتها بواسطة علماء الاجتماع أنفسهم، مثل طبيعة الاختلاف والتمايز بين البحوث الاجتماعية الميدانية والبحوث الاجتماعية النظرية الخالصة Pure Theoretical، وما مدى إسهام كل منهما في تطور عملية البحث الاجتماعي. كما اشرنا أيضا إلى كيفية تطور البحث الاجتماعي ونشأته خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، وإلى أي حد أصبح هذا البحث السوسيولوجي، يمثل مكانة مرموقة بين جميع أنواع البحوث العلمية الحديثة، ولاسيما بعد أن حقق علم الاجتماع، المزيد من التقدم والتطور من حيث النظرية، والمنهج، ونتائج البحوث السوسيولوجية التي تناولت جميع المشكلات والقضايا التي ظهرت في المجتمع الحديث.

ومن هذا المنطلق، نحاول حالياً أن نطرح سؤالاً مؤداه ما هو واقع استخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية؟ أو بعبارة أخرى إلى أى حد تم تطبيق المنهج العلمى عن معالجته الظواهر والمشكلات الاجتماعية الواقعية؟. وهل هناك أى نوع من الاختلاف والتباين عن تطبيق المنهج العلمى على كل من الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية؟. تلك التساؤلات التى لا تزال تطرح ذاتها أمام الباحثين المتخصصين فى كافة فروع ومجالات علم الاجتماع المختلفة، وأيضاً المشتغلين بقضايا العلوم سواء أكانت علوماً طبيعية أم إنسانية (اجتماعية). حقيقة، أن الإجابة على تلك التساؤلات، تجعلنا نعود مرة أخرى إلى الجدل الفكرى السابق حول ماهية علم الاجتماع ومكانته بين العلوم عامة، ذلك الجدل الذى تم طرحه بواسطة مؤسسه الأول " أوجست كونت " A. Comte، حينما أشار بوضوح إلى أن مكانة علمه الجديد يجب أن يتربع على قمة التسلسل الهرمى للعلوم كافة سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية. وخاصة، أن علم الاجتماع، يجب أن يستخدم المنهج العلمى، فى دراسته ومعالجته للظواهر والمشكلات الاجتماعية. وهذا ما وضح بالفعل حينما اشرنا خلال الفصول السابقة حول منهجية كونت فى علم الاجتماع، وهذا ما أيدته أيضاً العديد من رواد هذا العلم الأوائل، كما وضح جلياً فى إسهامات دوركايم حول قواعد المنهج العلمى فى علم الاجتماع.

ومن ثم، فإن استخدام العلم (كمفهوم ومصطلح) تم إطلاقه واستخدامه على علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى طيلة القرنين الماضيين. ولكن التساؤل الذى يثار بين علماء الاجتماع أنفسهم بصورة، مستمرة هو ما مدى إمكانية أن تكون البحوث الاجتماعية (بحوث علمية) وموضوعاتها يختلف عن موضوع البحوث الطبيعية؟. أو بمعنى آخر، هل ثمة اختلاف بين استخدامات المنهج العلمى فى كل من دراسة البحوث أو الظواهر الاجتماعية والطبيعية؟. وعلى أية حال، أن هذا التساؤل الأخير، أصبح من أهم القضايا البحثية التى تشغل إهتمامات علماء الاجتماع عامة، والمتخصصين فى مناهج البحث الاجتماعى وطرقه خاصة. ولأسى، أن هذا التساؤل، قد لا يختلف كثيراً عن مضمون وجوهر التساؤلات السابقة، التى طرحت حول إمكانية تطبيق المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية، وهل بالفعل يمكن إطلاق مصطلح أو مفهوم العلم على هذا بالعلوم مجتمعه وخاصة، أن طبيعة إهتمامات هذه العلوم ومنها علم الاجتماع، تختلف عن العلوم الطبيعية، من ناحية موضوعها ونطاق

ومجال دراستها ونوعية الظواهر التي يعالجها كل منهما. وهل بالفعل يمكن تبني واستخدام نفس المنهج للعلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية؟. ولا سيما أن هذه العلوم قد قطعت شوطاً كبيراً في مجال الدراسة والتحليل والتفسير والتوصل إلى قوانين ونظريات علمية شاملة.

وللإجابة على هذا التساؤل عامة، نجد أن علماء الاجتماع أنفسهم قد تباینت آرائهم وانقسموا فيما بينهم إلى فريقين أساسيين:

أولاً : الفريق المؤيد لإستخدام المنهج العلمى فى علم الاجتماع: ويرى أنصار هذا الفريق، أن علم الاجتماع كعلم إجتماعى، له قواعده وركائزه العلمية الأساسية، التى تقوم عليها العلوم جميعها، ومن ثم يجب أن يتبنى المنهج العلمى فى دراسة الظواهر والمشكلات التى يهتم بدراستها وتحليلها. ويجب أن يحتذى إستخدامه للمنهج العلمى، لكى يصل إلى ما حققته العلوم الطبيعية، ولا سيما، أن هذه العلوم إستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى مجال قدراتها على إكتشاف القوانين، والتنبؤ بالظواهر التى تهتم بمعالجتها ودراستها وتحليلها. كما يجب أن يستخدم علم الاجتماع، المنهج العلمى، لكى يستطيع علماءه الوصول إلى مرحلة التعميم وصياغة النظريات العلمية التى تماثل النظريات الطبيعية الأخرى. وبالطبع، أن هذه القدرات والإمكانات سواء القوانين، والنظريات، أو القدرة على التنبؤ لحل المشكلات، مكنت علم الاجتماع بأن يكون علماً أساسياً وجوهرياً فى دراسة المشكلات المضطردة فى المجتمع الحديث.

ثانياً : الفريق الثانى (المتحفظ) على إستخدام المنهج العلمى ليس بسبب إمكانية إطلاق مفهوم العلم على علم الاجتماع أم لا، بقدر ما يرجع سبب (تحفظه) على طبيعة هذا العلم كغيره من العلوم الاجتماعية، فعلم الاجتماع يعتبر حسب وجهة نظرهم دراسة إنسانية تاريخية، لا تهدف إلى إكتشاف القوانين أو التوصل إلى النظريات العلمية العامة، التى تفسر واقع الإنسان وثقافته بقدر ما تعكس طبيعة هذه الثقافة مكونات المعرفة الإنسانية التى توجد منذ ظهور الإنسان على الأرض. فالمعرفة الإنسانية قديمة منذ القدم، وهى (المعرفة الإنسانية)، سابقة الوجود على العلوم الحديثة جميعها بما فيها العلوم الطبيعية. علاوة على ذلك، أن العلوم الطبيعية توصلت إلى العديد من المقاييس الدقيقة،

التي تستخدمها في دراسة انصواهر انطبيعية. ذلك النوع من المعاييس التي يصعب إستخدامها في دراسة المعرفة الإنسانية والظواهر الاجتماعية^(١). وبايجاز، يرى أيضاً هذا الفريق، ضرورة التميز بين العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية (التاريخية والثقافية)، ولا سيما أن العلوم الأولى، تهدف إلى تقديم التفسيرات السببية (العلية) عند دراستها للظواهر الطبيعية، أما العلوم الثانية (الإنسانية) ومنها علم الاجتماع، تسعى لتقديم تفسيرات لمعاني المعرفة والثقافة والإتصال والأنشطة الإنسانية، وتهدف إلى الفهم، والنقد، والتقويم أكثر من إهتمامها بالتفسير العلمي أو السببي مثلما يحدث في العلوم الطبيعية.

وربما نجد هناك الكثير من المؤيدين للإتجاه الأخير من علماء الاجتماع المعاصر من أمثال "رايت ميلز" C. W. Mills، الذي يتصور بأن علم الاجتماع ما هو إلا حرفة أو مهنة أكثر من كونه علماً، كما ان عملية التركيز على دراسة علم الاجتماع في عملية التنبؤ، يعتبر شيئاً صعباً يؤيده مجموعة من العلماء الذين لا يعرفون حقيقة العلم. كما يتصور ذلك الرأي بصورة نسبية "روبرت بيرستيد" R. Bierstedt، الذي يرى أن مكانة علم الاجتماع، لا يمكن أن تكون بنفس مكانة العلوم الطبيعية الأخرى، بقدر ما تجيء مكانته بين أنماط الفنون التي ساعدت على تحرر العقل الإنساني بصورة عامة. وحقيقة، أن تصور هؤلاء العلماء لا يمكن أن ينكر قدرات هذا العلم (الاجتماع)، بقدر ما ينكر قدرته على دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس إمكانات العلوم الطبيعية ما دراستها للظواهر الطبيعية. علاوة على ذلك، أن عدداً كبيراً من أنصار هذا الإتجاه يتبنون أفكارهم على حقيقة هامة مؤداها: أن الظواهر الاجتماعية لا تخضع لقوانين طبيعية، وأن العلوم الطبيعية تبحث عن القوانين التي تفسر العلاقات البيئية بين الظواهر الطبيعية، والتي تحدث بصورة متكررة وتسهل دراستها وملاحظتها. أما (علم الاجتماع) فإنه يركز على دراسة الأحداث التاريخية والأفعال والسلوكيات والأنشطة العامة، التي تكون في مجملها خبرة البشرية، وتكوين المعرفة الإنسانية ككل.

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية،

ومن ثم، فإن وضع دراسة الظواهر الاجتماعية يختلف كلية عن مثيلاتها من الظواهر الطبيعية، فالأحداث والأفعال التاريخية والاجتماعية تعتبر أحداث متميزة، ولا يمكن تكرارها بسهولة. ولذا، يصعب وضعها قيد البحث والتجربة والأساليب الإجرائية الأخرى، التي تستخدمها العلوم الطبيعية التي تبحث عن القوانين السببية المفسرة عن حدوث الظواهر الطبيعية. ولكننا نرى، أن هذه التصورات تتكرر ما حققه علم الاجتماع، بالرغم من حداثة النشأة التاريخية لهذا العلم مقارنة بغيره من العلوم الطبيعية الأخرى. فلقد توصل إلى الكثير من التفسيرات السببية الناتجة، عن حدوث الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعية، التي توجد بصورة متكررة في حياتنا اليومية والاجتماعية. وهذا ما حدث بالفعل في دراسة مشكلات الأسرة، والجماعات الصغيرة، مثل جماعات العمل، والصداقة، وإنحراف الأحداث والعصابات، ودراسات الجريمة والإنحراف. هذا بالإضافة إلى إمكانية استخدام المناهج التجريبية والتاريخية في نفس الوقت، عند معالجة العديد من المشكلات والظواهر الواقعية التي تحدث في مختلف المؤسسات الاجتماعية. فكثيراً ما توصل علم الاجتماع لتفسيرات سببية عن أشكال، صور العلاقات الاجتماعية السوية وغير السوية.

هذا بالإضافة إلى إمكانية تطور البحوث الاجتماعية التي استخدمت المنهج العلمي بصورة واقعية وإمبريقية، ليس فقط في دراسة صور العلاقات الاجتماعية بين الجماعات الصغيرة مثلما حدث في بحوث التنظيمات الصناعية، والمعسكرات، أو التنظيمات العلاجية مثل المستشفيات أو غيرها. ولكن أيضاً، استطاع علماء الاجتماع، أن يتوصلوا إلى الكثير من التفسيرات السببية، التي ترتبط بدراسة ظواهر ومشكلات اجتماعية، وجميع مظاهر الحياة مثل دراسة القرابة، والسلطة، والتعليم، والتربية، والنظام القانوني، والضبط الاجتماعي، والصراع، وغير ذلك من موضوعات خضعت للبحث العلمي المتطور، الذي استخدم الكثير من المقاييس الكمية والكيفية. وهذا ما ظهر مؤخراً في تطور بحوث الإتصال والإعلام أو دراسات قياس الرأي العام، أو اتجاهات الجمهور حول السلطة السياسية، أو القيادات، أو أنماط الإنتاج والسلع الحديثة. فبدون شك لقد استفادت الكثير من المؤسسات الإنتاجية في كافة المجالات البشرية، وخاصة ذلك النوع من المؤسسات التي تعتمد على التكنة له جبا المتقدمة في أساليب إتصالها بالجمهور أو الفئات أو الطبقات

الاجتماعية، ولاسيما من خلال إستخدامها لبحوث الإتصال والإعلام المتنوع، والكشف عن إتجاهات ورغبات الجمهور فى المادة الإعلامية وطبيعة تأثير الإعلان والدعاية، والعلاقات العامة، وغير ذلك من بحوث علمية متطورة إستخدمت المناهج العلمية الحديثة ذات الطابع الكمي والكيفي.

حقيقة، أن طبيعة المنهج العلمى واحدة بين العلوم سواء أكانت طبيعية أم إنسانية، وهذا ما جعل الكثير من علماء المناهج وطرق البحث المعاصرين، يركزون على مقولة هامة مؤداها: أنه لا يوجد تميز بين العلوم الطبيعية وبين العلوم الإنسانية، من حيث إستخدام كل منهما للمنهج العلمى. خاصة، أن لهذا المنهج مجموعة من الأسس والخطوات والقواعد، التى يقوم عليها، ويجب أن يتبعها العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى. ولكن هناك بالطبع، ثمة خلاقات بين إستخدامات كل من العلماء الطبيعيين، والعلماء الاجتماعيين، عند دراساتهم للظواهر والمشكلات التى يهتمون بها، وترجع تلك الإختلافات إلى طبيعة إجراءات وأساليب التطبيق المنهجى والميدانى، أو مجموعة الوسائل الفنية التى يستخدمها العلماء الطبيعيين عند دراساتهم المعملية (التجريبية) التى تختلف بالطبع عن التطبيق علماء الاجتماع أو غيرهم من العلوم الاجتماعية على الظواهر الاجتماعية بصورة كاملة. وهذا ما جعل بعض علماء الاجتماع، من أمثال "راد كليف براون" R. Brown، الذين أكدوا على ضرورة وجود علم طبيعى لدراسة المجتمع أو الظواهر الاجتماعية، ولا بد من التوصل إلى مجموعة من القوانين والتفسيرات السوسيولوجية.

وربما تعتبر المحاولات المنهجية لعالم الاجتماع الشهير "ماكس فيبر" M. Weber، وتركيزه على وحدة المنهج العلمى فى كافة العلوم الاجتماعية والطبيعية، إلا أن طبيعة العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع لا يقدمون فقط على إستخدام منهج علمى واحد مثل المنهج التجريبي فقط، بقدر ما يعتمد على المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن فى دراسته للظواهر الاجتماعية والإنسانية. وهذا ما طرحه فيبر فى منهجه المميز عن منهج الفهم التفسيري Explainatory Understanding، الذى يوضح كيفية إستخدام الأساليب الكمية والكيفية فى دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وأن كان (فيبر) أكد على أن طبيعة القوانين السببية التى يمكن الحصول عليها بعد

دراسة الظواهر الاجتماعية، لابد وان تختلف عن مثيلتها من القوانين التي تصاغ حول الظواهر الطبيعية. علاوة على ذلك، عقد "قيبر" حواراً منهجياً وضح فيه طبيعة التباين بين كل من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية الثقافية . وخرج من هذا الحوار المنهجي بفكرة هامة مؤداها: أن علم الاجتماع قادراً على أن يقدم إطاراً منهجياً سوسولوجية، يشمل الكثير من خصائص العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت. ولاسيما، أن علم الاجتماع وموضوعه الأساسي يتركز في دراسة القيم والمعاني، التي ترتبط بدراسة الأشياء والحقائق الموجودة في العالم الطبيعي والعالم الثقافي عامة. كما أكد ايضاً، على أن العلم مفهوماً وموضوعاً، لايمكن أن يختلف من حيث ماهيته وهدفه أو غايته سواء اكان يعالج ظواهر عقلية أو إجتماعية أو طبيعية فيزيقية في نفس الوقت.

ونظراً لأهمية معالجات "قيبر" عن المنهج العلمي وإستخداماته في دراسة الظواهر الاجتماعية، وتبرير تبني هذا المنهج عند إهتمام علماء العلوم الاجتماعية به، نحاول فيما يلي أن نستخلص عدد من الافكار العامة التي يمكن ان تؤيد فكرة إستخدام وتطبيق المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية:

١- أن إستخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية، من شأنه أن يطور دراسة هذه الظواهر وتحليلها بواسطة علماء العلوم الاجتماعية، وهذا فضلاً عن أهمية تبني هذا المنهج الذي يطور العلوم الاجتماعية من حيث المنهج والموضوع والنظرية.

٢- يهتم علم الاجتماع بدراسة وبحث الاسباب، كما يهتم بدراسة المعاني، وعن طريق دراسة كل منهما، يستطيع أن يصل إلى أعلى مستوى من الفهم، والذي يمكن تعريفه بأنه نوع من الفهم الملائم السببي والمناسب من حيث الفهم للمعاني.

٣- أن التمايز بين إستخدام المنهج العلمي في دراسة كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية، ينتج عن طبيعة أهداف العلوم الطبيعية والاجتماعية ذاتها، ولاسيما أن العلوم الاولى (الطبيعية) مركز على كيفية الضبط Control والسيطرة على الظواهر الطبيعية، في حين العلوم الاجتماعية، تركز على كيفية التقويم Evaluation للنشاط الإنساني وتقدم معايير واقعية وملزمة أو مثاليات للأفعال والسلوك الفردي والاجتماعي والإنساني عموماً.

٤- ونتيجة للعوامل والافكار السابقة، فإن منهج علم الاجتماع يتركز فى دراسة الأساليب، وفهم المعانى التى ترتبط بالأفعال والأنشطة والظواهر الإنسانية. ومن ثم فإن الهدف من إستخدام المنهج العلمى، يتبلور فى تفسير الاسباب المرتبطة بالظواهر الاجتماعية وحدثها، ويحاول أن يتوصل إلى عدد من القوانين والتعميمات المرتبطة بتكرار الظواهر، وايضاً بنمط العلاقات وأشكال التفاعل البشرى.

وبإيجاز، إن تصورات "فيلر" حول إمكانية إستخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وما ينبغى أن يطوع أهداف هذا المنهج فى دراسة السلوك الإنسانى وكيفية التباين والإختلاف حول إستخدامات المنهج فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ومنها علم الاجتماع. يجعلنا نؤيد هذا التصور "فيلر" الذى يرد على انصار الإتجاه المحافظ أو غير المؤيد لإستخدام المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية. ولاسيما أن هذه العلوم قد قطعت شوطاً كبيراً فى إستخدامها للعديد من المناهج الكمية والكيفية، وتوصلت إلى تعميمات هادفة وموضوعية. وهذا ما ظهر عموماً، فى تحليلات أنصار الإتجاه الرياضى وتحليلاتهم فى علم الاجتماع، وإلى إستخدام الطفرة العلمية السريعة فى المقاييس الكمية، ولاسيما بعد تطور إستخدام الحاسبات الآلية (الكمبيوتر) فى دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة، ويجعل إمكانية التنبؤ المستقبلى حول هذه الظواهر شئ ليس بالمستحيل إطلاقاً.

ربما نجد أن تصورات "فيلر" السابقة حول إستخدام المنهج العلمى، برغم من أهميتها، إلا إنها طرحت خلال أوائل القرن الماضى (العشرين)، ولكننا نرى وجود بعض التصورات الحديثة، التى حدثت كثيراً من آراء وأفكار علماء ومناهج البحث الاجتماعى، حول مدى التقدم العلمى الذى طرأ على أساليب البحث العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية ولاسيما فى السنوات الأخيرة. فلقد طرحت هذه الأفكار تصورات حول إمكانية العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع وسعيها منذ فترة طويلة لتطوير الأساليب الإجرائية والمنهجية المستخدمة فى دراسة الظواهر الطبيعية. مثل ما هو موجود بقدر الإمكان فى دراسة الظواهر الطبيعية. ولاسيما أن طبيعة المسلمات العلمية التى تنطلق منها كل من هذه الظواهر مجتمعه، تؤكد على

فكرة الحتمية، أى حتمية الظواهر الطبيعية، وأيضاً حتمية حدوث الظواهر الاجتماعية. ولكن فكرة الحتمية المطلقة، أصبحت من الناحية العلمية بعيدة عن الواقع، لأن مفهوم الحتمية المطلق تم استبداله بالحتمية الإحصائية أو الإحتمالية^(١). ولقد جاء هذا التحول فى صالح العلوم الاجتماعية وتطورها، ولاسيما بعد أن تطورت المقاييس الإحصائية الإحتمالية، التى عن طريقها يمكن دراسة ظواهر اجتماعية متغيرة مثل قياس الاتجاهات، الذى أمكن قياسه بصورة أكبر من دراسة بعض الظواهر الطبيعية مثل قياس الزلازل أو التنبؤ بها على سبيل المثال.

من ناحية أخرى، أن آراء علماء المناهج الحديثة قد لا يختلفون كثيراً عن تصورات أو آراء علماء الاجتماع من أمثال "دوركاييم"، و"فيسر" حول وجود منهج علمى واحد بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكن الاختلاف يرجع إلى طبيعة تباين الظواهر الطبيعية عن الاجتماعية، وإستخدام إجراءات بحثية وفنية تختلف عن دراسة هذه الظواهر. فى نفس الوقت، يؤكد علماء المناهج المحدثين، على أن التباين بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، يكمن فى حقيقة هامة وهى: أن العلوم الاجتماعية تواجه نوعين من المشكلات، أولاً تركيزها على ذلك النوع من المشكلات التى يمكن وصفها بالحقائق Facets، وثانياً المشكلات التى تتصل بالقيم Values، بينما العلوم الطبيعية تهتم بمعالجة نوع واحد من الحقائق فقط (الطبيعية). وهذا ما يجعلنا نصل إلى وجود ثلاث أنماط للنظريات: ١- نظريات العلوم الطبيعية، ٢- نظريات الحقائق الاجتماعية التى تفسر وتعالج الأوضاع الواقعية، ٣- النظرية المعيارية التى تطرح نظم اجتماعية مثالية، أو تهدف إلى تحقيق أهداف اجتماعية أسمى وأعلى من الموجودة فى الواقع. وبالطبع، إن إستخدام هذه النظريات، لها مناهجها واساليبها الاجرائية المتميزة، وبالفعل توجد ممثالة بين مناهج النظريات الطبيعية، ونظريات الحقائق الاجتماعية، والتى توجد فى العلوم الاجتماعية والطبيعية، ولكن هذه المناهج لا تتلائم مع دراسة النظريات المعيارية التى تنتظر أو تتطلع إلى أهمية وجود نظام اجتماعى أفضل لم يتحقق بعد من الناحية الواقعية.

(١) مصطفى ناجى، " النظرية والمنهجية والتقنية " مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والإنسانية: جامعة الكويت، ١٩٨٧، ص ٤٣.

٤ - حدود المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية.

كشفت التحليلات السابقة، عن طبيعة استخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، ونوعية الجدل الدائم بين مؤيدى ومعارضى تبنى هذا المنهج فى العلوم الاجتماعية، حيث حاول كل فريق أن يوضح وجهة نظره، ومدى إمكانية تطبيق المنهج العلمى، وخاصة أن هناك نوع من التمايز والاختلاف بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية. وعلى أية حال، نحاول حالياً، أن نوضح عدد من الصعوبات، التى تعكس مدى حدود استخدامات المنهج العلمى، عند إجراء البحوث الاجتماعية، وتطبيقها على دراسة الظاهرة الاجتماعية وهى كما يلى:

(١) صعوبة التعقيد.

ما من شك أن طبيعة الظواهر الاجتماعية تمتاز بالصعوبة والتعقيد، مقارنة بغيرها من الظواهر الطبيعية، فدراسة السلوك والافعال والانشطة الاجتماعية ليست بالسهولة دائماً. ولأسيما ان طبيعة هذه الظواهر الاجتماعية تمتاز بتداخلها الشديد فيما بينها. ومن ثم، فإن وضعها للدراسة والتحليل مثل الظواهر الطبيعية يعتبر شئناً صعب المنال. وهذا ما اشار إليه (إميل دوركايم)، حينما وضح أن هذا الامر، يقف أمام استخدام التطبيق الكامل للطريقة أو المنهج التجريبي فى مجال الدراسات الاجتماعية. ولأسيما، عند استخدام ما يعرف بطريقتى الاختلاف والإتفاق، التى يتعين عند استخدامها من الناحية الإجرائية، أن يقوم الباحث بعزل متغيرات أو عوامل معينة، حتى يتمكن من دراسة المتغيرات الأخرى. وهذا ما لم يمكن حدوثه بصورة دقيقة، عند دراسة المتغيرات المكونة للظاهرة الاجتماعية، التى تمتاز بالتعقيد والتداخل، وتعد الأسباب والمتغيرات والعوامل المشكلة والمكونة لها.

فدراسة الظواهر الطبيعية، مثل ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر، يمكن معرفة أسبابهما بسهولة جداً بواسطة عالم الطبيعة. وهذا ما ينطبق على عالم الكيمياء والبيولوجيا، عند دراسة الظواهر الطبيعية. أما الظواهر الاجتماعية، وخاصة الظواهر التى ترتبط بدراسة السلوك البشرى من الصعوبة تفسير أسبابها وإرجاع طبيعة هذا السلوك إلى المكونات الفيزيائية أو الجسمانية، والنفسية (السيكولوجية) أو العصبية أو البيئة الاجتماعية وغير ذلك. كما أن

دراسة سلوك المريض النفسى أو مرتكبى الجرائم من الصعوبة جداً أن نصل إلى تحليلها بصورة مرضية تماماً، نظراً لتعقد دراسة السلوك الإجرامى، أو أسباب حدوث المرض النفسى، فقد يرجع الأسباب وراثية بيولوجية، وأخرى إجتماعية وبيئية، واسباب نفسية سيكولوجية. وهذا عموماً ما يحدد فى مجمله طبيعة استخدام المنهج العلمى بصورة كاملة أو متماثلة عند دراسة الظواهر الاجتماعية التى تمتاز بالتعقيد مقارنة بدراسة الظواهر الطبيعية.

(٢) صعوبة التجربة:

تتميز الظاهرة الاجتماعية كما اشرنا سلفاً بأنها معقدة، ومتداخلة الأسباب والعوامل والمتغيرات عند تفسيرها وتحليلها. وهذا ما يجعل بعض علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية يتحفظون على استخدام المنهج العلمى، وتطبيقه على الظاهرة الاجتماعية، نظراً لصعوبة إخضاع هذه الظاهرة، أو جعلها قيد البحث التجريبي Experimental Research، أو صعوبة ملاحظتها بصورة دقيقة لعدة اسباب نوجزها فيما يلى:

١ - صعوبة إخضاع الظاهرة الاجتماعية، لنوع من الملاحظة الدقيقة مقارنة بالظاهرة الطبيعية التى يتوفر فيها التجريب، ولاسيما أنها ترتبط بدراسة الإنسان أو الجماعة وسلوكها، الذى يتغير بصورة مستمرة ومن الصعوبة الوصول إلى سلوكيات وافعال إنسانية تنطبق تماماً مثل غيرها بصورة دائمة.

٢ - إن طبيعة المادة الاولى للظاهرة الاجتماعية، هى الإنسان أو الجماعة الذين يتكونون من كائنات حية عاملة ومتميزة عن الكائنات الحية البيولوجية أو الحيوانية أو النباتية الأخرى التى تقوم عليها دراسة الظواهر الطبيعية.

٣ - يلعب الباحث دوراً أساسياً - حتى لو كان هامشياً - فى التأثير على أهداف البحث مما يؤثر بصورة سيئة فى النتائج التى يتوصل إليها، وهذا مسلم يحدث إطلاقاً فى دور الكميات، أو عالم الطبيعة عند القيام بتجاربه وملاحظاته العملية.

٤ - إذا تم وضع السلوك الإنسانى أو الفرد ذاته، قيد الملاحظة والتجربة، فقد يجعله يسلك أو يتصرف سلوكاً آخر ومنغاي لسلوكه الطبيعى، أو ما يقوم به خلال حياته اليومية العادية.

وبالطبع، إن عملية صعوبته التجريب في العهـ - الاجتهاد غير - - - - -
إمكانية التطبيق للمنهج العلمى تواجه صعوبات عند إجراء البحوث والدراسات
الاجتماعية بصورة مماثلة عند إجراء التجارب العلمية أو الطبيعية. كما يلاحظ
أيضاً، أن الظواهر الاجتماعية من الصعوبة تكرارها بصورة منتظمة ودقيقة،
مثل تكرار عملية تتابع دوران الليل والنهار وشرق الشمس وغروبها، تلك
الظواهر الطبيعية التى يمكن مشاهدتها أو ملاحظتها بصورة عادية جداً. أما
الظواهر الاجتماعية، فهى معقدة لأنها مركبة من مجموعة من العوامل،
والإنفعالات، والدوافع، والرغبات الداخلية مثلما نلاحظ عند دراسة الشخصية
الفردية أو الإنسانية. وبالطبع، أن مثل عرض هذه الصعوبة، لا يمنع على
الإطلاق محاولة عالم الاجتماع والنفس على سبيل المثال من إجراء تجارب
علمية مثل علماء العلوم الطبيعية الأخرى، ولكن بالطبع هناك العديد من
التجارب التى أجراها علماء العلوم الاجتماعية، مثل دراسة الجماعات
الصغيرة، وسلوك الأفراد داخل جماعاتهم الأولية والثانوية أو جماعات العمل.
وهناك أدلة كثيرة على دراسات علماء الاجتماع الصناعى، وعلم النفس
الاجتماعى. ولكن عموماً، تواجه هذا النوع من البحوث، التجريبية صعوبات
فى التطبيق الكامل لإجراءات عملية التجريب.

٣ - صعوبة الموضوعية.

تبين آراء أصحاب الاتجاه المعارض لاستخدام المنهج العلمى فى
دراسة الظواهر الاجتماعية، حقيقة ما يرتبط بدراسة الجوانب الذاتية والنفسية
للإنسان والجماعات البشرية، والتى يصعب دراستها بصورة موضوعية. كما
أن هذه الجوانب إن كانت معقدة عند دراسة السلوك الإنفعالى للجماعات
والأفراد، منها تؤثر أيضاً على مجموعة الباحثين والعلماء كأعضاء للجماعات
العلمية، الذين يشكلون عقبة خلال إجراء البحث التجريبى والاجتماعى، والذى
يتناول قضايا قد ترتبط بهم كأفراد أو جماعات ينتمون إلى نفس المجتمع الذى
تجرى عملية الدراسة، أو تصاغ قضايا بحثهم ظواهر ومشكلات يجدون فيها
أنفسهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مثل دراسة الدين، والسلالة، والقيم،
والعادات، والتقاليد، والدوافع، والطبقات، وغير ذلك من متغيرات وجوانب من
الصعوبة عزلها بعيداً عن ذاتية الباحثين، عند إجراء تجاربهم بصورة مماثلة

عندما يعزل الباحث العلمى الكيمىائى أو البيولوجى أو علم الفيزياء ذاته عن الظاهرة الطبيعية التى يقوم بها.

وبالرغم من منادات " أميل بوركايم " فى قواعد المنهج العلمى وإستخداماته فى علم الاجتماع وتطبيقه على العلوم الاجتماعية، وتأكيده على الموضوعية، كقاعدة هامة، وإعتبارها من أهم مسلمات ومتطلبات المنهج العلمى، إلا إننى كباحث فى علم الاجتماع، أجد صعوبة تطبيق الموضوعية بصورة مطلقة عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية صعوبة فى ذلك، كما يحدث فى العلوم الطبيعية، ولاسيما، أن قضايا البحث الاجتماعى، تتناول موضوعات مرتبطة بالذات البشرية، والأفكار والمثل والقيم والايديولوجيات، والثقافة والصراع الطبقي، والعنصرى، وغير ذلك من موضوعات من الصعوبة عزل الباحث الاجتماعى ذاته كلية عنها، دون إبداء رأى أو الفكره أو التصور المستقبلى لحل هذه المشكلات بصورة موضوعية. ولكن هذا لاينفى على الإطلاق، أن الباحث لابد وأن يتحرى الموضوعية، وليس الموضوعية المطلقة، لأنها نوع من الحتمية المطلقة، التى يصعب إتباعها بواسطة علماء العلوم الطبيعية أنفسهم، والذين يأخذوا بمبدأ الاحتمالية أو الحتمية النسبية، مثل دراسة الظواهر الطبيعية التى لم يتوصلوا عند دراستها بالتحديد العلمى الدقيق مثل دراسة الزلازل والبراكين وغيرها. فى نفس الوقت، أن إبداء رأى أو المشورة بالنسبة للباحثين الاجتماعيين، دائماً يشكل جزء من متطلبات الباحث العلمى، الذى يملك قدرات النقد، والتحرر عن الآراء السابقة، التى قد تؤثر قطعاً على مجريات البحث وتجعله كباحث ، بعيداً عن تحقيق موضوعية البحث العلمى وأهدافه العامة. وهذا ما يجعلنا نؤيد الآراء القائلة بأن عملية تحقيق الموضوعية فى البحوث الاجتماعية، تتطلب عدم التحيز لرأى معين، ومذهب محدد، ويجعل آرائه قريبة جداً إلى الواقعية ودراسة الأشياء على أنها حقائق إجتماعية.

٤ - صعوبة التعميمات وإستخلاص القوانين.

تعتبر هذه الصعوبة من أهم حدود تطبيقات المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية، وهذا ما يجعل الكثير من علماء الاجتماع، يؤكد إستحالة الوصول إلى قوانين وتعميمات عامة حول الظواهر الاجتماعية، مثل القوانين الطبيعية

التي تم إستخلاصها بواسطة علماء العلوم الطبيعية. والسبب يرجع بالطبع إلى تباين طبيعة ومكونات الظواهر الطبيعية والاجتماعية، على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل. فعلماء الطبيعة توصلوا إلى قوانين عامة عن الجاذبية، والنفوس، والطرْد والجذب، والضغط الجوي، والقصور الذاتي، وغير ذلك من قوانين علمية أخرى، تم إستخلاصها بعد إجراء العديد من التجارب المعملية، وإستخدام الملاحظة، وغير ذلك من أساليب وإجراءات منهجية وفنية متعددة ونكثرت بتعزير إستخلاص تعميمات وقوانين عامة حول الأسرّة، أو الطلاق، والإنحراف والجريمة، والثورات، والثقافة، والعادات والتقاليد، والفساد، والتعليم والتنشئة الاجتماعية، والتغير الاجتماعي، والتنمية، والتطور والتقدم الاجتماعي، وغير ذلك من ظواهر ومشكلات إجتماعية أخرى متعددة.

وبالطبع، أن صعوبة ذلك ناتجة عن طبيعة الظواهر الاجتماعية، وإيضاً طبيعة خضوع المجتمعات البشرية لعمليات من التغير الاجتماعي السريع بصورة مستمرة. فلا يمكن على سبيل المثال، تحديد قانون معين لحدوث الثورات الاجتماعية، مثل الثورة الفرنسية، أو قانون لنشوء الحروب العالمية أو المحلية، أو قانون بطبيعة علاقة الفقر بالجريمة والانحراف، يمكن أن يوجد أو يستخلص من تعميمات عامة توجد في جمع الدول لمجتمعات البشرية فيما ينطبق على زيادة أو نقصان معدلات الجريمة والانحراف في مجتمع معين دليلاً على صعوبة إصدار قانون ثابت يطبق على ظاهرة الجريمة والانحراف على مر العصور التاريخية، كما يصعب إصدار قانون أو تعميم على حدوث الجرائم داخل المجتمع الواحد خلال فترة زمنية واحدة، نظراً لتباين معدلات الجريمة والانحراف داخل المنطقة أو الشارع أو الحي أو المدينة الواحدة. ولكن هذا لاينفي على الإطلاق، إمكانية القدرة العلمية من جانب العلوم الاجتماعية، من معرفة الأسباب والعوامل التي ترتبط بدراسة ظواهر إجتماعية معينة، فمشكلة أو ظاهرة البطالة -كظاهرة إجتماعية- يصعب إستخلاص تعميم أو قوانين عامة حولها، ولكن يمكن بسهولة معرفة مجموعة الاسباب والعوامل والمتغيرات، التي يمكن معرفة طبيعة هذه المشكلة. ولاسيما أن ذلك، ينتج عن حدوث تكرار هذه الظروف والعوامل في المجتمع الواحد ذاته أو غيره من المجتمعات الأخرى، وذلك عن طريق

إستخدام الكثير من الملاحظات والشواهد، والمناهج العلمية التحليلية والتاريخية والمقارنة، التي تعزز من عملية أو إمكانية الوصول إلى معرفة أسباب وعوامل حدوث الظاهرة مثل (البطالة)، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك سبباً لأصدار قانون عام عن البطالة ينطبق على المجتمعات الحديثة دون معرفة خصوصيات هذه المجتمعات وإختلاف ظروفها من الناحية الاجتماعية والاقتصادية عن الأخرى.

٥- صعوبة التنبؤ.

تعكس جملة الصعوبات السابقة المرتبطة بتطبيق المنهج العلمي فى البحوث الاجتماعية والتي تمثلت فى التعقيد، والتجربة، والملاحظة، والموضوعية، التعميم، وإستخلاص القوانين. وجود صعوبة أخرى، مرتبطة بجملة هذه الصعوبات، التي تشكل حدود تطبيق المنهج العلمى بواسطة علماء العلوم الاجتماعية. ولقد أحرزت العلوم الطبيعية التي تعالج ظواهر مختلفة تماماً عن الظواهر الاجتماعية، تقدماً ملحوظاً فى مجال إستخدام الملاحظة، والتجربة، والإعتماد على المقاييس الكمية الدقيقة فى رصد الظواهر الطبيعية والكونية والتنبؤ بها عموماً. ولقد إستطاع علماء الفلك، أن يتنبؤوا بحدوث ظواهر كونية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، ومعرفة متى سوف تحدث هذه الظاهرة، وفى أى جزء من الكرة الأرضية ومتى سوف تشاهد بالتحديد الدقيق والكامل. ولكن هذا لا يمكن أن يحدث عند دراسة الظواهر الاجتماعية، نظراً لطبيعة العوامل المفسرة والمسببة لها، والتي يتعذر حدوثها وتكرارها وملاحظتها وقياسها، وإحضاعها للتجربة مثل الظواهر الطبيعية الأخرى عامة: وإن كانت عملية التنبؤ فى العلوم الطبيعية أيضاً لا يمكن أن تصل إلى درجة الكمال المطلق أو التنبؤ المطلق، فلا يزال علماء الطبيعة والفلك والجولوجيا غير قادرين على التنبؤ بحدوث الزلازل، أو البراكين فى أوقات معينة ومحددة بالرغم من توصلهم إلى إكتشاف والتنبؤ بظواهر أخرى طبيعية.

وهذا بالفعل ما ينطبق على علماء العلوم الاجتماعية عند دراسة الظواهر الاجتماعية، التي تمتاز بجملة خصائص ومميزات فريدة من نوعها، لأهتمامها بمعالجة قضايا ومشكلات، ذاتية، وشخصية، وبيئية، واجتماعية، وبيولوجية، فى نفس الوقت. فلا يمكن على الإطلاق التنبؤ بصورة دقيقة،

لزيادة معدلات الجريمة والانحراف في مجتمع معين خلال عام ٢٠٠٥ مثلاً، نظراً لإمكانية إنخفاض أو ارتفاع هذه المعدلات نتيجة لمجموعة العوامل والاسباب التي تشكل ظاهرة الجريمة والانحراف في هذا المجتمع المحدد. فالظاهرة الاجتماعية سواء أكانت أفعال أو سلوك أو أفراد أو جماعات أو مجتمعات متغيرة بصورة مستمر، ويصعب إخضاعها للمقاييس الكمية والتجريبية مثل الظواهر الطبيعية. فالتنبؤ مثلاً، بحدوث كارثة إجتماعية أو إقتصادية مثلاً في الاسواق المالية الغربية أو الاسيوية مرة أخرى، كما حدث في دول جنوب شرق اسيا خلال أواخر التسعينات من القرن الماضي، من الصعوبة التنبؤ بحدوثه مرة أخرى في فترة معينة بالتحديد، نظراً لوجود عدد من العوامل والاسباب، التي قد تحدث بصورة فجائية، وتتغير به عملية التنبؤ (الحتمي) لحدوث هذه الظاهرة بالضبط مرة أخرى ولكن هذا لاينفسي على الإطلاق إمكانية معرفة الاسباب والعوامل والمؤشرات المحتملة التي تؤدي إلى حدوث الظواهر الاجتماعية والاقتصادية أو وقوعها، بعد عملية دراستها وتحليلها بصورة علمية، مثل حدوث الثورات الاجتماعية، أو الكوارث الاجتماعية الأخرى والتخطيط العلمي لمواجهتها والتنبؤ بصورة تقريبية لحدوثها مثل الجريمة والانحراف، وإنهيار الأسواق المالية.

الفصل الرابع

المنهج التاريخي

تمهيد:

- ١- تعريف علم التاريخ والمنهج التاريخي.
- ٢- تطور الاهتمام بالمنهج التاريخي.
- ٣- المسلمات العامة للمنهج التاريخي.
- ④- خطوات المنهج التاريخي.
- ٥- مصادر المنهج التاريخي.
- ٦- حدود استخدام المنهج التاريخي.

كشفت طبيعة استخدامات المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، عن الكثير من الحقائق المرتبطة بهذا المنهج، ومدى إمكانية تطبيقه فى الدراسات الاجتماعية. ولأسىما، أن علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية المتخصصون منهم، حرصوا على ضرورة تبني المنهج العلمى وإتباع خطواته الأساسية التى توجد فى العلوم الطبيعية، وإستخدامها فى دراسة وتحليل المشكلات والقضايا الاجتماعية. وهذا ما ظهر بالفعل فى إهتمامات علماء الاجتماع الأوائل، الذين أكدوا على ضرورة إستخدامها المنهج العلمى، وخاصة أن هذا المنهج أحرز تقدماً كبيراً فى مجال دراسة الظواهر والمشكلات الطبيعية. وهذا ما ظهر فى تحليلات كل من " أوجست كونت "، و" دور كايم " و "سبنسر"، الذين وصل بهم الأمر إلى محاكاة المنهج العلمى، عن طريق الإستعارات المنهجية المتعددة. مثل حرص "سبنسر" عند طرحه أفكاره المنهجية حول المماثلة البيولوجية، إلا أن طبيعة الظواهر الاجتماعية متباينة ومختلفة كثيراً عن مثيلتها من الظواهر الطبيعية. وهذا ما جعل البعض من علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية يتحفظون على إستخدام المنهج العلمى وتطبيقه كلية عند دراسة القضايا والظواهر التى تهتم بها هذه العلوم.

ونظراً لتباين طبيعة الظواهر الاجتماعية التى يهتم بمعالجتها علماء الاجتماع كغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، والجغرافيا، حرص هؤلاء العلماء على ضرورة تنوع مناهج البحث الاجتماعى، وعدم تركيزه كلية على المنهج العلمى (التجريبى)، الذى يعتمد كلية على التجربة العلمية وخطواتها المعملية، نظراً لإستحالة تطبيق هذا المنهج بصورة عامة على دراسة السلوك والافعال والانشطة والأفراد والجماعات البشرية. وضرورة أيضاً، الإهتمام بالتجربة كمنهج علمى أو أداة تحليلية للتعرف على موضوعات وظواهر وقضايا إنسانية مثل قضية الثورة، البطالة، والتنمية، والتعليم، والتربية، والإنحراف والجريمة، والثقافة، والحضارة، والتطور، والتنمية، وغيرها. تلك الموضوعات التى تستلزم الإستعانة بمناهج أخرى أسماها بعض المتخصصين فى مجال وطرق البحث الاجتماعى بالمناهج المساعدة والاساسية فى دراسة

الظواهر الاجتماعية مثل المنهج التاريخي، Historical Method، الذي يمكن الاستفادة منه كثيراً في دراسة وتتبع الظواهر الاجتماعية وتكرارها، وفهم أسباب حدوثها والعوامل التي تؤدي إلى ظهورها، والآثار الناجمة عنها، وتحليل طبيعة التباين والإخلاف والتماثل أيضاً، عند ظهورها في فترات متباعدة من الزمان، أو معرفة مدى تشابهها وظهورها في مجتمعات معينة خلال فترة تاريخية مماثلة.

وإنطلاقاً من أهدافنا الحالية، نسعى للتعرف بوضوح على طبيعة المنهج التاريخي، كما استخدمه بالفعل علماء مناهج البحث الاجتماعي خاصة، وعلماء الاجتماع بصورة عامة، ومعرفة إلى أي حد يمكن تحديد مفهوم المنهج التاريخي والتمييز بينه وبين علم التاريخ، وخاصة الأسباب التي دفعت علماء العلوم الاجتماعية، وفهم علم الاجتماع للإستعانة بهذا المنهج في دراساتهم للظواهر والقضايا الاجتماعية؟ وما هي إستخدامات هذا النهج من قبل رواد علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر وذلك بصورة موجزة؟ في نفس الوقت يطرح هذا الفصل عدد من التساؤلات للإجابة عليها مثل، هل توجد بالفعل مسلمات ومبادئ عامة وإساسية يقوم عليها المنهج التاريخي كمنهج علمي؟ وما هي أهم خطوات المنهج التاريخي، ومن أين تستقي مصادره؟ وهل يوجد تباين وإختلاف حول طبيعة هذه المصادر، وما هي أهم تصنيفاتها ككل؟ وأخيراً، يجب علينا أن نحدد أيضاً طبيعة حدود إستخدام المنهج التاريخي أو الصعوبات، التي تواجه العلماء والباحثين عند تبنيهم لهذا المنهج في دراساتهم وتحليلهم للظواهر الاجتماعية.

(أ) تعريف علم التاريخ والمنهج التاريخي.

ما من شك، أن علم التاريخ علماً متميزاً ويعتبر من أهم العلوم الاجتماعية، وهو كعلم إنساني له تعريفات واضحة، تحدده كعلم أساسي يسهل تمييزه والتعرف عليه بواسطة المتخصصين في العلوم الاجتماعية كافة. ولكن ما نقصده حالياً هنا، تقديم تعريف أو تحديد مبسط لمفهوم التاريخ كعلم، وتعريف المنهج التاريخي، إنما نهدف به إعطاء الطالب أو الباحث المبتدئ في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، فكره مبسطة توضح الفرق بينها. ولأسيما أننا نعرض أفكارنا وتصوراتنا الحالية في إطار عام للتعريف بالمناهج العلمية

عامة، والمناهج المستخدمة فى الدراسات والبحوث الاجتماعية والسوسولوجية خاصة. ومن ثم، يجب أن نشير أولاً، إلى مفهوم علم التاريخ، ثم نتناول بعد ذلك التعريفات المرتبطة بالمنهج التاريخي، وأهمية إستخداماته فى الدراسات الاجتماعية.

أولاً: مفهوم علم التاريخ.

حقيقة، لقد تعددت التعريفات المرتبطة بعلم التاريخ، ولكن نحصر حالياً لأن نشير بصورة موجزة، لرؤى بعض العلماء، وتحديد مفهوم علم التاريخ للأسباب التى أشرنا إليها مسبقاً ومن أهم هذا، التعريفات^(١):

(١) تعريف " هومر هوكيت " H. Hockett، الذى يرى أن التاريخ هو " السجل المكتوب للماضى أو للأحداث التاريخية: الماضىة "^(٢) ويكشف محتوى هذا التعريف أن المقصود بعلم التاريخ الإهتمام بدراسة تاريخ البشرية وخاصة ما دون منها. وهذا يحدد التاريخ - كعلم - بأنه يحل تاريخ الإنسان منذ أن توصل إلى فن الكتابة وقام بتسجيلها بالفعل، ولهذا يستبعد هذا التعريف، المراحل والعصور التاريخية السابقة على مرحلة عصر الكتابة، ولذا سمى العلماء هذه المرحلة، مرحلة ما قبل التاريخ. وبالطبع، أن معرفة الإنسان الحديث أو عالم التاريخ يقتصر فقط على علم التاريخ المعروف، أو ماتم تحصيله والكشف عنه وأتفاق العلماء والمؤرخين حول البدايات الأولى للتاريخ وعصوره وحقبه المختلفة.

وفى الواقع، أن علم التاريخ كعلم متطور ومتغير مثله مثل العلوم الاجتماعية، التى تعتمد كل منها على الأخرى فى دراسة ظواهره ومشكلاته وقضاياها الأساسية. فعلماء التاريخ يمكنهم الإستفادة من دراسات الانثربولوجين أو الاكتشافات التاريخية والأثرية الحديثة، التى يقوم بها علماء الآثار والحفريات مؤخراً، من أجل التعرف على أصل وتطور البشرية، وعدم قصور علم التاريخ كعلم على بداية مرحلة عصر الكتابة والتدوين، لأن هناك

(١) وردت بعض هذه التعريفات فى المرجع التالى:

- عمر الشيبانى، مرجع سابق، ص ص ٧٨-٧٩.

(2) Hockett, H, The Critical Method in Historical Research, and Writing, N.Y: The Macmillan Corp, 1968, p.3.

الكثير من الحقائق التاريخية التي ظهرت في الواقع في عصور ما قبل التاريخ. وهذا ما يؤكد بالفعل الكثير من علماء التاريخ الذين يستعينون باكتشافات علماء الآثار، والأنثروبولوجيين، وعلماء الجولوجيا، وعلماء الفلك وغيرهم.

٢- تعريف "آلان نفيس" A. Nevins، الذي يرى أن علم التاريخ هو وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتابتها بروح البحث الناقد عن الحقيقة الكاملة^(١). ويعكس هذا التعريف، أن التاريخ يهدف وصف الأحداث التاريخية، التي ظهرت في الماضي ومحاولة إعادة كتابتها وتحليلها بصورة نقدية وواقعية، وتهدف هذه المبادرة للبحث عن الحقائق والأحداث الكاملة. وبالرغم من أهمية هذا التعريف، الذي لا يعترف إلا بالحقائق والأحداث الكاملة، إلا أنه قد يوجه إهتمام المؤرخين أو علماء العلوم الاجتماعية بضرورة تجنب الحقائق الغير مكتملة، التي لم تكشف جوانبها كلية. وحقيقة، أن هذا المطلب يعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة لعلم التاريخ، ولكن يجب أيضاً أن يهتم المؤرخ بالحقائق غير المكتملة، ويحاول تجميعها من أجل التوصل إلى الحقائق التاريخية. خاصة، وأن هناك الكثير من الإكتشافات التاريخية، مثل إكتشاف الحضارة الفرعونية، لم تظهر إلا من خلال كشف سر كتابة اللغة الفرعونية من على حجر رشيد بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة نابليون.

(٣) تعريف كل من "جود" G. Good و "سكاتس" D. Scates، اللذان ييران أن التاريخ واسع كإتساع الحياة نفسها، ويضم الميدان الكلى الشامل للماضى البشرى، والحقائق والبيانات التاريخية، التي يجب أن ينظر على أنها جزء لا يتجزأ من عملية النمو الاجتماعى، وعملية الحياة الاجتماعية الشاملة، التي كانت تحيط بها أكثر منها حقائق متفرعة أو منفصلة عن الحياة المحيطة بها^(٢).

يوضح هذا التعريف، أن التاريخ كعلم شامل لتاريخ البشرية والحقائق والأحداث التاريخية، التي لا بد من فهمها وتفسيرها في إطار التطور والتغير الاجتماعى، خاصة، وأن فهم التاريخ لا يمكن سرده على أنه مجموعة من الأحداث التاريخية الجوفاء، بقدر ما تكشف هذه الأحداث، عن الكثير من

(1) Nenin, A, The Gateway of History, Boston: D.C, 1938, p.22.

(٢) للمزيد من التفاصيل أنظر:

- Good, C & D. Scates, Method of Research. N.Y: Appleton. Crofts, 1954, p.1670.

ملامح الحياة وطبيعة العوامل الاجتماعية والثقافية والبيئية والسياسية عامة، والتي أثرت في تكوين هذه الأحداث وتشكيلها ولذا هذا التعريف يؤكد ما أشار إليه العلامة العربي (أبن خلدون) في مقدمته الشهيرة، عندما أنتقد الكثير من المؤرخين الذين ظهروا في عصره مثل (المسعودي) الذين سردوا الأحداث التاريخية بصورة جوفاء. وهذا ما جعل أبن خلدون يؤكد على الحقيقة القائلة، أن التاريخ يبدو لبعض الناس فناً ولبعضهم علماً. ولكن يجب أن نوضح كما أشار أبن خلدون أن التاريخ فن للعامة، وعلم لدى الخاصة^(١). عمومًا تلك تصورات أبن خلدون على تعريف علم التاريخ وسنشير إلى إستخداماته للتاريخ والمنهج التاريخي لاحقاً.

ثانياً: تعريف المنهج التاريخي.

حقيقة، أننا لانهدف حالياً لسرد تعريفات شاملة حول علم التاريخ، والمنهج التاريخي، بقدر ما نهذف إلى وضع تمييز مبسط بين كل من علم التاريخ وإستخدامات المنهج التاريخي، أو المقصود بهذا المنهج - المنهج العلمي - يستخدم بصورة كبيرة في دراسة الظواهر الاجتماعية. وهذا ما أكد عليه الكثير من علماء الاجتماع. حيث أشار البعض منهم إلى أن مهمة علم التاريخ بأن يقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ، الذي يسير قدماً دون تراجع أو تخلف، وهذه الوظيفة هي محاولة إسترداد ماكان في الزمان، لاليتحقق فعلياً في مجرى الأحداث، ولكن يستعيد في الذهن وبطريقة عقلية صرفة ما جرى عليه أحداث، وكأنه في مجرى الزمان، محاولاً أن يتصور مجرى هذه الأحداث، وكأنه يجري في إطار موجه^(٢). وهذا بالفعل ما حرص عليه الباحثين لتوضيح وظيفة إستخدام علم التاريخ في دراسة الظواهر والأحداث الاجتماعية والتاريخية والتي يجب أن يهتم بها الباحثين الاجتماعيين، عند الغستعانة بعلم التاريخ أو بالمعطيات التاريخية في دراسة القضايا والمشكلات الاجتماعية وتفسيرها بصورة علمية.

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى: ما كتب لاحقاً عن أبن خلدون، المقدمة.

(٢) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة، ١٩٥٤، ص ١٨٣.

وفى الواقع، لقد ظهرت تحليلات كثيرة حول تحديد المنهج التاريخى وإستخداماته فى العلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع، ولكن قبل الإشارة إلى هذه التعريفات، لابد وأن نحدد حقيقة هامة مؤداها: بأن المنهج التاريخى لا يمكن أن ينفصل عن علم التاريخ، كما أن هذا العلم لا يمكن أن يكون علماً بدون إستخدام المنهج العلمى - كما اشرنا قبل ذلك - لطبيعة المنهج العلمى ومسلماته الاساسية، وذلك فى الفصل السابع حيث لا وجود لعلم بدون منهج علمى يستخدمه فى جمع معلوماته وتحليلها وفحصها بصورة علمية ونقدية وموضوعية فى نفس الوقت. ومن ثم، يمكن القول، بأن منهج البحث التاريخى هو الأداة المنهجية الخاصة التى يستخدمها علم التاريخ فى تحقيق أهدافه كعلم عام، وخاصة فى تفسير الاحداث الفعلية والتنبؤ بالاحداث المتوقعة مستقبلاً.

ويمكن لنا أن نؤكد بالفعل على تحديد تعريف المنهج التاريخى - كما أشار^(١) إليه بعض الباحثين - على انه " الطريق الذى يتبعه الباحث فى جمع معلوماته عن الاحداث والحقائق الماضية، وفى فحصها ونقدها وتحليلها، والتأكد من صحتها، وفى عرضها وترتيبها وتنظيمها وتفسيرها، وإستخلاص التعميمات والنتائج العامة ". ومن ثم، يمكن القول، بأن المنهج التاريخى، لا يستخدم فقط فى دراسة وتحليل فهم الاحداث التاريخية والاجتماعية الماضية، ولكن أيضاً يستخدم فى فهم وتفسير الاحداث والافعال وسلبيات الواقعية. علاوة على ذلك، يسهم هذا المنهج، فى فحص ونقد المصادر المختلفة التى تستقى منها الأحداث والحقائق التاريخية، وتصنيف البيانات والمعلومات وتنظيمها بصورة علمية يسهل الرجوع إليها، من أجل استخدام النتائج العامة، والتنبؤ والتخطيط للمستقبل.

على أية حال، أن أهمية عملية إستخدام المنهج التاريخى فى البحوث الاجتماعية يقصد بها " الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضى، وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى الاجتماعية التى شكلت الحاضر^(٢). وهذا يوضح أن هدف الإستعانة بالتاريخ أو بالمنهج التاريخى أيضاً، لا يتركز فى التأكيد على

(١) عمر الشيبانى، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٢) عبد الباسط حسن، مرجع سابق، ص ٣٦٥.

الحوادث الفردية، أو تصور أحداث الماضي وشخصياتها بصورة تجعلنا نعيش معها أو نتعايش معنا، بقدر ما تهدف تحديد الظروف التي أطلحت بظهور هذه الحوادث والشخصيات، ومجموعة العوامل التي أثرت فيها ونتائجها على الجماعات والمجتمعات التي كانت موجودة معها. وهذا جعل بعض علماء الاجتماع، ولاسيما، المتخصصين في مجال البحوث والدراسات الاجتماعية مثل، "بولين يونج" P Young، التي أشارت إلى أن أهمية المنهج التاريخي، تنبئ في تحديده على موضوع من المناهج العلمية التي عن طريقها نتقرب التطور التاريخي، كي نعيد بناء العمليات الاجتماعية، ونربط الحاضر بالماضي، ونفهم القوى الاجتماعية الأولى التي شكلت الحاضر بفصد الوصول إلى وضع مبادئ وقوانين عامة منعلقة، بالسلوك الإنساني الفردي والجماعات والنظم الاجتماعية^(١).

وربما يؤكد التعريف السابق (لـ يونج)، تصورات "ريكمان" R: Ckman في كتابه المميز عن منهج جديد للدراسات الإنسانية، الذي يرى فيه أن الفهم الحقيقي للتاريخ يجعله منصفاً على دراسة سلسلة التعبيرات الخاصة بالمرئدة، التي يؤثر فيها السابق تراكمياً على اللاحق. وطبقاً لهذا الفهم، يمكن وضع تعريف محدد للمحل (المنهج التاريخي) على أنه: "محاولة لفهم التعبيرات ورؤيتها في ضوء علاقتها بسياقاتها التاريخية، وفهم السياق الكلي بواسطة الانتقال من تعبير إلى آخر، والمقصود بالتعبيرات هي جملة الأحداث، والأفعال^(٢)، ويضيف ريكمان، أن المنهج التاريخي يهتم عمومياً بدراسة العلاقات المتداخلة بين العلوم، ومن ثم يجب عدد نقطتين أساسيتين توضحان هذه العلاقة كما يلي:

النقطة الأولى: أن المنهج التاريخي رغم أنه تاريخي أصلاً، إلا أنه كمنهج لا يمكن أن يتحدد إلا في إطار التاريخ وحده، كما أنه منهج يستخدم في كل العلوم الإنسانية. فدراسة تاريخ الحالة تعتبر مدخلاً أساسياً لعلماء النفس عند دراسة جناح الأحداث، أو علماء الاجتماع عند دراسة الصراع الطبقي

(١) Young, P. Scientific Social Survey and Research: N.Y, 1947.

(٢) هـ . ريكمان، منهج جديد للدراسات الإنسانية: محاولة فلسفية ترجمة على عبد المعطي، محمد علي محمد، بيروت: مكتبة مكارى، ١٩٧٩، ص ٢٦٩.

والعائلى وهذا ما أكد عليه " ماكس فيبر " M. Weber عند تأكيدہ على ذلك فى ضوء إهتمامہ بالشواہد التاريخیة. كما أن هذا المنهج (التاريخى) يعتبر منهجاً عند تسجيل التجارب المعملية التى يمكن الإستفادة بها كشواہد تاريخیة وعلمية، لكل من علوم الفيزياء والكيمياء، والطب وغيرهما من العلوم الطبيعىة الأخرى بالإضافة إلى ذلك، أن إستخدام المنهج التاريخى فى تحديد موضوع خاص مثل دراسة الحالة Case Stude فى علم النفس، فإنه يعتبر مهماً جداً للدراسات العامة والشاملة لعلوم إنسانية أخرى، لدراسة تاريخ الإقتصاد أو السياسة، وتاريخ نظريات إجتماعية محددة.

ثانياً: أن إستخدام المنهج التاريخى فى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعىة يعتبر أمراً مهماً، ولكن هناك تباين بين إستخدام كل من هذه العلوم ولاسيما أن المنهج التاريخى، يعتبر منهجاً أكثر ملائمة لدراسة العلوم الإنسانية التى تتسم بالطابع التاريخى، وهذا ما يعكس على سبيل المثال، كيفية تتبع تطور نظريات التحليل النفسى منذ ان طرحها عالم النفس (فرويد) حتى الآن. أما العلوم الطبيعىة التى تهدف للتوصل لعدد من النظريات، فلا يهتمها كثيراً معرفة تطور هذه النظريات من الناحية التاريخیة فى نفس الوقت، أن العلوم الاجتماعیة، تركز على دراسة الفهم والمعنى والخبرة، لتفسير الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعیة المتعددة الأسباب والعوامل والتفسيرات والنتائج أيضاً.

عموماً تعكس التحليلات السابقة، حول تحديد مفهوم علم التاريخ وتعريف المنهج التاريخى، ما يقصده بالفعل علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعى من إستخدام التاريخ كعلم، والمنهج التاريخى كمنهج للدراسة والتفسير والبحث، عن الكثير من الحقائق المعرفية والبحثیة، التى لابد أن يتعرف عليها بوضوح كل من الباحث المبتدئ فى علم الاجتماع، والمتخصص أيضاً. ولاسيما، أن هناك الكثير من الترادف فى إستخدامات هؤلاء المتخصصين، عند توضيحهم للعلاقة المتداخلة، بين علم التاريخ كعلم، وعلم التاريخ بمفهومه العام أو الخاص، وهذا ما يظهر فى الجدل النظرى حول علم التاريخ هل هو علم أم فن ؟ وجاءت لتحدد الإجابة على ذلك بواسطة " أبين خلدون "، بأنه فنا للعامة، وعلم للخاصة. أو تحليل الفرق بين إستخدامات المنهج التاريخى فى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعىة، والتى نتج عنها، أن

المنهج التاريخي يعتبر منهجاً مهماً لكلا من هذه العلوم. ولكن بالطبع، يرتبط هذا المنهج بصورة أكثر بالدراسات الإنسانية، ذات الطابع التاريخي، التي لا تعتمد بصورة كلية على المنهج التجريبي، أكثر من إستخدامها للمنهج التاريخي، الذي يعتبر منهجاً متميزاً لدراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، ومحاولة تتبع حدوثها وظهورها وتفسيرها في سياقها الاجتماعي الذي ظهرت فيه، كم أن هذا المنهج يعتبر مهماً لدراسة الحاضر في ضوء تجارب الماضي، وفهم كيفية تطور كل من الظواهر الاجتماعية ونظرياتها وإهتمامات العلماء بها وتطلعاتهم للتنبؤ بها مستقبلاً.

(٢) تطور الإهتمام بالمنهج التاريخي.

يعتبر المنهج التاريخي من المناهج العلمية، التي استُخدمت بصورة كبيرة بواسطة علماء الاجتماع وغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، ولقد لاحظنا من خلال التحليلات السابقة، أن هذا المنهج يعتبر مهماً أيضاً للمهتمين بدراسة العلوم الطبيعية. فدارس الطب الحديث لا يمكن أن يتجاهل تاريخ الطب وتطوره عبر العصور التاريخية، وهذا ما ينطبق أيضاً على تطور فنون العمارة والهندسة التي لا يمكن فهم نظرياتها دون الرجوع إلى تطور العمارة، خاصة خلال مراحل ظهور الحضارات المتميزة مثل الحضارة الهندية، والإغريقية، والفرعونية، والبابلية والآشورية وغيرها. إلا أن أهمية استخدام المنهج التاريخي تزداد أهميتها في العلوم الاجتماعية، نظراً لطبيعة الظواهر التي تقوم بدراستها وتحليلها والتي تختلف عن الظواهر الطبيعية الأخرى على أية حال، نركز حالياً لتتبع عملية تطور إهتمام علماء الاجتماع ومؤرخي هذا العلم حتى يومنا هذا، ولكن يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أننا لسنا في موضع لسرد الإهتمام بالمنهج التاريخي، الذي أسخدمه معظم علماء الاجتماع بدون إستثناء، ولكننا سنعرض حالياً بعض الأمثلة كشواهد لاستخدامات علماء الاجتماع لهذا المنهج بشيء من الإيجاز:

أولاً: الاهتمامات الكلاسيكية.

(١) ابن خلدون.

يعد المفكر العربي ابن خلدون أول من أستخدم المنهج التاريخي، وذلك بصورة تحليلية مقارنة، ولاسيما أنه عرف التاريخ والبحث التاريخي ووصفه بأنه فن للعامة وعاماً للخاصة. وهذا يعنى أن ابن خلدون حرص من خلال هذا التعريف، أن يشير إلى أهمية التاريخ كعلم وخاصة للمهتمين بدراسة الأحداث والشواهد التاريخية. وهذا ما جعله يؤكد على أهمية دراسة التاريخ فى إطار الواقع الاجتماعى والثقافى الذى ظهر فيه، لأن بدون الإستعانة بهذا الواقع يصبح التاريخ وأحداثه عبارة عن أحداث جوفاء لاقيمة لها. وهذا ما جعله ينتقد بعض المؤرخين الذين سبقوه من أمثال " المسعودى " لسرده الأحداث التاريخية دون ربطها بالواقع التى ظهرت فيه فى إطار إهتمامات ابن خلدون بالمنهج التاريخي وإستخدامه فى دراسة الظواهر الاجتماعية، حلل الكثير من كتب المؤرخين التى وجدها مليئة بالأخطاء والأخبار الزائفة وغير الصحيحة. وهذا ما جعله يؤكد على أهمية التحقق من الأخبار وتخليص التاريخ منها، والعمل على جعلها معبرة عن واقع المجتمعات التى ظهرت فيها. كما حدد الاسباب التى تؤدى إلى عدم الصدق من قبل المؤرخين ونقلهم للأخبار، وتشمل هذه الاسباب عدد من النقاط التالية:

(١) الأمور الذاتية التى تتعلق بشخص المؤرخ وميوله وأهدافه، ولعلاج ذلك يجب أن يتحرر المؤرخ أو الباحث عن الهوى وتشخيص الأحداث ووصفها.

(٢) الجهل بالقوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية، كظواهر الفلك والكيمياء والطبيعة وعلم الحيوان والنبات، ولعلاج ذلك يجب أن يهتم الباحث بالإلمام بتاريخ هذه العلوم وقوانينها.

(٣) الجهل بالقوانين التى تخضع لها ظواهر المجتمع الإنسانى، ولاسيما أن هذه الظواهر تحكمها قوانين إجتماعية، ولايمكن تفسيرها حسب أهواء المؤرخين أو الباحثين. وهذا ما أكده ابن خلدون على أهمية ربط الأحداث الاجتماعية والتاريخية من خلال الواقع التى ظهرت فيها وهذا ما أشار إليه فى الإعتماد على نقل الأخبار ".... ليس مجرد النقل، ولم تحكم طبيعة

ال عمران الأحوال فى الاجتماع الإنسانى. .. فربما لم الفصور، من ومزلة رمز له القديم والجيد عن جارة الصواب (١).

ومن ثم، يستخدم المنهج التاريخى عند ابن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية، فلقد استخدم هذا المنهج على مرحلتين أساسيتين وهى:

أولاً: مرحلة الملاحظات الحسية التاريخية للظواهر الاجتماعية.

ثانياً: مرحلة دراسة العمليات الفعلية التى يمر بها غنى الظواهر المراد دراستها ويتضح لنا من خلال المرحلتين الأساسيتين للمنهج التاريخى عند ابن خلدون، طبيعة هذا المنهج الذى حدد له مجموعة من الخطوات والفروع المنهجية وهى (٢)

(١) الشك والنمحيص.

(٢) التشخيص المادى الدقيق.

(٣) معرفة أسباب الظواهر وطبيعة العمران.

(٤) استخدام القياس والاستدلال بالثبوتات التاريخية.

(٥) تفسير البيانات وتحليلها.

(٦) التقييم أو الوصول الى القوانين، وتكن بصورة دقيقة.

تلك الخطوات الأساسية، التى عكست بالفعل رؤية هذا المفكر العربى، الذى سبق علماء العرب بما يقرب من خمسمائة عام وفرضه لقواعد المنهج العلمى المستخدم فى دراسة الظواهر والأحداث الاجتماعية. ولا سيما أن ابن خلدون قد عزى استخدام هذا المنهج من خلال تركيزه أيضاً على الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة وهى نفس الأدوات المنهجية التى يستخدمها علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى دراستهم للنواقع الاجتماعى.

(١) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ابن خلدون (ط٣) تحليل عبد الرحمن واقى،

القاهرة: دار النهضة ١٩٥٦، ص ٢٦٢، ص ٢١٩.

(٢) للمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ التفكير الاجتماعى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية،

١٩٩٩.

إهتم هذا المفكر الإيطالي الذي ظهر خلال النصف السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ليعكس وجهة نظر متطورة عن إستخدام المنهج التاريخي، وهذا ما يعبر عنه صراحة في كتابه (العلم الحديث)، Science Nouvelle، وإلى إستبطاء عدد من النظريات التي تعتمد على الحقائق التاريخية، كما دعى إلى تطبيق منهج العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الإنسانية. وإن كان إهتم بصورة أساسية، بالمصادر التاريخية ولاسيما الوثائق، بإعتبارها مصدراً هاماً لمعرفة أحوال الشعوب والمجتمعات القديمة، وذلك من أجل فهم طبائع هذه الشعوب ومحاولة تفسير عاداتها وتقاليدها. وقد عبر "فيكو" عن إهتمامه بالمنهج التاريخي من خلال نظريته عن التطور للمجتمعات البشرية وهي المرحلة الدينية، والبطولية، ومرحلة الإنسانية.

ولقد حدد "فيكو" عدد من القواعد الأساسية التي يمكن تبنيها بواسطة الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التاريخي، وهي بإيجاز:

- (١) تحديد الظواهر المراد دراستها، والعمل على تعقبها خلال العصور التاريخية.
- (٢) جمع الوثائق المرتبطة بالعادات والتقاليد والاديان والحوادث التاريخية.
- (٣) إذا تعذر الإستعانة بالوثائق، عند الرجوع لبعض المجتمعات البدائية، التي لا تزال تعيش مرحلة تاريخية متأخرة للتعرف على طبائع الشعوب القديمة، والإستدلال بما هو معروف عما هو مجهول في الماضي لتاريخ هذه الشعوب.
- (٤) القيام بتحصيل المصادر التاريخية ومنها الوثائق للتأكد من صحتها.
- (٥) الإعتماد على دراسة اللغات، كعامل أساسي للمؤرخين، ولاسيما أن "فيكو" وجد من اللغة مصدراً أساسياً للتعرف على طبائع الشعوب وتطور لغاتهم.
- (٦) تصنيف الحقائق والتأليف بينها للوصول إلى قوانين تفسير الظواهر والاحداث الاجتماعية.

جاءت إسهامات "كونت" مؤسس علم الاجتماع من خلال تركيزه على ضرورة استخدام المنهج العلمي، الذي يوجد لدى علماء العلوم الطبيعية، نظراً لأن هؤلاء العلماء وعلمهم قد تطورت كثيراً، ويجب على علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، أن يسلك نفس المسلك المنهجى عند تفسير الظواهر الاجتماعية. ولكن رأى "كونت" أيضاً، أن طبيعة الظواهر الاجتماعية ومعقدة، وتحتاج إلى مناهج أخرى مكملّة لدراساتها. ولذا، أكد "كونت" على أهمية الإستعانة بالتاريخ، وبالتحديد بالمنهج التاريخي المقارن لدراسة الظواهر الاجتماعية متعددة الأسباب، والتي تتشكل من جملة من العوامل والظروف، التي تجعلها متباينة عن الظواهر الطبيعية الأخرى. كما أكد "كونت" على أهمية استخدام المنهج التاريخي بهدف الوصول إلى القوانين عامة وفهم تطور هذه الظواهر وتغيرها بصورة مستمرة. ولاسيما، أن كونت أكد على أن حدوث الظواهر وتطورها حيث تتم في آن واحد كما يتأثر بعضها البعض، ولا يمكن فهم تطور الظواهر الاجتماعية جميعها أو واحدة مفردة، دون أن تكون لدى الباحثين فكرة عامة، عن قوانين التطور أو التقدم التي يمكن الإستعانة بها في تفسير تقدم المجتمعات البشرية.

ولذا، حرص كونت على طرح قانون المراحل الثلاث، الذي استخدم في تفسيره المنهج التاريخي المقارن، فعن طريقه يمكن فهم تطور كل من المجتمعات الإنسانية والعقل البشري في نفس الوقت. فلقد مرت المجتمعات من المرحلة الأولى (اللاهوتية) ذات التفكير الغيبي اللاعقلاني، إلى المرحلة الثانية (الميتافيزيقية) والتفكير فيما وراء الطبيعة، ثم إلى مرحلة الوضعية، أو مرحلة التفكير العقلاني التي يعتمد فيها على العلم وأدواته المنهجية المختلفة ولاسيما الملاحظة والتجربة. في نفس الوقت، حرص كونت على توضيح أهمية استخدام الباحثين للمنهج التاريخي، ولاسيما أن دراسة الأحداث التاريخية، وإعتبارها شواهد علمية لها دلالتها من الناحية المنهجية والتفسيرية أيضاً. كما حدد طبيعة المنهج التاريخي من خلال أهمية تقسيم الظواهر التي يمكن دراستها أو ملاحظتها، وتحديد الفترات والعصور التاريخية تحديداً دقيقاً حتى يمكن الوصول إلى قوانين عامة بشأنها.

وربما تعكس لنا تصورات " ريمون آرون " ^(١) R. Aron، أهمية استخدام " كونت " للمنهج التاريخي في دراسته لتطور المجتمعات الغربية، وذلك من خلاله تركيزه على مجموعة الاسباب التي أدت إلى ظهور المجتمع الصناعي الحديث، الذي ظهر بعد فناء مجتمعات العصور الوسطى الاقطاعية، ذلك النوع من المجتمعات الذي كان يتميز بالطابع الديني والعسكري. أما المجتمع الصناعي الحديث، فتم تطوره عن طريق ظهور فئة من العلماء والمفكرين بدلاً عن رجال الدين المسيحي وأصحاب النظريات الغيبية اللاهوتية. ومن ثم، فلقد إنتقلت القوى الروحية The Spirticl Power، إلى القوى العلمية The Scientific Power، التي أدت إلى تقدم المجتمع الصناعي وظهور فئة بين الصناعيين ورجال الأعمال والإداريين المهرة، الذين عكسوا رغبتهم في الإصلاح والتغير والتطور المستمر. وبايجاز، لقد حرص كونت على أن يستخدم المنهج التاريخي ليس فقط في تتبع عملية التطور والتقدم الذي حدث في المجتمع الصناعي، بقدر ما حاول أن يفسر هذه العملية والمرحلة التاريخية في إطار مجموعة من العوامل والاسباب التي بدونها يصعب فهم هذه الاحداث التاريخية.

ثانياً: الاهتمامات الحديثة.

بعد الإشارة الموجزة لتطور الاهتمام بالمنهج التاريخي من جانب مفكرى وعلماء الاجتماع الأوائل، والتي طرحت أفكارهم من أمثال ابن خلدون، وفيكو، وكونت، فلقد أطلقنا على تحليلاتهم بالاهتمامات الكلاسيكية لأنها ظهرت ما قبل القرن العشرين. كما طرحنا هذه التحليلات لتكون بمثابة أمثلة أو نماذج فقط من استخدامات المنهج التاريخي في التفكير والتحليل السوسيولوجي بصورة موجزة. وحالياً نركز أيضاً على بعض الأمثلة الحديثة، التي ظهرت خاصة خلال القرن العشرين، ولاسيما التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، لتعكس بصورة موجزة مدى تطور البحوث الاجتماعية وتنوع

(١) لمزيد من التحليل أنظر:

Aron, R, Main Current in Sociological Thought vol (1), London: Delcon Book, 1961.

مناهجها لدى علماء الاجتماع، وهذا ما سنشير إليه عند "رايت ميلز" R. Mills، و"كارل مانهايم" K. Mannheim. ولكن قبل تحليل إسهام كل منهما يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن استخدامات المنهج التاريخي وتطوره جاءت في تحليلات الكثير من علماء الاجتماع البارزين والمعاصرين أيضاً، ولكن يصعب علينا سرد هذه الإسهامات التي عززت من استخدام المنهج التاريخي ذاته.

من أهم هؤلاء العلماء إسهامات "ماكس فيبر"، M. Weber، و"كارل ماركس" K. Marx، و"سبنسر" Spenser، و"باريتو" Pareto، و"ميتشيلز" Michels، و"سوركن" Sorokin، و"جولدنر" Gowlnder. هذا بالإضافة إلى العديد من الإسهامات السوسيولوجية الحديثة، والسوسيوسيكولوجية وغيرها التي استخدمت المنهج التاريخي وأدت إلى تحديثه، وهذا ما تبلور في إسهامات علماء هذه التخصصات التي عززت من خطوات هذا المنهج، وهذا ما تبلور في الدراسات السوسيولوجية التاريخية الثقافية، أو ما يعرف بمدرسة التأويل التاريخي للثقافة، وإعتمادها على المنهج التاريخي مثل تحليلات "كوبير" Koeber، أو ظهور علم الاجتماع التاريخي Historical Sociology، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الإقتصادي والسياسي، وغير ذلك من إسهامات متعددة اعتمدت على المنهج التاريخي بصورة كبيرة، ويصعب علينا حالياً تحليلها.

(١) كارل مانهايم K. Mannheim.

ظهرت تحليلات "مانهايم" بعد الحرب العلمية الأولى والتي جاءت، لتعكس رؤيته كعالم اجتماع له العديد من الإسهامات ولاسيما في مجال سوسيولوجيا المعرفة^(١) Sociology of Knowledge، أو تطويره للمدخل الفينومينولوجي Phenomological Approach، الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية. ولكنه اتخذ مدخلاً موضوعياً لتمثيل الاتجاه الألماني الذي تزعمه "ماكس فيبر"، و"ماركس" وغيرهم آخرون، إلا أن إسهامات "مانهايم" تمثلت في

(١) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى:

- Mannheim, K, Essats on Sociology of Knowledge, London: Routledge, 1952.

تحليله لحصيلة المعرفة الإنسانية والنظريات التي حرصت بصددتها، وحاول ان يحلل منهجه العلمى مركزاً على دراسة المعرفة - كحصيلة للفكر الإنسانى - وموضوع الدراسة الموضوعية والعلمية. ومن هذا المنطلق، حلول "مانهايم" أن يعقد نوع من الترابط الفكرى بين النظريات السياسية أو الفكر السياسى، والنزعات الفلسفية (الفينومينولوجية)، وردها إلى وجورها الإجتماعية، واصولها التاريخية، عن طريق تتبع أساليب المنهج التحليلى التاريخى المقارن الذى برعت فى إستخدامه المدرسة الألمانية السوسيولوجية بدون إستثناء. وما من شك، أن جذور هذه المدرسة تمتد إلى إسهامات فلاسفة التاريخ الألمان من أمثال "كانط" Kant "وهيجل" Hegal، على سبيل المثال. ويمكن فيما يلى، أن نوجز بشدة إسهامات "مانهايم" فى تطور المنهج التاريخى فى عدة نقاط أساسية:

(١) إنتقد مانهايم علم الاجتماع الوصفى، وأكد على أن نقطة الضعف تتبلور فى نوعية المنهج المستخدم فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وعدم التمييز الواضح بين خصائص الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، وعدم الإنتباه إلى التباين الفينومينولوجى (المعرفى) بين ما يحدث فى العالم المادى من موضوعات (جامدة) لأحياة فيها، وبين الظواهر (الحية) والقيم الإنسانية، التى يجب أن نهتم بها من خلال التركيز على المنهج التاريخى لدراسة محتويات الثقافة والمعرفة ككل.

(٢) ركز مانهايم على ضرورة نقد المعرفة الإنسانية وإعادة تحليلها على أسس ومعايير علم اجتماع المعرفة الحديث، الذى يهدف لربط الفكر بالمعرفة بالظروف الثقافية والتاريخية، وتفسير مسألة الإدراك والفهم الإنسانى فى ضوء (روح العصر)، وما يسود تلك الروح من تيارات فكرية متباينة، وهذا ما أشار إليه فى تحليله للأيديولوجيات المتصارعة وأهمية الإعتماد على المنهج التاريخى فى تحليل مكونات الصراع الطبقي، وما تتضمنه من جذور تاريخية وثقافية ومعرفية لايمكن تفسيرها عن طريق المناهج الوضعية ولكن التاريخية المقارنة

(٣) تصور مانهايم، أن حركة التاريخ هى وحدها مصدر الفكر، وأن إستخدام الحدس التاريخى (المنهج التاريخى)، يعتبر المصدر الوحيد للمعرفة، تلك

المعرفة التي من الصعب فهمها وتفسيرها، إلا عن طريق استخدام خطوات هذا المنهج، الذي يعتمد على الأصول التاريخية والمصادر والوثائق والجذور التاريخية، التي يمكن أن تساعدنا ليس فقط على فهم المعرفة الماضية، وحقائق المعرفة الإنسانية الماضية ولكن ما يثار منها في الوقت الحاضر.

(٤) حاول مانهيم، أن يبرهن على أن الفرد القارئ، يمكن أن يتعرف على مكونات المعرفة الإنسانية، عن طريق فهم كل المواقف التاريخية، التي يعاصرها ولا سيما أن هذه المواقف تمثل روح العصر وسماته ومعايره الفكرية.

(٥) وحاول أن يبرهن على كيفية استخدام ما يسمى بفلسفة المواقف التاريخية ونسبية الثقافة والمعرفة على مر العصور، وهذا ما تبلور في استخدامه للإتجاه الوظيفي في تفسير الظواهر والاحداث التاريخية والاجتماعية، من أجل إعادة بناء "الحقيقة الاجتماعية". وذلك عن طريق استخدام المنهج والتفسير التاريخي، الذي يضيف على الوقائع والحقائق والأحداث معناها، لأن التاريخ هو الذي يصنع مقولات الفكر، ويخلق الافكار التي نشاهدها مرتبطة بروح الزمان التاريخي والاجتماعي

(٢) رايت ميلز R. Mills.

يمثل ميلز فترة تاريخية جديدة، حيث ظهرت تصوراتته عن استخدامات المنهج التاريخي في كتابه المميز بالخيال السوسيولوجي Sociological Imagination^(١) ونجد فيه أن آرائه في مرحلة الخمسينات والستينات من القرن الماضي (العشرين)، والتي شهدت نوعاً من التطور المنهجي والتنظيري في علم الاجتماع، بعد ظهور العديد من التخصصات الفرعية المتعددة لهذا العلم. وحاول ميلز أن يشير صراحة بضرورة تبني المنهج التاريخي والإعتماد على التاريخ بصورة كبيرة، ولا سيما، أن استخدام ذلك يساعد على تطور الروى التحليلية السوسيولوجية، أو ما أسماه بالخيال السوسيولوجي للباحث، والتي تؤسس قدرته الفكرية ونظريته الواقعية الشاملة للإنسان والمجتمع والظواهر البيئية والظروف الخارجية، التي تحدد العلاقة

(١) لمزيد من التحليلات إرجع إلى:

- Mills, R, The Sociological Imagination: N.Y. 1966.

بين الشخصية الفردية والبناء الإجتماعى ككل. كما أكد ميلز، على أهمية الخيال السوسيولوجى واعتبره ضرورة ملحة لفهم المجتمع الحديث المتغير بسرعة، وهو بمثابة إدارة بحثية ومنهجية تعين الباحث على توسيع إدراكه للواقع الخارجى ومهمة المجتمع العالمى ككل، وليس بإعتباره عضواً فقط يعيش فيه بنوع من اللامبالاة والسلبية الفردية.

وحاول ميلز أن يطور تصوراتَه عن الخيال السوسيولوجى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، بإعتبار ذلك نوع من الرؤى المنهجية التاريخية، ولاسيما أن المنهج التاريخى يساعد على عدم عزل هذه الظواهر عند تحليلها، بقدر ما يجب أن يهتم الباحثين بالإطار التاريخى والاجتماعى والثقافى المحلى والعالمى الذى يحيط بهذه الظواهر. وهذا ما جعله يطرح تساؤلات رئيسية، يجب ان يهتم بها الباحث أو العالم الاجتماعى عند إستخدامه للخيال السوسيولوجى، وهى بإيجاز:

(١) رصد بناء المجتمع بصورة عامة، وماهى مكوناته الأساسية، وما هى الروابط أو الصلات بينها، وخاصة أوجه الاختلاف بين البناءات الاجتماعية، وما اسباب تغيرها؟.

(٢) ما هو موقع المجتمع على خط التاريخ الإنسانى؟، وما هو دوره فى تطور الإنسانية كلها، وما تأثيره على الحقبة التاريخية التى عاصرها؟، وما هى خصائص هذه الحقبة التاريخية، وإلى أى حد تختلف عن بقية حقبات التاريخ؟.

(٣) ما طبيعة التباين بين أنواع كل من الرجال والنساء وأدوارهم فى مجتمعاتهم خلال الفترة التاريخية التى عاشوها بالفعل؟ وما هى الطبيعة الإنسانية التى سوف يظهر عليها التمايز النوعى للجنس البشرى، وملامح الشخصية الفردية، والسلوك الاجتماعى الذى يمكن ملاحظته فى هذا المجتمع الحديث والحقبة التاريخية اللاحقة؟.

وهكذا، تعكس لنا التساؤلات السابقة التى يجب أن يستخدمها الباحث لدراسة الظواهر والاحداث الاجتماعية عن طريق ما أسماه ميلز بالخيال السوسيولوجى وتساؤلاته، الذى يعتمد على التاريخ أو المنهج التاريخى كأداة لطرح التساؤلات أو الفروض البحثية وكيفية الإجابة عليها وتفسيرها بصورة

واقعية، عند دراسة مشكلات المجتمع الحديث، وهذا ما جعله يؤكد على مهمة العلوم الاجتماعية وطبيعة الظواهر، التي تقوم بدراستها حيث أنها تعالج مشكلات تاريخ الحياة، والتاريخ، والإرتباط المتداخل بين البناءات والنظم الاجتماعية، أو مايمكن تسميته بتاريخ المجتمعات أو الحقب التاريخية. علاوة على ذلك، حرص ميلز، على إبراز مشكلة البحث السوسيولوجية والاجتماعية عامة، والتي تتبلور في مشكلة الإنسان الحقيقية، ومدى فهمه للأحداث الجارية من خلال تتبعه لإسهامات مجتمعه ومكانته، ووضعه بين المجتمعات والبناءات المجتمعية، وهذا لايمكن تحقيقه، إلا من خلال الإعتماد على التاريخ، والذي اعتبره ميلز "جوهر الدراسات الاجتماعية". في نفس الوقت، حرص على ضرورة أن يستخدم الباحث السوسيولوجي، مدخلاً متميزاً للإستفادة من المناهج السيكولوجية، عن فهم الشخصية الفردية، والمنهج التاريخي عند دراسته للمشكلات الاجتماعية، وهذا ما جعله يطرح تسمية جديدة لعلم الاجتماع وهي "علم الاجتماع التاريخي".

و بإيجاز، لقد حرص ميلز على أن يطرح العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع، من خلال إستخدام المنهج التاريخي، وأداة التحليل السويولوجي، موضحاً أسباب تداخل هذه العلاقة، في النقاط التالية:

(١) من الضروري أن يكون للباحث الاجتماعي وعلماء الاجتماع خاصة، معرفة منظمة بتاريخ المجتمعات عامة وتطورها، ونوعية بناءاتها ونظمها، ومشكلات الإنسان منها، دون أن يحصر الباحث ذاته في مجتمع معين بالذات، وبعيداً عن معرفة التمايز والتباين بين نماذج البشر ونظمها الاجتماعية، وهذا لا يتم إلا عن طريق إستخدام المنهج التحليلي التاريخي المقارن.

(٢) تتميز الدراسات الاجتماعية التي تخلو من مضمونها التاريخي بالسطحية، وبعدها عن فهم أنماط التفاعل بين البناءات الاجتماعية الصغرى والكبرى، وتوصيلها إلى أفكار جامدة، لأنها لم تعتمد على الرؤى التاريخية أو فهم هذه البناءات في سياقها التاريخي، حيث لايمكن فهم أى مجتمع دون معرفة الحقبة التاريخية التي ظهر فيها.

(٣) إن استخدام المدخل التاريخي المقارن من شأنه أن يعزز نتائج بحوث علماء الاجتماع، والإقتصاد والسياسية وغيرهم الذين يبحثون مشكلات المجتمع الصناعي المتقدم، ومقارنته بما هو موجود في مجتمعات نامية أو مختلفة موجودة بالفعل، أو مجتمعات ظهرت في حقبات تاريخية مثل تتبع الرأسمالية في المجتمعات الغربية.

٣-٣ المسلمات العامة للمنهج التاريخي

أوضحت التحليلات الموجزة لتطور الاهتمام بالمنهج التاريخي في البحوث الاجتماعية (السوسيولوجية) عن مدى اهتمام علماء ومفكرى علم الاجتماع بهذا المنهج، وهذا ما ظهر في تصورات بعض هؤلاء العلماء والذين طرحت تصوراتهم (كمدخل فقط) للاهتمامات السوسيولوجية التي تهتبت الاجتماعية بالمنهج التاريخي وخاصة تلك الاهتمامات أو المجالات التي تركت بصماتها واضحة المعالم على تحديث هذا المنهج، وتطور استخداماته في دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية. كما كشفت هذه التحليلات من ناحية أخرى، عن كيفية تطور البحوث الاجتماعية منذ أن طرح ابن خلدون تصوراته العامة (أهمية استخدام) التاريخ والمنهج التاريخي عند دراسة الظواهر الاجتماعية، وأيضاً عندما تبنى "كونت" وغيره من رواد علم الاجتماع المنهج التاريخي. بالإضافة إلى المناهج العلمية الأخرى عند دراساتهم السوسيولوجية. إلا أن بلورة المنهج التاريخي -كمنهج علمي- استخدم بالفعل خلال القرن العشرين. ولاسيما بعد أن تنوعت المشكلات والظواهر الاجتماعية وتعددت التصورات النظرية الموجهة للبحوث الاجتماعية ومناهجها ومنها بالطبع المنهج التاريخي، الذي يعتبر من أهم المناهج العلمية المستخدمة في الدراسات السوسيولوجية النظرية والإمبريقية (الميدانية).

ويتعين علينا قبل الإشارة إلى خطوات المنهج التاريخي ومصادره الأساسية، أن نوضح عدد من المسلمات أو المبادئ العامة، التي يجب أن يستخدمها الباحث الاجتماعي، أو يقوم عليها البحث والمنهج التاريخي بصورة أساسية، وهذه المسلمات كما يلي:

(١) ضرورة النظرة إلى الأحداث والحقائق التاريخية على أنها جزء من نمط الثقافة والمعرفة والحياة الاجتماعية العامة، والتي لا يمكن فهمها إلا من خلال هذا السياق ورجوعها إلى أهدافها التاريخية وجزورها الاجتماعية. وهذا ما أكد عليه علماء مناهج البحث الاجتماعي، الذين تبنوا المنهج التاريخي،

ولاسيما التركيز على فهم الاحداث والظواهر الاجتماعية، في إطار سياق روح العصر، ومعرفة الروابط المتداخلة بين هذه الاحداث والبناءات الاجتماعية التي ظهرت فيها.

(٢) العمل على فهم تاريخ البشرية والإنسانية، في إطار تصورنا لهذا التاريخ الذي يعتبر سلسلة متصلة الحلقات، خاصة أن تاريخ البشرية يمثل حقبة تاريخية، لا يمكن تجزئتها إلا بغرض الدراسة والتحليل. كما تسهم عملية فهم تاريخ البشرية في دراسة الواقع والحاضر، وايضاً بما سوف يحدث مستقبلاً، وهذا ما يعكس ضرورة الإستعانة بالمنهج التاريخي في التنبؤ بالمستقبل.

(٣) إن من أهم خطوات المنهج التاريخي أو الإستفادة من دراسة التاريخ، دراسة أحداث الماضي، لفهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل، وذلك عن طريق إستخدام إحدى أدوات المنهج التاريخي، ألا وهي الملاحظة التأملية للأحداث التاريخية التي وقعت في الماضي، والتي تساعدنا للوصول للمعرفة الحقيقية والتفسير الواقعي للتاريخ الحديث.

(٤) ضرورة فهم التاريخ ليس بمعناه الضيق أو البسيط المجرد، الذي يقوم على سرد الحقائق أو الوقائع أو الأحداث التاريخية، مثل الغزوات أو الحروب أو الأبطال والمشاهير وسيرتهم الذاتية الشخصية فقط، بل ضرورة إستخدام المنهج التاريخي التحليلي المقارن، الذي يفهم التاريخ بمعناه الواسع والشامل، والذي يؤكد دراسة الحضارة البشرية^(١)، وكيفية صنعها وتطورها وأسباب حدوثها أو إنهيارها في نفس الوقت.

(٥) يجب على الباحث الاجتماعي أن يعرف جيداً أن إستخدام التفسير التاريخي، يمثل أهم مسلمات المنهج التاريخي عند دراسة الظواهر الاجتماعية. فمن طريق هذا التفسير، يستطيع الباحث ان يدرك الظواهر ويحللها بصورة واقعية ويستند إلى الشواهد التاريخية وتكرارها بصورة نسبية، وفي فهم الواقع أو المجتمع الذي يعيش فيه فدراسة تاريخ الشعوب وتاريخ الثورات وتفسيرها تساعد على فهم طبيعة هذه الشعوب، واسباب حدوث الثورات، والحركات الاجتماعية التعددة التي توجد في مجتمعاتنا المعاصر.

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٠١-٢٢٠.

(٦) ضرورة أن يدرك الباحث عند إستخدامه للمنهج التاريخي أو المادة التاريخية، أنها أكثر تعقيداً أو تركيباً من المادة الطبيعية، التي تستخدم في العلوم الطبيعية . ومن ثم، يجب أن نفهم المادة التاريخية في ضوء مجموعة العوامل والاسباب التي تشكلها وعدم الإعتماد على عامل البعد الواحد، وهذا بالفعل ما تؤيده اسباب حدوث الظواهر الاجتماعية والاحداث التاريخية للماضية.

(٧) يجب على الباحث والمؤرخ أو العالم الاجتماعي عموماً، أن يتحرى الدقة والموضوعية، والامانة العلمية، وأن يستبعد العواطف والاهواء الشخصية، التي قد تقصف بنتائج بحوثه ودراسته، وتعتبر نوعاً من التريف العلمي والتاريخي. وهذا ما جعل ابن خلدون منذ البداية، يؤكد على اهمية ضرورة الفحص والتفحص في نتائج الأبحاث التاريخية السابقة، ومحاولة التحقق منها باكثر من مصدر من مصادر جمع البيانات التاريخية، مثل الوثائق على سبيل المثال.

٤ - خطوات المنهج التاريخي.

طرحت المسلمات والمبادئ العامة للبحث والمنهج التاريخي، عدد من القواعد التي يجب إتباعها بواسطة الباحثين الذين يستخدمون هذا المنهج في دراسة الظواهر والاحداث التاريخية والاجتماعية. ولاسيما، أن هذا المنهج التاريخي يعتمد عليه بصورة كبيرة في دراسة هذه الظواهر، التي تتلائم من حيث طبيعتها ومضمونها مع مقومات هذا المنهج بصورة عامة. ويمكن حالياً، أن نطرح عدد من الخطوات الإجرائية التي يجب أيضاً أن يتبعها الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التاريخي، تلك الخطوات التي تتطابق تماماً مع خطوات المنهج العلمي، الذي يستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية وخاصة، أن قواعد المنهج العلمي، لا تختلف من حيث التطبيق أو القواعد بالنسبة لدراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت، ولكن الاختلاف يرجع حسب طبيعة بعض الاساليب الإجرائية والفنية الخاصة التي يستخدمها كل باحث، وتختلف حسب نوعية الموضوع أو الظاهرة المراد دراستها، وايضاً حسب طبيعة العلم أو التخصص العلمي الذي يدور في إطاره الظاهرة العلمية أو الطبيعية قيد البحث والدراسة. وعموماً، يمكن الإشارة إلى أهم خطوات المنهج التاريخي وذلك بصورة موجزة كما يلي:

(١) تحديد المفاهيم الأساسية للبحث وقضاياها وإطاره التصوري:

تعتبر هذه الخطوة أولى مراحل البحث العلمي التاريخي، التي يجب أن يحددها الباحث الذي يستخدم هذا المنهج أو منهج علمي آخر. ولا سيما، أن عملية تحديد المفاهيم تعد من الخطوات الأولية أو الاجرائية المنهجية، التي من شأنها تعزيز عملية جمع البيانات ووضوح مفرداتها ومفاهيم البحث العلمي النظري والميداني. كما تساعد هذه الخطوة على تصنيف البيانات، التي تم حصرها وتبويبها بصورة يسهل إستخدامها سواء من الباحث، أو من قبل الباحثين في الدراسات التاريخية اللاحقة^(١). في نفس الوقت، تعكس هذه الخطوة، طبيعة وجود لغة علمية متخصصة، متعارف عليها من قبل المتخصصين في مجالات البحوث العلمية والاجتماعية. ولا سيما، أن هذه البحوث تستند للغة واضحة ودقيقة، وتم كتابتها وتجميعها بصورة منظمة، وتم تحديد قضاياها وإطارها التصوري النظري الذي يوجه البحث عموماً لمجموعة من الاهداف التي يسعى لتخصيصها بصورة عامة.

(٢) تحديد وحدة التحليل التاريخي:

يقصد بهذه الخطوة أن الباحث بعد تحديد المفاهيم والإطار النظري أو النظرية الموجه للبحث من الناحية النظرية أو الميدانية، يجب أن يحدد بوضوح طبيعة المرحلة الزمنية أو الفترة التي يهتم بها البحث عموماً. وهذا ما اشار إليه الكثير من علماء الاجتماع الذين أهتموا بتطوير المنهج التاريخي وفهمه على سبيل ريت ميلز، عندما اكد على ضرورة تحديد الحقبة أو المرحلة الزمنية والتاريخية، التي يجب أن يعرفها الباحث عند دراسة الظواهر والاحداث التي يهتم بمعالجتها. كما قد تكون البناءات أو النظم الاجتماعية أو ظاهرة معينة بالتحديد.

٣- تحديد مصادر جمع البيانات:

لكل بحث من البحوث العلمية طبيعة معينة ومحددة تستلزم من الباحث، أن يقوم بتحديد المصادر، التي يجب أن يستخدمها في الحصول على المعلومات أو البيانات سواء أكانت نظرية أم ميدانية (واقعية). وفي البحوث التاريخية الاجتماعية، ثم إتفاق العلماء على مجموعة من المصادر، فبعضها

(١) غريب سيد أحمد، تصميم البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.

مصادر أولية، والبعض الآخر مصادر ثانوية. أو كما يعرفها البعض من العلماء بالمصادر غير الميدانية مثل الإحصاءات، والسجلات والوثائق الرسمية وتحليلات المؤرخين، أو مصادر ميدانية مثل البيانات التي تم الحصول عليها من كبار السن عن طريق الباحثين والمقابلات التي يتم إجراؤها، والمعلومات التي يتم جمعها من الأفراد العاديين سواء من المبحوثين أو الذين عاصروا مشكلة الدراسة (ونظراً لأهمية مصادر جمع البيانات سوف نعالجها لاحقاً بصورة أكثر تحليلاً).

(٤) تحديد أدوات ووسائل جمع البيانات:

المنهج التاريخي من المناهج العلمية التي يستخدمها الباحث الاجتماعي، في الحصول على بيانات متوفرة حول الظاهرة المراد دراستها وتحليلها، وتعتبر خطوة تحديد أدوات البحث من الخطوات التي يجب أن تأخذ في الاعتبار خلال مرحلة إعداد الخطة الأولية لإجراء البحث النظري والميداني، حول الظاهرة أو المشكلة أو القضية التي تم إخضاعها للدراسة والتحليل. وقد تكون طبيعة الظاهرة، مشكلة أو ظاهرة فردية أو جماعية، مثل دراسة الحالة حول شخصية معينة أو مجموعة من الجماعات أو المجتمعات المحلية، أو ظاهرة اجتماعية معينة مثل البطالة، أو الفقر، أو الجريمة، أو غيرها. ويستلزم طبيعة دراسة هذه الظواهر، أدوات ووسائل جمع البيانات، قد تكون الإحصاءات، أو السجلات، أو تحليل المضمون أو المحتوى، والوثائق التاريخية أو غيرها. وكلما تعددت أدوات جمع البيانات وتنوعت المصادر التي يتم جمع البيانات من خلالها كلما ساهم ذلك في الحصول على المعلومات اللازمة، التي تسهم في تفسير وتحليل الظاهرة أو المشكلة قيد البحث والتحليل. وهذا ما يسمى عموماً، بمرونة تعدد الأساليب والأدوات اللازمة لجمع البيانات. وبالإضافة إلى الدراسات السابقة، يمكن أيضاً استخدام المقابلة مع كبار السن أو غيرهم من المبحوثين من مفردات عينة الدراسة التي يتم تحديدها بصورة أساسية.

(٥) التحقق من البيانات التاريخية التي تم جمعها:

تعد هذه الخطوة من أهم الخطوات المنهجية، التي يجب الإهتمام بها من قبل الباحث، ولاسيما أن طبيعة البيانات التي يتم الحصول عليها لدراسة

الظواهر الاجتماعية، عن طريق المنهج التاريخي، تستلزم الدقة نظراً لطبيعة الظاهرة ذاتها، ومحدودية المصادر، وادوات جمع البيانات، ولا سيما في الظواهر التي تندر حولها البيانات والمعلومات اللازمة، أو التي قد ترتبط بمشاكل أيديولوجية أو طائفية أو عنصرية من السهولة تزويدها أو تحريفها لصالح فئة معينة أو رأى أو جماعات المصلحة أو المستفيدين من الخطأ المقصود والمتعمد. وربما تكون مصادر جمع البيانات أولية أو ثانوية، كإحصاءات والقوانين، والسجلات والوثائق، والكتب والبحوث العلمية والخرائط أو غيرها من مصادر أخرى، يجب على الباحث أن يتحقق بصورة مستمرة لتفسير وتحليل البيانات بأكثر من وسيلة للتأكد من صحة البيانات التي تم التوصل إليها، وذلك بصورة موضوعية، حتى يتوصل في النهاية إلى تحقيق أهداف البحث ككل.

(٦) الوصول للنتائج العامة وكتابة تقرير البحث

إن من أهداف أي بحث علمي الوصول إلى عدد من النتائج العامة أو القوانين المرتبطة بموضوع الظاهرة أو المشكلة أو القضية التي طرحها للمعالجة والدراسة والتحليل النظري والميداني. وخلال استخدام المنهج التاريخي، يجب على الباحث أن يقوم بتنسيق الحقائق التي توصل إليها، وأن يربط بينها بصورة متكاملة، ولا سيما بعد قيامه بتحليلها وتفسيرها بصورة علمية وواقعية في إطارها التاريخي أو الاجتماعي أو الثقافي والحضاري. تلك البيانات والحقائق التي تم التحقق منها يمكن صياغتها في مجموعة من النتائج الجزئية والنوعية، التي يتم التنسيق فيما بينها، وتصنيفها بصورة تسمح بأن يطلق عليها بالنتائج العامة أو مجموعة الاستخلاصات العلمية المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة التي خضعت للدراسة والتحليل والتفسير. في نفس الوقت، عند كتابة التقرير النهائي للبحث، أن يقوم الباحث بالتأكد من مجموعة التساؤلات والفروض التي تم طرحها مسبقاً في إطار القضايا النظرية أو ما يعرف بالإطار التصوري للبحث، حتى يتمكن من الإجابة على كافة التساؤلات أو ما يعرف بإشكالية البحث التي قام عليها منذ البداية. وأخيراً، يجب أن تكون عملية كتابة التقرير واضحة، ومنسقة بصورة منطقية، وأن تطرح في إطار عدد من التوصيات التي يمكن الاستعانة بها في مجال الدراسة أو الظاهرة

ذاتها، أو الاستفادة منها فى إجراء البحوث المستقبلية، والتنبؤ بحل مشكلات ذات الصلة بموضوع البحث أو الظاهرة الاجتماعية التى تم معالجتها بصورة علمية.

٥- مصادر المنهج التاريخى.

فى إطار توضيحنا لخطوات المنهج التاريخى، أشرنا إلى خطوة مصادر جمع البيانات، وإعتبار هذه الخطوة من أهم خطوات هذا المنهج، نظراً لإعتماده بصورة أكثر على طبيعة ودقة المصادر التى يحصل فيها على البيانات. ولأسىما أن كثير من هذه المصادر قد تكون نادرة أو صعبة الوصول إليها، أو من الجائز تزيفها أو تعمد الخطأ من وراء تحليلها، وغير ذلك من احتمالات كثيرة قد تؤدى بنتائج البحث والمنهج التاريخى المستخدم فى دراسة الظاهرة أو المشكلة المدروسة إلى نتائج غير واقعية أو موضوعية بصورة كاملة. وعلى أية حال، أن مصادر المنهج التاريخى متنوعة ومتعددة، ويجمع علماء مناهج البحث الاجتماعى، أو يكاد يتفقوا على وجود ثلاثة أنواع أساسية لمصادر البيانات التاريخية وهى كما يلى:

أولاً: المصادر الأولية، ثانياً: المصادر الثانوية، ثالثاً: المصادر الميدانية.

ونظراً لأهمية وتنوع كل من المصدرين إلى مصادر أخرى فرعية نشير إلى أهم كل منها بصورة موجزة فى إطار توضيحنا لطبيعة المنهج التاريخى ونظم خطواته ومصادره المختلفة:

أولاً: المصادر الأولية:

يقصد بهذا النوع من المصادر، التى تحتوى على معلومات أصلية وأولية عن الظاهرة أو الأحداث أو المشكلة أو وحدة التحليل التاريخى المراد دراستها وتحليلها. ويندرج تحت هذا النوع من المصادر نوعان أساسيان من المصادر وهما (١) الآثار (٢) الوثائق، كما يحتوى هذان النوعان فئات فرعية أخرى، يمكن الإشارة إلى كل منهما كما يلى:

(١) الآثار.

وهى البقايا المادية التى تتمثل فى بقايا الحضارات أو أحداث الماضى التى يستطيع أن يفحصها الباحث بدقة وبسهولة بقدر الإمكان، وذلك من أجل

الحصول على المعلومات المرتبطة بالحضارات والمجتمعات والشعوب والثقافات والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت خلال مرحلة معينة من مراحل التاريخ. مثال على ذلك، يستطيع الباحث أن يتعرف على النشاط الاقتصادي أو النشاط الرياضي أو العسكري، لأحدى الأسر الفرعونية التي حكم مصر في مرحلة ما قبل التاريخ الميلاد. ويمكن الحصول على ذلك من خلال ما كتب على الجدران من نقوش ورموز اللغة الهيروغليفية (الفرعونية القديمة)، والتي توجد في المعابد أو الأهرامات أو المتاحف وما تشتملها من تماثيل ونقوش متعددة.

في نفس الوقت، يستطيع الباحث أن يتعرف على طبيعة المباني والمساكن والملابس وبقايا الأثاث الأسلحة والأدوات المبرنية^(١) وجملة البقايا المادية مثل النقود، والمعادن وغيرها من الأشياء الأخرى التي تتمثل في الآثار المادية، التي قد يتم الحصول عليها بواسطة علماء الآثار والحفريات مثل مداخل الحيوانات من الديناصورات، وغير ذلك من بقايا قد تم الحصول عليها حديثاً، ولكن توجد مئياتها على جدران الآثار المادية. كما تشكل اكتشافات علماء الأنثروبولوجيا من بقايا للإنسان والحيوان في العصور القديمة، مصدراً أساسياً لتطوير البحث التاريخي عن طريق الاكتشافات التي يتم الحصول عليها بصورة مستمرة، ولا سيما بعد تطور أساليب جمع البيانات وخاصة من المجتمعات البدائية والمراحل التاريخية القديمة.

(٢) الوثائق.

ويقصد بها السجلات التي تم تدوين المعلومات والحقائق والأحداث الهامة التي حدثت في الماضي أو الحاضر، وقد تكون مكتوبة أو مصورة أو منقولة شفها، ويندرج تحت الوثائق كمصدر من المصادر الأولية للبحث التاريخي، عدد من الأشكال المتعددة، والتي يمكن إيجازها كما يلي:

١- السجلات الشفهية. وهي الكلمات المنقولة، والتي لم يتم تدوينها مثل الأمثال والأساطير التراثية المنقولة من جيل لآخر، ويشمل ذلك الفلكور الشعبي، والسير الذاتية للأبطال، والخرفات، وعبارات الكهنة والرقصات

(١) أنظر على سبيل المثال: عمر الشيباني، مرجع سابق، ص ٩٦-٩٧.

والإحتفالات، ويكون مصدرا للناس وناقلهم لهذا المصدر بمرور الزمن والأجيال.

٢- السجلات المكتوبة. ويشمل هذا النوع عدة أنماط فرعية وهى بإيجاز:

(أ) السجلات الرسمية: مثل الوثائق التشريعية والقضائية والتنفيذية التى تم صدورها بواسطة المؤسسات الحكومية مثل الدساتير والقوانين واللوائح، والعهود والمواثيق وإتفاقيات المعاهدات، والتقارير السنوية، والميزانيات العامة وغير ذلك من سجلات ذات طابع رسمى^(١).

(ب) سجلات المؤسسات الأهلية والدولية، ويشمل ذلك قوانين ودساتير وتقارير وبرامج وميزانيات هذه المؤسسات، ونوعية الإحصاءات والمنشورات والمذكرات التى قامت بنشرها فى الماضى.

(ج) السجلات الشخصية، ويقصد بها المفكرات والمذكرات الخاصة لبعض الأفراد الذين كانوا يحرصوا على كتابة أفكارهم وخواطرهم، وذكرياتهم اليومية، والرسائل والخطابات الخاصة، والوصايا، والعقود، وأصول الخطب، والمقالات، والكتب وغيرها.

(د) المخطوطات، مثل هذا النوع من المخطوطات، التى وجدت على أوراق البردى فى الحضارات الفرعونية، أو التى كتبت على جلود الحيوانات، والاحجار وعن طريقها يمكن الحصول على معلومات هامة مرتبطة بالبحث التاريخى.

(هـ) الخرائط القديمة والمراجع والكتب الأساسية، ويشمل هذا النوع من الخرائط القديمة المرتبطة، بالطرق أو أماكن المدن، أو المعالم الأثرية القديمة أو مواقع الحروب أو حدود البلاد والدول. كما يشمل الكتب والمراجع الأساسية التى تعتبر قيمة تاريخية وأثرية نادرة، والتى كانت فى يومها من أهم المعالم التى أصبحت بعد ذلك نوعاً من التراث العلمى والأثرى الوثائقى.

٣- السجلات المصورة: ويتضمن هذا النوع مجموعة الصور والنقوش والرسومات والنماذج، والتماثيل، والأفلام المتحركة والشرائح المصورة

(١) أنظر على سبيل المثال:

Mann, P. Methods of Sociological Enquiry, London: Bas: Blackwell, 1976, chcp. (4).

وانطواع البريدية، والنقود وما إلى ذلك من سجلات يمكن الرجوع إليها.

٤- السجلات الصوتية: ومن أمثلة هذا المصدر ما تم تسجيله من الأحاديث، والمحاضرات، والخطب السياسية، والمقابلات، المناقشات، التي يتم تدوينها على إسطوانات مثل " تسجيلات صوتية يتم إستخدامها في تحضير البيانات والمعلومات المرتبطة بالدراسة".

ثانياً: المصادر الثانوية.

ويعتمد هذا النوع من المصادر على المصادر الأولية، حيث قد يتم نقلها أو الإعتماد عليها من المصادر الأخيرة، وقد تكرر قد تعدد إستخدامها أو نقلها أكثر من مرة. ويشمل هذا النوع من المصادر كل ماكتب أو نقل بصورة غير شخصية من كتب وملخصات، نشرت مسبقاً في الكتب أو الدوريات أو الصحف وغيرها من مصادر أخرى تعتبر مهمة جداً للحصول على البيانات أو المادة العلمية المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة التي تخضع للدراسة والتحليل. ونظراً لأهمية هذا النوع من المصادر، يبدأ الباحث أولاً بإستخدامها ثم ينتقل بعد ذلك لإستخدام المصادر الأولية. وهذا ما يرتبط عند الإهتمام بدراسة عملية التطور التاريخي لمؤسسة^(١) معينة فيبدأ الباحث بقراءة ما كتب عنها في المصادر الثانوية، ولكن يجد نفسه مضطراً للرجوع للمصادر الأولية التي ترتبط بذات المؤسسة مثل اللوائح والقوانين والسجلات والتقارير بدراساتها وتحليلها.

ثالثاً: المصادر الميدانية.

ويقصد بهذا المصدر من مصادر جمع البيانات للمنهج أو البحث التاريخي، أن كثير من البيانات والمعلومات، قد يتوافر لدى الباحث الحصول عليها سواء عن طريق المصادر الأولية مثل الوثائق، أو المصادر الثانوية الأخرى، ولكن يمكن الرجوع إلى بعض الافراد مثل كبار السن، أو الرحالة، أو من قاموا بإجراء أو مشاهدة أحداث حول الظاهرة المدروسة. وهذا المصدر قد يعتمد عليه العلامة ابن خلدون، الذي اعتمد على الترحال والسفر وجمع

(١) أنظر لمزيد من التحليل:

٢-إبراهيم أبولغد، ولويس مليكه، للبحث الاجتماعي: مناهجه وأدواته، ص ص ٣٣-٣٤.

بيانات متعددة من المصادر الأولية والثانوية، ولكن كان يعتمد على طرح أسئلة وعقد مناقشات مع كبار السن والرحالة أو الأفراد، الذين يتم مقابلتهم خلال زيارته الميدانية وهذا المصدر يعتمد عليه حالياً علماء الأنثروبولوجيا والرواة والمؤرخين وعلماء الاجتماع، عند سعيهم لدراسة مشكلة أو ظاهرة أو مجتمع أو فئة معينة من الأفراد، ويتم ذلك عن طريق الإتصال بمن كان ولا يزال له صلة مباشرة، أو غير مباشرة بموضوع البحث أو الدراسة. وبالطبع يتم ذلك بصورة ميدانية واقعية يقوم بها الباحث ذاته أو من يعاونه في إجراء البحث.

- تحليل المصادر ونقدها:

وعموماً، إن طبيعة البحث أو المنهج التاريخي يعتمد على مصادر متعددة سواء أكانت أولية أم ثانوية أم ميدانية، وهذا ما يجعل هذا المنهج متعدد المصادر والسعى للحصول على البيانات والمعلومات التي من الصعوبة الحصول عليها بواسطة الملاحظة الدقيقة أو التجريب المعمل. ولكن توجد بعد ذلك خطوة إجرائية ومنهجية حتمية، يجب ان يتبعها الباحث الذي يلجئ إلى استخدام المنهج التاريخي، وهي إختيار المصادر التاريخية والمعلومات التي تم الحصول عليها^(١). ولأسىما، أن كثير من المصادر التاريخية قد تكون غير دقيقة أو أصلية أو غير كاملة أو ناقصة بصورة مقصودة أو غير مقصودة. لذا، يجب على الباحث قبل استخدام البيانات والمعلومات أن يقوم بإختيار أو تحليل المصادر التاريخية. وفي الواقع يوجد نوعين أساسيين من هذا النوع من التحليلات هما:

أولاً: التحليل الخارجي. وثانياً: التحليل الداخلي.

ويمكن الإشارة بصورة موجزة لهذين النوعين من التحليلات للمصادر التاريخية نظراً لأهميتهما في الدراسة و استخدام المنهج التاريخي:

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

- Mann, P, op.cit, cchap. (4)

(١) التحليل الخارجى External Analysis.

يتكون هذا التحليل من مرحلتين هما:

١- نقد المصادر أو الوثائق التاريخية: ويقصد بها التأكد من صدق ما تقطوع عليه من معلومات، ولا سيما أن هناك أسباب كثيرة لظهور أو حدوث الخطأ فى الوثائق أو المصادر التاريخية فقد تكون هذه الوثائق مكتوبة بطريقة يصعب تفسيرها وتحليلها، فيجب على الباحث أن يتحرى الدقة فى تحليلها ومعرفة ما بها. كما تكون بعض الوثائق منسوخة من أصول لها ومحفوظة فى أماكن أخرى، فلا بد من عقد نوع من المقارنة بين الأصل والصورة لأسباب سياسية، ودينية، أو أيديولوجية معينة. كما قد تحرف أو تزور الوثائق وينسب إلى أفراد أو جماعات أو دول أخرى غير أصحابها الحقيقيين. فكثيراً ما تم تزوير الخرائط والوثائق التاريخية لدولة فلسطين بواسطة اليهود والصهيانية من أجل تزيف الوعي لدى اليهود الجدد، من ناحية لا وجود تاريخى، ولاحق للفلسطينيين فى العيش فى أرض الميعاد مرة أخرى.

٢- التحقق من شخصية صاحب الوثيقة أو العصور التاريخية: طالما أن مادة التاريخ لا يمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة، وتعتبر الوثائق أو هذه المصادر أى كان نوعها، المصدر الأول للمعرفة أو الحقائق حول الظاهرة المدروسة فيجب أن يتأكد الباحث من صاحب المصدر أو الوثيقة. وبناءً على ذلك، شهدت الأوساط الأوروبية فى بداية الثمانينات نوع من التزيف لمذكرات هتلر، وتم تداول هذه المذكرات فى جميع الصحف، وحدثت ضجة كبيرة، نظراً لأن هذه المذكرات لم تظهر حتى الآن. وتم نشر هذه المذكرات ونشرها بإحدى الصحف الألمانية المشهورة بملايين الدولارات، وبعد أسبوع من تاريخ النشر، تم تكوين لجنة من علماء التاريخ والآثار، للتحقق من مدى صحة هذه المذكرات، التى يمكن الاعتماد عليها. كما عبر عن ذلك أحد المؤرخين فى إعادة كتابة تاريخ أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين. ولكن اكتشفت اللجنة، أن المذكرات تم تزيفها بدقة متناهية، وبالفعل تم ضبط الشخص المزور، الذى ارتكب هذه الجريمة وإعترف بأنه حاول أن يزيفها لكسب الملايين من ورائها. وبالطبع، لسولا التحقق من هذه المذكرات ومضاهاتها بخط هتلر الاصلى لما تم التحقق منها وإكتشاف عملية التزيف.

ويقصد بهذا النوع من التحليل هي مجموعة العمليات التي يستخدمها الباحث في دراسة محتوى الوثائق والمصادر التاريخية، وتعدد الظروف التي أحاطت بها وبكتابتها. كما يقصد بذلك، صدق الفعل التاريخي لا من ناحية الشكل ولكن المضمون. وعموماً للتحليل الداخلي نوعان هما:

١- التحليل الداخلي الإيجابي: ويستخدم هذا النوع من التحليل للتمييز بين مكونات المصادر أو الوثائق التاريخية، وذلك من أجل فهم مكون أو عنصر على حدى، ومعرفة المعنى الحقيقي، الذى تشير إليه الرموز أو الأشكال والعبارات والنقوش. ومن ثم، فإن هذا النوع من التحليل يستهدف تحديد المعانى المختلفة من جمل وعبارات وتراكيب لغوية. وهذا ما يجعل الباحث يبحث عن معرفة اللغة المستخدمة الأصلية في مرحلة كتابة هذه الوثائق أو النقوش أو المصادر التاريخية عموماً.

٢- عملية التحليل الداخلي السلبي: ويقصد بها محاولة التعرف على الظروف التي كان يعيشها كاتب أو صاحب الوثيقة حين سجل ملاحظته، أو شهادة الآخرين الذين رآوا الظواهر أو الأحداث التاريخية أو وضوحها من جانبهم ويكون لهم وثائق حول نفس الظاهرة. وعموماً تهدف هذه العملية إلى معرفة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية، التي أدت ربما إلى تزيف الوثائق. وهذا ما حدث بالفعل إلى معرفة الأسباب وراء تزوير مذكرات هتلر فى أوائل الثمانينات من القرن العشرين وكان الدافع من وراء ذلك هو الحصول على المال. ولكن قد تكون هناك جماعات دينية متطرفة وراء تزيف التاريخ الفلسطينى قبل اليهود الصهاينة الذين قاموا بالفعل تزيف هذا التاريخ لخداع الرأى العام والعالمى واليهودى خاصة بأنه لاحق للفلسطينيين من العودة إلى ديارهم.

بإيجاز، توجد مجموعة من الأسس النقدية التحليلية للمصادر التاريخية والوثائق التي وضعها شابين^(١) Chopin ويمكن الرجوع إليها كما يلي:

١- يجب أولاً نقد الوثيقة أو المصادر التاريخية الأخرى نقداً خارجياً أو من حيث حيث عناصرها الموضوعية مثل:

(أ) التحقق من كاتب الوثيقة.

(ب) تصنيف المصادر تصنيفاً نقدياً.

(ج) يجب غد المغالاة في النقد الشديد .

٢- ضرورة نقد الوثائق نقداً داخلياً أو على أساس خصائصها الذاتية ويتناول الباحث مجموعة من التساؤلات مثل:

(أ) ما الذي يعنيه الكاتب من عبارة معينة بالذات ؟

(ب) هل صدرت العبارة عن عقيدة صادقة ؟

(ج) هل يهتم الكاتب بخداع القارئ ؟

(د) هل كان الكاتب متأثر باتجاه معين ؟

٣- هل العبارات صحيحة ؟

(أ) هل كان الكاتب محدود القدرات نتيجة ضعف إمكانياته ؟

(ب) هل كان الكاتب مهتماً بالأحداث تماماً ؟

(ج) هل المؤلف أو الكاتب مجرد مشاهد للأحداث أو يَـقَامُ بصناعتها ؟

٤- وحينما يتضح أن الكاتب ليس هو الكاتب الأصلي، ضرورة أن يقوم الباحث بتحديد مدى دقة وصدق جميع معلوماته وذلك عن طريق:

(أ) إستخدام المقارنة لبعض الحقائق ومعرفة مدى صدقها مع غيرها من الحقائق التي تم تشكيلها عن مصادر أخرى.

(١) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

- Chapin, Field Work and Social Research , pp. 37-38.

-Lundberg, G. Social Research N.Y Longman, 1942, p.127.

(ب) الرجوع إلى بعض المصادر التاريخية الأخرى التي قد تناولت أو أشارت من قبل إلى نفس الموثيق أو المصدر.

٦- حدود المنهج العلمى.

حقيقة أن استخدامات المنهج العلمى أو البحث التاريخى فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، تعددت وتتنوعت خلال العقود الأخيرة، نظراً لمكانة هذا المنهج وملائمته للدراسة مثل هذه الظواهر، التى تتميز بصورة معقدة وتباينها عن طبيعة الظواهر الطبيعية. وإن كنا أكدنا مرراً قبل ذلك، أن استخدام المنهج التاريخى لا يقتصر فقط على دراسة الظواهر الاجتماعية أو استخدامه فى العلوم الإنسانية، بقدر ما يستخدم أيضاً فى دراسة الظواهر الطبيعية، وهذا ما اشرنا إليه، عند طرح بعض الأمثلة عن استخدامات علماء العلوم الطبيعية، الذين يهتمون بدراسة تاريخ علومهم ذاتها وتطورها عبر العصور التاريخية، وإيضاً عندما يهتمون بدراسة تاريخ نظرياتهم وتطورها وتحقيقها بصورة مستمرة. وعلى أية حال، أن لكل منهج علمى استخدامات وفوائد متعددة، وإيضاً لابد من وجود بعض الحدود والصعوبات التى تواجه الباحثين عند استخدامهم لهذا المنهج، وهذا ما ينطبق بالفعل على تطبيق واستخدام المنهج التاريخى، ويمكن أن نشير إلى أهم حدوده كما يلى:

(١) تحد عملية استخدام المنهج التاريخى من حرية الباحث وإختياراته لأنواع مصادر البيانات أو الحقائق التاريخية التى يقوم بدراستها وتحليلها.

(٢) صعوبة الإجابة كلية على مجموعة التساؤلات التى قد يواجهها الباحث مسبقاً حول دراسة الظاهرة أو المشكلة التى يهتم بمعالجتها.

٣- قد لا تعطى السجلات المكتوبة إجابات متصلة مباشرة بمشكلة البحث، وهذا يؤثر عموماً على إستخلاص النتائج أو البيانات من هذه السجلات^(١).

(٤) صعوبة تصنيف البيانات والمعلومات التاريخية وترتيبها وتصنيفها من حيث أولويتها وأهميتها للبحث، ولا سيما إذا تعددت المصادر التاريخية.

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص ١١٢.

٥- عدم وجود قواعد أو أسس عامة يمكن تطبيقها بصورة شاملة عند دراسة التاريخ أو الماضي.

٦- كثرة حوادث التزييف المتعمد أو غير المتعمد؛ نتيجة لأسباب سياسية، دينية، مادية، عنصرية، مكانية وغيرها.

٧- صعوبة تدريب الباحثين على أجزاء الدراسات التاريخية التي تعتمد على المنهج التاريخي، نظراً لتداخل خطوات هذا المنهج بصورة يصعب فهمها بسهولة

٨- تحتاج عملية تفسير وتحليل المصادر التاريخية إلى نظرة كبيرة بالتاريخ، واللغة المكتوبة، والعادات والتقاليد والثقافات القديمة وغيرها من الأشياء الأخرى.

الفصل الخامس

المنهج التجريبي

تمهيد:

- ١- التعريف بالتجريب والمنهج التجريبي.
- ٢- تطور الاهتمام بالمنهج التجريبي.
- ٣- الخصائص العامة للمنهج التجريبي.
- ٤- خطوات المنهج التجريبي.
- ٥- أنواع التصميمات التجريبية.
- ٦- حدود المنهج التجريبي.

جاء ظهور المجتمع الصناعي الحديث، نتيجة لتطور العلوم الطبيعية وتقدمها في كافة التخصصات العلمية، وإعتمادها على المنهج العلمي التجريبي، ومحاولة العلماء تطبيق نظرياتهم وفروضهم، لإختبارها والتحقق منها على أسس علمية، تقوم على إحترام التخصص وتقسيم العمل المهني والعلمي، الذي يعتمد على كل من الملاحظة والتجربة، كقواعد أساسية للتوصل إلى المعرفة العلمية السليمة. وبالطبع، أن جهود علماء العلوم الطبيعية، لم تظهر بصورة فجائية، ولكنها جاءت نتيجة لإرهاصات علمية طويلة، بدأت أولى مراحلها خلال عصر النهضة أو الإصلاح، الذي لم يكن عصر أهتم فيه العلماء المفكرين بقضايا سياسية ودينية فحسب، بل إنشغلوا في البحث عن الحقيقة، ودراستها على أسس علمية. شملت أيضاً الجوانب التطبيقية للاستفادة من البيئة الخارجية التي يعيشون فيها، وكانت مجال إهتمامهم المستمر، ومحاولتهم السيطرة عليها، بعد أن تخطوا مرحلة البحث العلمي الميتافيزيقي والبحث ليس فقط في ماهية الأشياء أو الظواهر، بقدر ما يهتمون بدراسة السبب والعلّة، لظهور هذه الظواهر وتكرارها بصورة مستمرة.

وبالفعل لقد أثمرت جهود علماء العلوم الطبيعية عن طريق إستخدام الملاحظة، والتجربة وأسس المنهج التجريبي كلية، عن تطور نظرياتهم وأدوات البحث الإجرائي التي تنوعت بفضل تزايد عدد المتخصصين والعاملين في مجالات البحث العلمي. في نفس الوقت، جاءت عملية تطور النظام السياسي والإقتصادي والديني لتوفر المناخ العلمي اللازم، والذي سمح بظهور مؤسسات البحث العلمي مثل الجامعات والمعاهد والمراكز البحثية المتخصصة في العديد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة. كما تطورت المؤسسات الصناعية والشركات الجيوش، لتكون معاملة للتجريب العلمي المستمر ولتطبيق النظريات والإختراعات العلمية، وجعلها موضع التطبيق والنفع المادي والإستثماري. كما كان الدافع أو الحافز الإنساني وراء تطور البحث العلمي وإستثماره في كافة المجالات الاقتصادية والثقافية المختلفة. ذلك الدافع الذي لايزال يجعل من الدول المتقدمة، تهتم بالبحث العلمي المستمر، وذلك من أجل التقدم والسيطرة، والبحث عن المعرفة العلمية التي إنشغل بها العقل الإنساني منذ قديم الزمن.

ولكن تطور العلوم الطبيعية لم تأتى من فراغ، بقدر ما جاءت كنتيجة طبيعية لتطور العلوم الإنسانية، والتي جاءت فى علوم الاقتصاد والسياسية والفلسفة، وجملة النظريات والأفكار التى طرحها العلماء فى مجال الفكر الإنسانى المتعدد. ذلك الفكر الذى خطط لضرورة إستخدام كافة الوسائل ممكن أجل تعزيز البحث العلمى، والسعى لمعرفة الحقيقة وإكتشاف المزيد من المعرفة البشرية أو الإنسانية. ولاسيما علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والتى حرصت بصورة أساسية على ضرورة إتباع المنهج القائم على الملاحظة والتجربة، لأكتشاف دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية والإنسانية التى تحتاج للمزيد من البحث العلمى، وتبنى الأساليب العلمية الحديثة، وخاصة بعد أن حققت هذه الأساليب نتائج طيبة فى مجال التخصصات العلمية. ومن ثم، فلقد حرص علماء الاجتماع، منذ أن وضع "أوجست كونت" أسس علمه الفيزياء الاجتماعية، وأطلق عليه هذا المصطلح أولاً، ثم السوسيولوجيا ثانياً، لتأكيد على أهمية كل من النظرية والمنهج العلمى، الذى يجب أن يستخدمه هذا العلم فى دراسة الواقع الاجتماعى، والظواهر والمشكلات المتعددة التى نتجت بالفعل عن التطور العلمى والصناعى الشامل فى المجتمع الحديث.

ومنذ البدايات الأولى من القرن التاسع عشر، يحرص علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية، على ضرورة إستخدام المنهج العلمى الذى يطبق بالفعل فى العلوم الطبيعية. ولقد حاولنا فى الفصول السابقة، أن نعرض بصورة موجزة، لمدى تطور الإهتمام بالبحوث الاجتماعية عامة، والسوسيولوجية خاصة، ونوضح الأسباب التى أدت إلى تبنى المنهج العلمى القائم على الملاحظة العلمية، والتجربة كأساس لتطور هذا النوع من البحوث الإنسانية وهذا ما يجعلنا حالياً، أن نركز على دراسة المنهج التجريبي، محاولين أن نعطي للقارئ أو الباحث فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، خلفية علمية ومنهجية عن حقيقة القضايا والموضوعات، التى لا تزال موضع إشغال علماء المناهج والبحث السوسيولوجى والاجتماعى، والتى ترتبط بطبيعة إستخدام هذا المنهج بصورة تامة. وهذا ما نحاول أن نطرحه حالياً فى عدد من الموضوعات، التى تتمثل فى تحديد معنى التجريب، وتعريفات المنهج

التجريبي، ولا سيما حسب وجهة نظر علماء البحث الاجتماعي. وكيف تطور الإهتمام بالمنهج التجريبي في الدراسات السوسولوجية وخاصة إهتمامات علماء الاجتماع بهذا المنهج في الوقت الراهن؟. ثم نحاول، ان نطرح عدد من الخصائص أو المسلمات العامة، التي يجب إتباعها عند إستخدام المنهج التجريبي، ولا سيما في دراسة الظواهر الاجتماعية، والتي لديها نوع من الخصائص، التي تتميز بها عن الظواهر الطبيعية الأخرى. هذا بالإضافة إلى تحليل عدد من الخطوات، التي تعتبر أسس المنهج التجريبي، وكيفية إستخدامها في إجراء البحوث والدراسات الاجتماعية. ثم مناقشة أهم أنواع التصميمات التجريبية المختلفة التي تبنى عليها عملية إجراء البحث الاجتماعي عامة. وأخيراً، نشير بإيجاز إلى حدود إستخدام المنهج التجريبي وأهم الصعوبات التي تواجه هذا المنهج في الدراسات الاجتماعية.

١- التعريف بالتجريب والمنهج التجريبي.

تتعدد المفاهيم المرتبطة بالتجريب والمنهج التجريبي، وجاء هذا التعدد لمحاولة البعض الإشارة إلى معنى كل منهما، سواء من الناحية الإصطلاحية اللغوية، أو من الناحية الفلسفية والمنطقية، أو من الناحية العلمية والمعرفية بصورة عامة. كما يحدث الكثير من التداخل في إستخدام هذه المفاهيم لدى العامة، وإستخدام الفرد العادي أو العالم والباحث المتخصص، كما أصبح مفهوما (التجريب والتجربة) من المفاهيم الشائع إستخدامها في حياتنا اليومية، وتعكس محاولة الفرد في البحث عن حقيقة أو أسباب حدوث المشكلات أو الظواهر أو الخبرة الحياتية عامة. وهذا ما يجعلنا حالياً، نسعى لطرح عدد من المحاولات التي سعت لتحديد تعريفات مميزة حول التجريب والمنهج التجريبي، والإشارة لبعض المفاهيم المتداخلة بينهما.

أولاً : التعريف بالتجريب.

(١) المعنى الإصطلاحى أو اللغوى.

يقصد بمفهوم التجربة بأنها من المصادر المجموعة، وبوجود مفهوم مجرب بأنه الفرد الذي عرف الأمور وجربها، أو الذي جرب فى الأمور

وعرف ما عنده^(١). ويشير بالطبع، هذا التعريف الذى ورد فى لسان العرب المحيط، أن التجريب ناتج عن أحكاماً نتج عنها أفعال، وحطوات حققت أهدافها وهذا ما قد ينطبق على الإنسان العادى أو العالم والباحث المتخصص.

كما نجد أن كلا من اللغتين الإنجليزية والفرنسية، توضحان كلمة التجربة Experiment كما جاء فى اللغة الإنجليزية، أما الإصطلاح الفرنسى Exprience، ولكن نجد أن كلمة التجريب فى اللغتين بمعنى Experimentation^(٢) ومن ثم، يجب أن نوضح الفرق بين كلا من الكلمتين عند تحديد التفرقة بين التجربة والتجريب كأساس لمنهج البحث.

ويرجع هذا التميز لأن العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع له منهجين للبحث أولهما: تجريبى، أى قائم على التجربة المتعددة والواقعه المتكررة تلقائياً، والآخر تجريبى، أى التجريب المدبر والمكرر بقصد مخطط بالزمان والمكان. وهذا ما يجعل نوع من الخلط فى استخدام كلمة تجربة من الناحية اللغوية، لأنه مصدر غير مقيس وإسم يدل على ذات أو معنى - ومن الناحية الاجتماعية العملية، فيقصد بالتجربة، واقعه أو معنى اجتماعى حدث أو ذات اجتماعية وجدت، بدون قصد أو إرادة، وبدون تدبير مسبق، أى لاسيطرة مباشرة عليها من ناحية حدوثها أو ابتكارها. أما التجريب، فهو من الناحية اللغوية^(٣) مصدر أيضاً، لكنه نقل من معناه اللغوى المحرد، الذى يدل على الحدث إلى معنى آخر، يدل على الأحداث المتكررة، التى هى الاختبار المقصود أو المدبر له من قبل، والذى يكرره الباحث مره تلو الأخرى على الظاهرة الاجتماعية، بعد إجراء تعديلات معينة فى فريق البحث ووسائل جمع البيانات، ثم التوصل إلى قوانين ونظريات علمية.

(١) لسان العرب المحيط، للعلامة ابن منظور، المجاد الأول، بيروت: دار لسان العرب، بدون تاريخ، ٤٢٩-٤٣٠.

(٢) حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية : دار النهضة، ١٩٨٢، ص ١٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٢) المعنى الفلسفى أو المنطقى.

يقصد بالتجريب " إختيار منظم لظاهرة أو أكثر وملاحظتها ملاحظة دقيقة للتوصل إلى نتيجة معينة، كالكشف عن معرفة أو تحقيقها " (١) ويشير هذا التعريف أو المعنى للتجريب، ضرورة أن تتوافر لدى الباحث الإرادة لإختبار ظاهرة أو بعض الظواهر دون الظواهر الأخرى، وذلك من أجل خضوعها للملاحظة العلمية أو البشرية. كما يجب لأن تتوافر لدى الباحث الإمكانيات والقدرات العلمية اللازمة التى تمكنه من إستخدام التجربة من ناحية ، وأن يكون مسلماً بحقائق العلم الأساسية ولقد ظهرت محاولات كثيرة لإستخدام التجريب المباشر على الظاهرة قبل دراسة الظواهر الفلكية أو رصد نشاط الخلايا والذرات ولكن نتائج التجريب لاتظهر إلا بعد إجراء عمليات إستباطية، تطبق من أجل إختبار الفرض الصورى (المنطقى) الأسمى، وهذا ما يطلق عليه بالنتائج التى تم الحصول عليها بصورة إستدلالية.

(٣) المعنى الاجتماعى العام.

يشير هذا المعنى إلى التجريب على أنه " القدرة على توفير كافة الظروف، التى من شأنها أن تجعل ظاهرة معينة، ممكنة الحدوث فى الإطار العام الذى رسمه الباحث وحده بنفسه " (٢). ولابد أن يبدأ التجربة بتساؤل محدد أو مجموعة من التساؤلات، مثل ما هى العلاقة بين التعليم وإرتفاع المستوى الإقتصادى للفرد، أو هل توجد علاقة بين الدين والسلوك الفردى أو النشاط الإقتصادى أو الإلتزام الأخلاقى ؟. وهل توجد علاقة بين الفقر والجريمة والإنحراف ؟. وغير ذلك من تساؤلات، تتطلب من الباحث أن يتبع أسلوب علمى منظم، لجمع البيانات والشواهد العلمية للإجابة على التساؤلات المطروحة، ومعرفة مجموعة العوامل التى تؤثر على أسباب حدوث الظواهر وتشكيلها بصورة عامة.

فى نفس الوقت، قد يستخدم التجريب أو التجربة للإشارة إلى الخبرة التى يكتسبها العالم من أجل تصحيح آرائه ونظريات بصورة مستمرة، وهذا ما

(١) محمد محمد قاسم، المدخل إلى مناهج البحث الاجتماعى، بيروت: دار النهضة ١٩٩٩،

ص ١٠٨.

(٢) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

سنة ١٩٨٠

حقيقة، أن استخدام التجريب أو المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، يختلف كثيراً عن العلوم الاجتماعية، نظراً لطبيعة أنواع الظواهر التي يستخدمها كل من هذه العلوم التي لها خصائص ومميزاتها عن الأخرى. ولا سيما، أن الظواهر الاجتماعية، لا يمكن تفسير أسباب حدوثها إلى سبب واحد فقط مثل حدوث الشرارة الكهربائية نتيجة لحدوث البرق، أو إمكانية إخضاع توليد الشرارة الكهربائية في المعمل بواسطة العالم الطبيعي، وهذا ما لم يمكن تطبيقه بالنسبة للظواهر الاجتماعية. وخاصة، أن هذه الظواهر من

الصعوبة إخضاعها للقياس التجريبي أو الكمي والتحكم فيها، أو استخدام الملاحظة المباشرة أو تكرار الظواهر أو الأحداث بصورة مماثلة، دون الأخذ في الاعتبار تباين الأسباب والظروف والعوامل المشكلة لحدوث الظاهرة الاجتماعية، ولكن هذا لا ينفي على الإطلاق من استخدام أنماط من التجريب الطبيعي، عند دراسة الظواهر الاجتماعية. ويقصد بهذا النوع من التجريب، تلك الحالات التي تتوافر فيها كافة الظروف لإستخدام الملاحظة، والقياس، والمقارنة، بين عدد من المجتمعات البشرية التي تحدث فيها نفس الظواهر، وفي مواقف إجتماعية متقاربة نسبياً.

ويعتبر "أوجست كونت" أول من ركز على أهمية تحديد المنهج التجريبي وإستخدامه في دراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما جاء في تمييزه بين نوعين من التجريب العلمي الاجتماعي (الطبيعي) وليس التجريب المعمل (الاصطناعي)، وهذين النوعين يوضحان طبيعة المنهج التجريبي وإستخدامه في العلوم الاجتماعية وهما:

(١) التجريب المباشر Indirect Experiment.

هو ذلك النوع من التجريب الذي يصلح لإستخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، نظراً لأن الظواهر لا يمكن دراستها وتحليلها عن طريق محاولة عزل أي ظاهرة عن بقية الظواهر الأخرى المشتركة معها. ومن ثم، فالتجربة المباشرة، تقوم أولاً على الملاحظة التي تأخذ بأساليب متعددة تتفق مع الطبيعة المعقدة، التي تتميز بها الظواهر الاجتماعية عن الطبيعية. وثانياً، يجب وجود فكرة مسبقة عن ماهية الظواهر التي يقوم بدراسة العالم الاجتماعي، والتي يستخدم فيها العقل الإنساني خبراته ومعارفه حول موضوع الدراسة التي يقوم بها، وثالثاً، يستطيع الباحث أن يستخلص النتائج المرتبطة بالظاهرة التي يقوم بدراسة الظواهر الأخرى.

(٢) التجريب غير المباشر Indirect Experiment.

وهو ذلك النوع من التجريب الذي قد لا يفترض وجود فروض مسبقة، وخاصة أن البحوث العلمية تتطلب جميعها فروض من هذا النوع. ولأسيما، حسب تصورات كونت، أن الفروض العلمية ماهي إلا ثمرة للنشاط العلمي ونتاجه المميز، ومن ثم، يجب أن تطرح في بعض البحوث أو عند دراسة

بعض الظواهر فروضاً معينة على دراسات سابقة أو نتائج هذه الدراسات، وهذا ما يجعل استخدام هذه النتائج بمثابة فروض علمية تسمح باختبار مدى صحتها وذلك من أجل التأكد منها.

يتضح لنا مما سبق، أن التمييز بين نوعين من التجريب المباشر والتجريب غير المباشر كما طرحه مسبقاً "كونت" إنما يعكس طبيعة المنهج التجريبي بصورته المباشرة وغير المباشرة، لأن هذا المنهج بصورة عامة يقوم على عدد من الشروط والقواعد الأساسية، التي تعكسه كمنهج علمي، يطبق به العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. إذن فالمنهج التجريبي، يمكن تعريفه بأنه " الطريقة أو الأسلوب العلمي المنظم الذي يقوم على الملاحظة، والتجربة كأساس لإجراء دراسات متميزة ومتخصصة، وتطرح أولاً عدد من التصورات والقضايا النظرية ومجموعة من التساؤلات والفروض، التي يمكن التحقق منها بواسطة الملاحظة والتجريب، لإختبار هذه الفروض، ويستخدم عدد من أدوات البحث لجمع البيانات اللازمة، والقيام بتصنيفها وتبويبها، ثم تحليل هذه البيانات وتفسيرها. كما يحاول هذا المنهج، التوصل إلى عدد من النتائج والإستخلاصات، التي يمكن صياغتها في مجموعة من القوانين العامة، والتي يمكن أن ترقى إلى درجة التعميم والتوصل إلى نظريات علمية محددة ".

على أية حال، إن طبيعة تحديد مفهوم التجريب، والمنهج التجريبي تساعدنا في التعرف على أهم المفاهيم والتصورات التي ترتبط بهما، وكيفية استخدامها بواسطة الباحثين في مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية. وبالطبع، أن محاولة علماء الاجتماع كغيرهم من العلوم الاجتماعية الذين سعوا لتوضيح أهمية كل من التجريب والمنهج العلمي التجريبي في دراسة الظواهر والمشكلات والتضايات الاجتماعية، التي تزداد بصورة مضطردة، وخاصة خلال العقود الأخيرة. ولكن قبل أن نشير إلى أهم خطوات المنهج التجريبي وتصميماته المختلفة، التي استخدمت بصورة كبيرة في البحوث الاجتماعية، يجب أن نوضح، أولاً طبيعة الإهتمام بالمنهج التجريبي من جانب علماء الاجتماع خلال القرنين الماضيين، ولاسيما، بعد الإشارة إلى محاولة تحديد هذا المنهج، من جانب مؤسس علم الاجتماع ذاته " كونت " منذ نهاية القرن التاسع عشر.

٢- تطور الإهتمام بالمنهج التجريبي.

عكست التعريفات الموجزة السابقة لكل من التجريب والمنهج التجريبي، طبيعة الإهتمام بهذا المنهج من قبل علماء الاجتماع الأوائل، وهذا ما ظهر فى تصنيفات "كونت" لكل من التجريب المباشر وغير المباشر. ولكن يجب ان نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن آراء كونت لم تأت من فراغ، بقدر ما حرص على تبني المنهج التجريبي لما حققه من تقدم ملحوظ فى دراسة الظواهر الطبيعية أو العلوم الطبيعية عامة. إلا أن طبيعة الإهتمام بالمنهج التجريبي لا ترتبط بنشأة وظهور المجتمع الصناعى الحديث أو تطور العلوم الطبيعية، لكن يعد هذا الإهتمام إلى المراحل الأولى التى شهدتها البشرية، ولاسيما تلك المرحلة التى كانت تتبع خطوات من التفكير العلمى والفلسفى والمنطقى، وذلك من أجل البحث عن الحقيقة والحصول على المعرفة الإنسانية. ومن هذا المنطلق، يجب أن نشير أولاً، إلى كيفية تطور استخدام المنهج التجريبي فى العلوم الإنسانية مثل مرحلة العصر الحديث أو استخدامه خاصة بواسطة علماء الاجتماع أو غيرهم من العلوم الاجتماعية التى إرتبطت نشأتها بهذا العصر.

أولاً : نشأة المنهج التجريبي قبل ظهور علم الاجتماع.

(أ) أرسطو

يعتبر أرسطو أول من استخدم كلمة إستقراء، والذي أشار إليها إلى طبيعة البرهان الذى يمكن أن يطلقه على قضية كلية، وذلك عن طريق استخدام أمثلة جزئية تؤكد حدوث هذه القضية. أو بكلمات أخرى، يقصد بالإستقراء، الانتقال من الحالات الفردية إلى الحالات أو القضايا الجزئية، أو الانتقال من حالة المجهول إلى المعلوم. ونتيجة إلى استخدام أرسطو لتسميته للإستقراء، إهتم العلماء بنفس هذا التقسيم الذى يشمل كل من الإستقراء التام والإستقراء الحسى.

أما الإستقراء التام، فمنذ وضعه أرسطو فى صورة قياسية أو ما أطلق عليه بعد ذلك، القياس الأرسطى الذى يلزم بمجموعة من لمقدمات للتوصل إلى نتيجة معينة. ولكن الذى يعنينا هنا هو الإستقراء الذى يقوم على استخدام البراهين ويستخدم فيها العقل والخبرة، ومعرفة الوقائع الجزئية، التى تقودنا بعد ذاك إلى الوقائع أو المعارف الكلية. ولقد استخدم أرسطو، هذين النوعين

من الإستقراء كمنهج للبحث الذي يدعو لأقامة البرهان على حقيقة معلومة يؤيدها ويتأكد منها بواسطة المشاهدة والخبرة والدافع التجريبي^(١).

(٢) الحسن ابن الهيثم.

تميزت تدليلات ابن الهيثم بأنها كانت أكثر تطوراً وتقدماً من التفكير الإستقرائي عند أرسطو، ولا سيما، أنه حرص على تحديد صعوبة العلم وماهيته بأنه نوع من البحث، والتمحيص، والنقد. وهذا ما جعله يؤكد على عوفين أساسيين يجب ان يهتم بهما الباحث أو العالم وهما : أولاً يجب أن لا يتقبل كل آراء السابقين عليه من العلماء دون دراستها بعناية، وثانياً، يجب على العالم أن يكون واثقاً من ذاته ونفسه. وهذا بالفعل ما يعكس إهتمامات ابن الهيثم بمنهج البحث العلمي سواء أكان هذا تجريبياً أم إستبطائياً، وحدد ذلك من خلال تأكيده على عدد من النقاط التالية:

- ١- يجب على الباحث ان يقوم بتحديد المشكلة المراد دراستها.
 - ٢- يقوم بعملية جمع الشواهد والبيانات التي تتميز بدوام الحدوث (التكرار).
 - ٣- يجب تصنيف البيانات والشواهد بعد التحقق من الفروض التي طرحت بصحتها.
 - ٤- ضرورة أن يتسم سلوك الباحث بالنزاهة والموضوعية.
- في نفس الوقت تكمن أهمية ابن الهيثم الذي توصل إلى مجموعة من الحقائق العلمية حول الضوء، بعد حدوث الكثير من الخلافات بين كل من الرياضيين والفلاسفة الذين عاصروهم. ولقد استخدم الملاحظة الحسية أولاً، لكشف الظواهر الواقعية التي توجد في العالم الخارجي، وذلك عن طريق استخدام الحواس البشرية. وثانياً، استعان بالتجربة، والتي أطلق عليها فقط (الإختبار) في البحث العلمي ولها وظيفتان أساسيتان هما: أولاً إستقراء القوانين والأحكام العامة، وثانياً: التحقق من صدق نتائجها القياسية. وبالفعل، لقد قام ابن الهيثم بإجراء تجارب عديدة، أستطاع أن يتوصل من خلال عدد من القوانين، مثل تحديد قوانين العلاقة بين الهواء وكثافته، والعديد من القوانين المرتبطة بمجال البصريات. وكان يقوم بصنع أدوات وآلات التجارب العملية التي كان يجربها بنفسه ويعدل من الآلات العلماء السابقين عامة^(٢).

(١) محمد قاسم، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى: توفيق الطويل، خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين، مجلة عالم الفكر، الكويت المجلد الثالث، العدد الرابع.

يعتبر "بيكون" من علماء القرن السادس عشر والسابع عشر، الذين بدأوا بتأسيس أولى مراحل البحث العلمى عند طريق إسهاماتهم فى مجال التجريب وإجرائته المختلفة. وهذا ما ظهر فى كتابه الأرجانون الجديد، الذى حدد فيه مجموعة من الآراء التى يجب ان يلم بها الباحث، عند محاولته الكشف عن الظواهر والمشكلات، التى يقوم بدراستها وتحليلها، ويمكن تصنيف هذه الآراء بصورة موجزة كما يلى^(١):

أولاً : الجانب السلبي (الاهام الأربعة):

أطلق بيكون هذه الاهام، بإعتبارها تواجه الباحث وتحد من قدراته على التفسير، وحرية فى الفهم وتأويل الظواهر وأسباب حدوثها وتكرارها. ولذا، حذر الباحثين من الوقوع فى مصيدة هذه الاهام، وضرورة التخلص منها، لأنها حسب رأيه تعتبر جزء من الطبيعة البشرية. ويمكن الإشارة إلى هذه الاهام بإيجاز كما يلى:

١- أهام الجنس: ويعكس هذا النوع، بأن لدى الناس ميولاً لإصدار احكام سريعة وتعميمها بما يتفق مع أهواءهم. علاوة على أن الأذهان البشرية، تعودت البحث عن العلل الغائبة التى توجد فى العالم الطبيعى، وسبب هذا التعود يرجع إلى ذات الإنسان نفسه، ولذا يرتكب أخطاء معينة يسقط تفسيرها على الطبيعة الخارجية.

٢- أهام الكهف: ويعكس هذا النوع عيوباً ترجع اساساً إلى الفروق الفردية، بين البشر والتى يمكن إكتسابها بصورة فطرية أو بيئية.

٣- أهام السوق: ويشير هذا النوع من الاهام إلى الإستخدام الخاطئ لمفردات اللغة من جمل وألفاظ لاتستخدم فى مدلولها أو معانها الاصلى.

٤- أهام المسرح: ويظهر هذا النوع نتيجة الإعتقاد المطلق فى الآراء والمذاهب الفلسفية القديمة، وما تؤيدها من نظريات غير واقعية ومغالطة.

(١) محمد قاسم، مرجع سابق، ص ص ١٢٥-١٢٦.

ثانياً: الجانب الإيجابي (تصنيف الواقع):

طرح سيكون مجموعة من القواعد أو القوائم، التي تأتي بعد الكشف عن الحقائق المرتبطة بالمشكلة أو الظاهرة، التي يتم دراستها وتحليلها ولقد أكد سيكون على أهمية هذه القوائم التي تسمح لنا بملاحظة العلاقة بين العلة والمعلول، ويمكن إيجاز هذه القوائم كما يلي:

١- قائمة الحضور: ويتم فيها تسجيل كل السجلات والشواهد التي ترتبط بالظاهرة والحرارة موضوع البحث. ولقد سجل (بيكون) قوائم لظواهر مثل أشعة الشمس والصواعق وغيرها من الظواهر مرة أخرى.

٢- قائمة الغياب: سجل فيها أمثلة مقابلة للظواهر السابقة، حيث تغيب الظاهرة موضوع البحث، ومثال على ذلك بضوء الفجر والكسوف إلخ.

٣- قائمة التفاوت في الدرجة، ووضح فيها أمثلة تتفاوت فيها ظهور درجة الحرارة مثل تفاوت حرارة الشمس خلال النهار، وتفاوت غليان السوائل.

ثالثاً: منهج الاستبعاد:

تكمن أهمية إسهامات بيكون في المنهج التجريبي وتطور تاريخ العلم الحديث، عن طريق تأكيده على كلا من الملاحظة والتجربة، كأساس للتوصل للقوانين العلمية. ولذا طرح منهج الاستبعاد، ليكون معيار معين له ركيزتان أساسيتان أساسين وهما:

(١) استبعاد القانون العام الذي توصل إليه الباحث بعد دراسة الظاهرة وأيدته ملاحظاته السابقة.

(٢) تأييد القانون العام عن طريق إثبات أن كل القوانين والنظريات المتناقضة معه غير صحيحة، ويجب استبعادها، لأنها أساساً تعارضت مع الملاحظات والتجارب التي أجريت على الظواهر الخاصة بها.

(٤) جون ستيوارت ميل J.S.Mill.

ظهر "ميل" مع البدايات الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٠٦-١٨٧٣)، وكان عالماً إقتصادياً وسياسياً ومفكراً وفيلسوف مشهوراً، وله العديد من النظريات ولاسيما في مجال علم الإقتصاد السياسي وغيرها من العلوم

الاجتماعية الأخرى. ولقد تبنى (ميل) المنهج التجريبي، وطرح مجموعة من طرق هذا المنهج لاتزال تشكل جوهر الإهتمام الأول لجميع من يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية ومحاولة تطبيق أو إستعارة المنهج التجريبي وتطبيقه فى العلوم الاجتماعية^(١). ولقد تباينت تصورات (ميل) عن المنهج التجريبي مقارنة بتحليلات (فرنسيس بيكون) السابقة، حيث طرح الأول خمسة طرق مختلفة، تعتبر أساس خطوات المنهج العلمى وتصميماته الأساسية، التى يهتم بها علماء مناهج البحث الاجتماعى. ولا تزال هذه الخطوات أو الطرق هى ذاتها حتى الوقت الحاضر ونظراً لأهمية الطرق أو الخطوات سوف نعالجها لاحقاً، بعد الإشارة إلى تطور الإهتمام بالمنهج التجريبي خلال القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ولاسيما فى الدراسات الاجتماعية

ثانياً: تطور المنهج التجريبي بعد ظهور علم الاجتماع

١ - تطبيقات المنهج التجريبي خلال القرن التاسع:

جاءت إهتمامات علماء الاجتماع منذ ظهور هذا العلم من البداية، لتؤكد على أهمية تبنى المنهج التجريبي فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، التى يعالجها علم الاجتماع. وهذا ما اشار إليه بوضوح "أوجست كونت" A.Comte، عندما قام بتصنيف المنهج التجريبي أو التجريب على أساس نوعين رئيسيين وهما: التجريب المباشر والتجريب غير المباشر وهذا ما حاولنا أن نوضحه خلال تعريفنا لطبيعة كل من التجريب والمنهج التجريبي خلال الصفحات الأولى من هذا الفصل وبالطبع، لقد جاءت إهتمامات كونت لتعكس مدى حرص مؤسس علم الاجتماع، على ضرورة أن يكون لدينا سوسيولوجيا أو علم الاجتماع أو فيزياء اجتماعية، كما توجد فيزياء طبيعية أو فلكية، مرتكزاً على دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس أسلوب ومنهج الظواهر الطبيعية. وبالرغم أن كونت لم يستخدم التجربة أو المنهج العلمى بصورة واقعية، فقد ما ركز على استخدام الملاحظة العلمية المباشرة

(١) للمزيد من التحليلات حول إسهامات ميل فى مجال علم الاجتماع الاقتصادى أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى (ج-٢)، الاسكندرية، دار المعرفة

الجامعية، ١٩٩٤.

لدراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما جاء من خلال معاشة عمليات التطور والتغير السريع التي صاحبت ظهور ونشأة المجتمع الصناعي الحديث.

وجاءت إهتمامات "ماكس فيبر" M. Weber، لتعكس نموذجاً سوسيولوجياً آخر لاستخدام المنهج التجريبي، بالإضافة بالطبع للمنهج التاريخي في دراسة العديد من الظواهر والمشكلات الاجتماعية، التي أهتم بها فيبر على المستوى النظري والإمبيريقى (الميداني). وهذا سنركز عليه حالياً، وخاصة أن فيبر استخدم جميع خطوات المنهج التجريبي، عندما أجرى مجموعة من الدراسات الميدانية في المجتمع الألماني، وذلك عندما كان عضواً بارزاً في منظمة السياسة الاجتماعية Social Policy Organization، والتي بدأت نشاطها لأجراء البحوث الميدانية منذ عام ١٨٧٢ وكانت تجمع العديد من علماء علم الاجتماع الألماني البارزين من أمثال "جوزيف شمولر" J. Schmolter، و"أودولف واجنر" A. Wagner، وإنضم إليها فيبر عام ١٨٩٠، ولقد أجرى الأخير مجموعة من الدراسات الميدانية التالية: (١)

(١) دراسة مشكلة العمال الصناعيين في ألمانيا.

(٢) دراسة ظاهرة تقييد الإنتاج.

(٣) دراسة مشكلة العمل والعمال الزراعيين.

(٤) دراسة مشكلة إقتناء السلع وقت الأزمات.

ولقد حاول فيبر في هذه الدراسات الاجتماعية المتعددة المجال، أن يطبق المنهج التجريبي في جميع هذه الدراسات، هذا بالإضافة أيضاً كما اشرنا إلى المنهج التحليلي التاريخي المقارن، والذي حاول فيها أن يختبر صحة نظريته العامة عن التنظيم البيروقراطي. ولقد طرح فيبر في هذه الدراسة العديد من التساؤلات والإفتراضات المسبقة، محاولاً أن يستخدم المنهج التجريبي، لإختبار صحة الفروض والتحقق منها، وذلك عن طريق الملاحظة المباشرة، والمقابلات المكثفة، والإحصاءات، وغير ذلك من وسائل متعددة لعملية جمع البيانات. كما حرص على أن يحدد الإطار المنهجي لكل بحث ميداني أجراه بالفعل، حيث صنف البحث إلى ثلاث عناصر أو أقسام منهجية

(١) عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التنظيم، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،

وهي: أولاً: الملامح العامة للبحث، وثانياً: المشاكل العلمية التي تواجه البحث، وثالثاً: منهج البحث العام.

ولقد حرص "فيبر" على أن يطرح بعض النماذج والتصميمات التجريبية التي تتلائم مع طبيعة الدراسة أو المشكلة أو الظاهرة التي كان يقوم بدراستها وتحليلها مستخدماً في ذلك كافة خطوات المنهج التجريبي بدءاً بالملاحظة، حتى التوصل إلى القوانين والنتائج العامة.

- ففي دراسته الأولى، طرح عدد من المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، وحاول أن يختبر تأثير العلاقة بين طبيعة التنظيم الإداري في الشركات الصناعية وتأثيرها في مشكلات العمال والعمل بهذه الشركات.

- وفي دراسته الثانية تقييد الإنتاج، حاول فيبر أن يختبر سيكوفيزيقية العمل الصناعي *The Psychophysics of Industrial*، وتردّذه على اختبار عدد من المتغيرات مثل ظروف الرضا في العمل والإشباع الوظيفي مثل الأجور، والظروف الفيزيقية مثل الضوضاء، والإضاءة وغيرها على نوعية الإنتاجية في العمل. وما مدى تأثير سياسات العمل على الإضراب أو التباطؤ في أداء العمال خلال ساعات العمل ذاتها.

- وفي دراسته الثالثة عن مشكلة العمل والعمال الزراعيين، أهتم فيبر بدراسة وتقييم الوضع الذي كان عليه طبيعة العلاقة بين العمال والمستأجرين الزراعيين وملاك الأراضي الزراعية. وحاول أن يختبر مدى تأثير هذه العلاقة على إنتاجية الأرض أو ما يعرف بمشكلة الفدان، ومدى فاعلية سياسات وأجور العمال، وتحديد القيمة الفعلية الإيجارية، وتأثير العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المستأجرة والمالكة.

- وفي دراسته الرابعة عن مشكلة إختفاء السلع وقت الأزمات، حرص فيبر على أن يطرح عدد من المتغيرات كمتغيرات مستقلة وأخرى تابعة، وحاول أن يختبر تأثير العلاقة بين هذه المتغيرات مثل مدى تأثير الأزمة الاقتصادية أو التجارية على عمليات إقتناء السلع وإختفائها خلال الأزمة. كما حاول أن يطرح العديد من الفروض المسبقة للتحقق منها وإختبارها بصورة واقعية، حول هذه الظاهرة وأسلوب التخطيط للمشروعات وإدارة الأزمات والتخطيط للأسعار، والتغيرات الفجائية وتأثيرها على المشروعات الإنتاجية وما إلى ذلك من إفتراضات متعددة.

(٢) تطبيقات المنهج التجريبي خلال القرن العشرين

أولاً: الدراسات التجريبية لعلماء الإدارة العلمية.

جاءت السنوات الأولى من مطلع القرن العشرين لتحمل معها العديد من التطورات الإقتصادية والاجتماعية، التي عكست مدى الإهتمام بتطوير نظم إدارة المؤسسات الإنتاجية الرأسمالية. وخاصة، بعد أن أخفقت في تحقيق معدلات من الأرباح والاستثمار الذي كانت ولا تزال تتشدد إليه الطبقة الرأسمالية دائماً. وهذا ما تبلور في ظهور عدد من الشركات الصناعية، وأصبحت المصانع بعد ذلك معامل للتجريب والبحث العلمى الموجه بالطبع لزيادة الإنتاج وتحقيق الأرباح، وحل مشكلات العمل والعمال والإنتاج والفئات الرأسمالية أيضاً. وهذا ما تمثل في طرح فريدريك تايلور^(١) F.Taylor نظريته المعروفة عن الإدارة العلمية Scientific Management، وحاول أن يطور إنتاجية فئات المهندسين والإداريين والعمال الإنتاجية الذين يعملوا في خطوط الإنتاج الأساسية، وطرح عدد من الإقتراحات والتساؤلات التي من شأنها أن تعزز إنتاجية هذه الفئات في المصانع والشركات الإنتاجية الرأسمالية.

ولقد قام تايلور بإجراء العديد من التجارب العملية في مصنعه الخاص والذي أنشأ عام ١٨٨٩ في الولايات المتحدة ليختبر عموماً كيفية تطوير الأساليب الفنية والإدارية. وجاءت هذه الأساليب الفنية في تجارب مشهورة تعرف بتجارب، أو دراسات الحركة والزمن Time & Motion Studies، تلك التجارب الذي حاول فيها أن يقوم بتحقيق ثلاث عناصر واهداف رئيسية وهى:

- ١- دراسة الشركات والمصانع الكبرى وكيفية رفع الكفاية الإنتاجية لفئاتها العاملة.
- ٢- العمل على توفير نظم إدارية وعلمية جديدة تقوم بإدارة الشركات الصناعية الكبرى.

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الصناعى، بيروت: درا النهضة العربية،

٣- التخطيط العلمى لقيام وتأسيس علم الإدارة العامة، يعتمد على مجموعة من القواعد والنظريات العلمية التى تم إستخلاصها من التجارب العملية الواقعية.

وركز تايلور على إستخدام كل من الملاحظة، والتجربة، كأساليب منهجية للتحقق من الإفتراضات، والتساؤلات التى طرحها وإختبارها والتحقق منها، وحرص على إتباع خطوات المنهج التجريبي بصورة عامة. وحاول أن يفسر العديد من العلاقات والمتغيرات التى تتكون منها الظواهر والمشكلات، التى قام بمعالجتها ومعرفة مدى تأثيرها بالمتغيرات الأخرى ولاسيما أن عملية الإنتاج، وتطوير النظم الإدارية، ومشكلة العناء فى المصانع والشركات، تعتبر من الظواهر المعقدة والمعددة الأسباب والعوامل والظروف التى تدخل فى تكوينها وتفسيرها ومن أهم المتغيرات المرتبطة بهذه الظواهر تقسيم العمل، وفنيس العمل ومعدلات الإنتاجية، ووصف العمل، والحوافز، والدافعية والقدرة الفردية، والإدارة. والنفابات وغيرها.

وجاءت بعد ذلك تجارب هنرى فايول H.Fayol على الشركات الصناعية فى قطاع التعدين فى فرنسا، لتركز أيضا على إختبار نظرية هامة تعرف بنظرية التكوين الإدارى Theory of The Formation Administration ، حاول فيها أن يتعرف على كيفية زيادة نظم الإنتاج والعمل داخل هذه الشركات وتطور الإدارة الحديثة عن طريق تطبيق الوسائل الفنية والعلمية المتطورة، التى تم إستنتاجها من واقع الدراسات الميدانية والتجارب العملية التى قام (فايول) بالفعل بإجرائها داخل هذه الشركات لسنوات طويلة، والى إعتمد فيها على كل من الملاحظة، والتجربة، كأساس للبحث العلمى. وإستخلاص العديد من النتائج والقوانين العامة التى تعتبر ثمرة إنتاج أو إستخدام المنهج العلمى للتجريبى. وركز (فايول) على تحليل العمليات الفنية داخل الشركات الصناعية وحاول إختبارها، والتى أمكن تصنيفها لأول مرة من ناحية البحث العلمى إلى ست مجموعات رئيسية وهى: الأعمال الفنية، والتجارية، والمالية، والأمن، والمحاسبة، والأعمال الإدارية. وحاول أيضا، أن يطور من قدرات العامل وخبراته الفنية والمهنية، وذلك عن طريق إجراء العديد من التجارب والتركيز على طرح عدد من القيم الأساسية والإنتاج والإدارة.

ثانياً : الدراسات التجريبية لعلماء العلاقات الإنسانية.

(١) تجارب هاورثون:

جاءت تجارب هاورثون Hawthorn التي قام بإجرائها التون مايو E.Mayo وزملاؤه خلال عام ١٩٢٧، وذلك عندما دعت شركة ويسترن اليكتريك^(١) مايو وزملاؤه لدراسة عدد من المتغيرات التي تؤثر على إنتاجية العمال والمصانع بصورة عامة. وخاصة، بعد أن لاحظت الإدارة، وجود تباين في العلاقات بين تأثير ظروف العمل، أو ما يعرف بالظروف الفيزيائية مثل الضوضاء، والإضاءة، التهوية، ووضع الآلات، وتصميمها على مستويات الإنتاجية والأداء والفاعلية. وتم إجراء تجارب ميدانية بواسطة مايو وفريق بحثه الأكاديمي والمتخصص، والتي استمرت طيلة خمس سنوات متصلة وإن كانت قد تمت بصورة مرحلية من حيث إجراء التجارب الميدانية. ونظراً لأهمية هذه التجارب ومراحلها المختلفة يمكن أن نوجزها بصورة مختصرة لمعرفة خطواتها وإهتماماتها وأهدافها الأساسية^(٢).

- المرحلة الأولى:

ركزت هذه المرحلة على قياس إنتاجية خمسة عاملات اللاتي يقومن بإنتاج أجهزة التليفونات، وتم عزلهن في غرفة خاصة تماثل نفس الظروف الفيزيائية التي كانت سائدة في الشركة. ولقد خطط مايو وفريق البحث لإدخال بعض التعديلات في ظروف العمل، وذلك في إطار عناصر التجربة التي قام بها، ومحاولاً أن يختبر فروضها الأساسية، وهي مدى العلاقة بين الإنتاج وتغيير الظروف الفيزيائية للعمل في مرحلة العمل اليومي العادي، وتم إدخال بعض التغيرات على فترات الراحة، ووجبات الغذاء، ومدة ساعات العمل اليومي وغير ذلك من تغيرات متعددة وضعها مايو في غرفة الاختبار ولكنه لاحظ أن الإنتاج قد زاد بالرغم من هذه المتغيرات نتيجة لزيادة الروح المعنوية واثراً على زيادة الإنتاجية.

(١) يتبع هذا المصنع لشركة ويسترن اليكتريك وذلك بضاحية غرب مدينة شيكاغو وأجريت التجارب على مجموعة من العاملين وكان يضم عدد من عمال الشركة آنذاك حوالي ثلاثين ألف عامل وعاملة ويقومون بإنتاج أجهزة التليفونات.

(٢) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

- Mayo, G.E, Human problems of an Industrial Civilization, N.Y, 1945.

- المرحلة الثانية:

[illegible]

المرحلة الثالثة:

إهتم فريق البحث بعد ذلك، بوضع تساؤل هام يهدف الإجابة عليه خلال المرحلة الثالثة من التجارب، وكان هذا السؤال يتنحصر حول، ما هي أهم أنواع الاتجاهات والمساخر التي تؤثر عن غيرها في العملية الإنتاجية لدى العمال؟. وتم إختيار مجموعة جديدة من العمال في مصنع التليفونات، لإجراء التجربة عليهم وذلك بعد عزلهم عن خطوط إنتاجهم العادية. وأستخدام عدد من الأساليب المنهجية والبحثية المتنوعة مثل المقابلات الشخصية، وإستمارات البحث، والملاحظة المباشرة للسلوك الفردي خلال عملية الإنتاج والعمل. ولقد توصل فريق البحث، إلى أن العاملين يقيمون نوع من من التستر لإخفاء مشاعرهم وإتجاهاتهم لتظل داخل الجماعة ونتج عن ذلك وجود تأثير للتتظيمات في إطار سلسلة من التجارب العلمية التي تقوم على خلق الموقف التجريبي، محاولة إعادة التجربة أكثر من مرة لتحقيق من إختبارها للفروض العلمية.

-المرحلة الرابعة:

ركزت تجارب هذه المرحلة على دراسة أثر التنظيم غير الرسمي في المؤسسات الصناعية وعلاقته بزيادة الإنتاجية لجماعات العمل. حيث أهتم فريق البحث باختبار النتائج التي قد توصلوا إليها في المرحلة الثالثة، وجاءت

محاولتهم فى المرحلة الأخيرة، من أجل الوصول إلى عدد من القوانين والتعميمات التى ترتبط بقضية أو ظاهرة التنظيمات غير الرسمية، ومدى وجودها فى المؤسسات الصناعية، أو الوحدات الإنتاجية والأقسام الداخلية للعمل. ولقد استخدم فريق البحث الكثير من الأساليب لجمع البيانات والمعلومات اللازمة، بالإضافة إلى إجراء المقابلات الشخصية والحررة، أو تطبيق إستمارة البحث، أو استخدام الملاحظة المكثفة، وذلك من خلال عملية عزل مجموعة العوامل التى تجرى عليهم التجارب، وللكشف عن مدى تأثير التنظيمات غير الرسمية على الإنتاج، وذلك فى إطار استخدام التصميمات التجريبية وتطبيقها على عينة من العوامل كمجموعات تجريبية، وأخرى مجموعات ضابطة، للتحقق من الفروض العلمية.

وفى ضوء نتائج التجربة التى خطط لها من قبل اتفقت جماعة العمل على تحديد الحد الأمثل للإنتاج (المتوسط)، أو الكمية المطلوبة من كل عاملة فى اليوم الواحد. وإعتبار أن أى زيادة للإنتاج عن هذه الكمية المحددة، يعتبر شيئاً غير مقبولاً، كما أن النزول عن الحد الأدنى يعتبر نفس الشيء، ولذا حرصت العوامل على التقيد بكمية الإنتاج وعدم الزيادة أو النقصان، وتوصل العلماء إلى نتيجة هامة وهى وجود علاقات قوية بين إرادة العمال التى تظهر بصورة غير رسمية وتؤثر على الدافعية والإنتاجية فى المصنع.

-إسهامات مايو فى تجارب هاورثون:

استمرت تجارب هاورثون فى الفترة ما بين ١٩٣٢/٢٧، ولكن قام مايو بإجراء مجموعة من التجارب العلمية وهى بإيجاز:

-التجربة الأولى: فى مصانع الأعمال المعدنية عام ١٩٤٣، أجريت هذه التجربة على ثلاثة أقسام إنتاجية، لوحظ بها تغيب العمال بصورة ملحوظة عن بقية الأقسام الأخرى، كما لوحظ أن نسبة الغياب فى أحد هذه الأقسام الثلاث تقل عن ما هو موجود فى القسمين الآخرين. وأهتم فريق البحث بدراسة هذه المشكلة، وذلك عن طريق فحص سجلات الغياب الرسمية، وإجراء المقابلات المكثفة مع العمال، وتمكين ذلك البحث من وضع مقياس معين يحدد معدل القياس بالنسبة لكل عامل. ولقد توصل الفريق إلى تقسيم سبب انخفاض معدلات الغياب بالنسبة لكل عامل. ولقد توصل الفريق إلى تقسيم سبب

إنخفاض معدلات الغياب في أحد الأقسام عن بقية القسمين الآخرين، وذلك نتيجة وجود روح جماعية بين العمال تحثهم على عدم الغياب، وتعتبره شيئاً غير مقبولاً بالنسبة لقواعد جماعة العمل غير الرسمية. أما بالنسبة إلى ارتفاع نسبة الغياب في القسمين الآخرين، نترجع إلى مجموعة من الأسباب من أهمها، مشكلة الوصول إلى العمل صباحاً، واختلاف الأعمال مع الإدارة ومشرفيهم حول نظم العمل، ودور المشرفين بصورة عامة في عملية الإنتاج أو أساليب الإشراف عليهم.

-التجربة الثانية: أجريت هذه التجربة في أحد مصانع الطائرات بجنوب كاليفورنيا عام ١٩٤٤، للكشف عن أسباب مشكلات التغيب ونوبات العمل في المصنع، ما عدا وجود ثلاث أقسام لم تظهر فيها هذه المشكلة، كما استخدم في هذه التجربة العديد من المجموعات التجريبية والأخرى المضابطة والعديد من التصميمات التجريبية المختلفة، وسعى فريق البحث بقيادة مايو للتوصل لعدد من النتائج منها:

١- أن جماعات العمل في الأقسام الثلاث تعتبر صغيرة جداً، مما يؤثر على تقوية أنساق الاتصال والعلاقات الاجتماعية وأصنافهم عموماً في وحدة الجماعة (الغیر رسمية).

٢- كان يوجد من بين جماعات العمل عدد من القيادات غير الرسمية التي كانت منظمة في العمل، وكان ذلك يعتبر مثالاً للقوة والاهتداء به من قبل بقية الاعضاء أو أفراد الجماعة.

(٢) لويد وائر ومدرسة شيكاغو:

ولكن بعد ذلك تطورت دراسات مدرسة العلاقات الإنسانية وبالتحديد خلال عام ١٩٥٤ عندما شكلت لجنة علمية أو فريق بحث أكاديمي بقيادة لويد وارنر L. Warner بجامعة شيكاغو، وضمت كل من جاردنر Gardner، ودافيز Davis، وهاربسون Harbison وهوجيز Huges، وفوت وايت W.F. whyte لتشكل هيئة متخصصة للبحوث الصناعية بالجامعة المذكورة. وبدأت هذه اللجنة تدرس العلاقات الإنسانية ليس فقط داخل المؤسسات الصناعية، كما فعلت وركزت التجارب السابقة خلال العشرينات وحتى الأربعينات من القرون الحالى، ولكن اهتمت بدراسة العلاقات الإنسانية خارج المؤسسات ذاتها

والتركيز عموماً على دراسة العلاقات الاجتماعية سواء للأفراد أو الجماعات أو أيضاً علاقة المؤسسة أو المصنع ككل بالمجتمع المحلي Local Community ومدى التأثير المتبادل بينهما. كما استعان لويد وانر وفريق بحثه بمجموعة من المفاهيم السوسيولوجية المستخدمة من قبل علماء الاجتماع عند دراسة المجتمع المحلي مثل، الدور، والمكانة، والثقافة عند تحليل البناء الاجتماعي Social Structure للمصنع ككل، والاهتمام عموماً بدراسة العلاقة المتبادلة بين المصنع والبيئة الخارجية.

(٣) دراسة معهد تافستوك Tavistock بإنجلترا:

أنشئ هذا المعهد لدراسة العلاقات الإنسانية في الشركات البريطانية وذلك تحت إشراف اليوت جاكس E.Jaques، والذي أجرى مجموعة من الدراسات الميدانية في عدد من المصانع بمدينة لندن، لإختبار نسق العلاقات الإنسانية وأساليب الإتصال Communcion بين الإدارة والعمال. كما استعان فريق البحث بالعديد من المداخل السوسيولوجية والسيكولوجية، ولا سيما، مدخل دراسة الجماعة الصغيرة ودينامياتها عند (كيرت ليفن). وكون فريق البحث مجالس للمشاركة في عمليات الإدارة وحل مشكلات العمل والإنتاج، وإضفاء جو من العلاقات الإنسانية، والتخلص من مشكلات العمل بصورة مستمرة، وذلك من أجل زيادة الإنتاج، والتعرف على الصعوبات التي تواجه الإدارة والعمال وكيفية حلها وتحقيق الأهداف العامة للشركة.

ثالثاً : دراسة الجماعة وتطور الدراسات التجريبية:

(١) وليام هويت ودراسة الجماعات الصغيرة:

جاءت إهتمامات وليام هويت كأحد رواد نظرية العلاقات الإنسانية التي شاركت في بحوث أو سلسلة تجارب التون مايو، والتي أجريت على كثير من الشركات والمؤسسات الصناعية. ولكن مع تطور دراسات العلاقات الإنسانية والتي إستمرت بعد تجارب هاوثورن، ولاسيما في الأربعينات، أخذت دراسات علماء نظرية العلاقات الإنسانية تجد مجالات كثيرة أخرى يمكن تطبيقها فيها، وبعيداً عن مجال المؤسسات الصناعية والإنتاجية، ولكنها ركزت على دراسة العلاقات الإنسانية كبعد أو عامل أساسي يمكن تحليله ومعرفة إيجابياته وسلبياته على المؤسسات الإنتاجية أو الخدمات الأخرى.

وهذا ما أجراه وليم فوت هوايت على عمال المطاعم الكبرى، والتي اندرجت تحت دراسات صناعة المطاعم Restaurant Industry من ناحية، أو تطبيقاً على بناء الجماعات الاجتماعية الصغيرة ومعرفة تأثيرها على العلاقات الاجتماعية والأدوار والمراكز وأنماط القيادة والتفاعل وغيرها من المتغيرات الأخرى كمتغيرات ثابتة، لبناء الجماعة كمتغيرات مستقلة.

وفي الواقع أن تحليلات ودراسات علماء نظرية العلاقات الإنسانية عندما سعت لمناقشة وتحليل هذه العلاقات بعيدة عن مجال التنظيمات الصناعية، كانت تهدف أولاً للتعرف على مدى وجود وأهمية هذه العلاقات داخل الجماعات الصغيرة Small Groups وتأثيرها على السلوك الفردي والجماعي في نفس الوقت. ولقد جاء هذا الإهتمام من جانب وليم هوايت عندما درس جماعة الناصية Street Corner، وذلك في حي كورنيل بمدينة نيويورك. وتوصل إلى نتائج هامة تتعلق بمجموعة من المتغيرات مثل : العلاقات الاجتماعية، وأنماط المكانة، والحوافز، والدافعية، والثقافة الفرعية، والقيادة، والشخصية، وتأثير المجتمع المحلي، وغير ذلك من المتغيرات التي تم استخدامها كمتغيرات مستقلة، وأخرى متغيرات تابعة، والعديد من التصميمات التجريبية الأخرى

(٢) رئيسيس ليكرت وتجارب جامعة مينشجن:

وجاءت جامعة مينشجن لتساهم أيضاً في تطور الدراسات التجريبية، وذلك عن طريق إجراء البحوث الميدانية المتخصصة، والتي تركز على دراسة الجماعة داخل المؤسسات الصناعية والإنتاجية. وهذا ما يتبلور في دراسات رئيسيس ليكرت R. Likert وزملاؤه العاملين في معهد البحوث التابعة لنفس الجامعة. وحاول التركيز على دراسة القيادة والإشراف Leadership & Supervision ودورهما في تنظيمات العمل وتطور الإنتاج وتحسين أحوال العلاقة بين العمال والإدارة. ولقد توصلت هذه الدراسة إلى وجود نمطين من الإشراف والقيادة داخل المؤسسات التي أجريت عليها الدراسة الميدانية بقيادة ليكرت وفريق بحثه وهما :

١- نمط الإشراف الأول، والذي يدور حول العمال، حيث يحاول المشرف أن يحيط مرؤوسيه من العمال بأنواع متعددة من الرعاية الإنسانية، وتحليل

مشكلاتهم الاجتماعية ومصالحهم الخاصة عموماً، خاصة لأنه يفترض بأن عملية الإشراف في العمل يجب أن تكون وظيفة اجتماعية ونفسية، أكثر منها وظيفة إدارية رسمية.

٢- نمط الإشراف الثاني، وهو يدور حول الإنتاج، حيث يسعى المشرفين في العمل إلى توجيه إهتماماتهم لتحقيق أعلى معدلات من الإنتاج، وآراء العمل المطلوب من العمال والأقسام الإنتاجية بغض النظر عن مراعاة الظروف النفسية والاجتماعية للعاملين بالمؤسسات والتنظيمات الصناعية.

عموماً، لقد خلصت دراسة ليكرت وزملاؤه إلى نتيجة عامة مؤداها، أن المشرف الذي يوجه تركيز إهتماماته نحو العمال قد حقق إنتاجية عالية، من إنتاجية المشرف الذي يوجه إهتماماته بالدرجة الأولى إلى العمل والإنتاج، بغض النظر عن الظروف النفسية والاجتماعية للعمال ككل. وهذا بالفعل ما أيدته نتائج هذه الدراسة حول جماعات العمل الصناعي والاهتمام بتفسير العلاقة بين العمال والمشرفين والإداريين، وذلك في إطار تحليلهم لأنماط الإشراف والقيادة، والتي أخذت بعد ذلك أبعاداً هامة في التأثير على نسق العلاقات الإنسانية وزيادة الإنتاجية.

٣- مورينو وتجارب قياس سوسيومتريه العلاقات الاجتماعية:

ومع تطور استخدام الأساليب المنهجية وطرق وأدوات البحث الاجتماعي مثل الملاحظة بأنواعها، والمقابلة، وتحليل المضمون، وإستمارة البحث وغيرها من الأدوات الأخرى، أمكن التوصل إلى معلومات كمية كبيرة ساعد في تحليلها أيضاً، استخدام الأحصاء والتحليلات والمعاملات الكمية المتطورة، والتي تطورت بعد ظهور الحاسب الآلي (الكومبيوتر) بالطبع. ومن أهم هذه المقاييس الكمية ما يعرف بالمقياس السوسيومتري Soci-meter الذي ينسب استخدامه إلى مورينو Moreno، وقيامه بقياس شبكة العلاقات الاجتماعية Social Relationship Moreno، بين أفراد الجماعة وتقدير مدى تنافر وتجاذب أو شدة وضعف أو انحلال أو تماسك هذه العلاقات، وتحديد العوامل المتداخلة في تشكيلها وبيان درجتها من حيث الترابط أو التفكك بصورة عامة.

٣- الخصائص العامة للمنهج التجريبي.

كشفت التحليلات السابقة عن مدى تطور الدراسات السوسولوجية واستخدامها المنهج التجريبي، التي يعتمد أساساً على الملاحظة والتجربة، واختبار الفروض والتحقق منها، ثم التوصل إلى عدد من النتائج العامة والقوانين ذات الطابع التقييمي ومحاولة الوصول إلى نظريات علمية محددة. ومن ثم، يمكن القول بأن، المنهج التجريبي ما هو إلا محاولة لتحديد العلاقة السببية Causes Relationship ، بين متغيرات محددة Fixed Variables. وعموماً يتضمن تحقيق ذلك المنهج، مجموعة من الأسس والمبررات الأساسية لقيامه وهي بإيجاز^(١):

- ١- توجد صعوبة في تحديد تأثير المتغيرات، التي يحددها الباحث قبل إجراء التجارب وبعدها بصورة دقيقة، ولم يقوم الباحث بخلق الموقف التجريبي، الذي يسمح له بمعرفة التأثير الناتج للمتغيرات المستقلة على المتغيرات التابعة، والكشف عموماً عن العلاقة السببية بينها.
- ٢- ضرورة إهتمام الباحث بكل من البيانات الأساسية أو المصادر الأولية، والبيانات الثانوية وجمع الحقائق اللازمة حول الظاهرة المدروسة، وخاصة أن البيانات الثانوية تكون دائماً عرضة للخطأ والتحيز وعدم الدقة.
- ٣- نظراً لصعوبة دراسة الظاهرة الاجتماعية وإخضاعها للتجربة، يجب أن يقوم الباحث بتصنيف البيانات وتحديد ما هو مباشر أو أولى، وبين البيانات الغير مباشرة. (الثانوية) ولا سيما خلال مرحلة إجراء التجربة.
- ٤- ينبغي أن يقوم الباحث بتحديد مجموعة الفروض مسبقاً بصورة دقيقة، والتحقق منها خلال إجراء التجربة وإستبعاد ما هو غير صحيح أو باطل، وإبقاء الفروض السليمة أو الصحيحة، ثم يحاول أن يعيد عملية التجريب مرة أخرى، للتحقق من صدق النتائج التي توصل إليها في التجربة الأولى وملاحظتها.

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص ١٢٠.

ولمزيد من التفاصيل حول هذه المبادئ يمكن الرجوع إلى المرجع التالي:

- أندروز، مناهج البحث في علم النفس، ترجمة يوسف مراد، القاهرة، دار المعارف

١٩٥٩، ص ١٣-١٥.

٥- ضرورة أن يحدد الباحث سبباً قهرياً يستخدم مجموعة تضابضة Control Group والتي تنحصر في ملاحظة مجموعتين متقاربتين من الأفراد أثناء أدائهم تحت نفس الظروف فيما عدا ظروف واحد، ويمثل سلم الوجود الموجود أو الغياب بهذا العنصر الواحد المتغير المستقل للتجربة، أما الاختلاف في الأداء بين المجموعتين فهو (المتغير التابع) وهو أحد وظائف المتغير المستقل، بعد استبعاد كل مصادر التأثير الأخرى.

٦- ضرورة أن يحدد الباحث طبيعة الملاحظة، التي يقوم باستخدامها عند تطبيقه المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية، وخاصة أن الملاحظة المضبوطة، تستخدم في اختبار صدق الفروض، وهي ليست ملاحظة سلبية لمعرفة ما يحدث بين كل من المجموعتين (التجريبية والضابطة)، ولكنها ملاحظة إيجابية تتركز مهمتها للتعريف على التغير الذي ينشأ بين المجموعتين، نتيجة لتلقى إحداها تأثير عامل معين وحرمان المجموعة الأخرى من تأثير هذا العامل^(١).

٧- ينبغي أن يعرف الباحث جيداً، أن المنهج التجريبي، ليس هو المنهج الوحيد، المستخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية، أو الذي يقوم بعملية التفسير والتحليل والبحث عن العلاقات السببية بين الظواهر والقضايا المطروحة للدراسة، لكن هناك العديد من المناهج البحثية الأخرى ولاسيما المنهج التاريخي.

٨- ضرورة أن يفهم الباحث أن عملية تفضيل استخدام المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية، جاءت نتيجة لسرعة الحصول على البيانات والنتائج عند تطبيق هذا المنهج في الدراسات الاجتماعية، وإمتيازه عن المناهج الأخرى، بقدر من الخصائص العامة والتي من أهمها تركيز هدفه الأساسي للكشف عن العلاقات السببية الدقيقة، التي تحدث بين عناصر الظاهرة الواحدة أو الظواهر الاجتماعية المتداخلة معها، وهذا ما يميزه عن بقية المناهج العلمية الأخرى المستخدمة في الدراسات الاجتماعية.

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

— محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة،

١٩٦٣، ص ٢٥١.

٩- يجب أن يتعرف الباحث على طبيعة التمايز والإختلاف بين خصائص الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، ولاسيما عند تطبيقه للمنهج التجريبي خطوة تلو الأخرى. كما يجب أن يدرك تماماً، أن حدوث الظاهرة الاجتماعية، لايمكن رجوعها إلى العامل الأوحد، بقدر ما ترجع حدوثها إلى مجموعة من العوامل المتعددة وهذا ما يجعل هذه الظاهرة متميزة ومنفردة من ناحية الخصائص والسمات العامة لها، وتعتقدها عموماً عند دراستها وتحليلها، ولاسيما عند إستخدام المنهج التجريبي، الذي صنع أساساً لدراسة الظواهر الطبيعية.

بإيجاز تلك أهم المبادئ والأسس العامة التي يقوم عليها المنهج التجريبي، ويجب أن يهتم بها الباحثون عند تطبيق دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، وهذا ما سنوضحه أكثر عند تحليلنا لخطوات هذا المنهج بصورة عامة.

٤- خطوات المنهج التجريبي.

أشرنا في الفصل السابق عن طبيعة المنهج العلمي وخطواته الأساسية والتي تم معالجتها بالتفصيل، ونجد من الأهمية الإشارة بصورة مختصرة جداً، لطبيعة خطوات المنهج التجريبي التي تماثل تقريباً نفس خطوات المنهج العلمي، ويمكن الإشارة إلى أهم خطوات المنهج التجريبي وإستخدامه في العلوم الاجتماعية خاصة كما يلي:

(١) تحديد المشكلة وتوضيحها:

تعتبر هذه الخطوات أولى خطوات المنهج التجريبي، ولاسيما أن الباحث بعد شعوره بوجود مشكلة ما يتعين عليه تحديدها في عدد من التساؤلات أو سؤال عام يسعى للإجابة عليه. وأن يوضح تماماً العناصر الأساسية في المشكلة أو الظاهرة المراد بحثها ودراستها، وتحديد أبعادها التي ينبغي أن تتركز عليها محاولات الحل، وتحديد الظروف والأحوال العامة. في نفس الوقت، يقوم الباحث بطرح عدد من الصعوبات التي تواجهه عند إجراء تحليل دقيق لأهم هذه الصعوبات من أجل حلها بصورة علمية. ومن ثم، فإن تحديد وتوضيح المشكلة، التي تواجه الباحث ويحرص عليها، يتطلب منه القيام بجمع البيانات والمعلومات التي تساعد على فهم المشكلة وكيفية تحديدها

بصورة عامة وبإيجاز، يمكن تحديد عناصر هذه الخطوة فى تحديد الهدف من البحث، وإمكانية البحث، ومجموعة العوامل والظروف التى تحيط ببحث المشكلة المراد تحليلها وتفسيرها.

(٢) صياغة الفروض العلمية.

تجئ هذه الخطوة الثانية، بعد تحديد المشكلة وتوضيحها، ويقصد بالفروض التساؤلات أو التفسيرات المؤقتة التى يطرحها الباحث لدراسة وحل المشكلة أو الظاهرة قيد البحث والدراسة. أو هى الافكار المبدئية التى تربط بين الظاهرة المدروسة وبين العوامل أو الأسباب المسببة لها. وقد يطرح الباحث فروضاً على هيئة تساؤلات بسيطة أو مركبة، وذلك بعد أن يكون قد أنهى من مرحلة تحديد مشكلة موضوع بحثه أو دراسته. ثم يحاول بعد ذلك فى مرحلة لاحقة، التحقق من صحة هذه التساؤلات (الفروض)، وذلك من أجل تحديد ماهيتها سواء أكانت صحيحة أو إيجابية أو كاذبة وسلبية. كما يستطيع الباحث أن يصيغ الفروض بأشكال متعددة يعبر فيها عن العلاقة التى تربط بين متغيرين، أو مجموعة من المتغيرات المترابطة، أو نوع العلاقات السببية. من ناحية أخرى، يجب أن يوضح مصادر الفروض أو المعلومات التى بنى عليها أفكاره والأدوات وطرق ووسائل جمعها، وذلك من أجل الكشف عن العلاقات السببية وبإيجاز، فإن الفروض يمكن تحديدها، بأنها القانون العلمى الذى يهدف إليه الباحث بعد تثبيت صحته فى نهاية البحث^(١).

(٣) طرق التحقق من الفروض.

تعتبر هذه الخطوة من أهم خطوات المنهج التجريبي أو أى منهج علمى عامة، كما تتطلب خلال هذه المرحلة من الباحث أن يضع تصميماً واضحاً يحاول فيه، أن يختبر مجموعة الفروض أو التساؤلات التى وضعها مسبقاً، وذلك بصورة تجريبية. ولهذا، تعتبر التجربة هى الملاحظة العلمية الدقيقة المنظمة، التى يستطيع الباحث أن يتحكم خلالها فى مجموعة الظروف التى تحيط بالظاهرة، وخلق نوع من الموقف التجريبي، لدراسة المتغيرات وعلاقتها ببعضها كما يستطيع بعد ذلك، أن يعدل من بعض هذه الظروف أو جميعها، وذلك من أجل إعادة التجربة مرة ثانية، ليلاحظ وقيس مجموعة من

(١) أنظر ما كتبناه سابقاً تحت تحليل الفروض العلمية فى الفصول السابقة (المنهج العلمى).

الملاحظات والشواهد، التي يستطيع عن طريقها بعد ذلك، تحديد أو تثبيت الفروض العلمية الصحيحة وإستبعاد غير الصحيحة منها، حتى يصل في النهاية إلى النتائج العامة والتعميم حولها في صيغة قانونية علمية.

ولقد تناولنا طبيعة تطور عمليات التحقق من الفروض (التجربة)، خلال هذا الفصل عندما أشرنا إلى إسهامات فرنسيس بيكون، وما يعرف بمجموعة القواعد أو القوائم، التي يمكن إستخدامها للكشف عن الحقائق المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة. وهذا ما جاء في أفكاره أولاً حول الأوهام الأربعة (الجانب السلبي)، وهي أوهام الجنس، والكهف، والسوق، والمسرح، وثانياً: إلى الجانب الإيجابي (تصنيف الواقع) والتي طرح فيها عدد من القوائم هي: قائمة الحضور، والغياب، والتفاوت، وثالثاً منهج أو طريقة الإستبعاد الذي يهدف إلى إستخلاص الفروض الصحيحة ومحاولة إستبعاد الفروض الباطلة. في نفس الوقت يجب أن نوضح، أن " جون ستيوارت ميل"، قد طرح عدد من خطوات التحقق من الفروض وهي تتشابه مع أفكار "بيكون" السابقة مع إضافة بعض التعديلات الحديثة، التي لا تزال تستخدم حتى الوقت الحاضر ونظراً لأهمية تحليلات (ميل) سوف نشير إليها بصورة موجزة كما يلي:

(أ) طريقة الإتفاق Method of Agreement.

تتخصر هذه الطريقة في المقارنة بين أكبر عدد من الظواهر أو المشاكل المراد إدارتها أو الظروف المحيطة بها، والتي تشمل بالضرورة على سبب الظاهرة الأولى. ولقد حدد (مل) هذه الطريقة كالآتي: إذا إتفقت حالتان أو أكثر من الظواهر المراد بحثها في ظرف واحد فقط، فهذا الظرف الوحيد الذي تتفق فيه جميع هذه الحالات، هو السبب في هذه الظاهرة أو نتيجة لها^(١). ويمكن أن نعبر عن هذه العلاقة بالصورة الرمزية التالية:

(١) طرحت هذه الطريقة العلمية: في العديد من المراجع العربية والأجنبية أنظر على سبيل

المثال:

- غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص ١٢٠.

- عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص ٣٨٤.

الحالة الأولى			النتيجة
أ	ب	ج	م

الحالة الثانية			النتيجة
ء	هـ	ح	م

ففي الحالة الأولى والثانية، نلاحظ أن العامل (جـ) موجود أقل حالة تحدث فيها الظاهرة (م)، إذن نستنتج أن العامل (جـ) هو سبب حدوث الظاهرة (م).

(ب) طريقة الاختلاف Method of Difference.

تحدد هذه الطريقة على أساس أن النتيجة ترتبط بالسبب وجوداً وعدماءً، فإذا وجد السبب وجدت النتيجة، وإذا اختفى هذا السبب اختفت النتيجة أيضاً، ويمكن التعبير عنها بالصورة الرمزية التالية:

الحالة الأولى			النتيجة
أ	ب	ج	م

الحالة الثانية			النتيجة
ع	هـ	ح	م
			غير موجود
			غير موجود

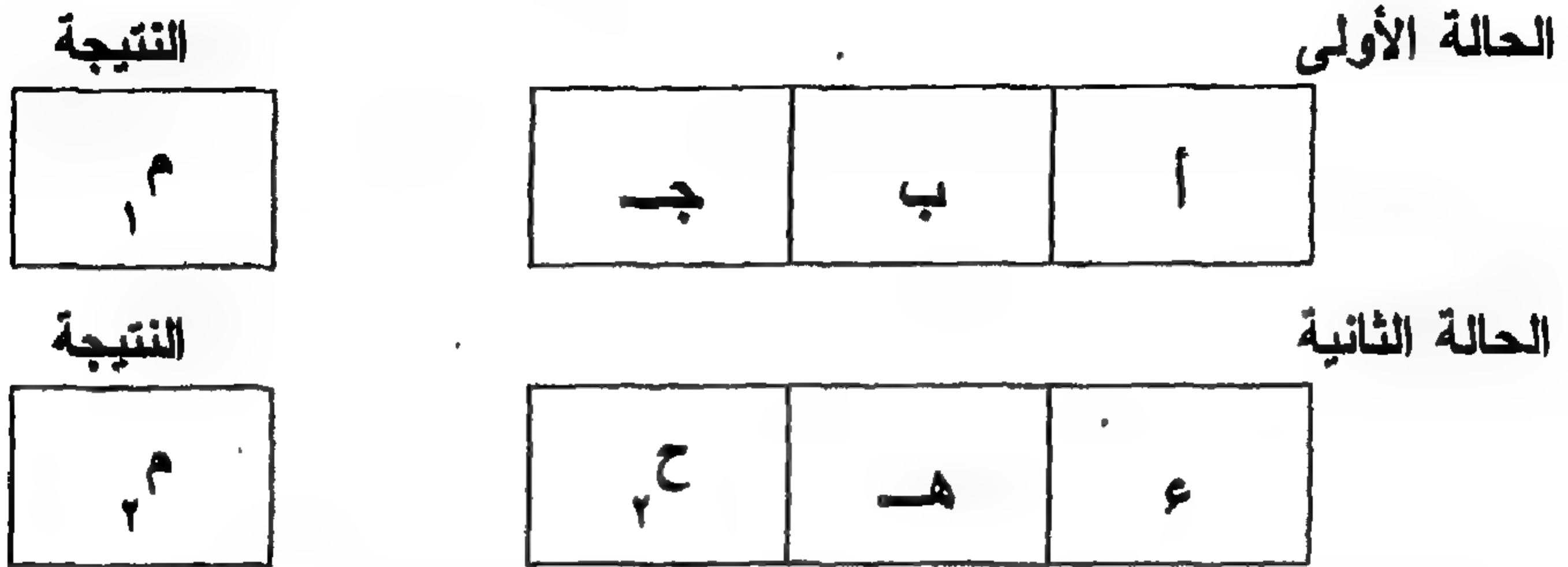
إذن فإن العامل (جـ) هو السبب في حدوث النتيجة (م) ونستخدم هذه الطريقة كثيراً في الدراسات الاجتماعية، حيث يطلق على المجموعة التي يبحث تأثير العامل باسم المجموعة التجريبية Experimental Group، وعلى المجموعة الأخرى اسم المجموعة الضابطة Control Group، وبسالمطبع، أن استخدام المجموعة الضابطة تعتبر عنصراً هاماً في إجراء البحث الاجتماعي.

(جـ) طريقة التلازم في التغير (التغير النسبي) Method of

Concomitant Variation.

وتتحدد هذه الطريقة على أساس إذا وجدت مجموعتين من الظواهر فيها مقدمات ونواتج، وكان التغير في كلا المجموعتين، ينتج تغيراً في النتائج

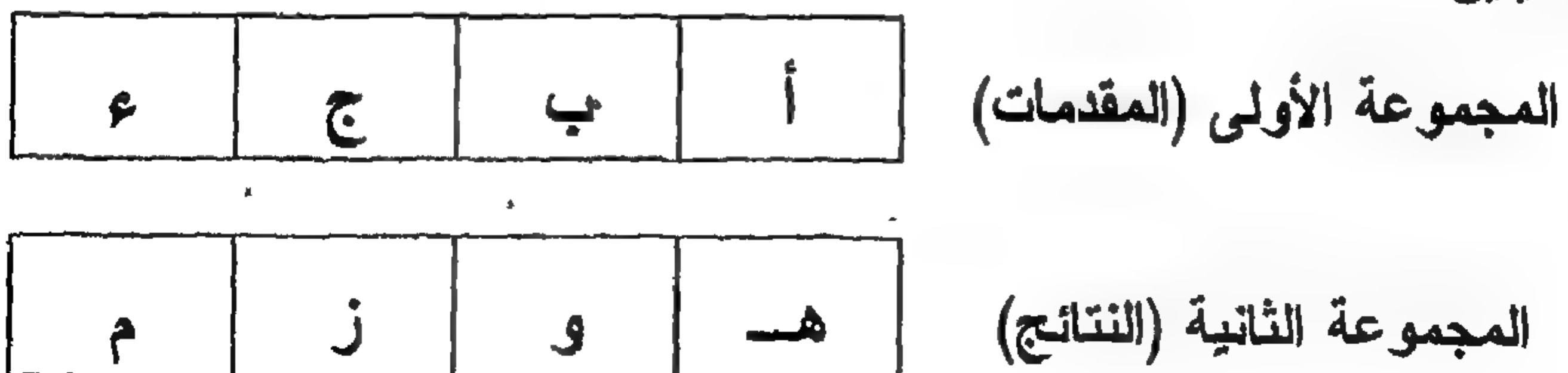
فى كلاً من المجموعتين أيضاً، وبنسبة معينة فلا بد أن تكون هناك علاقة سببية بين كل من المقدمات والنتائج. ويمكن صياغة هذه الطريقة بصورة جديدة كما يلى: " أن الظاهرة التى تتغير على نحو ما كلما تغيرت ظاهرة أخرى على نحو خاص، تعد سبب أو نتيجة لهذه الظاهرة أو مرتبطة بها بنوع من العلاقة السببية" ويمكن الإشارة إلى هذه الطريقة الصورة الرمزية التالية:



إذن يمكن القول بأن العامل (جـ) نتيجة (م) مرتبطان بعلاقة سببية، وكثيراً ما يستخدم هذه الطريقة فى البحوث والدراسات الاجتماعية تحت إسم طريقة الترابط Correlaotion، ولقياس علاقة الترابط يستخدم الباحث حساب معامل الارتباط، وهو يتراوح دائماً ما بين +١، -١ ففى الحالة الأولى تكون العلاقة تامة موجبة، وفى الحالة الثانية تكون العلاقة تامة سالبة.

(ع) طريقة البواقي.

يطرح (ميل) هذه الطريقة على النحو التالى " إذا أدت مجموعة من المقدمات إلى مجموعة أخرى من النتائج، وأمكن أرجاع جميع النتائج فى المجموعة الثانية ماعدا نتيجة واحدة إلى جميع المقدمات فى المجموعة الأولى ماعدا مقدمة واحدة. فغالباً ما تكون هناك علاقة بين المقدمة والنتيجتين الباقيتين"



فيمكن إستنتاج هذه الطريقة عن طريق وجود العلاقات السببية بين كل من مجموعة المقدمات وبين مجموعة النتائج، وأن هناك علاقة بين (أ . هـ)، (ب . و)، (جـ . ز) فمن الغالب بالطبع وجود علاقة بين (ع . م)

وفى الحقيقة، أن (ميل) قد تحفظ على هذه الطريقة ، لأنها لا تستخدم كثيراً وبصورة مباشرة فى التحقق من الفروض، ولكنها تعتبر بمثابة أسلوب تجريبي ينتهى إلى إستخلاص وجود ظاهرة جديدة كانت مجهولة وتحتاج إلى نوع من التفسير، نظراً لوجودها وبقائها فى النهاية. على أية حال، تلك أهم الطرق العلمية للتحقق من الفروض التجريبية التى طرحها " جون ستيورات ميل" ، ولا تزال موضع إهتمام كثير من جانب علماء مناهج البحث الاجتماعى، وتطبيقها فى دراساتهم الاجتماعية وأيضاً تعتبر أهم نقاط الإهتمام المرجعى للبحث العلمى فى العلوم الطبيعية، ولاسيما أنها تستخدم المنهج التجريبى، وتسعى للتوصل إلى القوانين والنظريات العامة.

(٤) إستخلاص النتائج والتعميمات.

تكمّن أهداف أى بحث علمى وإستخدام مناهج علمية كانت فى ضرورة العوامل إلى عدد من النتائج والتعميمات التى تم إستخلاصها بصورة أساسية سواء عن طريق البحوث النظرية أو الميدانية (الامبريقية). فبعد خطوة التحقق من الفروض وإثبات صحتها عن طريق التجربة أو الملاحظة العلمية، لابد أن يصل إلى مرحلته النهائية والتى تترجم فى عملية تثبيت الفروض الصحيحة فى عدد من النتائج التى تصل إلى درجة التعميم وصياغتها فى مجموعة من القوانين والنظريات العلمية التى يمكن تطبيقها بعد ذلك على نفس الظواهر التى تم التحقق منها أو مثيلاتها كما يمكن إخضاع هذه النتائج والقوانين والنظريات للبحث العلمى مرة أخرى وذلك من أجل تعديلها أو التحقق منها بمرور الوقت ولاسيما أن من خصائص القوانين والنظريات العلمية أن تخضع بصورة مستمرة للتعديل والتغيير ولذا وصفت هذه النظريات بأنها نظريات ديناميكية وليست إستاتيكية.

٥- أنواع التصميمات التجريبية.

كشفت خطوات المنهج التجريبى، مدى تسلسل هذه الخطوات والتسلسل يمكن إعتبارها الأسس الإجرائية لتطبيق هذا المنهج فى البحوث الاجتماعية، كما لاحظنا أن تطور الإهتمام بالمنهج التجريبى، لم يظهر بصورة دقيقة إلا مع البدايات الأولى لظهور المجتمع الصناعى الحديث، الذى جاء كنتيجة طبيعية لتطور التقدم العلمى والذى بدأته بالفعل عملية تطور العلوم الطبيعية.

وجاء إهتمامات علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، للسعى جماهدة لتبنى نفس مناهج هذه العلوم، ولاسيما، ان المنهج ما هو إلا الوسيلة العلمية المنظمة التي تعتمد على الملاحظة، والتجريب كأساس للبحث العلمى ودراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية الواقعية. على أية حال، ان مرحلة إختبار صحة الفروض أو التحقق منها بصورة تجريبية، نحتاج إلى بعض التعميمات التجريبية، التي تحدد بواسطتها هذه الفروض، ومعرفة الظروف والعوامل التي تحيط بالظواهر أو المشكلات المدروسة بصورة عامة.

وبالطبع، لقد إهتم علماء الاجتماع بتصنيف التجارب تبعاً لعدة معايير منها:

أولاً: تحديد عامل الزمن أو الوقت الذي يتم فيه إجراء التجربة، وايضا مدى أو طول هذا الوقت أو ما هي القوى الزمنية التي يحتاج الباحث لإجراء بحثه، حتى يتحقق من صحة الفروض التي طرحها مسبقاً فقد لا تحتاج دراسة الظاهرة أكثر من ساعات قليلة، أو قد تحتاج إلى عدة سنوات طويلة مثال على ذلك تجارب هاورثون التي أجراها التون مايو في الفترة ٢٧ / ١٩٣٢، والتي إستغرقت خمس سنوات، ثم أستؤنفت بمجموعة ثانية من التجارب في الفترة ما بين ٤١ / ١٩٤٤.

ثانياً: يمكن تصنيف التجارب وتميزها من حيث العينة، فقد يستخدم الباحث مجموعة من الأفراد في التجربة، يقيس مثلاً إتجاهاتهم وميولهم، حسب موضوع أو قضية معينة، ثم يحاول أن يدخل (متغير تجريبى)، وذلك من أجل معرفة أثر هذا المتغير. ويحاول بعد ذلك قياس إتجاهات المجموعة مرة ثانية وبالطبع أن التغير الناتج عن رأى المجموعة الأخير، ورأيها الاول يكون ناتجاً عن تأثير المتغير التجريبى.

على أية حال، هناك العديد من التصنيفات وأنماط النماذج التجريبية، ونحاول حالياً، أن نطرح عدد من أهم هذه التصنيفات وهما^(١):

(١) توجد تصنيفات متعددة في العديد من المراجع المرتبطة بالمنهج التجريبى، ولكننا رجعنا

إلى المرجع التالى لسهولة معرفته. خاصة بالنسبة للطالب المبتدئ في علم الاجتماع:

- ليلى دواز، البحث في العلوم النفسية والاجتماعية، دمشق، مطبعة عابدين، ١٩٨٩، ص

ص ٢٨-٢٩.

أولاً: المجموعة الواحدة والقياس القبلي - البعدي.

ويتضح من تسمية هذا التصميم، أن الباحث يستخدم مجموعة واحدة من الأفراد، وتكون كمجموعة ضابطة ومجموعة تجريبية في نفس الوقت ويظهر ذلك من خلال طرحنا للمثال التالي، إذا أردنا أن ندرس أثر الحافز المادى فى زيادة إنتاجية أحد المصانع فيقوم الباحث بإختيار عينة من عمال المصنع ذاته ويقس إنتاجية هؤلاء العمال أولاً، وبعد ذلك يدخل الحافز بإعتباره (المتغير التجريبي). ثم يقس مرة ثانية إنتاجية نفس العمال. فالفرق الناتج فى زيادة الإنتاج يرجع إلى الحاضر (المادى) (كمتغير تجريبي)، وهذا ما يظهر فى النموذج التالى:

المجموعة التجريبية قبل المتغير بعد إدخال المتغير ص ١ - ص = الفرق

ويستخدم هذا التصميم بصورة خاصة فى البحوث والدراسات الاجتماعية البسيطة، والتي تجرب على وحدات إنتاجية أو خدمية مثل المصانع والشركات، والمستشفيات ولكن قد يواجه هذا التصميم صعوبات متعددة منها: أن طبيعة البحوث أو الدراسات الاجتماعية التى تجرى على ظواهر أو مشكلات إجتماعية، من الصعوبة تحديد تأثيرها بعامل واحد فقط وهو (المتغير التجريبي) فى حالة الحافز المادى، الذى يستخدم فى المثال السابق، فكثيراً ما تؤكد عوامل أخرى تشارك هذا المتغير مثل عامل التدريب، وطبيعة الإدارة، والظروف الفيزيائية، وغيرها التى تلعب دوراً أساسياً فى زيادة إنتاجية العمال.

ثانياً : المجموعات المتكافئة.

ويشمل هذا من التصنيفات التجريبية استخدامه أكثر من مجموعة، يفترض مسبقاً أو مبدائياً أن يتحقق بين هذه المجموعات نوع من التكافؤ، وعموما يتضمن هذا التصنيف أكثر من طريقة وهى^(١):

١- طريقة المجموعة التجريبية الواحدة والمجموعة الضابطة الواحدة.

٢- طريقة المجموعة التجريبية على أكثر من مجموعة ضابطة.

(١) المرجع السابق، ص ٨٠، أنظر أيضاً، عبد الباسط حسن، ص ٤٠٠، غريب سيد أحمد،

٣- أكثر من مجموعة تجريبية على مجموعة ضابطة.

ويمكن عرض كل طريقه من هذه التصميمات بصورة موجزة كما يلي:

١- طريقة المجموعة التجريبية الواحدة والمجموعة الضابطة الواحدة.

(أ) القياس القبلي للمجموعة الضابطة. والبعدي للمجموعة التجريبية.

يقوم الباحث بإختيار هذا الأسلوب لقياس عينتين متكافئتين من مجتمع أصلي واحد، ويقيس (المتغير التابع) في إحدى المجموعتين فقط، ثم يقوم بعرض المجموعة الثانية (للمتغير التجريبي)، بالطريقة التي يقوم بتحديد لها، ويقيس المتغير التابع بعد أن يعرضها أيضا للمتغير التجريبي.

ويستطيع الباحث أن يميز الفرق بين القياس، الذي تم تطبيقه على المجموعة الضابطة، والقياس الذي أجراه على المجموعة التجريبية، فالنتائج بالطبع نتيجة إدخال المتغير التجريبي، يعتبر ناتجا عن تأثير هذا المتغير. ولكن هناك مجموعة من الصعوبات التي تواجه منها صعوبة إيجاد مجموعتين متكافئتين بصورة دقيقة، (٢) قد لا يعود الفرق الناتج من قياس المجموعتين نتيجة للمتغير التجريبي بإعتباره عامل واحد، لكن هناك العديد من العوامل التي تتداخل مع هذا المتغير وتؤثر في النتيجة النهائية للبحث.

(ب) القياس البعدي في كل من المجموعتين: التجريبية والضابطة.

ويقوم هذا الأسلوب على إختيار الباحث عينتين متكافئتين، من أصول الظاهرة أو المجتمع الذي يقوم بدراسته وتحليله. ثم يبدأ أولاً بإدخال (المتغير التجريبي) على المجموعة التجريبية فقط، وبعد الإنتهاء من التجربة يقوم ثانياً بقياس (المتغير التابع) في المجموعتين، ثم يقوم بمقارنة الفرق بينهما، والذي ينتج بالطبع نتيجة لإدخال المتغير التجريبي.

ولكن توجد صعوبات تعيب إستخدام هذا الأسلوب أو القياس، ومنها: ان الإكتفاء بقياس المتغير التابع، عند المجموعتين بعد إنتهاء التجربة، لايعكس تماماً طبيعة ما كان عليه أفراد المجموعة مثل إجراء العينة، لوجود احتمالات أكثر تفسر هذا الاختلاف أو الفرق مثل ثبوت الفروق بين الأفراد بعد إنتهاء التجربة وقبلها، وقد يعود التغيير راجع إلى عوامل أخرى تميز العامل التجريبي ذاته.

(ج) القياس القبلي والبعدي للمجموعتين الضابطة و تجريبية .

يستخدم هذا القياس ويطبق على عينتين متكافئتين . يتس أولاً (المتغير التابع) عند المجموعتين قبل البدء بالتجربة، ثم بعد ذلك تعرض المجموعة التجريبية فقط، إلى تأثير (المتغير التجريبي). وثانياً، يقاس (المتغير التابع) بعد إنتهاء التجربة للمجموعتين. وأخيراً، يمكن إعتبار الناتج بين نتائج القياس، يرجع إلى تأثير (المتغير التجريبي).

يواجه هذا الأسلوب تقريباً نفس صعوبات القياس السابقة، نظراً لصعوبة التأكد من صحة درجة التكافؤ بين المجموعتين، كما أن الفرق الناتج عن القياس ليس بالضرورة ناتج عن تأثير المتغير التجريبي بمفرده.

٢- طريقة المجموعة التجريبية مع أكثر من مجموعة ضابطة: القياس القبلي - البعدي.

يطبق هذا التصميم على أكثر من مجموعة ضابطة، يطبق نفس الإجراءات التي تتم في القياس (القبلي - البعدي) على المجموعتين. مع إضافة مجموعة ضابطة (ثانية) وهي مجموعة مكافئة للمجموعتين. وثانياً، يقوم الباحث بتعريض المجموعة الأخيرة لتأثير (المتغير التجريبي)، ويقوم بعد ذلك بقياس الأثر الناتج عن إدخال هذا التغير.

ونظراً لأن المجموعات الثلاث تعتبر مجموعات متكافئة، لذا يفترض أيضاً أن نتائج القياس القبلي للمجموعتين الضابطة الأولى، والتجريبية يمكن أن يعطى صورة صادقة بالنسبة للمجموعة الثالثة. وعن طريقة إستخدام المقارنه بين نتائج المجموعة الأخيرة (الثالثة)، في القياس البعدي وبين متوسط نتائج القياس القبلي للمجموعتين، يمكن التوصل إلى أن الفارق الحاصل جراء نتيجة عن تأثير (المتغير التجريبي).

وعموماً يمكن تمثيل هذا التصميم بالصورة التالية:

مجموعة تجريبية مجموعة ضابطة (٢) مجموعة ضابطة (١)

قياس قبلي	بدون قياس	قياس قبلي
تعرض للمتغير التجريبي	تعرض للمتغير التجريبي	تعرض للمتغير التجريبي
قياس بعدي	قياس بعدي	قياس بعدي

(٣) طريقة القياس، لأكثر من مجموعة تجريبية مع مجموعة ضابطة:

في الدراسات الاجتماعية يلجأ الباحث إلى استخدام المقارنة بين تأثير أكثر من متغير تجريبي في متغير تابع واحد. ولذا، يستعمل في هذه الحالة مجموعتان تجريبيتان. يقوم أولاً بتعرض المجموعة الأولى للمتغير التجريبي (الأول)، بينما تعرض الثانية (المتغير التجريبي الثاني). وتكون إحدى المجموعتين بالنسبة للآخرى، بمثابة مجموعة ضابطة مستقلة. مثال ذلك، عند مقارنة الباحث مثلاً بين تأثير نوعين من الحوافز - حوافز المادية - حوافز معنوية على زيادة إنتاج عمال إحدى الشركات، وذلك من أجل المفاضلة بين نوعين من الحوافز السابقة. فيكون النوع الأول من الحوافز (المتغير التجريبي الأول)، والنوع الثاني من الحوافز، (المتغير التجريبي الثاني). وعموماً يمكن في هذا التصميم استعمال أساليب القياس التالية كدراسة مجموعتين تجريبيتين ومجموعة ضابطة:

١- القياس القبلي للمجموعة الضابطة والقياس البعدي للمجموعتين التجريبتين

٢- القياس البعدي في كل من المجموعة الضابطة وفي المجموعتين التجريبتين.

٣- القياس القبلي - البعدي للمجموعات كافة.

ثالثاً : طرق تدوير المجموعات (الطرق التبادلية).

يعكس هذا النوع الثالث من التصميمات التجريبية، أسلوباً مغايراً للتصميمات السابقة، وذلك من أجل التحقق من صعوبات استخدام هذه المقاييس، ودقة النتائج التي يمكن التوصل إليها خاصة بعد إدخال المتغير التجريبي أو أكثر من متغير تجريبي. ولذا، يطلق على عملية تدوير المجموعات (كنظام إجرائي) يتلافى بقدر الأحكام عوامل الخطأ وعدم واقعية المقاييس، وتحديد تأثير المتغير التجريبي. وطبقاً لهذا النوع من التصميمات التجريبية، يقوم الباحث بتطبيق المتغيرات التجريبية ذاتها على المجموعتين في دقيقتين مختلفتين خلال قيام التجربة، أو على المجموعة الواحدة خلال التجربة ذاتها.

ومن ثم، يتطلب هذا النوع من التصميمات، إذا طبقت على مجموعة واحدة تتغير وقت تتابع الوحدات الضابطة والتجريبية وهذا ما يظهر فى الشكل التالى:

- الدورة الأولى: البدء بالطريقة التجريبية ثم إتباعها بالطريقة الضابطة.

-الدورة الثانية: البدء بالطريقة الضابطة ثم إتباعها بالطريقة التجريبية.

وعند التطبيق على مجموعتين متكافئتين تكون التجربة كما يلى:

الدورة الأولى : المجموعة أ طريقة تجريبية.

المجموعة ب طريقة ضابطة.

الدورة الثانية: المجموعة أ طريقة ضابطة

المجموعة ب طريقة تجريبية.

ومثال ذلك، إذا أراد أحد الباحثين أن يفاضل بين نوعين من الحوافز، بمعرفة أثرهما على زيادة الإنتاج، فعليه أن يختار مجموعتين من العمال فى المصنع الذى تجرى عليه الدراسة، ويقوم بتعريض المجموعتين لنوع الحوافز ذاتها فى دقيقتين مختلفتين خلال البحث. كما يقوم بتحديد الإنتاج سواء من الناحية الكمية والنوعية طبقاً لقياس تأثير أنواع هذه الحوافز، وقياس مدى تأثيرها على الإنتاج عموماً مدى المجموعتين من العمال.

٦- حدود المنهج التجريبى .

تعكس التحليلات السابقة حول طبيعة المنهج التجريبى وتعريفاته المختلفة، ونوعية التطور التاريخى لأهتمام علماء العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، عن مدى حرص هؤلاء العلماء على ضرورة تبنى هذا المنهج فى دراسة الظواهر الاجتماعية، ولاسيما بعد أن حققت منهجية البحث التجريبى فى العلوم الطبيعية، تقدماً كبيراً فى دراسة الظواهر الطبيعية. ولكن استخدام المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية، لانه العديد من المبادئ والمسلّمات العامة، التى ينبغى أن يهتم بها الباحث فى مجال العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع. وخاصة عندما يستخدم خطوات المنهج التجريبى وطرقه المختلفة. وهذا ما طرحناه بالفعل فى عدد من أنواع التصميميات التجريبية،

التي يمكن الإستعانة بها في إجراء البحث التجريبي، الذي يخضع لقواعد المنهج العلمي، التي تم التعرف عليها خلال هذا الفصل والفصول السابقة.

ولكن هذا الإهتمام العام بالمنهج التجريبي والدعوة إلى استخدامه في الدراسات الاجتماعية، لا يزال يواجه مجموعة من الصعوبات التي تظهر أمام الباحثين عن إجراء بحوثهم، والتي تتمثل في حدود إستخدامات المنهج التجريبي من الناحية العلمية. وخاصة هناك الكثير من علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي لديهم عدد من التحفظات، على إستخدامات هذا المنهج، نظراً لأنه صمم أساساً للدراسات والبحوث الطبيعية. وعلى أية حال، يجب من الناحية الموضوعية أن نشير بإيجاز شديد إلى بعض هذه الصعوبات، التي تواجه إستخدام المنهج التجريبي في الدراسات الاجتماعية بصورة عامة:

(١) تواجه الباحثين الذين يستخدمون المنهج التجريبي صعوبات نظرية لتوجيه هذا المنهج في الدراسات والبحوث الاجتماعية، أو ما يعرف بالتوجيه النظري للبحوث التجريبية، ولا سيما أن هذا التوجيه يجب أن يرتبط بالمنهج التجريبي، وتطبيقه ميدانياً بصورة دائمة، وهذا ما يصعب تحقيقه في البحوث الاجتماعية.

(٢) يعتبر البعض من أمثال (هربرت ماركيز)^(١)، أن منهجية وأدوات جمع البيانات في البحوث التجريبية (الإمبريقية)، تستند كثيراً إلى الستريف، لأنها تقوم بعزل الظواهر وتفتيتها، دون الأخذ في الاعتبار طبيعة الظواهر الاجتماعية وخصائصها العامة.

(٣) إن الإعتماد على المنهج التجريبي، يجعل الباحثين يسهّمون بالأمور السطحية وغير المتعمقة، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وهذا ما يظهر من خلال إستخدامهم لطرق وأدوات جمع البيانات مثل المقابلات السريعة أو تحليل آراء الصعبة المستخدمة في البحث دون التعمق في جوهر وطبيعة المشكلات أو السلوك الواقعي لأفراد العينة.

(٤) توجد صعوبة علمية هامة تواجه الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التجريبي ويتمثل ذلك في تحديد مفردات العينة، ونوعية طرق وأدوات جمع

(١) هربرت ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابلس: بيروت، دار الأدب، ١٩٦٩، ص ١٤٥.

البيانات الملائمة لدراساتها وتحليلها، وهذا ما يتطلب إنماط من الباحثين ذو قدرات تاهيلية وتدريبية عالية، وهذا ما لم يتوفر في معظم البحوث التجريبية.

(٥) صعوبة تحقيق (الضبط التجريبي)، عند دراسة المواقف الاجتماعية، نظراً لطبيعة السلوك الإنساني والظواهر الاجتماعية المعقدة، وقدرة الفرد على تقيد سلوكه في مواقف تجريبية مخططة.

(٦) عند استخدام تصميميات تجريبية معينة، أو تحديد المجموعات التجريبية أو الضابطة، من الصعب تحديد هذه المجموعات بدقة. وهذا ما يظهر على سبيل المثال، عند تحديد المجموعات المتكافئة، من أفراد العينة الواحدة، ونظراً لوجود فروق فردية بين أفراد هذه المجموعات وتؤدي إلى نتائج عكسية وغير دقيقة.

(٧) أن استخدام المتغير التجريبي وإدخاله على المجموعات التجريبية لمعرفة أثر أو تأثير هذا المتغير وقياس بعد ذلك بعداً أمراً مشكوك فيه، لأن دراسة الظاهرة الاجتماعية لا يمكن تحديد سببها في إطار تأثير العامل الأوحد، نظراً لوجود عوامل متعددة تتداخل في تشكيل الظاهرة وتفسيرها بصورة عامة.

(٨) إن عملية إخضاع ظواهر اجتماعية معقدة مثل الأسرة، والطبقة، والثورة، والمكانة، والوضع الاقتصادي، والثقافي، أمراً يعد بالغ الصعوبة، عند استخدام المنهج التجريبي، ومن الصعوبة عادة إخضاعها للتجربة، أو الموقف التجريبي، وتعذر إخضاعها للقياس الكمي^(١).

(٩) تستلزم عملية تحقيق إختبار الفروض بصورة علمية، الإلتزام بالموضوعية والحياد العلمي والأخلاقي، قبل إجراء التجارب في العلوم الطبيعية، التي تحد عموماً من تدخل الباحث في مجريات البحث التجريبي، وهذا ما يعزز تحقيق كثيراً عند إجراء البحوث الاجتماعية والإنسانية.

(١٠) كثيراً ما تتأثر نتائج البحوث الاجتماعية التجريبية وعمليات أجرائها بالعديد من العوامل الخارجية الأخرى، والتي تتمثل في أيديولوجيات

(١) أنظر محمد علي محمد، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

الباحثين، والهيئات. والحكومات الممولة للبحوث والباحثين في نفس الوقت. علاوة على العديد من أخلاقيات البحث الاجتماعي الأخرى، التي تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة، عن نتائج البحث العلمي عامة وخاصة في الدول النامية.

في النهاية، يجب أن لا نأخذ طبعاً متشائماً بصورة عامة عند استخدام المنهج التجريبي أو غيره من المناهج العلمية الأخرى عند إجراء البحوث الاجتماعية، كما أن الصعوبات السابقة، لا يمكن أن تقف حاجزاً عاماً عند تطبيق هذه المناهج ومنها المنهج التجريبي. لأن ثمرة البحث العلمي ونتائجه لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال التغلب على صعوبات جمة، وهذا ما يظهر دائماً عند إجراء البحوث الاجتماعية وخاصة في الدول النامية. علاوة على ذلك، أن لكل بحث علمي واجتماعي صعوباته الخاصة سواء من الناحية الإجرائية أو البحثية التطبيقية. ولكن من مهام الباحث العلمي المدرب أن يتغلب على هذه الصعوبات، ويسعى دائماً لتحقيق أهدافه. والتي تمثل في أهداف البحث العلمي، الذي يهدف للتوصل إلى المعرفة العلمية المستمرة، وتحقيق الدافع الإنساني، لدى الباحثين وطموحهم لزيادة خبراتهم ومعارفهم، عن طريق ما يتوصلون إليه من نتائج بحوثهم ودراساتهم النظرية والإمبريقية (الميدانية). وهذا بالفعل ما عزز مكانة الباحثين وبحوثهم ومؤسساتهم العلمية في المجتمعات المتقدمة، وخاصة، أن عملية التقدم التي توصلت إليها هذه المجتمعات، قد تحققت بفضل نتائج البحث العلمي سواء في مجال العلوم التطبيقية الطبيعية أو الاجتماعية والإنسانية في نفس الوقت.

الفصل السادس

المسح الاجتماعي

تمهيد:

- ١- تعريف المسح الاجتماعي وخصائصه.
- ٢- مجالات المسح الاجتماعي.
- ٣- المبادئ العامة للمسح الاجتماعي.
- ٤- خطوات المسح الاجتماعي.
- ٥- تصنيف المسوح الاجتماعية.
- ٦- أدوات البحث في المسوح الاجتماعية.
- ٧- تقييم المسح الاجتماعي.

لقد أدى الاهتمام فى النصف الثانى من القرن العشرين بالبحث الاجتماعى كخطوة ضرورية للتخطيط لعمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية الى تزايد الاهتمام بالمسوح الاجتماعية والاعتماد على نتائجها فى التخطيط القومى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. ويعتبر المسح الاجتماعى Social Survey من أقدم طرق البحث الاجتماعى فكان يستخدم منذ عهد الفراعنة فى حصر الظواهر الاجتماعية. بأسلوب كمى كتعداد السكان والمواليد والوفيات وحالات الزواج والطلاق والدخل والانفاق وأعداد الأسلحة وحجم القوات الحربية... الخ^(١).

والمسح الاجتماعى كأحد أساليب البحوث الوصفية يتيح للباحث الحصول على قدر واف من البيانات والمعلومات والاحصاءات الاجتماعية والسلوكية عن الظواهر الاجتماعية موضوع الدراسة. وقد جرى المسح على مستوى المجتمع ككل أو فى قريو أو مدينة معينة، وهناك العديد من الدراسات على المستوى المحلى والقومى والعالمى التى استخدمت المسح الاجتماعى كأسلوب أساسى فى بحث ظواهر اجتماعية محددة. فعلى سبيل المثال المسح الذى أجراه "ليند" Lynd وزملاؤه والمعروف بمسح "ميدلتون" Middleton وأيضاً المسح الذى أجراه "وارنر" Warner والمسح الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية عن البغاء فى القاهرة. إلا أن أول محاولة علمية جادة لاستخدام المسح الاجتماعى قام بها "جون صوارد" Join Howard فى عام ١٧٧٤ فى دراسة للسجون فى إنجلترا وكان يهدف من هذه الدراسة الى الكشف عن حالة السجون والظروف الاجتماعية والصحية التى يعيشها المسجونين^(٢).

(١) زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٠، ص

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،

وسوف اساول تعريف المسح الاجتماعي واهدائه وموضوعاته الأساسية، والأسس العامة التي يستند اليها، وتصنيفات المسوح الاجتماعية، وخطةاتها والأدوات التي تعتمد عليها في البحث وأهم الايجابيات والسلبيات كواحد من أهم طرق البحث في العلوم الاجتماعية بصفه عامة وعلم الاجتماع بصفه خاصة.

١- تعريف المسح الاجتماعي وخصائصه:

اختلفت الآراء حول تعريف المسح الاجتماعي، ولم يكن هذا الاختلاف حول طبيعة المفهوم . ولكن أيضاً حول استخدامه في عملية البحث الاجتماعي، فكثير من الباحثين الأجانب والعرب ينظر إلى المسح باعتباره منهج قائم بذاته، والبعض الآخر ينظر اليه باعتباره أسلوب أو طريقه في البحث. وقد يرجع هذا الخلط في الكتابات العربية الى ترجمة مصطلح Method فأحياناً يترجم على أنه طريقة أو أسلوب. عموماً لقد تعارف لدى غالبية علماء الاجتماع على تعريف المسح الاجتماعي باعتباره طريقة أو أسلوب في البحث.

ولقد عرف "هوايتي" Whitney المسح الاجتماعي بأنه "محاولة منظمة لتحليل وتفسير وتسجيل الوضع الراهن لنظام اجتماعي، او لجماعة أو لبيئة اجتماعية، ويهتم المسح الاجتماعي بدراسة قطاع كبير من الواقع الاجتماعي. بهدف الحصول على بيانات يمكن تصنيفها وتفسيرها وتعميمها من اجل الاستفادة منها في التخطيط المستقبلي". بينما يعرف "بيرجس" Burgess المسح الاجتماعي فإن "الدراسة العلمية لظروف المجتمع وحاجاته، بهدف تقديم برنامج إنشائي للإصلاح الاجتماعي". وتعرف "بولين يونج" P.Young المسح الاجتماعي باعتباره أسلوب لدراسة الجوانب الباثولوجية (المرضية) للأوضاع الاجتماعية الموجودة في منطقة جغرافية محددة وهذه الأوضاع لها دلالة اجتماعية يمكن قياسها. ومقارنتها بأوضاع اجتماعية أخرى، بهدف تقديم برامج إنشائية للإصلاح الاجتماعي^(١).

(١) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

وهذه التعريفات السابقة يجمعها قاسم مشترك وهو أن البحث الاجتماعي أسلوب لتقرير أو بحث وضع اجتماعي، حاضر في إقليم محدد، بهدف الحصول على بيانات معينة، ومقارنتها ببيانات أخرى من نفس النوع، بهدف الاستفادة من هذه البيانات بعد تحليلها وتفسيرها في عمليات التخطيط الاجتماعي على المستوى المحلي أو القومي.

ويذهب "مورس" Morss في تعريفه للمسح الاجتماعي على أنه "منهج لتحليل ودراسة أي موقف أو مشكلة اجتماعية، أو جمهور ما، وذلك بإتباع طريقة علمية منظمة، لتحقيق أغراض محددة". ويرى "كامبل" Compbelle "كاتونا" Katona أن المسح الاجتماعي هو "محاولة لجمع بيانات بطريقة منظمة سواء من جمهور معين أو عينة منه، وذلك عن طريق استخدام المقابلات أو أي أداة أخرى من أدوات البحث".

ويؤكد "أرمان كوفيلين" Armand Cuvillier أن المسح الاجتماعي عبارة عن طريقة أكثر تعمقاً من البحث الاجتماعي، تهدف إلى الوقوف على الجوانب المختلفة لظروف الحياة في مجتمع معين، أو في وسط اجتماعي معين، وعلى الأخص البيانات الاجتماعية التي تتسم بالكثافة السكانية العالية، والمستوى الاجتماعي المتدني^(١). ويعرف الدكتور "إبراهيم أبو الغد" والدكتور "لويس كامل مليكة" المسح الاجتماعي بأنه "عملية جمع الحقائق عن جماعة من الناس في بيئة معينة، فمن حيث ظروفهم المعيشية، ومناشطهم، وتكوينهم الاجتماعي، وذلك بصورة موضوعية قدر الامكان"^(٢).

ومن الملاحظ على تعريفات "مورس" Morss، و"كامبل" Compelle، و"كاتونا"، و"كوفيلين" Cuvillier و"إبراهيم أبو الغد" و"لويس مليكة" أنها تركز على أن المسح الاجتماعي منهج أو طريقة علمية تستخدم لدراسة مشكلة اجتماعية محددة في منطقة معينة في الوقت الحاضر، لتحقيق أهداف محددة، من خلال مقابلات مع جمهور البحث للوقوف على طبيعة مشكلتهم والتعرف على

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، مطبعة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٣٥.

(٢) إبراهيم أبو الغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي: مناهجه وأدواته، سرس الليسان: مركز التربية الأساسية في العالم العربي، ١٩٥٩، ص ٥٩.

الجوانب المختلفة لحياتهم الاجتماعية. وجمع أكبر قدر من المعلومات وتصنيفها والاستفادة منها في المستقبل في عمليات التخطيط الاجتماعي المختلفة.

عموماً أن المسح الاجتماعي كاسلوب متميز للبحث الاجتماعي أصبح يستخدم وبكثافة في الدراسات الكشفية (الاستطلاعية) والوصفية في علم الاجتماع من خلال مقابلات مفتوحة ومقننة وباستخدام دليل المقابلة أو دليل الملاحظة أو استمارة البحث كأدوات أساسية في البحث الاجتماعي بغرض الحصول على معلومات من أعداد كبيرة من المبحوثين في مجتمع معين. ويسمى المسح الاجتماعي لمعرفة الخصائص الاجتماعية للمبحوثين كالنوع، والسن، والمهنة، والحالة الزوجية، ونوع المسكن، وارتباط هذه المعلومات الأولية باتجاهات المبحوثين وأرائهم نحو موضوعات وقضايا متعددة لقراءة الصحف اليومية أو مشاهدة التلفزيون أو الذهاب الى السينما أو الاتجاهات نحو التعليم الجامعي أو أنماط معينة من الاستهلاك... الخ.

وبإمعان النظر في التعريفات السابقة يمكن استخلاص بعض الخصائص العامة للمسح الاجتماعي كطريقة في البحث الاجتماعي على النحو التالي:

١- المسح الاجتماعي عبارة عن دراسة علمية للظواهر الاجتماعية غير الموجودة لدى جماعة معينة وفي مجتمع معين، وأنه ينصب على الوقت الحاضر، حيث يهتم بدراسة الأشياء الموجودة بالفعل وقت إجراء المسح، محاولاً الكشف عن الأوضاع الاجتماعية القائمة وتحليلها وتفسيرها، ووضع خطة أو برنامج للأصلاح الاجتماعي.

٢- تفيد المسوح الاجتماعية في عمليات التخطيط القومي التي تستهدف التنمية الشاملة لأفراد المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً سعياً لتحقيق الرفاهية لكل أفراد المجتمع في فترة زمنية محددة. فمن المعروف أن التخطيط القومي يحتاج الى قاعدة معلومات أساسية تتصل بإحتياجات أفراد المجتمع، ومشكلاتهم الأساسية، ورغباتهم، وميولهم، واتجاهاتهم، وإمكاناتهم، ومن ثم يتحتم القيام بمسح اجتماعي شامل لتوفير هذه المعلومات للقائمين بعمليات التخطيط.

٣- يعتبر المسح الاجتماعي من أهم طرق البحث الاجتماعي في دراسة بعض الظواهر الاجتماعية المرضية كالجريمة أو الانحراف أو الفساد أو الانتحار... الخ.

٤- أن المسح الاجتماعي ليس مجرد وصف أو حصر ما هو قائم بالفعل ولكنه يتخطى ذلك الى عمليات أخرى كالتحليل والتفسير، والمقارنة لما هو موجود في الوضع الراهن ببعض المستويات الأخرى، واستخلاص النتائج وتقديم التوصيات التي تفيد في عمليات التخطيط والاصلاح الاجتماعي.

٥- يستخدم المسح الاجتماعي في عمليات قياس الرأي العام الجماهيري نحو قضايا وموضوعات متعددة كالانتخابات السياسية أو منتجات صناعية معينة أو الاتجاه نحو برامج إذاعية أو تليفزيونية، أو الاتجاه نحو سياسات معينة كسياسات التعليم أو الصحة أو النقل والمواصلات أو دعم السلع الاستهلاكية.. الخ.

٢- مجالات المسح الاجتماعي:

يتضح من تعريفات المسح الاجتماعي السابقة تنوع موضوعات أو مجالات المسح الاجتماعي، وبإمكاننا أن نلقى الضوء على أهم المجالات التي يستخدم فيها المسح الاجتماعي:

* مجال مسح المشكلات الاجتماعية:

يعتبر مجال المشكلات الاجتماعية من أخصب مجالات المسوح الاجتماعية، ويمكن القول أن المسوح التي أجريت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت معظمها موجهة نحو دراسة العديد من المشكلات الاجتماعية، وكانت هذه المسوح مصممة أساساً نحو جمع مزيد من المعلومات حول هذه المشكلات. فكانت مهمة الباحث تنحصر في دراسة مشكلة اجتماعية تفرض نفسها على حياة المجتمع أو المجتمع المحلي Community أو حياة فئة محددة من سكان المجتمع كالعمال أو الطلاب، أو الحرفيين.. الخ. وتحلول الدراسة، الكشف عن أبعاد هذه المشكلة من حيث الأسباب والمظاهر ودرجة تأثيرها على الأفراد الذين يعانون منها.

ولقد تنوعت مجالات المشكلات الاجتماعية التي استخدم المسح الاجتماعي في دراستها كمشكلات الجريمة، والبطالة، والاسكان، والعمالة، والاستهلاك المتزايد، ونقص الدخل، ومشكلات الانتاج، وحوادث العمل، والصحة العامة، والهجرة، وإنحراف الأحداث، والمخدرات، والأمية، والطلاق، والنمو السكاني المتزايد وغيرها، ووضع نتائج هذه البحوث أما المسؤولين عن التخطيط في الحكومة لتحديد السياسات الملائمة لمواجهة هذه

المشكلات. ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، فغالباً ما كانت تجرى دراسة مسحية تتبعية Follow-up-Surveys تستهدف تقييم برامج الإصلاح الاجتماعي في مجال المشكلات الاجتماعية وتقييم السياسات التي تم اتخاذها تجاه هذه المشكلات من قبل المسؤولين في الحكومة.

❖ مجال مسح السياسات التعليمية:

استخدم المسح الاجتماعي في دراسة العديد من المشكلات التعليمية كمشكلة محو الأمية، والتسرب من التعليم، والغياب عن المدرسة، والتخلف الدراسي، ومشكلات المقررات الدراسية، وإتجاهات أفراد المجتمع نحو التعليم الجامعي، والتعليم الفني، أو السياسة التعليمية بصفة عامة، والإصلاح التعليمي، ومدى مواكبة السياسة التعليمية لحاجة المجتمع وتحقيق أهداف التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. هذا فضلاً عن استخدام المسح الاجتماعي في دراسة مشكلات تعليمية فرعية كمشكلة التعليم الطبي أو التعليم الصناعي أو التعليم الأساسي وغيرها.

❖ مجال مسح السوق Market Survey:

تسهم المسوح فيما يعرف بمسوح السوق، وهو مجال خصص للدراسات الاقتصادية والاجتماعية، كدراسة إتجاهات الجمهور أو المستهلكين نحو سلعة معينة، والتعرف على مشاعر وإتجاهات ومعنقدات وأفكار المستهلكين وأسباب أحجام المستهلكين أو إقبالهم على سلع معينة. فلا شك أن هذه المعلومات تفيد أصحاب الصناعات بشكل مباشر، ولقد تخطى نطاق البحث في هذه القضايا السوق المحلية نحو السوق العالمية، وأوضح التوزيع على نطاق السوق العالمية لمنتجات معينة كالسلع الغذائية أو حتى انتاج السيارات يتطلب دراسات مستفيضة عن أذواق المستهلكين وطبيعة ثقافتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم.. ألخ من هذه القضايا التي تسهم في قبول أو رفض سلع إنتاجية معينة دون أخرى.

❖ مجال مسح الرأي العام Public Opinion:

استخدمت المسوح الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين بشكل فعال في مجال بحوث الرأي العام. فاستطلاع إتجاهات الرأي العام خاصة في المسائل السياسية والسلوك الانتخابي كان يعتمد إلى حد كبير على نتائج المسوح الاجتماعية التي تضم من أجل هذا الهدف، سواء

بالتطبيق على عينات ممثلة لمجتمعات البحث أو الدراسات المسحية الشاملة للمجتمع. وتعتمد كافة دراسات قياس الرأي العام التي تقوم بها مراكز بحثية متخصصة في دراسات المسح، وتستخدم نتائج هذه الدراسات بشكل فعال في عمليات تشكيل الرأي العام وتوجيهه نحو قضايا معينة. وتقوم كثير من الحكومات في المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء باستطلاع آراء أفراد المجتمع حول قضايا وموضوعات سياسية واقتصادية وقانونية محددة من خلال المسوح الاجتماعية المتخصصة، وتؤخذ نتائج هذه المسوح في الاعتبار عند تحديد سياسات معينة أو رسم خطط مستقبلية على المستوى القومي.

* مجال المسوح النفسية:

واكب الاهتمام بالمسح الاجتماعي خلال القرن العشرين اهتمام المتخصصين في مجال الدراسات النفسية، حيث استخدم المسح في العديد من البحوث الخاصة بقياس الذكاء والاتجاهات النفسية، ومختلف أنواع الاستعدادات والقدرات الخاصة عند الأفراد. وأيضاً تم الاستعانة بالمسح الاجتماعي في بناء المقاييس النفسية وبصفة خاصة المسائل المتعلقة بثبات هذه المقاييس وصدقها، وكذلك العلاقة بين المفاهيم والمتغيرات وبين المؤشرات المستخدمة، في هذه المقاييس. ولقد أهتم المتخصصون في الدراسات النفسية — خاصة القياس النفسي — بالدراسات المسحية لتطوير أساليب جديدة في القياس مثل المقاييس المتدرجة، والتحليل العاملي، واستخدام الرياضيات والاحصاء في تحليل البيانات التي تم جمعها من خلال المسوح المتخصصة والمقننة في نفس الوقت، ويتمثل هذا التقنين في اختيار عينة منتظمة من أفراد المجتمع، واخضاعهم للقياس من خلال توجية قائمة محددة من الأسئلة المعدة بشكل مسبق ودقيق حول موضوعات محددة، وتضيف استجابات المبحوثين حول هذه الأسئلة وإجراء المقارنات الكمية، واستخلاص المؤشرات العامة التي تفيد في بناء المقاييس^(١).

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرائق البحث وأساليبه، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ص ٣٧٤ — ٣٧٥.

* مجال مسح المجتمعات المحلية Communitius:

تعتبر المجتمعات المحلية - الحضرية والريفية والبدوية - أحد المجالات الهامة والخصبة للمسوح الاجتماعية، فهناك كم هائل من المسوح الاجتماعية التي تم اجراؤها على المجتمعات المحلية الريفية على المستوى القومى والمستوى العالمى. ولقد أسهمت هذه المسوح لبس فقط فى فهم طبيعة الحياة الاجتماعية والمشكلات الخاصة بالبيئة الريفية ولكن أيضاً فى تطوير علم الاجتماع الريفى، فعلى سبيل المثال يعتبر تقرير "ثيودور روزفيلت" Theodore Rossevelt فى عام ١٩٠٧ عن الحياة الريفية فى المجتمع الأمريكى والذى اعتمد فيه على المسح الاجتماعى من الأعمال الأولى التى أسهمت فى نشأة علم الاجتماع الريفى، كذلك الدراسة التى قام بها "دين بايلى" Dean Bailey عن الحياة الريفية التى أستخدم فيها المسح الاجتماعى مستعيناً باستمارة الاستبيان، والتى قدم من خلالها تحليلاً دقيقاً عن المجتمع المحلى الريفى، ومشكلات الحياة الريفية وغيرها من الموضوعات الخاصة بالمجتمعات الريفية والتى أفادت دراستها على المستوى العلمى فى تطور علم الاجتماع الريفى وعلى المستوى الواقعى فى فهم طبيعة هذه المجتمعات وطبيعة المشكلات الاجتماعية التى تعاني منها^(١).

ولقد تنوعت مجالات مسح القرية حيث تتطلب عمليات التخطيط للتنمية الريفية الرجوع إلى احصاءات متنوعة خاصة بالسكان، والموالىد والوفيات، والقوة العاملة، والتعليم، والصحة، والاسكان، والخدمات الاجتماعية^(٢). وجدير بالذكر أن الاحصاءات الرسمية فى كثير من المجتمعات النامية غالباً ما يشوبها كثير من الأخطاء والمغالطات، ومن ثم كان من الضروري القيام بمسوح اجتماعية لتوفير الاحصاءات والمعلومات اللازمة. هذا فضلاً عن دراسة قضايا متنوعة لدراسة البناء الاجتماعى للقرية وما ينطوى عليه من أنساق مختلفة كالنسق الاقتصادى، والدينى، والسياسى، والتربوى، والعائلى والتعرف على آراء أفراد المجتمع وإتجاهاتهم، والاهتمام

(١) غريب سيد أحمد، علم الاجتماع الريفى، المكتب العلمى للنشر والتوزيع، الاسكندرية،

١٩٩٩، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٩٣ - ٩٨.

بالقيم والعادات والتقاليد التي يعتقونها، لأن اغفال مثل هذه القضايا يقف عائقاً أمام نجاح المشروعات التنموية. ولقد أستخدمت المسوح الاجتماعية أيضاً في دراسة وسائل أحداث التغيير في المجتمع الريفي، والاستفادة بما تسفر عنه البحوث من نتائج في أحداث التغيير المطلوب على المستوى المحلي، ودراسة قياس الاحتياجات المطلوبة في المجتمعات الريفية لتحديد الحاجات الضرورية وترتيبها حسب أولويتها وأهميتها، ودراسة قياس الخدمات لتحديد نوع الخدمات المطلوبة، وتحديد المشروعات التنموية المطلوبة وفقاً لأولوية هذه الخدمات، والقيام بمسوح المتابعة والمسوح التقييمية لمتابعة سير العمل في المشروعات التنموية ومعدلات الأداء وضمان تنفيذ هذه المشروعات وفقاً للخطة الموضوعية، وكذلك تقييم المشروعات التي تم إنجازها ومقارنة النتائج التي حققها المشروع بما كان مستهدف من قبل.

إذا كانت غالبية البحوث الاجتماعية التي تجرى على المجتمعات الريفية تستعين بالمسح الاجتماعي - الشامل أو بالعينة - فإن جانباً كبيراً من البحوث الاجتماعية التي تجرى في المدينة كمجتمع محلي تستخدم أيضاً المسوح الاجتماعية، حيث تعتبر المدينة مجالا خصبا للدراسات الحضرية، فلقد استخدم المسح الاجتماعي في دراسة أنماط الهجرة الريفية الحضرية ومشكلات المهاجر بين داخل المدينة، ودراسة أنماط الجريمة، خاصة في الأحياء المتخلفة أو الفقيرة، ودراسة البناء الطبقي، ومعدلات الحراك الاجتماعي، والمشكلات الاجتماعية في المناطق العشوائية ومناطق الأطراف والضواحي، هذا فضلا عن مشكلات التصنيع، والتلوث، والاسكان، والنقل والمواصلات، وإتجاهات الأفراد وآدائهم المختلفة حول العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية ..الخ. وتعتبر مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية معملاً لدراسات علم الاجتماع الحضري، فلقد نمت مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع الحضري من خلال المسوح الاجتماعية المتنوعة التي أجريت على هذه المدينة.

ويستخدم المسح الاجتماعي أيضاً في دراسة المجتمعات البدوية، فلقد استخدم لدى علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع في الدراسات الشاملة التي أجريت على هذه المجتمعات بهدف التعرف على طبيعة البناء الاجتماعي، والتخطيط الاجتماعي واقتصاديا.

لايختلف استخدام المسح الاجتماعى فى دراسة الظواهر الاجتماعية عن استخدامه للأدب كظاهرة اجتماعية من حيث الشكل والجراءات وإن كان هناك ثمة خلاف من حيث المضمون، فإذا كان المسح الاجتماعى Social Survey يعنى البحث المتعمق لظاهرة اجتماعية أو موقف اجتماعى ما، وفقاً لما يوجد عليه فى وقت معين، وفى مجتمع محلى محدد، بهدف تحقيق منفعة علمية وعملية فى أن واحد، فالمسح الأدبى Literarily Survey يعنى البحث التعمق المنظم لتحليل وتفسير ظاهرة أدبية ما، وفقاً لما توجد عليه هذه الظاهرة فى فترة زمنية محددة، ولدى فئة من الأدباء ينتمون إلى مجتمع واحد. والظاهرة الأدبية قد تكون رواية تاريخية أو رواية واقعية أو قصة، أو مسرحية، وقد تكون مجموعة من الأعمال الأدبية التى تعالج قضية محددة، وقد تكون مجموعة أعمال أحد الكتاب فى فترة زمنية معينة.. الخ^(١).

ويسير المسح الأدبى كأي طريقة من طرق البحث الاجتماعى وفق خطوات منطقية متتابعة تتمثل الخطوة الأولى فى تحديد مشكلة البحث والتى تتحدد فى ضوء ثلاثة أبعاد أساسية وهى: علاقة الكاتب بعمله الفنى وعلاقته بالعالم الخارجى، وأخيراً علاقته بالجمهور. والثانية فى تحديد عينة البحث، وتتمثل عينة المسح الأدبى فى مجموعة الأعمال الأدبية التى يقوم الباحث باختيارها وتحديدتها بدقة وإخضاعها للدراسة، فإذا كنا مثلاً بصدد إجراء دراسة عن أدب "نجيب محفوظ" فإنه من الصعب بل من المستحيل - تحليل كافة أعماله فى دراسة واحدة، نظراً لتعدد ما وتتوعها، فالباحث هنا يقوم بتصنيف هذه الأعمال وفقاً لمعايير محددة، ثم يختار من بين هذه الأعمال أكثرها تمثيلاً لبقية الأعمال الأخرى، وما ينطبق على هذه الأعمال المختارة من نتائج يمكن تعميمها على بقية الأعمال الأخرى.

أما إذا كنا بصدد دراسة جيل معين من الأجيال الأدبية - كجيل الشباب مثلاً - فالمشكلة هنا تزداد تعقيداً لصعوبة تحديد مفهوم "الجيل" تحديداً

(١) لمزيد من التفصيل انظر:

محمد على البدوى، الاتجاه الواقعى فى الدراسة السوسولوجية للأدب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، ١٩٩٠، الفصل الثالث.

دقيقاً، فبالرغم من أن فكرة الجيل تبدو جذابة لأول وهلة لأنها توحي بإمكانية القيام ببحوث متعددة على أساسها، إلا أن بعض الباحثين يرى أنها ليست واضحة تماماً. فأول تساؤل يواجه الباحث يتعلق بالشخص الذى يمكن اعتباره أديباً من جيل معين، أو بعبارة أخرى ماهى الشروط ينبغى أن تتوافر فى مثل هذا الشخص كي يصنف وفقاً لجيل معين؟.. ولاشك أن هذه الشروط سوف تختلف من شخص لآخر بحسب طبيعة البحث نفسه وأهدافه. فإذا كنا نريد أن نبحت "جيل الأدباء الشباب" فلا بد لنا أن نحدد من يعتبر أديباً شاباً. وفقاً لعدة معايير كمعيار السن مثلاً فنقول من ولد عام ١٩٥٠، أو معيار تاريخ النشر فنقول من بدأ منذ بداية الستينيات.. الخ. ولكن هذه المعايير ليست كافية لتحديد من يمكن اعتباره أديباً شاباً، وفى هذه الحالة ينبغى على الباحث أن يضع تعريفاً إجرائياً للأديب الشاب، ويحدد فى هذا التعريف السمات المميزة لهذا الأديب مثل:..

أ- ألا يزيد سنه عن ٣٠ سنة.

ب- أن يكون -إذا كان قاصاً- قد نشر له عشر قصص على الأقل -وإذا كان روائياً يكون قد نشر رواية على الأقل. -وإذا كان شاعراً أن يكون قد نشر عشر قصائد على الأقل- وإذا كان ناقداً أن يكون قد نشر عشر دراسات نقدية على الأقل. - وإذا كان كاتباً مسرحياً أن يكون قد نشر أو مثلت له مسرحية على الأقل.... وهكذا^(١).

أما الخطوة الثالثة من خطوات المسح فى الدراسات الأدبية فهى تصميم أداة المسح، فبعد أن يفرغ الباحث من تحديد مشكلة البحث، وتحديد العينة التى سوف تجرى عليها الدراسة، يقوم بتصميم أنسب أو أكفأ أداة لموضوع بحثه. وتتنوع أدوات المسح الأدبى بتنوع الموضوعات المدروسة ذاتها فقد تكون الأداة العمل الأدبى ذاته موضوع التحليل (كالرواية - القصة - المسرحية - ديوان الشعر.. الخ)، وقد تكون إحدى الأدوات المتعارف عليها فى علم الاجتماع (كالمقابلة - الملاحظة - استمارة البحث). وأياً كانت الاداة ينبغى على الباحث إتباع الإجراءات المنهجية فى تصميمها وإعدادها للبحث، وإجراء اختبار صدقها وثباتها فيما تجمعه من بيانات.

(١) المرجع السابق، الفصل الثالث.

ثالثاً: المبادئ العامة للمسح الاجتماعي:

يهتم المسح الاجتماعي في المقام الأول بجمع البيانات والمعلومات بشكل منتظم من مجموعة من الأفراد داخل جماعة أو مجتمع معين في مكان محدد وفي فترة زمنية محددة من خلال الاحتكاك المباشر بهؤلاء الأفراد، ويأتي الانتظام في جمع البيانات عن طريق استخدام نفس الأداة وتوجيه نفس الأسئلة لكل فرد من أفراد مجتمع المسح، وإذا كان مجتمع المسح عينة من المجتمع الأصلي، فلا بد من تمثيل هذه العينة تمثيلاً دقيقاً للمجتمع الذي سحبت منه حتى يمكن تعميم النتائج التي يتوصل إليها بحث هذه العينة على كافة أفراد المجتمع الأصلي. وأياً كان نوع المسح الاجتماعي، فإن الهدف منه هو الحصول على بيانات أو معلومات دقيقة وموضوعية وصادقة تصور الواقع المدروس وتفيد في عمليات التخطيط الاجتماعي من أجل اصلاح وتنمية هذا الواقع في المستقبل، ولكي يحقق المسح الاجتماعي هذه الأهداف لابد أن يراعى في التخطيط له وفي تنفيذه عدة مبادئ أهمها:-

١- التخلي عن كافة الأفكار والمعلومات السابقة قبل البدء في المسح، حتى يمكن النظر إلى مجتمع البحث بطريقة موضوعية دون تحيز لآراء أو أفكار مسبقة.

٢- تحديد أكفأ الأدوات وأكثرها دقة في جمع البيانات المطلوبة، وتسجيل المعلومات أو البيانات وتصنيفها بدقة دور تحيزها.

٣- ضرورة توجيه المسح بحيث يكشف عن الجوانب التي لا يعرضها الباحثون، لا بقصد إثبات المعلومات التي يعرفها لكي تكون هناك استفادة موضوعية من المعلومات التي يكشف عنها البحث.

٤- الابتعاد عن توقع ما سوف يتوصل إليه المسح من نتائج قبل القيام بإجراء المسح، فمن المعروف أن هدف المسح هو الكشف عن ظاهرة اجتماعية أو مشكلة معينة، فإذا كانت نتائج مسح هذه الظاهرة أو المشكلة متوقعة أو معروفة مسبقاً قبل القيام بالمسح فليس هناك ما يدعو إلى القيام بالمسح.

٥- تحديد مراحل المسح بدقة، ومراعاة الدقة وتجنب الوقوع في الخطأ أو القصور في جمع مراحل المسح، وعلى الباحث تسجيل كل نواحي الضعف أو القصور التي لم يستطع التغلب عليها أثناء قيامه بالعمل الميداني، حتى تكون النتائج قيمتها الموضوعية.

٦- مراعاة الدقة في تحديد مجتمع البحث سواء كان المسح شاملاً أو بالعينة، وفي حالة سحب عينة من المجتمع الأصلي ينبغي سحب هذه العينة بالطرف العلمية المتعارف عليها في البحث الاجتماعي، وأن تكون هذه العينة ممثلة تمثيلاً صادقاً للمجتمع الذي سحبت منه. هذا فضلاً عن مراعاة الدقة في تحديد حجم العينة حتى يمكن تعميم النتائج التي توصل إليها المسح بالنسبة لهذه العينة على مستوى المجتمع الأصلي. ويصح كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعي أن يتراوح حجم العينة بين ٨-١٢٪ من حجم مجتمع البحث، وبصفة عامة يتوقف حجم العينة على مدى نجاس أو لا نجاس مجتمع البحث.

٧- تحليل النتائج التي يتوصل إليها المسح تحليلاً دقيقاً واختبار مدى صدقها، وتمثيلها لمجتمع المسح؛ سواء كانت هذه النتائج بالنسبة للباحث تؤكد افتراضاته الأساسية أو تخالف ما أفترضه من افتراضات مسبقة.

٨- مراعاة البساطة والوضوح في كل خطوات المسح، والبعد عن الطرق المعقدة والأساليب غير القابلة للتفسير، فكلما كنت اجراءات المسح بسيطة كلما أمكن التوصل إلى طبيعة المشكلة المدروسة بشكل أفضل.

رابعاً: خطوات المسح الاجتماعي:

يسير المسح الاجتماعي كطريقة من طرق البحث الاجتماعي في خطوات منعاقبة الواحدة تلو الأخرى، يمكن الإشارة إليها على النحو التالي: -

الخطوة الأولى: التخطيط للمسح:

يعتبر التخطيط للمسح الخطوة الأولى في عملية المسح الاجتماعي وتشتمل هذه الخطوة على:

- (١) تحديد الهدف من المسح.
- (٢) تحديد النقاط الرئيسية والفرعية التي يشتمل عليها.
- (٣) تحديد الميدان أو المجال الأساسي الذي سيقوم الباحث بمسحه، والنواحي أو الجوانب الفرعية التي يشملها هذا المجال. ومن المعروف أن مجالات المسح الأساسية تنحصر في ثلاثة مجالات وهي المجال البشري، والمجال المكاني، والمجال الزماني، ومن ثم ينبغي على الباحث تحديد هذه المجالات بدقة.
- (٤) تحديد نوع المسح الذي سوف يقوم به الباحث حسب الأهداف المرسومة، من حيث كونه مسحاً عاماً أو مسحاً متخصصاً، أو مسحاً شاملاً أو مسحاً

بالعينة، أو مسحاً استطلاعياً كشافياً أو وصفيّاً تحليلياً يهتم بوصف الواقع وتحليله، أو مسحاً تفسيرياً يتخطى مجال الوصف الخارجى للواقع المبحوث إلى محاولة تفسيره بحثاً عن الأسباب المؤثرة فيه والعلاقات الموجودة فيه، فمن المعروف أن المسح التفسيري هو مسح للأسباب المؤدية إلى وجود ظاهرة معينة والنتائج المترتبة عليها.

(٥) وبعد أن يفرغ الباحث من تحديد الهدف من المسح ومجالاته الثلاث ونوعه، يقوم بتحديد العينة التي سوف يجرى عليها المسح في حالة تعذر اجراء المسح على كل مفردات مجتمع البحث. وهناك اعتبارات كثيرة يفضل منها اجراء المسح بالعينة مثل كبر حجم المجتمع، وتجانس مفرداته، والرغبة في الاقتصاد في الوقت والجهد المبذول والنفقات، وفي الحصول على معلومات أدق وأعمق وأياً كانت الدوافع لاختيار المسح بالعينة ينبغي على الباحث إتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لاختيارها حتى يصل في النهاية الى عينة ممثلة للمجتمع الأصلي يستطيع تعميم النتائج التي يحصل عليها من خلال دراسته لها على المجتمع الأصلي ككل. وأن أى خطأ في سحب العينة يجعل نتائج المسح مضللة أو غير صحيحة.

وهناك عدة اجراءات يجب على الباحث اتباعها عند سحب عينة البحث :-
(أ) تحديد المجتمع الأصلي للبحث تحديداً دقيقاً، والتعرف على مفرداته من حيث الحجم والخصائص والقطاعات أو الفئات المختلفة..الخ. فإذا كنا منسقين بصدد إجراء مسح على اتجاهات الشباب الجامعي نحو المشاركة السياسية فلا بد من تحديد من هو الطالب الجامعي، وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه، ولا بد أيضاً معرفة توزيع الطلاب على كليات الجامعة المختلفة، وعلى السنوات الدراسية، ومعرفة أعداد هؤلاء الطلاب من خلال قوائم حديثة بالكليات والفرق الدراسية..الخ.

(ب) تحديد عينة البحث: بعد ان يفرغ الباحث من تحديد المجتمع الأصلي وتحديد خصائصه بدقة يبدأ في تحديد حجم العينة، وكما أشرت من قبل أن الحجم الأمثل للعينة يقع بين (٨ - ١٢%) من حجم المجتمع الأصلي، ثم يقوم بسحب هذه العينة بطريقة ممثلة لباقي مفردات المجتمع، وهناك أساليب مختلفة لسحب العينة كالأسلوب العشوائى، والأسلوب العشوائى المنتظم، والأسلوب العمدى (المقصود) الخ. ويعتبر "الأسلوب العشوائى المنتظم من أفضل

أساليب سحب العينة، فإذا كان ممثلاً حجم المجتمع الأصلي ١٠٠ مفردة. وأردنا سحب عينة مقدارها ١٠% من حجم هذا المجتمع، فنقوم بإعداد قائمة تضم أفراد هذا المجتمع بشكل متسلسل من ١-١٠٠، ثم نختار رقماً عشوائياً من ١-١٠ وليكن رقم (٥) بحيث يكون هذا الرقم أول مفردة تسحب عشوائياً من عينة البحث، ثم نقوم بتكرار هذا الرقم (٥) بشكل منتظم بعد ذلك فتصبح العينة المطلوبة ٥، ١٥، ٢٥... وهكذا. وجدير بالذكر أن طبيعة المجتمع الأصلي للبحث هي التي تفرض على الباحث اختيار أسلوب سحب العينة، فإذا كان مجتمع البحث يتكون من عدة فئات أو طبقات فالأسلوب الأمثل هنا هو العينة الطبقية، أو عينة الفئات.

فإذا كنا بصدد بحث مشكلة الطلاق في الريف المصري، فأنسب أسلوب لسحب عينة المسح هو أسلوب العينة متعددة المراحل، فالمرحلة الأولى اختيار ثلاث محافظات واحدة في شمال مصر، والثانية في وسط الدلتا والثالثة في الجنوب، والمرحلة الثانية اختيار قرية من كل محافظة، والمرحلة الثالثة اختيار عينة من كل قرية.

(٦) يعتبر اختيار الأدوات اللازمة لجمع البيانات من العمليات الأساسية في المسح الاجتماعي التي تشملها مرحلة التخطيط للمسح، وأياً كانت الوسيلة استبياناً أو استمارة بحث أو المقابلة الشخصية أو الملاحظة، فإنه يجب أن نكون أسئلتها أو بنودها واضحة ومحددة بدقة ومناسبة للمستوى التعليمي أو الثقافي لمجتمع البحث.

(٧) أعداد الميزانية وتحديد البرنامج الزمني للمسح: من الخطوات الأساسية التي ينبغي على الباحث التخطيط لها قبل القيام بالمسح تحديد ميزانية البحث وتوزيع هذه الميزانية على بنود الانفاق المختلفة كمرتبات للباحثين وجامعي البيانات، ونفقات طباعة استمارة البحث، وكتابة تقرير البحث... إلخ. ويعد التخطيط لميزانية المسح من الأمور الهامة حتى لا يتوقف المسح عند مرحلة من المراحل بسبب العجز في الميزانية. أما فيما يتصل بالبرنامج الزمني للمسح فعلى الباحث أن يحدد بدقة موعد بدأ المسح ومواعيد المراحل المختلفة للمسح وموعد الانتهاء من المسح، خاصة أن هناك بعض المسوح تكون مرتبطة بمناقشة نتائجها في مؤتمرات محددة بفترات زمنية ولا جدوى من الانتهاء من المسوح بعد انعقاد هذه المؤتمرات.

(٨) تدريب الباحثين الميدانيين على جمع البيانات: تعتبر خطوة تدريب الباحثين الميدانيين على أداة جمع البيانات، وتفهمهم بنود الأداة بدقة ومحتوى الأسئلة التي تشتمل عليها من الأمور الضرورية في عملية الدقة في جمع بيانات المسح من الميدان. وينبغي تعريف الباحثين بأهداف المسح وبطبيعة مجتمع المسح ومستوى أفراد الثقافة والاقتصاد والاجتماعي، وعاداتهم وتقاليدهم، والقيم والاتجاهات السائدة في هذا المجتمع، حتى لا يثير الباحثون غضب أو عدم تجاوب جمهور المسح عند جهل بتصرفات أو سلوك غير مقصود من قبل الباحثين. فإذا كان جمهور المسح من الإناث مثلاً:

وطبيعة مجتمع المسح وضع قيود على الإناث من التحدث إلى الذكور من خارج نطاق الأسرة، فينبغي هنا أن يكون الباحثون من الإناث حتى يتثنى لفريق المسح الحصول على المعلومات المطلوبة بدقة وبدون إثارة حرج مجتمع البحث. كما ينبغي أن يكون هناك دليل للعمل، وتعليمات محددة يلتزم بها القائمون على المسح حتى يسير المسح وفقاً للبرنامج المحدد له.

(٩) اعداد المجتمع للمسح: المقصود بإعداد المجتمع للمسح هو تحديد مجتمع المسح بدقة، فإذا كان المسح سوف يجري على أحد أحياء المدينة ينبغي تحديد الاتجاهات الأربع لهذا الحي وتحديد الشوارع الفاصلة بينه وبين الأحياء الأخرى، ثم القيام بإعلام مجتمع المسح بمواعيد جمع البيانات وطبيعة المسح وأهدافه، وحثهم على التعاون مع الباحثين، وأن كل ما يدلون به من معلومات أو بيانات مكفول سريته.

الخطوة الثانية: جمع البيانات:

بعد أن ينتهي الباحث من المرحلة الأولى وهي مرحلة التخطيط للمسح يبدأ في الخطوة التالية، وهي مرحلة جمع البيانات، حيث يقوم بجميع البيانات مستخدماً كافة الوسائل الممكنة في ذلك، والحصول على هذه البيانات من مصادر مختلفة، وهناك ثلاثة مصادر أساسية يمكن أن يستقى منها الباحث بيانات المسح وهي^(١):

(١) عمر الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، دار الثقافة، بيروت، غير مبين سنة النشر،

المصدر الأول: يتمثل هذا المصدر في خبره الباحث التي يكون قد اكتسبها من خلال معاشته لفترة طويلة لمجتمع المسح، ومعرفته الدقيقة لعادات وتقاليد وقيم وآراء وإتجاهات جمهور المسح، فهذه الخبرة لا شك تساعد الباحث على فهم مظاهر الحياة الاجتماعية وتفسير جانب كبير من سلوك أفراد المجتمع. ولكن ينبغي أن لا تكون هذه الخبرة على حساب الموضوعية أو على حساب دراسة موضوعات معروفة نتائجها مسبقاً، فهذا يتعارض مع طبيعة البحث العلمي والذي يتسم في بعض خصائصه بالحيادية والتراكمية.

المصدر الثاني: يتمثل هذا المصدر فيما يعرف بالبيانات الجاهزة، وهي البيانات التي تم جمعها من قبل من خلال هيئات أو مؤسسات مختلفة أو من خلال باحثين سابقين، وهذا المصدر يشمل على الوثائق وبيانات السجلات الحكومية المختلفة، والتقارير الإدارية والعلمية والاحصائية المتتمة، وأيضا الكتب والرسائل العلمية التي تحتوي على بيانات مستقاة من الوثائق والسجلات أو من خلال البحث الميداني.

المصدر الثالث: ويتمثل هذا المصدر في المعلومات المباشرة التي يتجمعها من مجتمع المسح، والتي يستخدم في جمعها العديد من أدوات جمع البيانات كالملاحظة أو المقابلة أو استمارة البحث أو الاستبيان، وهناك عدة فئات رئيسية للبيانات التي ينبغي أن يشملها المسح الاجتماعي أهمها^(١):

- ١- بيانات أولية: وتشمل هذه البيانات الأسئلة التي تدور حول النوع (ذكور - أنثى)، والسن، والمستوى التعليمي، والحالة الاجتماعية (الزواجية)، والديانة، والموطن الأصلي (قرية - مدينة)، أو أي بيانات أخرى توضح الصفات الشخصية للمبحوثين.

- ٢- بيانات عن البيئة المحيطة: سواء كانت البيئة الفيزيائية والمتمثلة في مستوى السكن، وطبيعة منطقة الجوار، والمستوى الاقتصادي للمنطقة، والمستوى الاجتماعي والثقافي والصحي لأفراد المجتمع.

- ٣- بيانات عن اتجاهات وآراء ودوافع المبحوثين: وتشمل هذه البيانات على أسئلة نتناول قيم وإتجاهات وآراء أفراد مجتمع المسح نحو بعض الأمور

(١) جمال ذكي والسيد يسمن، أسس البحث الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٢.

و القضايا، و على الدوافع و القوى التى تدفعهم نحو سلوك معين، و على توقعاتهم فى المستقبل نحو بعض الأوضاع أو المشكلات الاجتماعية.

٤- بيانات عن أسلوب الحياة اليومية: وهى بيانات متعلقة بسلوك أفراد المجتمع من المبحوثين لمشاهدة برامج التليفزيون أو الاستماع الى الأذاعة أو قراءة الصحف اليومية، أو التزاور بين الأقارب والجيران أو الأقبال على استهلاك سلع غذائية معينة، أو الاتجاه نحو الادخار وطرق أو أساليب هذا الادخار، هذا فضلاً عن سلوك مجتمع المسح فى مواقف اجتماعية متباينة كالزواج أو الانجاب، أو الأعياد، أو المرض..الخ.

٥- بيانات خاصة بمشكلة المسح: إذا كان المسح يدور حول مشكلة معينة، فينبغى أن تشمل بيانات المسح على أسئلة تدور حول نشأة هذه المشكلة وحجمها وأبعادها المختلفة، والأسباب الحقيقية التى أدت إليها، ومدى احساس جمهور المسح بهذه المشكلة، وتصوراتهم المختلفة نحو سبل العلاج..الخ.

على أية حال، ليست هذه البيانات شاملة لكافة موضوعات المسح الاجتماعى و التى تتسم بالتنوع الشديد، فكل مسح طبيعة معينة وتركيز على بيانات تخدم الهدف العام من المسح، ولكن أياً كانت البيانات التى يتضمنها المسح فإنه يتحتم على الباحث أن يبذل قصارى جهده حتى يحصل على بيانات دقيقة وصحيحة، وأن يخطط للتغلب على كافة العقبات التى من شأنها أن تحول بينه وبين الحصول على المعلومات والبيانات الصحيحة والدقيقة. ومن ابرز الصعوبات التى تواجه الباحث فى الميدان عدم تعاون المسؤولين أو قادة المجتمع المحلى هذا من ناحية، وتحفظ المبحوثين وترددهم وتخوفهم من إعطاء بيانات صحيحة عن أنفسهم أو أوضاعهم الاقتصادية أو أدائهم وإتجاهاتهم نحو قضايا معينة كالمشاركة السياسية أو الانتخابات أو رأيهم فى الحكومة..الخ من ناحية أخرى. ففى الغالب لا يفصح ذوى الدخول المرتفعة عن دخولهم بدقة ومصادر هذه الدخول خوفاً من أن تستخدم هذه البيانات فى غير صالحهم وفى المجتمعات النامية بصفة عامة يحجم قطاع كبير من فئات المجتمع عن الحديث أو إبداء الرأى فى قضايا كثيرة خاصة فى القضايا المتصلة بالسياسة أو الحكومة بصفة عامة أما خوفاً من عواقب إبداء الرأى بصراحة أو جهلاً بحقيقة هذه القضايا.

عموماً هناك بعض الاجراءات التى ينبغى على الباحث اتخاذها لضمان الحصول على معلومات وبيانات صحيحة ودقيقة أهمها^(١):

- ١- ضرورة التعرف على قيم وعادات وتقاليد مجتمع المسح، وأن يقوم بجمع كل ما كتب عن مجتمع المسح من قبل - فى حالة وجود هذه الكتابات - حتى يكون على سارية كافية بطبيعة هذا المجتمع.
- ٢- التعرف على القادة والمسؤولين بالمنطقة، وشرح أهداف الدراسة لهم، وأهميتها العلمية والعملية، وأن يوضح الباحث لهم أهمية مساعداتهم وتعاونهم فى نجاح البحث.
- ٣- ضرورة إقامة علاقات طيبة مع المبحوثين، وأن يتحلى الباحث بالأخلاق الحميدة، وأن يكون لبقاً وفطناً فى عرض أسئلته بشكل لا يثير قلق أو خوف أو تحير المبحوثين وأن يحافظ على جدار الثقة بينه وبين المبحوثين لضمان الحصول على معلومات صادقة ودقيقة، وأن يتجنب لقاء الأسئلة المخرجة بشكل مباشر، وأن يستبدل هذه الأسئلة - إن كان من الصعبه رى معرفة الإجابة عليها - بأسئلة أخرى غير مباشرة.
- ٤- أن يكون الباحث فطناً لأنسب الأوقات وأنسب الأماكن التى يمكن مقابلة المبحوثين فيها، فإذا كان المسح يجرى على طلاب الجامعة فإن أفضل مكان للقاء الطلاب يكون داخل حرم الجامعة، وأن يكون أفضل وقت هو وقت الفرواح بين المكافرات. وجدير بالذكر ينبغى على الباحث أن يكون فطناً فى تحديد الأوقات المناسبة للمسح التى تستهدف التعرف على آراء واتجاهات مجتمع المسح نحو قضايا محددة، فعلى سبيل المثال، إذا كان المسح يستهدف معرفة اتجاهات وآراء طلاب الجامعة نحو سياسة الدولة الخارجية مثلاً، فلا يجوز تخير وقت يكون فيه الطلاب فى حالة تظاهر أو إضراب أو اعتصام داخل حرم الجامعة ويقوم بسؤالهم عن آرائهم واتجاهاتهم، فسوف تكون الإجابة متحيزة بالطبع اتجاه اليسار حول هذا الموضوع. كما ان ليس من الصواب اجراء مسح حول سياسات الأجور بشركة ما فى أعقاب زيادة فى الأجور والمرتبات فى هذه الشركة، فإن اتجاهات العمال سوف تكون تجاه اليمين^(٢). وإذا كان مجتمع

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعى: مبادئه ومناهجه، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٢) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

المسح يتكون من أرباب الأسر، فينبغي على القائمين بالمسح تخيير الأوقات المناسبة التي يكون فيها الزوجين متواجدين بالمنزل، وأن يفهم باحث وباحته بزيارة الأسرة، فإذا كان رب الأسرة رجلاً تولى الباحث مهمة الحديث معه، وإذا كان رب الأسرة سيدة أمكن للباحثة أن تتفاهم معها بسهولة^(١). عموماً أن تخيير الوقت المناسب والمكان المناسب والباحث المناسب (نوع الباحث) يعد من الأمور الهامة التي ينبغي أخذها في الاعتبار من أجل الحصول على بيانات ومعلومات صادقة ودقيقة من مجتمع المسح.

٥- كلما كانت الفترة الزمنية للمسح قصيرة كلما أمكن الحصول على معلومات صادقة ومعبرة عن واقع جمهور المسح في هذه الفترة الزمنية، وكلما أمكن تقليل الأخطاء التي تنتج عن تغير الآراء والاتجاهات بتغير الظروف والأوضاع الاجتماعية التي قد يتعرض لها مجتمع المسح.

الخطوة الثالثة: مراجعة بيانات المسح وتфриغها وجدولتها:

بعد أن يفرغ الباحث من جمع بيانات المسح من الميدان يقوم بمراجعة هذه البيانات مرتين، الأولى في الميدان للتأكد من أنه قد حصل على إجابات وافية لكافة أسئلة المسح، وإذا كان هناك نقص في بعض الإجابات عليه باستيفائها قبل مغادرة مجتمع المسح. والثانية في المكتب، ويسمى بالمراجعة المكتبية، والهدف منها معرفة مدى إتساق البيانات ومدى تكاملها واستبعاد ما هو متناقض منها، والتأكد من أن ماتم جمعه من بيانات سوف يفي بأغراض المسح. وترجع أهمية المراجعة المكتبية للتأكد من أن البيانات قد جمعت من مصادرها الأساسية، وأن الإجابات أو البيانات الواردة بالاستمارة واضحة تماماً، وغير متناقضة، ولا يوجد نقص في جانب من هذه الإجابات، ومن ثم إذا كان هناك تناقض في إجابات بعض الاستمارات فإنه يتعين على الباحث استبعادها، وإذا كان هناك نقص في إجابات استمارات أخرى فإنه ينبغي الرجوع إلى المبحوثين لاستيفائها مرة ثانية.

(١) عمر الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٤٠.

وبعد الانتهاء من عملية جمع البيانات، تبدأ عملية تصنيف هذه البيانات الى مجموعات أو فئات محددة، وهناك أربعة شروط للتصنيف الجيد أشار إليها الدكتور/ جمال ذكي والسيد يسن وهي^(١):-

١- التفصيل: بمعنى أن يكون التصنيف مفصلاً يبدأ من الأكبر الى الصغر أو من العام الى الخاص.

٢- الصحة المنطقية: بمعنى أن تكون فئات التصنيف مانعة جامعة، بحيث لا يندرج متغير واحد في أكثر من فئة من فئات التصنيف.

٣- ملائمة التصنيف مع طبيعة الموقف: بمعنى أن يخدم التصنيف بشكل مباشر أهداف المسح، وأن يشتمل على كافة العناصر الأساسية لموضوع المسح.

٤- ملائمة التصنيف مع اطار الدلالة للمفحوصين: بمعنى أن يأخذ هذا التصنيف في اعتباره ما يسوق المبحوثين من آراء وأفكار واتجاهات وتعريفات لموضوع المسح.

وبعد أن يفرغ الباحث من عملية تصنيف بيانات المسح ويبدأ في عملية تقريغ البيانات في كشوف معدة لتلك العملية وحسب الفئات والمتغيرات والتصنيفات التي حددها من قبل، وهناك طريقتان لعلمية التقريغ لكل منهما إحداهما "١" بإعداد الطريفة الأولى وهي تقريغ البيانات يدوياً، حيث يقوم الباحث بإعداد كشوف التوزيع بنفسه، وهي في الغالب تكون على ورق مرصعات ذاتي نسخ لعملية التقريغ، ويقوم الباحث بتقسيم كنف التقريغ الى محور رأسي يسجل عليه أرقام استمارات البحث، بالتوزيع، ومحور أفقي يسجل عليه أسئلة الاستمارة، وما يحتويه كل سؤال من متغيرات*، ويقوم الباحث بتقريغ بيانات كل استمارة وفقاً للفئات المخصصة بكل سؤال على حدة، وبعد الانتهاء من عملية التقريغ يقوم بجمع التكرارات لكل متغير من متغيرات الأسئلة، ثم يقوم الباحث بعد ذلك بإعداد جداول (بسيطة أو مركبة)* وتقريغ بيانات كل سؤال على حدة في جدول واحد بسيط وإستخراج النسب

(١) جمال ذكي والسيد يسن، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤١٥.

* انظر نموذج من كشف التقريغ بالملاحق.

* انظر نماذج من الجداول البسيطة والجداول المركبة بالملاحق.

المئوية أو تفريغ بيانات سؤالي في جدول واحد مركب اذا كان بصدد اجراء بعض المعالجات الاحصائية لايجاد الارتباط بين البيانات الأساسية مثلاً وإتجاه جمهور البحث نحو قضايا محددة كالمشاركة السياسية أو الوعي الدينى..الخ.

أما الطريقة الثانية وهى تفريغ البيانات آلياً، كانت هذه الطريقة فى بدايتها تحتاج الى عدة خطوات كالترميز والتبويب وعرض الاستمارة على احصائى لوضع كل سؤال رقم معين وكل متغير رقم آخر..وهكذا، ولكن مع التطور العلمى السريع فى مجال الحاسب الآلى (الكمبيوتر) أصبحت عملية التبويب والتصنيف والتفريغ واستخراج الجداول البسيطة والمركبة واستخراج العلاقة بين متغيرات معينة وحساب درجات الارتباط والوصف الاحصائى أو كافة المعالجات الاحصائية من الأمور البسيطة جداً والتي يمكن الحصول عليها من خلال برامج معدة مسبقاً، بحيث لا يحتاج الأمر سوى ادخال البيانات عبر الحاسب الآلى وفقاً لبرنامج معين واستخراج البيانات بالأسلوب الذى يحدده الباحث.

الخطوة الرابعة: تحليل البيانات وتفسيرها:

تعتبر مرحلة تحليل البيانات وتفسيرها من أهم خطوات المسح الاجتماعى، وينقسم التحليل الى نوعين:-

١- التحليل الكمي: وهو ما يعرف بالتحليل الاحصائى ويتمثل فى عمليات متعددة لعملية الوصف الاحصائى التى تحتوى على استخراج المتوسطات، والنسب المئوية، ومعاملات الارتباط، ومقاييس التشتت، والرسوم البيانية كالمدرج والمضلع والمنحنى التكرارى، والدوائر..الخ. كما يفيد التحليل الكمي فى عملية تفسير العلاقات متعددة الأبعاد، هذا فضلاً عن استنتاج بعض الدلائل والتفسيرات التى تتطلبها عمليات التحليل والتفسير، ووصف الاختلافات بين جماعات المسح عن طريق استخدام الأساليب الاحصائية الملائمة.

٢- التحليل الكيفى: هو اعطاء مغزى منطقى للأرقام والنسب المئوية والارتباطات التى أسفر عنها التحليل الاحصائى، وعموماً أن ثنائية التحليل الكمي والكيفى - ثنائية زائفه، فكل النوعين من التحليل يكمل بعضهما البعض، وعلى الرغم من أهمية التحليل الكمي لما له من دقة فى التعبير واختصار للجهد المبذول الا أن هناك بعض الموضوعات قد لا يصلح معها التحليل الكمي كموضوعات التفاعل، أو التحليل التاريخى، كما ينبغى أن ندرك

أن عمليات التنبؤ بمسائل معينة على افتراض أن العلاقات بين المتغيرات المختلفة علاقات ثابتة ودائمة ويمكن التنبؤ عنها بأرقام أو نسب مئوية، افتراض خاطئ، لأن الواقع الاجتماعي وما يشتمل عليه من ظواهر اجتماعية وأبعاد مختلفة واقع دينامي ومتغير، ومن ثم ينبغي أن لا نبالغ في استخدام الكم على حساب الكيف في التحليلات السوسيولوجية^(١).

أما تفسير البيانات، يعنى ربط الحقائق التي تم جمعها خلال عملية المسح بعضها ببعض، وتحرى الأسباب التي تكمن خلف هذه الحقائق، والكشف عن العلاقات الكامنة فيها، والآثار المترتبة عليها، وللتفسير نماذج وأنماط مختلفة، فقد يكون التفسير على أساس الدوافع أو على أساس الحاجات الأساسية التي يهدف الفرد إلى إشباعها، أو على أساس الأسباب التي تكمن وراء الظواهر أو الأوضاع الاجتماعية، أو على أساس الوظيفة^(٢)، وذلك على اعتبار أن البناء الاجتماعي مقسم إلى عدة أنساق ولكل نسق وظيفة أو عدة وظائف مختلفة والتفسير الوظيفي هنا يعتبر تفسير سببي، فسبب وجود العين مثلا في جسم الإنسان هو القيام بوظيفة البصر، وسبب وجود الأذن فهو حفظ توازن الجسم والقيام بوظيفة السمع.. الخ.

الخطوة الخامسة: كتابة تقرير المسح:

بعد أن ينتهي الباحث من تحليل بيانات المسح وتفسيرها واستخلاص النتائج والتوصيات عليه بكتابة تقرير المسح باعتبار هذه الخطوة المرحلة النهائية من مراحل المسح الاجتماعي، ويشتمل تقرير المسح على عرض وافى لموضوع المسح من حيث الأهمية وأسباب الاختيار أو الهدف من بحثه وعرض للخطوات التي اتخذها الباحث في عملية المسح، والصعوبات التي واجهته أثناء عملية جمع البيانات وكيفية التغلب عليها، كذلك عرض للاستراتيجية المنهجية التي استخدمها الباحث والتي تشتمل على منهج الدراسة وطرق وأدوات جمع البيانات ومبررات اختيار هذه الاستراتيجية، وأسلوب سحب عينة المسح — إذا كان المسح قد اعتمد عليها — وخصائص هذه العينة،

(١) عبد الباسط محمد عبد المعطى، البحث الاجتماعي: محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه

وابعاده، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٤٢٣.

(٢) جمال ذكى والسيد يسن، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٥٤.

كذلك عرض للنتائج التي توصل إليها، ومناقشة هذه النتائج في ضوء نتائج مسوح أخرى مشابهة، ثم يقوم بعرض لتوصيات المسح والتي تعتبر مجالا لمسوح أخرى مستقبلية، وأخيراً المصادر التي اعتمد عليها الباحث.

خامساً: تصنيف المسوح الاجتماعية:

هناك تصنيفات مختلفة للمسح الاجتماعي، ويرجع هذا الاختلاف إلى أساس التصنيف، فإذا نظرنا إلى مجال المسح سوف نجد أن هناك مسوحاً عامة وأخرى متخصصة، وإذا نظرنا إلى هدف البحث فهناك مسوح وصفية وأخرى تفسيرية، وإذا نظرنا إلى حجم الجمهور فهناك مسوح شاملة وأخرى بالعينة. ويمكن الإشارة إلى أهم تصنيفات المسح الاجتماعي على النحو التالي:

١- تصنيف المسوح وفقاً لمجال الدراسة:

تنقسم المسوح على أساس مجالها إلى نوعين:

أ - المسوح العامة General Surveys: وهي تلك المسوح التي تتناول عدة مجتمعات منجورة أو مجتمعا بأكمله، أو مدينة أو قرية وتتناول أيضاً عدة جوانب من الحياة الاجتماعية في آن واحد كالتعليم والصحة والأسرة والجريمة والمشاركة السياسية والقيم الاجتماعية، والأحوال المعيشية ومستوى السكن، والمشكلات الاجتماعية السائدة، وأوجه البناء الطبقي وأنواع العلاقات الاجتماعية والأنشطة الترويحية والرياضية، وأحوال العمال وظروف العمل.. الخ، وهذه المسوح تسمى أحياناً بالمسوح ذات الاتجاه الأفقي.

ب - المسوح الخاصة: وهي المسوح التي تركز دراساتها على جوانب محددة من الحياة الاجتماعية لمجتمع أو جماعة ما، حيث تهتم هذه المسوح بجوانب واحد فقط كالتعليم أو الصحة أو الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو البطالة أو أنماط الجريمة، ويعرف هذا النوع من المسوح بالمسوح الرأسية، حيث أنها تهتم بالدراسة المتعمقة لمشكلة ما بحثاً عن الجذور التاريخية لنشأة هذه المشكلة وأسباب نشأتها وعوامل تطورها، أيضاً يهتم هذا النوع من المسوح بإستشراف المستقبل من خلال الفهم المتعمق للماضي والحاضر.

٢- تصنيف المسوح وفقاً للمجال البشرى:

تصنف البحوث وفقاً للجمهور الذى تشملته الى نوعين:

أ- المسوح الشاملة Total Survey: وهذا النوع من المسوح يقوم على دراسة كافة مفردات أو وحدات مجتمع البحث أو كافة الوحدات التى يتألف منها جمهور البحث. ويفضل استخدام هذا النوع من المسوح فى حالة إذا كان حجم جمهور البحث صغير نسبياً، كأن يجرى مسحاً على أحد الأحياء الفقيرة فى مدينة ما، أو إيمان المخدرات لدى طلاب المدارس الثانوية أو فى عمليات التعداد^(١) التى تجريها الدولة على فترات زمنية محددة، فينبغى أن يشمل التعداد كل أفراد المجتمع إذا كنا بصدد الحصول على معلومات وبيانات دقيقة. وعلى الرغم من مميزات هذا الأسلوب فى المسح إلا أنه يشوبه أوجه نقص كثيرة يمكن الإشارة إليها على النحو التالى:

١- بهائظة التكاليف، فالحصر الشامل يتطلب نفقات مالية كثيرة خاصة إذا كان مجتمع المسح كبير، فلا يستطيع باحث أو هيئة بحثية تنفيذه إلا إذا كان ممولاً من قبل الحكومة.

٢- يحتاج المسح الشامل وقتاً طويلاً لتنفيذه، فقد يستغرق عدة سنوات، فعلى سبيل المثال يحتاج التعدادات التى تنفذ على مستوى الدولة الى فترة اعداد قد تستغرق أكثر من عام أو فترة مماثلة لجمع البيانات، وأخرى لتصنيف هذه البيانات وتقريرها وجدولتها واستخراج النسب المئوية وتحليل هذه البيانات وكتابة تقرير البحث.

٣- يحتاج المسح الشامل إلى جهاز إدارى وفنى قد لا يتوافر فى كثير من المسوح القومية.

٤- قد يكون من المستحيل القيام بحصر شامل لتعذر تدريب العدد الكافى من العدادين أو جامعى البيانات أو الباحثين الميدانيين تدريباً مناسباً يؤهلهم بالقيام بهذه المهمة بكفاءة.

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعى: مبادئ ومناهج، مرجع سابق، ص ٩٢.

٥- من عيوب المسح الشامل أيضاً أن النتائج التى يتوصل اليها لايمكن تطبيقها على مجتمعات أخرى غير المجتمع الذى أجرى عليه المسح، ومن ثم فعملية التعميم من خلال المسح الشامل عملية غير دقيقة وينبغى التعامل معها بحذر^(١).

ب - **المسوح بالعينة Sample Survey**: وهى تلك المسوح التى يكتفى فيها الباحثون بدراسة جزء من المجتمع الأصلي للمسح توفيراً للنفقات والجهد والوقت، وهذا النوع من المسوح هو الغالب فى البحوث السوسولوجية، ويستخدم عادة عندما تتشابه خصائص مفردات المجتمع أو عندما يكون هناك قدراً من التجانس بين مفرداته. ويتطلب هذا النوع من البحوث معرفة شاملة لطبيعة مجتمع البحث وخصائصه وبنائه الداخلى حتى ينتهى سحب عينة ممثلة للمجتمع الأصلي، وكلما كانت العينة تمثل بدقة خصائص مجتمع المسح كلما أمكن تعميم النتائج المستمدة منها وتطبيقها على المجتمع المسحوبه منه ككل بشكل علمى دقيق. وجدير بالذكر أن هناك نماذج مختلفة للعينات^(٢) كالعينة العشوائية، والعينة العشوائية المنتظمة، والعينة العمدية أو القصدية، والعينة الطبقية أو العينة بالحصّة أو العينة متعددة المراحل .. الخ، وهناك شروط وخطوات لتصميم العينة الممثلة، وهناك تقديرات ومعالجات احصائية لتحديد الحجم الأمثل لهذه العينة ينبغى على الباحث أن يكون ملماً بها.

٣ - تصنيف البحوث وفقاً للهدف من الدراسة:

تصنيف المسوح وفقاً للهدف من الدراسة إلى نوعين:-

أ - المسح الوصفى Descriptive Survey :

تستهدف المسوح الوصفية "وصف الظواهر الاجتماعية فى صورة كمية"، للكشف عن مدى قوة أو ضعف أى من هذه الظواهر فى قطاع من قطاعات البناء الاجتماعى، أو فى مختلف أرجاء المجتمع^(٣) ويهتم قطاع كبير

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: غريب سيد احمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٤، الفصل الحادى عشر (طريقة العينات)، ص ص ٢١١ - ٢٣٤.

(٣) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٦٥.

من هذه المسوح بدراسة المجتمعات المحلية من حيث العادات والتقاليد والأعراف والقيم التقليدية والقيم المتغيرة وعوامل تغيرها، هذا فضلاً عن وصف السكان من حيث تكوينهم النوعي والعسري، والنسبالي والمهني والتعليمي وظروفهم الصحية، وحركتهم (الهجرة)، هذا فضلاً عن دراسة المشكلات الاجتماعية المتعددة، وزجدير بالذكر أن المسوح الوصفية لا تقف فقط عند حد الوصف أو تقرير ما هو واقع، ولكنها تبحث أيضاً عن أسباب وجود الظاهرة موضوع الدراسة على هذا النحو وعوامل تطورها، بل يتعدى عملية الوصف في كثير من الأحيان إلى عملية التنبؤ بما سوف تكون عليه الظاهرة في المستقبل. فعلى سبيل المثال قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة بإجراء العديد من المسوح الوصفية، ومن أهمها المسح الذي أجرى عن ظاهرة "البغاء في القاهرة" والذي أجرى في الفترة من ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧ حتى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٨ وكان الهدف الأساسي ليس فقط وصف ظاهرة البغاء كما تمارس في مدينة القاهرة ولكن كان يهدف أيضاً إلى الوقوف على طبيعة هذه المشكلة من حيث الأسباب أو الدوافع والنتائج وكيفية مكافحة هذه الظاهرة أو الوقاية منها حتى لا يستفحل أمرها في المستقبل وتشكل تهديداً للبناء القيمي والأخلاقي في مدينة القاهرة^(١).

وباعتبار أن هذا المسح يندرج تحت المسوح الوصفية ففت اهتم بالتعرف على خصائص جمهور المسح من البغايا كالسن، والجنسية، والديانة، والموطن الأصلي، ومناطق الإقامة، التي يقمن فيها بمدينة القاهرة، والحالة التعليمية والمهنية ومدى ارتباط مهن معينة بممارسة البغاء، وأوصح جانب من المسح وصف عملية الممارسة ذاتها من حيث بدئنها، وطريقتها، والعملاء الذين يتعاملون مع هؤلاء البغايا، وأوقات الممارسة، وهل هناك أيام أو شهور أو فصول تكثر فيها الطلب عليهن أكثر من غيرها، كذلك تضمن المسح وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء البغايا ودخلهن من المهن الأصلية التي يعملن بها ودخلهن من ممارسة البغاء، وتناول المسح أيضاً علاقة البغايا بأسرهن وهل هذه الأسر على علم بممارسة البغاء وموقفها من

(١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، البغاء في القاهرة: مسح اجتماعي

وبدراسة إكلينيكية، دار مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦١.

ذلك، ومدى إنخراط هؤلاء البغايا في ممارسات أخرى كتعاطي المخدرات أو المسكرات... إلخ^(١). ولقد شمل المسح الاناث اللاتي يمارسن البغاء أو يحرص عليه أو يسهلن فعلة أو يقمن بإستغلال البغايا، ولقد تم تحديد عينة المسح من الاناث التي تم القبض عليهن عن طريق شرطة حماية الآداب بالقاهرة والجيزة لاتهامهن في إحدى الجرائم التي يحددها القانون ٦٨ لسنة ١٩٥١ بمكافحة الدعارة، وهذه الجرائم هي:

١- التحريض على البغايا أو المساعدة أو التسهيل.

٢- الاستخدام أو الاستدراج أو الأغواء.

٣- معاونة أنثى على الدعارة.

٤- استغلال البغايا.

٥- فتح أو إدارة محل للدعارة.

٦- الاعتياد على ممارسة الدعارة.

لقد اشتمل فريق المسح على أعضاء من تخصصات مختلفة، كأعضاء اللجنة التنفيذية، والدراسة الإكلينيكية، وفريق البحث الاجتماعي، وفريق الفحص العضوي، وفريق الفحص النفسي، وفريق الفحص الطبقي، وفريق السكرتارية، وبلغ عدد البغايا اللاتي شملهن المسح ١٠٥٥ مفردة، تم ضبطهن جميعاً من خلال شرطة حماية الآداب في فترة المسح، واشتمل التقرير النهائي للمسح على وصف شامل للبغايا وأبعاد عملية الممارسة، وخلصت الدراسة الى عدة نتائج أهمها أن معظم هؤلاء البغايا نشأ في أسر فقيرة وعائين من الحرمان المبكر للحاجات المادية الأساسية مما دفعهن إلى احتراف البغاء كوسيلة لإشباع الحاجات المادية الملحة، وأن معظم البغايا من الأميات، وكانت تعملن في مهن غير فعليه ذات دخل منخفض، وأن الأمراض التناسلية كانت منتشرة بينهن، وأن عملية الاستمتاع بالجنس أو الاستجابة الجنسية كانت شبه منعدمة، وإن غالبية هؤلاء البغايا كانت تعاني من أمراض نفسية (سيكوباتية، وضعف عقلي، وهستيريا، وإكتئاب)^(٢).

(١) المرجع السابق، ص ص ٢-٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٣٠ - ١٣٥.

وهذا النوع من المسح لا يقف عند حد الوصف وإنما يتخطى ذلك إلى مرحلة متقدمة وهي عملية التحليل والتفسير، بحثاً وراء الأسباب التي أدت إلى حدوث الظاهرة والنتائج المترتبة عليها، ومن ثم فالهدف المباشر من وراء هذه المسوح هو معرفة أثر عامل أو مجموعة عوامل على أحداث ظاهرة معينة، ولذلك تسمى أحياناً ببحوث أو مسوح الأثر أو المسوح التجريبية أو المسوح التي تختبر فروضاً سببية. ولاشك أن هذه المسوح تنحو نحو استخدام أسلوب التجربة، ولكن ليس التجربة بمفهومها المعملية الذي يقوم الباحث بإصطناع العوامل أو المتغيرات المستقلة والتحكم فيها لمعرفة آثارها، وإنما يتلمس الباحث هذه العوامل من خلال سير الظاهرة موضوع المسح بشكلها الطبيعي دون أن يتدخل في خلق العوامل المستقلة. فعلى سبيل المثال لو كان الباحث بصدد القيام بمسح تفسيري عن "أثر الطلاق على تفكك الأسرة وإنحراف الأحداث"، واستخدام منطق التجربة المعملية فإنه يتحتم عليه تكوين مجموعتين من الأسر لهما نفس الخصائص، أحدهما تقوم بدور المجموعة التجريبية والثانية تقوم بدور المجموعة الضابطة، ثم يقوم بالتدخل الفعلي وأحداث طلاق حقيقي لأسر المجموعة التجريبية لكي يقيس بعد ذلك أثر هذا الطلاق على تفكك هذه الأسر وإنحراف الأطفال، ولكن هذا منطق غير معقول وغير مقبول على الإطلاق، ومن ثم لا يصلح منطق التجربة المعملية في دراسة الظواهر الاجتماعية بشكل فعال، ولكن الباحث الاجتماعي يستطيع أن يقوم بمثل هذه التجارب وبشكل دقيق باستخدام أساليب أخرى، ففي المثال السابق مثلاً عليه أن يقوم ببحث حالات الطلاق التي وقعت بالفعل وقياس أثر هذا الطلاق على تفكك هذه الأسر وإنحراف الأحداث، أو ينتظر وقوع حالات مماثلة في المستقبل - دون تدخل منه - وقياس أثر الطلاق على الأسر المطلقة. وبصفة عامة أن المسوح التفسيرية على مختلف مسمياتها فهي تشترك في إطار منهجي واحد وهو التحري عن طبيعة العلاقة بين ظاهرة وأخرى أو بين سبب أو مجموعة أسباب ونتيجة أو مجموعة نتائج محددة.

سادساً: أدوات البحث فى المسوح الاجتماعية:

تعتمد المسوح الاجتماعية على كافة أدوات البحث الاجتماعى فى عملية جمع البيانات، ونختلف أدوات البحث من مسح إلى آخر باختلاف طبيعة المسح ونوعية جمهور المسح، فعلى سبيل المثال لايفيد "الاستبيان السبرى" Muiled Questionnaire فى الحصول على بيانات من جمهور لايعرف القراءة والكتابة، كذلك لا يصلح الاستبيان التليفونى الا مع عينة لدى كل مفرداتها أجهزة تليفونات لى يمكن الاتصال بها. وعادة ما تستخدم المسوح الاجتماعية أكثر من أداة لجمع البيانات بطريقة مباشرة، وأهم هذه الأدوات^(١):-

١- استخدام السجلات والوثائق المتاحة:

تستخدم السجلات الاحصائية الرسمية والوثائق بشكل فعال فى مرحلة التخطيط للمسح الاجتماعى، فغالباً ما يلجأ الباحثون الى معرفة خصائص السكان من خلال التعدادات الرسمية هذا فضلاً عن الرجوع الى السجلات الخاصة بالمواليد والوفيات وحالات الزواج والطلاق والهجرة لمعرفة المزيد من الخصائص السكانية لمنطقة المسح، وأحياناً يقتضى المسح الرجوع الى بيانات أكثر دقة وتفصيلاً عن الحالات المدروسة Case - Records كما هو الأمر فى المسوح التى تجرى على الأحداث الجانحين أو التى تتناول دراسة جرائم أخرى توجد بيانات تسجيلية عنها^(٢). ولاشك أن هذه البيانات الوثائقية تعطى عمقاً أكثر للحالات المدروسة وتفيد بشكل كبير فى عمليات تحليل وتفسير بيانات المسح.

٢- المقابلة Interview:

تعتبر المقابلة من أكثر أدوات البحث شيوعاً ليس فقط فى العلوم الاجتماعية ولكن أيضاً فى كثير من مجالات الحياة، فكل من الطبيب ورجال الأعمال، ورجل الدين، ورجل البوليس، والقاضى، والصحفى، والمدرس، والمحامى، والأخصائى النفسى، والأخصائى الاجتماعى، ورجل الاعلام..الخ. كل هؤلاء يستخدمون المقابلة لتحقيق أهداف متنوعة قد تكون للحصول على

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٥.

معلومات أو للتوجيه أو التشخيص والعلاج^(١). والمناخية هي حوار نفسي بين باحث وسبحوث - في حالة المقابلة الفردية - في موقف مواجهة لتحقيق هدف محدد وليس لمجرد الحوار في حد ذاته، وللمقابلة عدة أنواع فمن حيث الغرض تنقسم الى مقابلة لجمع البيانات، ومقابلة تشخيصية، ومقابلة علاجية، ومن حيث درجة التقنين، فهناك المقابلة المقننة والمقابلة غير المقننة، ومن حيث العدد، فهناك المقابلة الفردية والمقابلة الجماعية.

وتستخدم المقابلة بشكل مكثف كأداة أساسية أو أداة مساعدة لجمع البيانات في المسوح الاجتماعية، فقد يكون الاعتماد عليها بشكل أساسي في جمع البيانات من جمهور المسح، وقد تكون أداة مساعدة لإستمارة البحث كأداة أساسية للحصول على بيانات من جمهور المسح في مواقف مقابلة.

٣- الملاحظة Observation:

تفيد الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث العلمى فى الحصول على معلومات صادقة ودقيقة، وكما هو معروف أن الملاحظة هي الأداة الأساسية للحصول على معلومات فى العلوم الطبيعية العملية. وتستخدم الملاحظة أيضاً فى المسوح الاجتماعية خاصة المسوح التى تجرى من خلال علماء الأنثربولوجيا حيث يقيمون فترات كافية فى مجتمعات الدراسة وهى مجتمعات فى الغالب محلية صغيرة - ويلاحظون كافة الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والعائلية وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية ويسجلون ما يحدث فى هذه الأنشطة كما هى موجودة فى الواقع بشكل دقيق. وتستخدم أيضاً الملاحظة فى بعض المسوح السوسولوجية خاصة المسوح التى تجرى على نظم اجتماعية معينة أو مجتمعات محلية محدودة، أو لوكان جمهور المسح من الأطفال أو الجماعات الصغيرة. وتفيد الملاحظة فى جمع بيانات تتعلق بسلوك جمهور المسح الفعلى فى بعض المواقف الواقعية فى الحياة، كما تفيد أيضاً فى الحصول على بيانات أو معلومات فى المواقف التى يظهر فيها المبحوثون شكلاً من المقاومة أو الخوف أو التردد للإجابة على أسئلة الباحث، كما تفيد أيضاً فى المسوح الكشفية والوصفية والتفسيرية. وللملاحظة كأداة من أدوات المسح الاجتماعى أشكال متنوعة كالملاحظة

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٤٦.

- البسيطة، والملاحظة المنظمة، والملاحظة بالمشاركة، والملاحظة بدون المشاركة. وهي كسائر أدوات البحث الاجتماعي لها مميزات وعيوب وقد تفيد الملاحظة في مسح معينة ويستحيل استخدامها في مسح أخرى.

٤- استمارات البحث Questionnaire:

يسطيع المهتم بمسيرة المسح الاجتماعي في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة أن يلاحظ بوضوح أن استمارات البحث تعتبر من أكثر أدوات البحث شيوعاً في المسوح الاجتماعية نظراً لسهولة تعميماتها ولسهولة تطبيقاتها على جمهور المبحوثين. وهناك نوعين من استمارات البحث الأول يسمى بالاستبيان وله أشكال متعددة كالاستبيان البريدي Mailed Questionair والاستبيان التليفوني، والاستبيان الذي ينشر على صفحات المجلات أو الصحف اليومية أو شاشة التليفزيون، أو عن طريق الإذاعة أو من خلال شبكات الأنترنت. والنوع الثاني هو ما يسمى باستمارة البحث، وهناك بعض الاختلافات البسيطة بين الاستبيان بأشكاله المختلفة وبين استمارة البحث، ومن أبرز هذه الاختلافات أن الباحث لا يكون متواجداً عند الإجابة على أسئلة الاستبيان فالمبحوث يقوم بالإجابة على الأسئلة بنفسه وإرسال الاستبيان إلى الهيئة المشرفة على البحث، ومن ثم ينبغي أن تكون أسئلة الاستبيان واضحة وبسيطة ولا تحمل أكثر من معنى وعددها قليل حتى لا يمل المبحوث من الإجابة عليها ومكتوبة باللغة أو اللهجة التي يفهمها جمهور البحث جيداً. بينما الأمر يختلف في استمارة البحث فوجود الباحث أو من ينوب عنه من جامعي البيانات أمر ضروري، فالباحث يقوم بالقاء الأسئلة على المبحوث في موقف مقابلة يجمعها معا ويدون الإجابات كما يقولها المبحوث في استمارة البحث. وجدير بالذكر تمر عملية بناء استمارات البحث بمراحل عديدة قبل تطبيقها على جمهور المسح، ولكل من استمارة البحث والاستبيان بأشكاله المختلفة مزاياه وعيوبه.

سابعاً: تقييم المسح الاجتماعي:

لا جدال في أن المسح الاجتماعي يعتبر من أقدم طرق البحث في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة، فلقد استخدم المسح الاجتماعي لدى رواد البحث الاجتماعي الأوائل أمثال "جون هوارد"

John Howard (١٧٢٦ - ١٧٩٠) ^(١)، رائد حركة الإصلاح الاجتماعي في إنجلترا. حيث قام "هوارد" بدراسة شهيرة عن حالة السجون في إنجلترا معتمداً في ذلك على الملاحظة بالمشاركة والمقابلة الشخصية. ولقد قام "هوارد" بإحصاء عدد السجون في إنجلترا، وعدد نزلائها، وتواريخ دخولهم السجن، والأمراض التي يعاني منها المسجونون، وأحصى عدد العاملين بالسجون، ومصادر دخولهم. ولقد وجد "هوارد" أن عدداً كبيراً من المسجونين وضعوا في السجن ظلماً، ولم يستطيعوا حتى بعد إثبات براءتهم مغادرة السجن لعدم تمكنهم من دفع الرسوم المطلوبة، كما وجد أيضاً أن أغلب العاملين بالسجون لا يتقاضون مرتبات أو أجور نظير عملهم، وإنما كان يعتمدون على ما يدفعه المسجونون من رسوم. وجدير بالذكر أن نتائج مثل هذه المسوح التي كانت تجرى في القرن الثامن عشر كانت تؤخذ موضع التنفيذ من قبل السياسات المسؤولة عن التخطيط في المجتمع، فلقد قدم "هوارد" نتائج بحثه في سنة ١٧٧٤ إلى إحدى لجان مجلس العموم البريطاني مطالباً بالإصلاح الاجتماعي للسجون، وايدة أعضاء اللجنة، وأصدر أعضاء البرلمان قانوناً بالعفو عن المسجونين الذين ثبتت براءتهم، وقانون آخر يقضى بمنح العاملين في السجون مرتبات ثابتة، وقانون ثالث يقضى بتنظيم عملية إصلاح السجون من الداخل كالنظيف والتهوية، والرعاية الطبية للمسجونين.. الخ ^(٢).

ومنذ أن أوضح "جون هوارد" أهمية المسح الاجتماعي ودوره في عمليات التخطيط والإصلاح الاجتماعي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا والمسوح الاجتماعية في تزايد مستمر على كافة المستويات المحلية والقومية بل العالمية، وإذا كانت المسوح الكلاسيكية كانت تهتم بدراسة مشكلات اجتماعية أو جوانب معينة من البناء الاجتماعي، أصبحت اليوم تهتم بكافة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والعائلية أي بكافة أنساق البناء الاجتماعي. وأصبحت تسهم كثير من هذه المسوح في عمليات التنمية الشاملة Comprehensive Development والتخطيط الاجتماعي أو السياسات الاجتماعية بصفة عامة حيث تنوعت

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨.

مجالات هذه المسوح كمجال المشكلات الاجتماعية، ومجال المسوح الديموجرافية، ومسوح المجتمعات المحلية على مختلف أشكالها ومسوح الاسكان والتخطيط القومى ومسوح قياس رأى العام والاتجاهات السياسية، ومسوح العلاقات الصناعية السوق Market Survey والمسوح النفسية، ومجال المسوح الأدبية Literarily Survey.. الخ من هذه المجالات المختلفة.

على أية حال، سوف أشير الى أهم مميزات وعيوب المسح الاجتماعى كأسلوب فى البحث الاجتماعى على النحو التالى:

أ ب مميزات المسح الاجتماعى:

- ١- يساعد المسح الاجتماعى - خاصة المسح الشامل - على جمع معلومات وبيانات أكثر دقة وصدقاً وأكثر تمثيلاً للواقع المدروس لما يوفره من مادة علمية خصبة عن كافة جوانب الظاهرة المدروسة.
- ٢- يتميز المسح الشامل بالعمومية، ومن ثم يجنب الباحث أخطاء التحيز وأخطاء استخدام العينات خاصة خطأ التعميم.
- ٣- يفيد المسح الاجتماعى فى عمليات التخطيط الشامل للسياسات الاجتماعى المختلفة، ايضاً يفيد فى عمليات التخطيط للتنمية الاجتماعية والاقتصادية على مستوى المجتمعات والمجتمع القومى.
- ٤- يستخدم المسح الاجتماعى بصفة أساسية المنهج الاحصائى كأداة تحليلية كمية، وجدير بالذكر أن المنهج الاحصائى يتيح للباحث فرصة أفضل فى تحديد الحجم الأمثل للعينة، وتصنيف البيانات وتحليلها، والجهد المبذول على معرفة علمية أكثر تفصيلاً من خلال عمليات الوصف الإحصائى للبيانات. وإيجاد معاملات الارتباط والتوافق والاقتران بين معطيات الدراسة الميدانية.
- ٥- يفيد المسح الاجتماعى فى الدراسات الوصفية والتفسيرية لدراسة ظواهر اجتماعية متنوعة فى مجال الهجرة والسلوك السياسى، ومجال الأسرة ومشكلات التفكك وانحراف الأحداث، وفى مجال الجريمة، وفى مجال السوق والدعاية والاعلان، وفى مجال رأى العام وقياسه وعمليات توجيهية، فهو لا يتوقف عند حد الوصف والتحليل والتفسير فقط وإنما يتخطى ذلك لاستشراف المستقبل من خلال دراسة الماضى والحاضر للظواهر موضوع الدراسة.

٦- يتسم المسح الاجتماعي بالمرونة فهو يتيح للباحث فرصة الجمع بين أكثر من أداة كالمقابلة والملاحظة واستمارة البحث واستخدام الوثائق والسجلات، وأيضاً دراسة بعض الحالات المثيرة للاستبصار بشكل مكثف، هذا فضلاً عن استخدام أكثر من منهج كالمنهج التجريبي والمنهج التاريخي، والمنهج الإحصائي، طالما كانت هذه المرونة سوف تفيد في إثراء عملية المسح.

٧- يعتبر المسح الاجتماعي من الأساليب الهامة في الحصول على بيانات وسلوكيات خاصة بجمهور كبير من المجتمع، وهذه الخاصية لا تتوافر لوسائل أخرى.

٨- قد يكون المسح الاجتماعي هو الأسلوب الوحيد لجمع بيانات عامة قيم وعادات وتقاليد ودوافع ومعتقدات واتجاهات جمهور المسح، تلك الدوافع والاتجاهات والمعتقدات التي قد لا تظهر بشكل واضح في السلوك الظاهري لجمهور المسح.

٩ - يفيد المسح الاجتماعي في عمليات التخطيط الاقتصادي خاصة في دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروعات، كما يفيد أيضاً في البحوث التتبعية للمشروعات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

ب - عيوب المسح الاجتماعي:

على الرغم من المميزات العديدة للمسح الاجتماعي كطريقة متميزة في البحث، إلا أنه يعاني من أوجه قصور متنوعة أيضاً يمكن الإشارة على النحو التالي التالي:-

١- غالباً ما تكون بيانات المسح الاجتماعي ذات طابع عام وتفتقد الى العمق، ويمكن للباحث التغلب على هذه المشكلة بإجراء مقابلات متعمقة مع بعض مفردات جمهور البحث قبل النزول الى الميدان واستخدام البيانات التي يحصل عليها كمرشد عند تصميم استمارة البحث الميداني^(١)، أيضاً يمكن عمل دراسات حالة متعمقة لبعض الحالات المثيرة للاستبصار لتعميق بيانات المسح.

(١) محمد الجوهري، علم الاجتماع: النظرية، الموضوع، المنهج، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٧، ص ٢٦٠.

٢- يتطلب المسح الاجتماعي للمجتمعات المحلية أو الجماعات الصغيرة طرح عدد كبير من الأسئلة لمعرفة الجوانب المختلفة لطبيعة مشكلة ما أو ظاهرة اجتماعية محددة، وهذه الأسئلة قد تؤدي ضيق جمهور المسح وعدم تعاونهم مع المبحوثين. ومن ثم ينبغي على الباحث أن يكون فطناً إلى ذلك وأن يحاول التركيز في أسئلته على موضوع المسح، وأن يختار الأوقات المناسبة التي لا يمل فيها المبحوثون بسرعة.

٣- يعاب على المسح الشامل كثرة التكاليف، واحتياجه إلى وقت طويل لتنفيذه قد يستغرق عدة سنوات، وإلى جهاز إداري وفني من الصعب توافره، هذا فضلاً على أن النتائج التي يتوصل إليها من الصعب تعميمها على مجتمعات أخرى غير المجتمع الذي أجرى عليه المسح.

٤- يحتاج المسح الاجتماعي إلى باحثين مدربين على درجة عالية لتفادي عمليات التحيز في جمع بيانات المسح أو الإيحاء للمبحوثين بإجابات معينة. ٥- كثيراً ما يتعرض المسح الاجتماعي لأخطاء جمع البيانات، بسبب الاعتماد على عدد كبير من جامعي البيانات، فتلعب الفروق في الخبرة ومستوى التدريب دوراً في ابتعاد البيانات عن الموضوعية والانساق^(١).

٦- غالباً ما يواجه الباحثون بمصاعب في عملية سحب عينة ممثلة لجمهور المسح، ومن أبرز هذه المصاعب عدم توافر بيانات كاملة عن المجتمع الذي تسحب منه عينة المسح، فمثلاً لو أردنا دراسة ظاهرة "أدم-المخدرات" في المجتمع المصري لاستحال علينا الحصول على عينة ممثلة. نظراً لعدم توافر بيانات كاملة عن المدنيين وتصنيفاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وأماكن إقامتهم، ومن ثم يضطر الباحث إلى أخذ عينة وفقاً لسهولة هو متاح لديه من إحصائيات، وهذه العينة تكون بالطبع غير ممثلة لمجتمع الدراسة، ومن ثم فالنتائج التي يمكن التوصل إليها من هذه العينة لا يمكن تعميمها بشكل علمي دقيق على كافة المدمنين في المجتمع المصري.

٧- تتعرض عملية جمع بيانات المسح إلى بعض الصعوبات، أهمها امتناع بعض أفراد عينة البحث عن التعاون في إجراء المقابلة من الأسس أو امتناع بعضهم عن الإجابة على بعض أسئلة المسح.

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣١٦.

٨- لاتخضع عمليات جمع البيانات الى مراقبة علمية دقيقة، فالباحث هو الجهة الوحيدة المتحكمة فى الحقائق التى تم جمعها، ولارقب على الباحث سوى ضميرة العلمى، ومن ثم فاحتمال التزوير المتعمد للبيانات والجداول لكى تثبت صحة فروض معينة تخدم الاطار النظرى للمسح قائم لدى قلة ولو ضئيلة جداً من بعض الباحثين^(١). ومن ثم فهناك ضرورة لدراسة الموضوع الواحد من أكثر من باحث علمى لتقليل الضرر الناتج عن المسوح التى لا يلتزم فيها الباحثون بالدقة والموضوعية وعدم التحيز لفروض المسح.

(١) باسم سرحان، "مشكلات منهج المسح الاجتماعى"، فى جابر أحمد عصفور، مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والانسانية، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٨، ص ٢١٨.

الفصل السابع

دراسة حالة

تمهيد:

١- تعريف دراسة الحالة وخصائصها.

٢- مجالات دراسة الحالة.

٣- أساليب دراسة الحالة:

أ- تاريخ الحالة

ب- التاريخ الشخصي للحياة

٤- خطوات دراسة الحالة.

٥- أدوات البحث في دراسة الحالة.

٦- تقييم دراسة الحالة:

أ- إيجابيات دراسة الحالة

ب- سلبيات دراسة الحالة

استخدمت دراسة الحالة منذ العصور القديمة في إلقاء الضوء على أفراد أو جماعات بعينها من قبل بعض المؤرخين^(١). ولكن هذا الاستخدام لم يكن بالشكل العلمي المتعارف عليه الآن، وكان الهدف منه هو خدمة الطبقة الحاكمة، لأن الشخصيات أو الجماعات التي كانت تشملهم هذه الدراسات غالباً من صفوة القوة السياسية أو الدينية في المجتمع. كما استخدمت دراسة الحالة في الدراسات الأدبية مثل دراسة القصص والروايات والأساطير والأحلام... إلخ.

أما الاستخدام العلمي لدراسة الحالة في البحث الاجتماعي يعود إلى "فردريك لوبلاي Fredric Le Play" في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما أسس عام ١٨٥٦ "الجمعية العالمية للدراسات العلمية في الاقتصاد الاجتماعي"^(٢)، وبدأت باكورة دراساته في هذه الجمعية عن اقتصاديات الأسرة. ولقد وأجبهته مشكلتان منذ البداية الأولى: تحديد وحدة اجتماعية يمكن اعتبارها أساساً للدراسة، والثانية: إيجاد الطريقة التي يقيس بها عناصر تلك الوحدات قياساً كمياً^(٣). فالمشكلة الأولى تغلب عليها باختيار الأسرة كوحدة أو "حالة" أساسية للدراسة، وتغلب على المشكلة الثانية باختيار ميزانية الأسرة كأسلوب كمي يقيس من خلاله مصادر الإنفاق ونظام المعيشة. وجدير بالذكر أن "لوبلاي" قد قام بدراسة عن أسر العمال الأوربيين استغرقت عشرين عاماً جمع فيها بيانات ومعلومات إحصائية متنوعة، ثم قام بعمل "دراسات حالة" متعمقة لبعض هذه الأسر توصل من خلالها لعدد من النتائج قام بتعميمها على باقي الأسر المتشابهة^(٤).

كما استخدمت دراسة الحالة أيضاً في البحث الاجتماعي في القرن التاسع عشر في إنجلترا عن طريق "أندرو أور" Andrew Ure في دراسته

(١) زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٢) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٠.

للحالة وطريقة علاجها أو التعامل مع ما تعاني منه من مشكلات هذا فضلاً عن إمكانية التنبؤ بما سوف تكون عليه الحالة في المستقبل فعملية استرجاع الماضي يفيد في إلقاء الضوء على ما هو موجود في الحاضر ويساعد على التنبؤ بما سوف يمكن حدوثه في المستقبل.

ويمكن الإشارة إلى أهم خصائص "دراسة الحالة" كأسلوب في البحث الاجتماعية على النحو التالي:

١- تفيد دراسة الحالة في الحصول على معلومات شاملة عن الحالات موضوع الدراسة.

٢- تهتم هذه الطريقة في البحث بالموقف الكلي ومختلف العوامل المؤثرة فيه، وإلقاء مزيداً من وضوح الرؤية على الوحدة التي تبحث كحالة.

٣- لا تقتصر دراسة الحالة على تقرير ما هو واقع أو دراسة الحالة الراهنة ولكنها تعتمد أساساً على استرجاع Flash Back تاريخ الحالة وفقاً لمراحل تتبعية مختلفة.

٤- توافر للباحث مزيداً من الرؤية الكلية، ومزيداً من العمق والتفصيلات، التي لا تساعد فقط في فهم الحالة المدروسة بطريقة شاملة، ولكن أيضاً تفيد هذه الطريقة في اختيار الفروض والقوانين والنظريات العلمية و تطويرها^(١).

٥- إنها طريقة للتحليل الكيفي للظواهر الاجتماعية والحالات المختلفة^(٢).

٦- تتنوع وحدات دراسة الحالة، فليس من الضروري أن تكون الحالة شخصاً، فكما أشرت من قبل قد تكون الحالة جماعة أو مجتمعاً محلياً أو نظاماً اجتماعياً أو مؤسسة...إلخ.

٧- أنها أسلوب بحثي أكثر مرونة في اعتمادها على أدوات بحث متنوعة كالمقابلة والملاحظة والوثائق والسجلات والمذكرات الشخصية واستمارة البحث...إلخ.

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣١٧.

(٢) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٣٩٣.

٨- تهدف هذه الطريقة إلى الكشف عن الجوانب الثابتة والجوانب المتغيرة سواء كانت إيجابية أم سلبية في الحالات المدروسة للنهوض بها.

٢- مجالات دراسة الحالة:

تتنوع مجالات دراسة الحالة من حيث كون الحالة شخصاً أو جماعة أو مجتمع محلي أو نظام اجتماعي أو مجتمع بأكمله، ولكن على الرغم من هذا التنوع في مجالات الدراسة إلا أنه ينبغي على الباحث أن يكون هناك معايير واضحة لاختياره للحالات المدروسة، فليست كل الحالات الموجودة في الواقع تصلح لأن تكون موضوعاً لدراسة الحالة. ومن ثم ينبغي على الباحث أن يدقق في اختياره للحالات، وأن يكون موضوعياً في اختيار حالات نموذجية أو ممثلة Representative تفيد في عملية التعميم على باقي الحالات المشابهة^(١). ويتطلب ذلك من الباحث بطبيعة الحال القيام بدراسة كشفية (استطلاعية) للحالات قبل اختيارها موضوعاً للدراسة، وتحديد خصائصها بدقة، وعلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذه الحالات في التعميم على حالات أخرى تحمل نفس الخصائص.

وجدير بالذكر أن "دراسة الحالة" تستخدم في ميادين متنوعة كعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس بفروعه المختلفة، والصحافة، والطب الأكلينيكي، والجغرافيا، وعلم الآثار... إلخ من هذه الميادين إلا أن استخدامها يختلف باختلاف هذه الميادين، فعلى سبيل المثال أن استخدام دراسة الحالة في مجال الطب النفسي والطب الأكلينيكي والخدمة الاجتماعية يعتمد على الفهم الكامل للحالة - الشخص - والمشكلة التي تعاني منها بهدف مساعدة هذا الحالة على تفهم وضعها والأسباب التي أدت إلى تفاقم هذه المشكلة، ووضع أسلوب العلاج الذي يختلف بالطبع من حالة إلى أخرى، بينما يهدف استخدام "دراسة الحالة" في البحوث الاجتماعية الوصول إلى استنتاجات علمية يمكن تعميمها على الوحدات المشابهة للوحدة المدروسة.

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٦.

وبصفة عامة يمكن تحديد مجالات دراسة الحالة على النحو التالي:

١- مجال الأشخاص:

يعتبر مجال الفرد "الشخص" من أكثر مجالات دراسة الحالة انتشاراً، فمحور الدراسة هنا ينصب على الشخص ذاته سواء كان هذا الشخص يشغل وظيفة جماهيرية مثل العمدة، أو مأمور القسم في المجتمعات البسيطة، وقد يكون الشخص كاتباً أو روائياً مشهوراً أو شخصية تاريخية، وقد يكون الشخص "فرد" عادي من أفراد المجتمع ولكنه يعاني من مشكلة نفسية أو "مدمن" أو "مجرم" ...إلخ. وهناك دراسات متنوعة استخدمت فيها دراسة الحالة وكانت وحدات الدراسة "أشخاص" مثل بحث "البغاء في القاهرة"، فكانت وحدة الدراسة هي "البغي" التي تم ضبطها عن طريق مكاتب حماية الآداب. هذا فضلاً عن الدراسات التي أجريت على الإدمان بين شباب الجامعة، والتسرب الدراسي، وأطفال الشوارع...إلخ.

٢- مجال الجماعة:

قد تكون الجماعة أسرة نواة، أو أسرة ممتدة، أو عائلة، أو جماعة الجوار، أو جماعة النادي أو جماعة اللعب، أو جماعة العمل...إلخ، ويحفل التراث السوسيولوجي بكم هائل من الدراسات التي أجريت على مثل هذه الجماعات واستخدمت أسلوب "دراسة الحالة" في إلقاء الضوء على هذه الجماعات من حيث النشأة والتطور والمشكلات وأسبابها، وطرق التصدي لها.. إلخ، وكما أشرت من قبل أن البدايات الأولى في استخدام دراسة الحالة كانت على يد "لوبلاي" في دراسته عن "اقتصاديات الأسرة".

٣- مجال النظم الاجتماعية:

هناك العديد من النظم الاجتماعية مثل نظم الزواج، ونظام التعليم، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الديني، والنظام الإعلامي...إلخ. ولقد استخدمت "دراسة الحالة" في بحث مثل هذه النظم الاجتماعية في مجتمعات متنوعة.

٤ - مجال المجتمعات المحلية:

لاقت دراسة الحالة قبولا كبيرا لدى الباحثين السوسولوجين ; الأنثروبولوجيين في دراساتهم عن المجتمعات المحلية سواء كانت هذه المجتمعات ريفية أو حضرية أو بدوية أو بدائية، أو أحد الأحياء في مدينة معينة أو صاحبة من ضواحي المدن... إلخ. ومن أشهر الدراسات التي استخدمت دراسة الحالة في بحث المجتمعات الريفية، الدراسة التي قام بها "حامد عمار" عن قرية "سلوا" بمحافظة أسوان عام ١٩٥٠ لدراسة أساليب التنشئة الاجتماعية وارتباطها بعادات وتقاليد المجتمع القروي في الصعيد مصر، وأيضاً الدراسة التي قام بها "عاطف غيث" عن قرية "القيطون" عام ١٩٦٠ بمحافظة الدقهلية لبحث التغير الاجتماعي في القرية المصرية، حيث ركز في دراسته على التغير الاجتماعي في القرية المصرية، حيث ركز في دراسته على التغيرات التي حدثت في نسق العائلة، والنسق الاقتصادي، ونسق الثقافة المادية.

هذا فضلاً عن الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على "بدو" محافظة مطروح والقبائل البدوية في محافظتي شمال وجنوب سيناء. والباحث حينما يستخدم أسلوب دراسة الحالة في بحث المجتمعات المحلية قد يكفي بدراسة نسق واحد من أنساق هذا المجتمع أو عدة أنساق أو البناء الاجتماعي ككل، ويقوم بجمع معطيات بحثه من عدد من مصادر متنوعة كالوثائق والسجلات الخاصة بالمواليد والوفيات، والزواج، والطلاق، والهجرة، وتعدد السكان، والكتب والأبحاث السابقة - إن وجدت - والقصص، والروايات، والأساطير، هذا فضلاً عن الرجوع إلى كبار السن (الإخباريون) في إلقاء مزيد من الضوء عند رصد الظواهر أو عادات معينة. وعلى الرغم مما قد يحسه القارئ العادي من سهولة في إجراء دراسات من هذا النوع على المجتمعات المحلية التقليدية كالقرية أو البادية، إلا أن الأمر في غاية الصعوبة نظراً لصعوبة توافر المادة العلمية المكتوبة عن هذه المجتمعات، ونذرة الإحصاءات الدقيقة والوثائق والسجلات الرسمية المتصلة بحركة السكان، ومن ثم يلجأ كثير من الباحثين إلى الاستعانة بكبار السن وهذا الإجراء ينطوي

على مخاطرة علمية كبيرة لما قد يشوب تلك المعلومات التي تعتمد على ذاكرة كبار السن كثير من المغالطات والمبالغات غير المحسوبة.

ولقد استخدم "روبرت ليند R. Lynd" و"هلين ليند H. Lynd" أسلوب "دراسة الحالة" في دراسة المجتمع المحلي لمدينة "مديلتاون Middletown" بولاية "إنديانا" بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان الهدف من هذه الدراسة هو رصد حركة التغير الاجتماعي في أنماط السلوك خلال خمسة وثلاثون عاماً (١٨٨٠-١٩٢٥) ^(١).

٥- مجال الأعمال الأدبية:

استخدمت طريقة دراسة الحالة في العديد من المجالات الأدبية كالأساطير والقصص والروايات منذ زمن بعيد - على حد قول بيرجس Burgess والذي ينظر إلى العمل الأدبي كالرواية أو القصة باعتبارها حالة ممثلة للعديد من الحالات المشابهة ^(٢). ولا شك أن دراسة الحالة تعتبر من الطرق الهامة التي استخدمت في دراسة الأعمال الأدبية حيث تتمثل وحدة الدراسة في العمل الأدبي زائد كالرواية أو القصيدة الشعرية.

ولقد استخدمت "جانيت وولف Janet Wolff" أسلوب دراسة الحالة في تفسير العلاقة بين الأدب والمجتمع The Interpretation of Literature in Society والتي استعانت فيها ببعض الأعمال الأدبية لـ "أميلبيتسا" Emilio Betti و"ريتشارد بالمر" R. Plamer و"دالتي" Dilthey وغيرهم، واعتبرت كل عمل من الأعمال الأدبية التي وقعت عليها الدراسة بمثابة "حالة" مثله لباقي أعمال الكتب، وراعت أن يكون هذا العمل المختار ممثلاً أيضاً لحقبة زمنية، وقامت "ولف" بتطبيق إجراءات دراسة الحالة على هذه الأعمال الأدبية، ثم تعميم النتائج التي توصلت إليها على باقي الحالات "الأعمال الأدبية" المشابهة، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها أن الأدب مرآة صادقة في التعبير عن واقع الحياة الاجتماعية بكافة أبعادها، على الرغم

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

(2) W. Gee. Social Science Research Methods, N.Y., Harcourt, 1950, P. 228.

من اختلاف وجهات النظر بين الأدباء في تصوير أبعاد هذا الواقع، فكل عمل أدبي من الأعمال التي درستها كان يمثل اتحافاً محدداً في النظر إلى الحياة الواقعية^(١). أيضاً استعان "لويس كوزر" Lewis Coser بغسنبوب دراسة الحالة في العديد من الأعمال الأدبية مثل رواية "كيف تصبح ديكتاتوراً" How to Becom a Dictator لـ Ignazio Siloe، ورواية "انتظار" على المحطبة "Waiting at The Station" لـ William Thackerary، ورواية "أسرة سعيدة" "Happy Family" لـ تولستوي "Leve Tolstoi، وغيرها من الأعمال الأدبية^(٢).

٣ - أساليب دراسة الحالة:

تعتمد "دراسة الحالة" على أسلوبين متميزين في البحث، الأول يسمى أسلوب تاريخ الحالة "Case History"، والثاني أسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" Life History، ويوف أشير إلى كل منهما بالتفصيل على النحو التالي:

١- أسلوب تاريخ الحالة Case History:

يتفق المشتغلون بالبحث الاجتماعي أن أسلوب 'تاريخ الحالة' يعنى دراسة كل ما يتعلق بالحالة منذ نشأتها حتى الوضع الحالي لها، سواء كانت هذه الحالة فرد أو جماعة أو نظام اجتماعي أو مجتمع محلي. فإذا كانت الحالة "شخصاً" فمن الضروري دراسة نمو هذا الشخص الجسدي والعقلي. وبداية استجاباته الاجتماعية مع البيئة المحيطة، والأساليب التي يتبعها الوالدين في التدريب على النوم والأكل وضبط (التبول والتبرز)، وكيفية استجابة الطفل. لذلك الأساليب. أيضاً دراسة العلاقات الاجتماعية المبكرة مع أفراد الأسرة والأقارب والمحيطين، والتكيف المدرسي مع زملائه، ومدرسيه، والنظام المدرسي، واستجاباته للتفوق. أيضاً ينبغي دراسة مستوى قدراته العقلية (الذكاء)، واهتماماته وانفعالاته من حيث النوع والتكرار والحالة المزاجية.

(1) Janet Wolff, The Interpretation of Literature in Society: The Hermeneutic Approach. In: Jane Routh and Jant Wolff., Op. cit., PP. 19-20

(2) Lewis, A. Coser, Sociology Through Literature, Op. cit., P. 212.

هذا فضلاً عن دراسة المشكلة التي يعاني منها وبداية حدوثها، وتطورها، وأثرها على اتجاهاته الانفعالية والسلوكية، والوسائل التي اتبعت لمعالجتها، ومدى استجابة الشخص لهذه الوسائل، كذلك دراسة تاريخ الأسرة من حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والعلاقات القائمة بين أفراد الأسرة.

ولا يقتصر أسلوب "تاريخ الحالة" الأبعاد السابقة فحسب وإنما يتعدى ذلك فيشمل الوثائق الرسمية التي تتناول الشخص موضوع الحالة لتقارير المدرسة أو المستشفى أو السجن، والاختبارات التي تجرى عليه، والمراسلات التي يقوم بها... إلخ^(١).

وبصفة عامة، يهتم أسلوب "تاريخ الحالة" بالتطور التاريخي الذي مرت به الحالة منذ بداية نشأتها في محيط اجتماعي وثقافي معين، ومراحل التطور المختلفة التي مرت بها الحالة، والعوامل والمؤثرات التي أثرت في مقومات شخصيتها المختلفة سواء كانت جسمية أو ذهنية أو نفسية أو انفعالية والخبرات التي اكتسبتها الحالة والمشكلات التي تعرضت لها... إلخ.

أما إذا كانت "الحالة" مجتمعاً محلياً أو نظاماً اجتماعياً فبلا شك سوف تختلف إجراءات "تاريخ الحالة" في هذه الدراسة عن أسلوب "تاريخ الحالة" عندما تكون شخصاً ما. فدراسة الحالة عندما تستخدم في دراسة مجتمع محلي فهي تهدف إلى جمع بيانات كافية عن هذا المجتمع تساعد على تكوين صورة واضحة عن الحياة ككل داخل هذا المجتمع، أو على الأقل داخل نسق اجتماعي أو نظام محدد من أنظمة المجتمع. ويحدد الدكتور عبد الباسط حسن عدة خطوات ينبغي على الباحث اتباعها عند استخدامه "دراسة الحالة" في بحث المجتمعات المحلية على النحو التالي^(٢):

١- يتعين على الباحث بأن يركز جهده على دراسة جانب واحد أو على دراسة جوانب محدودة للحياة الاجتماعية، فكلما كان الموضوع محدداً

(١) حسن الساعاتي، تصميم البحوث الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٢) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

سهل على الباحث أن يدرسه دراسة مستفيضة متعمقة، وأن يصل إلى نتائج لها دلالتها العلمية.

٢- ينبغي أن يحدد الباحث مشكلة الدراسة تحديداً دقيقاً وأن يجعلها على درجة كبيرة من الوضوح، وأن يحدد فروض محددة للدراسة حتى لا تنشأ جهود دون غرض محدد.

٣- من أهم شروط دراسة المجتمعات المحلية التحديد. الواضح للمجتمع، ومن ثم ينبغي على الباحث أن يحدد ما إذا كان يرغب في دراسة مجتمع صغير قائم بذاته، أو في دراسة مجتمعات تعتبر أجزاء من مجتمعات أكبر.

٤- ينبغي على الباحث أن يقرر اختياره النهائي لمجتمع ما أن يكون متأكداً من توافر الإحصاءات والبيانات والمصادر التاريخية التي تعطي صورة واضحة عن المجتمع وخصائصه وتطوره، وأن يتعرف على الصعوبات التي قد تواجه سير البحث وأن يفكر في طرق مواجهتها.

٥- ينصح بعض المشتغلين بمناهج البحث بعدم دراسة المجتمعات المحلية في حالة التغير لفئة المصادر التاريخية عن تلك المجتمعات ولكثرة الصعوبات التي تعترض الباحث في الدراسة.

٦- ينبغي تحديد الطريقة التي تجمع بواسطتها البيانات، فإذا كان الباحث يهدف إلى دراسة المجتمع ككل، فيمكن الاستفادة بالخرائط والرسوم المختلفة، وإذا كان يهدف في دراسة الجماعات والأنظمة القائمة بالمجتمع فيمكنه الاستفادة بالوثائق التي تلقى الضوء على حقيقة الجماعات المكونة للمجتمع.

٧- يفضل أن يكون جامغوا البيانات أشخاص غريباء عن المجتمع لأن نظراتهم سوف تكون أكثر موضوعية وواقعية، ولأن الناس تشعر بحرج من التحدث عن مشكلاتهم أمام أشخاص يعرفونهم، ومن ثم يفضلون الشخص الغريب عن المجتمع عند إعطاء البيانات.

٨- ينبغي إعداد المجتمع لعملية البحث قبل البدء فيه حتى يضمن الباحث المساعدة الكافية من جانب المبحوثين.

٩- ينبغي أن يتجه الباحث بعد جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها إلى تعميم النتائج التي توصل إليها على المجتمعات المتشابهة لأن الوصول إلى التعميم هو الهدف من الدراسات العلمية^(١)

ب- أسلوب التاريخ الشخصي للحياة Life History:

إذا كان أسلوب "تاريخ الحالة" يهتم بدراسة الحالة من خلال المحيط الاجتماعي لها من منظور تاريخي وفقاً لمراحل تطورية متتابعة، فأسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" يهتم بدراسة الحالة من وجهة نظر الحالة نفسها، فالمعلومات وفقاً لهذا الأسلوب يتم جمعها من الفرد ذاته (الحالة) ومن وثائقه الشخصية كالسيرة الذاتية، والمذكرات اليومية، والرسائل، والاعترافات. ولا شك تعتبر هذه الوثائق الشخصية مصادر هامة تكشف عن اتجاهات الأفراد وقيمهم، وميولهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وخبراتهم المتنوعة، وفلسفتهم في الحياة.

وفي هذا الأسلوب يحاول الباحث الحصول على معلومات من "الحالة" وفقاً لتسلسلها الزمني، وذلك من خلال سؤال الشخص مباشرة لكي يستعرض أمام الباحث حياته من الماضي إلى الحاضر، أو العكس من الحاضر إلى الماضي، وهذا الأسلوب الأخير يعرف بالعرض الاسترجاعي وفي هذا الأسلوب يبدأ "المبحوث" عادة بوصف جوانب طفولته خاصة المواقف التي أثرت في سلوكه فيما بعد، فيشير إلى علاقاته مع والديه ومع أخواته وأقاربه، وعند تقدمه أو فشله في الدراسة، وعن ممارسته الدينية في حياته الأولى، وعن وضع الأسرة الاقتصادي والاجتماعي، ومدى إشباع حاجاته الأساسية والعاطفية. ومن المفيد أن يعرض المبحوث للأحداث الدرامية التي مر بها والتي كان لها تأثير في مجرى حياته بعد ذلك، كقصة حب فاشلة، أو عقوبة ظالمة وقعت عليه بسبب الكذب أو السرقة دون أن يكون قد اقترف شيئاً في الحقيقة^(٢)، أو رسوبه في إحدى سنوات الدراسة على الرغم من اجتهاده في مذاكرة دروسه.. إلخ.

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٢) محمد الجوهرى وعبد الله الخريجي، طرق البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية،

الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٢٤٨.

ومن الممكن أن يكتب انشخص موضوع "آلحالة" تاريخ حياته ويعطيه للبحث، أو يملئ هذا التاريخ على الباحث، ثم يقوم الباحث بعد ذلك بتنظيم البيانات التي حصل عليها لكي يسهل عليه بعد ذلك تحليلها وإستخلاص النتائج الخاصة بها.

وبصفة عامة، يمكن التفرقة بين أسلوب تاريخ الحالة Case History وأسلوب التاريخ الشخصي للحياة Life History على النحو التالي:

١- في تاريخ الحالة لا يكتفي الباحث في الحصول على البيانات من المبحوث بينما يستعين بمصادر أخرى متنوعة للحصول على بيانات عن الحالة كالأسرة والأقارب والمدرسة والأصدقاء، والعمل، والسجلات الرسمية الصادرة عن المستشفى أو السجن إذا كان المبحوث قد تعرض للعلاج أو الحبس... إلخ، بينما في التاريخ الشخصي للحياة يكتفي الباحث بالبيانات التي يدلي بها المبحوث عن حياته والمؤثرات التي تعرض لها وأثرت في سلوكه.

٢- لا يصلح أسلوب التاريخ الشخصي للحياة إلا إذا كانت الحالة موضوع الدراسة "شخصاً" عاملاً يستطيع أن يعبر عن نفسه، بينما يفيد أسلوب تاريخ الحالة في دراسة الحالة بصفة عامة سواء كانت شخصاً أو مؤسسة أو جماعة أو مجتمع محلي.

٣- من الصعب التأكد من صحة ما يقوله الشخص عن ذاته في أسلوب التاريخ الشخصي للحياة، ومن ثم ينبغي أن يتعامل الباحث مع البيانات التي يحصل عليها بشئ من الحذر خشية تحيز المبحوث أو استخدام خياله فيما يسرد من وقائع أو تحريف البيانات، بينما في أسلوب تاريخ الحالة من السهل أن يتأكد الباحث من صحة ما جمعه من بيانات عن طريقة مقارنة ما يحصل عليه من أكثر من مصدر.

٤- خطوات دراسة الحالة:

لا تختلف خطوات دراسة الحالة عن خطوات البحث العلمي الاجتماعي، وأن كان لكل موضوع بحث خصوصيته التي تفرض على

- الباحث إعطاء إجراءات معينة أولوية والتأكيد عليها دون غيرها. وبصفة عامة يمكن تحديد خطوات "دراسة الحالة" الفردية على النحو التالي:
- ١- تحديد "الحالة" المراد دراستها أو الظاهرة أو نوع السلوك تحديداً دقيقاً، والهدف من البحث، والفروض التي ينبغي التحقق منها أو صياغتها، ويطلق على هذه الخطوة تحديد مشكلة البحث، فإذا كانت الحالة موضوع المشكلة "شخصاً" ينبغي تحديد "ملف" يشتمل على بيانات أساسية تتضمن اسم المبحوث، والوثائق الخاصة به وأسماء الأشخاص التي يمكن الرجوع إليهم لاستيفاء بعض المعلومات عن تاريخ الحالة. أما إذا كانت الحالة ظاهرة معينة كظاهرة الإدمان أو الغياب عن المدرسة، أو الانحراف، فينبغي على الباحث تحديد هذه الظاهرة بدقة وتحديد أبعادها، والجوانب المطلوبة دراستها، وإذا كان موضوع الحالة ظاهرة جديدة فمن المفروض القيام بدراسة استكشافية للتعرف على أبعاد هذه الظاهرة وتحديد الجوانب التي ينبغي أن يركز عليها الباحث في دراسته^(١).
 - ٢- تحديد الوسائل أو الأدوات التي سوف يستعين بها الباحث في عمليات جمع البيانات عن الحالة المدروسة، وهي في الغالب تنحصر في المقابلة، والملاحظة، والوثائق الشخصية.
 - ٣- تحديد عينة البحث من الحالات الفردية المراد دراستها وفقاً للأساليب العلمية في اختيار العينة.
 - ٤- اختيار الباحثين الميدانيين وتدريبهم على عملية جمع البيانات وفق لهذا الأسلوب.
 - ٥- النزول إلى الميدان ومقابلة الحالات وجمع البيانات، ومراجعتها للتأكد من مدى كفايتها لإلقاء الضوء على الجانب الاجتماعي والاقتصادية والتعليمية والصحية والنفسية للحالة.
 - ٦- تصنيف هذه البيانات وتفريغها في جداول لكي يسهل على الباحث تحليلها وتفسيرها، وإجراء المعالجات الإحصائية عليها.

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٤٤.

- ٧- استخلاص النتائج وتعميمها على الحالات المتشابهة مع الحالة المدروسة في نفس الخصائص.
- ٨- كتابة تقرير البحث والذي يشتمل على الهدف من البحث ووصف دقيق للحالات المدروسة، والإجراءات التي أتتبع في الدراسة، وأهم الصعوبات التي واجهت الباحث في عمليات جمع البيانات، وكيف تغلب عليها، وأهم النتائج التي توصل إليها، ومدى إمكانية تعميمها على الحالات المشابهة، وأخيراً التوصيات التي يوصى بها الباحث بخصوص الدراسات المستقبلية في هذا المجال.
- أما إذا كان الحالة نظاماً اجتماعياً أو مؤسسة أو مجتمع محلي فهناك عدة خطوات ينبغي على الباحث أن يأخذها في اعتباره وهي:
- ١- تحديد مشكلة البحث تحديداً دقيقاً لمختلف أبعادها وتحديد الفروض التي يرغب اختبارها.
 - ٢- تحديد المجتمع موضوع الحالة، وتحديد الجانب أو الجوانب الاجتماعية التي يهدف إلى دراستها، وكلما كان موضوع الدراسة محدداً في جوانب بعينها كلما أمكن للباحث دراسته بشكل دقيق، أن الدراسات الشاملة لكافة جوانب المجتمع غالباً ما تتسم بالسطحية والعمومية. كما ينبغي على الباحث أن يكون متأكداً من توافر البيانات والإحصاءات والمصادر التاريخية التي تعطي له صورة واقعية دقيقة عن "الحالة" موضوع الدراسة.
 - ٣- إذا كان يهدف من وراء بحثه إلى إجراء تعميمات على "حالة" المجتمعات المتشابهة، فينبغي عليه اختيار أكثر المجتمعات تمثيلاً، وأن يحدد بدقة مدى التشابه بين موضوع الدراسة والمجتمعات الأخرى - موضوع التعميم - كخصائص التركيب السكاني والمستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، أيضاً تحديد أوجه الاختلاف بين هذا المجتمع وغيره من المجتمعات حتى يكون التعميم على أسس علمية وفي نطاق ما هو متشابه فقط بين "حالة" موضع الدراسة و"حالة" المجتمعات الأخرى.

٤- تحديد إمكانيات البحث:

أ- المادية (ميزانية البحث) وبنود هذه الميزانية ومدى كفايتها لإنجاز البحث.

ب- العلمية (الهيئة المشرفة على البحث) من باحثين رئيسيين، وجامعي بيانات وتدريبهم على عملية جمع البيانات.

ج- المكانية، وهو مكان إجراء الدراسة سواء كان قرية أو مدينة أو "حي" في مدينة... إلخ.

د- البشرية، والمقصود بالإمكانيات البشرية هو عينة الدراسة وخصائصها، وحجمها، وأسلوب سحبها، ومدى تمثيلها للمجتمع الأصلي.

هـ- الزمنية، والمقصود بها توقيت بدء الدراسة وتوقيت كل مرحلة من مراحلها، ميعاد الانتهاء منها.

٥- تحديد أدوات جمع البيانات، والنزول إلى الميدان لجمع البيانات اللازمة ومراجعتها ميدانياً ومكتبياً للتأكد من اكتمالها.

٦- تقريغ البيانات، وجدولتها، وإرجاء التحليل الكمي والكيفي لها، واستخلاص النتائج، والتعميمات.

٧- كتابة تقرير البحث، وبصفة عامة - كما أشرت سابقاً - أن خطوات دراسة الحالة - خاصة إذا كانت الحالة مجتمعاً - لا تختلف مطلقاً عن خطوات البحث العلمي المتعارف عليها.

٥- أدوات البحث في دراسة الحالة:

ليست هناك أداة محددة من أدوات البحث الاجتماعي تستخدم مع أسلوب دراسة الحالة، بل يمكن القول أن معظم أدوات البحث الاجتماعي يمكن استخدامها مع هذا الأسلوب^(١). فالبحث الذي يستعين بطريقة دراسة الحالة يمكن استخدام الملاحظة والمقابلة واستمارة البحث أو الاستبيان والوثائق والسجلات والسير الذاتية والخطابات والوثائق الشخصية، وغيرها من الوسائل التي تتناسب وطبيعة الهدف من الدراسة وطبيعة الحالة ونوعية

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣١٨.

البيانات المطلوبة.. إلخ. وبصفة عامة يمكن الإشارة إلى أهم أدوات البحث المستخدمة مع طريقة دراسة الحالة على النحو التالي:

١ - الملاحظة Observation:

تستخدم الملاحظة بشكل كبير في بحوث "دراسة الحالة"، خاصة في حالة دراسة المجتمعات المحلية، وتعتبر أحد الأدوات الأساسية الهامة في الدراسات الأنثروبولوجية، حيث يقيم الباحث فترة طويلة في مجتمع لبحث ومن خلال دوره كملاحظ مشارك يستطيع أن يثير أغوار الواقع الاجتماعي في المجتمع المدروس ويتعرف على النظم والعلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل ومظاهر السلوك المختلفة. وتستخدم أيضاً الملاحظة بدون المشاركة في ملاحظة سلوك الأطفال والمعوقين ذهنياً، والمدمنين... إلخ.

٢ - المقابلة Interview:

تعتبر المقابلة من أكثر الأدوات شيوعاً في بحوث دراسة الحالة، خاصة إذا كانت الحالة "شخصاً" وهي وسيلة سهلة تمكن الباحث من الحصول على المعلومات بطريقة مباشرة من الحالات المدروسة. وبالطبع تختلف الظروف التي تستخدم فيها المقابلة باختلاف الموضوع والحالات المدروسة. وتتميز المقابلة كأداة أساسية في دراسة الحالة بأنها أقل رسمية، حيث تسمح للمبحوث أن يعبر عن ذاته وأرائه واتجاهاته بشكل تلقائي، ويتيح الفرصة للباحث أيضاً للحصول على ما يريده من معلومات، إلا أنه يؤخذ عليها حاجاتها إلى وقت أطول، فقد يحتاج الباحث إلى إجراء عدد من المقابلات مع نفس الحالة للحصول على المعلومات. التي يحتاج إليها في التحليل^(١).

وجدير بالذكر أن الباحث الذي يستخدم أداة المقابلة في بحوث "الحالة" ينبغي عليه استخدام "دليل المقابلة" خاصة إذا كانت هذه المقابلة مقننة تهدف للحصول على بيانات محددة من الحالات التي سوف يقوم بدراستها، ولكي تكون الإجابات التي سوف يحصل عليها الباحث مصنفة ومحددة بشكل يساعد في عمليات التحليل والتفسير واستخلاص نتائج الباحث لا بد من أن تفسر المقابلات مع كافة "حالات" الدراسة وفقاً لإطار أو "دليل" موحد. فعلى

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

سبيل المثال استخدام القاتمون على بحث البغاء في القاهرة إطارا للمقابلة تسيير من خلاله عملية جمع البيانات، وينقسم هذا الإطار إلى^(١):

١- مقدمة الإطار:

وتدور هذه المقدمة حول وصف الحالة موضوع الدراسة (البغي) ومدى استجاباتها للمقابلات واتجاهاتها نحو المشكلة وعلاقتها مع غيرها من المسجونين ومع العاملين بالسجن.

٢- العائلة:

تكوين العائلة وتاريخ حياة كل أفرادها "بإيجاز" مع التركيز على التاريخ التعليمي، التاريخ المهني، التاريخ الإجرامي، ومدى مساهمة كل من الأفراد في حياة العائلة.

٣- الحياة العائلية:

أ- نوع الرابطة بين الأبوين.

ب- الحياة الاقتصادية وإمكانات المنزل.

ج- أي الأبوين تمركزت في يديه السلطة وكيفية إدارة شئون المنزل.

٤- التاريخ التطوري للحالة:

أ- الحمل والولادة.

ب- الطفولة المبكرة.

ج- النمو العضوي والتاريخ المرضي.

٥- رعاية الأبوية للحالة:

أ- علاقة الحالة بالأبوين وبالأخوة.

ب- الأزمات العائلية التي أثرت على الحالة.

٦- التاريخ الراسي

٧- حياة البغي في المجتمع:

أ- نوع صلتها بالمجتمع.

ب- نوع الرفاق.

ج- أوقات الفراغ وطريقة شغلها.

(١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، البغاء في القاهرة، مرجع سابق.

٨- التربية الجنسية للبغي:

أ- في مرحلة الطفولة.

ب- في مرحلة البلوغ (المراهقة)

٩- انفصال البغي عن العائلة:

١٠- هجرة البغي للعائلة (في حالة وجود عائلة):

أ- ظروف الهجرة.

ب- أسباب الهجرة من وجهة نظر البغي ومن وجهة نظر الأهل.

ج- علاقات البغي بالأهل بعد انفصالها عنهم.

د- كيف تحصل على ما يغطي احتياجاتها المعيشية وما يتصل بها.

هـ- إقامة البغي بعد الهجرة (في حي آخر أو مدينة أخرى).

و- علاقاتها الجديدة بعد الهجرة ومع من؟

١١- العمل:

أ- طبيعة الحرفة ومتطلباتها من الخبرة.

ب- درجة تكيف البغي مع الحرفة.

ج- مدى تأثير علاقاتها مع عائلتها بعد هذا.

١٢- الزواج:

أ- الظروف التي عقد فيها.

ب- مقومات شخصية الزوج ومستواه الاجتماعي والاقتصادي.

ج- طبيعة العلاقات بين البغي والزوج.

د- موقف البغي من الزوج والزواج.

هـ- الأطفال الذين أنجبت الحياة الزوجية أو حالات الإجهاض وموقف

كل من الزوجين من ذلك.

و- مرات الزواج التالية.

١٣- التاريخ الإجرامي للبغي:

أ- أول اتهام للحالة في غير البغاء.

ب- الحكم في أول اتهام ومصيره.

ج- رأي البغي فيه وتأثيرها به.

د- الاتهامات التالية.

١٤ - العلاقات الجنسية الأولى غير المشرعة للبغى:

- أ- الظروف التي تمت فيها ومع من؟
- ب- الآثار التي ترتبت عليها ومصدرها.

١٥ - أول ممارسة للبغاء مع البغى:

- أ- الظروف التي تمت فيها.
- ب- قيمة الدخل منها.
- ج- الآثار التي ترتبت عليه.

١٦ - أول اتهام للبغى بالبغاء:

- أ- نوع الاتهام وظروفه.
- ب- الحكم فيه ومصيره.
- ج- الآثار التي ترتبت عليه.

١٧ - علاقات البغى في الممارسة:

- أ- علاقتها بالعملاء.
- ب- علاقتها بالمستغلين.
- ج- علاقتها بزميلاتها في الممارسة.
- د- دخلها من الممارسة واحتياجاتها من الدخل.

١٨ - الظروف العامة للبغى حالياً وتأثيرها بالممارسة:

- أ- محل إقامتها.
- ب- علاقتها بعائلتها.
- ج- علاقتها بأهلها.
- د- علاقاتها بالمجتمع المحلي.
- هـ- اتجاهاتها نحو وضعها الحالي.
- و- اتجاهاتها نحو مستقبلها.

ولا شك أن هذا "الدليل" أو "الإطار" كما أطلق عليه هيئة البحث لا يصلح إلا لدراسة "الحالات" الفردية، ولا يصلح أيضاً إلا لدراسة مثل هذه الظاهرة، لأن كل مقابلة - كما أشرت - لها خصوصيتها وطابعها المميز وفقاً لطبيعة الحالة موضوع الدراسة.

٣- استمارة البحث Questionnaire:

تعتبر استمارة البحث من الأدوات الهامة التي تستخدم في دراسة الحالة خاصة عندما تكون الحالة مؤسسة اجتماعية أو مجتمعاً محلياً. ويفضل كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعي هذه الأداة لما تتميز به من سهولة في عمليات جمع البيانات وتقريرها وجدولتها ومعالجتها إحصائياً واستخلاص النتائج. ولكن هذه المميزات الظاهرة تخفي وراءها كثير من الصعوبات المتعلقة بصياغة أسئلة الاستمارة ومدى ملائمة هذه الصيغة لمجتمع البحث موضوع "الحالة" ولتحقيق أهداف البحث... إلخ، أما فيما يتعلق ببناء الاستمارة وأنواعها وأساليب تطبيقها سوف نتناوله بالتفصيل في فصل لاحق.

٤- الوثائق والسجلات:

لا شك أن الوثائق والسجلات الرسمية وغير الرسمية (الشخصية) تعتبر من الأدوات الهامة في الحصول على بيانات عن الحالات المدروسة. وغالباً ما يلجأ الباحثون الاجتماعيون في دراستهم عن المجتمعات المحلية إلى الاستعانة بالوثائق والسجلات الرسمية الخاصة بتعداد السكان وتركيبهم وهجرتهم وأعداد المواليد والوفيات والزواج والطلاق.. إلخ. كما يعتمد الباحثون في دراستهم للحالات "الفردية" على السير الذاتية، والخطابات الشخصية، والتقارير الصحية والمدرسية.. وغيرها من الوثائق الخاصة بالحالات المدروسة لإضفاء مزيداً من العمق على الدراسة والتحليل.

ولقد استخدمت المذكرات الخاصة، والخطابات كأدوات أساسية في دراسات الحالة فعلى سبيل المثال استخدم الدكتور "عبد المنعم المايجي" المذكرات والسير الخاصة للمراهقين في دراسة تطور الشعور الديني عندهم. واستخدم "توماس" و"زنانيك" و"الخطابات" في الكشف عن الحقائق الداخلية للأشخاص. ففي دراستهما عن "الفلاح البولندي" في أوروبا وأمريكا قاما بتحليل (١٥,٠٠٠) خطاب، ولقد ساعدت هذه الخطابات على معرفة تكوين الأسرة البولندية، والروابط التي تربط بين أفرادها، والنظم الاجتماعية في

الريف البولندي، ومراحل انفصال المهاجرين عن تقاليدهم القديمة، وتكيفهم مع البيئة الجديدة في الولايات المتحدة^(١).

٥- الأخباريون:

يعتبر "الأخباريون" أحد الوسائل الهامة في الحصول على البيانات عن ند دراسة المجتمعات التقليدية (القروية - البدوية)، ولقد زاع استخدام هذه الوسيلة لدى علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع خاصة عندما لا تتوافر البيانات الإحصائية عن المجتمع في تفسير الواقع الحاضر لجماعة أو مجتمع محلي معين، فلا مفر من الاعتماد على كبار السن في هذه المجتمعات في الحصول على المعلومات المطلوبة.

٦- الاختبارات النفسية:

أسلوب شائع لدى علماء النفس والقياس النفسي، حيث يلجأ هؤلاء الباحثين إلى استخدام المقاييس النفسية كمقاييس الذكاء والاكتئاب والانبساط للحصول على بعض المعلومات النفسية عن الحالات المدروسة. وهناك العديد من المقاييس التي تطبق على فئات محددة من الأفراد كتلاميذ المرحلة الابتدائية أو الثانوية أو المراهقين أو كبار السن...إلخ.

٧- مقاييس القيم والاتجاهات:

تستخدم هذه المقاييس لدى علماء الاجتماع وعلماء النفس أيضاً لدراسة قيم واتجاهات "الحالات المدروسة" أو أفراد المجتمع "موضوع الحالة" نحو قضايا أو مواقف أو ظواهر معينة، وتقيد هذه المقاييس في معرفة الموجهات الداخلية التي تعكس سلوك ومواقف "الحالات" موضوع الدراسة. وبصفة عامة يمكن القول أن أسلوب دراسة الحالة من الأساليب التي تتسم بالمرونة المنهجية في اعتمادها على أكثر من منهج وأكثر من أداة في الدراسة وفقاً لما تقتضيه ظروف الحالات المدروسة وتنوعيتها، وطبيعة موضوع البحث ذاته.

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

سادساً: تقييم دراسة الحالة:

لا جدال في أن أسلوب "دراسة الحالة" كأحد الأساليب المتميزة في البحث في العلوم الاجتماعي ينطوي على جوانب إيجابية وأخرى سلبية مثله في ذلك مثل كافة أساليب البحث الاجتماعي. وسوف أشير إلى أهم إيجابيات وسلبيات هذا الأسلوب على النحو التالي:

أ- إيجابيات دراسة الحالة:

- ١- يتميز أسلوب دراسة الحالة بالعمق في الدراسة، سواء كانت الحالة "شخصاً" أو "جماعة" أو "نظماً اجتماعياً" أو "مجتمعاً محلياً". كما يفيد بشكل فعال في الدراسات النفسية الإكلينيكية وفي دراسات خدمة الفرد لما تحتاجه هذه الدراسات من التركيز المباشر على الحالات المدروسة.
- ٢- يتميز أسلوب "دراسة الحالة" بالمرونة والمنهجية من حيث اعتماده على أكثر من منهج في الدراسة، كذلك اعتماده على مصادر ووسائل متنوعة في الحصول على بيانات البحث من الحالات المدروسة كالملاحظة المتعمقة والملاحظة بالمشاركة، والمقابلات بأنواعها، واستثمارات البحث بأشكالها المختلفة، والوثائق والسجلات سواء كانت هذه الوثائق "رسمية" أو شخصية كالسير الذاتية والخطابات والذكرات اليومية، هذا فضلاً على استخدام بعض الوسائل الأخرى كالأخباريين، والاختبارات النفسية، ومقاييس القيم والاتجاهات... إلخ.
- ٣- تفيد دراسة الحالة في دراسات الوعي والتغير الاجتماعي ودينامياته، والدراسات الشخصية، والدراسات الخاصة بالعمل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية الفردية والجماعية^(١).
- ٤- تفيد دراسة الحالة في الدراسات الاستطلاعية (الكشفية) والتي يجهل فيها الباحث أبعاد الظاهرة موضوع الدراسة.
- ٥- تسعى طريقة "دراسة الحالة" إلى إيجاد نوع من التكامل المعرفي بين الاتجاهين الكمي والكيفي في البحث الاجتماعي^(٢).

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(٢) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

٦- تمتاز هذه الطريقة بدراسة الخبرات والمواقف الاجتماعية داخل السياق الذي لا تتفصل عنه هذه الخبرات، والمواقف والذي يشكل مكررات وجودها الحقيقي، فهي ترتبط في الدراسة بين الماضي والحاضر، ومن ثم فهي تسعى إلى معرفة الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية^(١).

ب- ساليب دراسة الحالة:

على الرغم من الإيجابيات السابقة التي تتميز بها طريقة دراسة الحالة، إلا أن هناك بعض الباحثين الذين يتشككون في أهمية هذه الطريقة ومدى الاعتماد عليها في البحث الاجتماعي لعدة أسباب أهمها:

١- يعتمد أسلوب دراسة الحالة على حالات شخصية لها خصائصها الفريدة، ومن ثم يصعب تعميم النتائج التي نتوصل إليها من خلال دراسة حالة معينة على بقية الحالات الأخرى.

٢- تحتاج دراسة الحالة إلى مزيد من الجهد والمال والوقت، وقد لا يتوفر ذلك لكثير من الباحثين.

٣- يعتمد أسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" - أحد الأساليب الأساسية لدراسة الحالة - على البيانات الاسترجاعية Flash back التي يدلي بها المبحوث للباحث، ومن ثم. فهناك احتمال كبير أن ينسى المبحوث بعض التفاصيل أو يتناسى حقائق معينة أو يقوم بتشويه هذه الحقائق بوعي أو بدون وعي.

٤- أن الاعتماد على الوثائق الشخصية كالخطابات والسير الذاتية أو المذكرات اليومية منه مخاطرة كبيرة، "فهناك احتمال قوي أن تؤدي هذه الوثائق الشخصية إلى تشويه الواقع - خاصة الوثائق المتعلقة بفترات معينة من تاريخ الحالة كفترة المراهقة التي تتغلب فيها آراء واتجاهات ومشاعر المراهقة أكثر من مرة.

٥- أن احتمالات التحيز في هذه الطريقة واردة بشكل كبير خاصة التحيز من قبل الباحث للحالة موضوع الدراسة، فمن السهل أن ينقاد الباحث

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٧.

تحت تأثير عواطفه وانفعالاته ومعتقداته ويرى ما يريد أن يراه في الحالة وليس ما هو واقع بالفعل.

٦- يرى "ريدبين" Reed Bain عدم صدق البيانات التي يجمعها الباحث باستخدام أسلوب الحالة للأسباب الآتية^(١).

أ- قد يسجل المبحوث الأقوال التي تتفق مع ما يريده الباحث أو يعتقد المبحوث أن الباحث يريده، وفي ذلك تحريف للحقائق عن موضعها.

ب- كثيراً ما يبتعد المبحوث عن ذكر الحقائق كما حدثت، فيحاول أن يكتبها من وجهة نظره مبرراً تصرفاته.

ج- قد يحاول المبحوث تضخيم الحوادث، وإضافة حوادث جديدة من نسيج خياله فيصعب على الباحث تحديد ما حدث منها وما لم يحدث.

د- قد يتجه الباحث إلى الحقائق التي يريدها والتي تؤيد وجهة نظره مغفلاً الجوانب السلبية التي تناقض آراءه.

هـ- أغلب الحالات التي يقدم وثائق عن حياتها ليست إلا حالات شاذة، ولذا فإن تعميم النتائج من هذه الحالات لا يصدق على جميع الحالات القائمة في المجتمع.

و- كثيراً ما يحاول الباحث مساعدة الحالة، وفي هذا الموقف يصبح للجانب الذاتي تأثيراً كبيراً فيما يستخلصه الباحث من نتائج^(٢).

وبصفة عامة أن معظم الانتقادات التي وجهت إلى أسلوب دراسة الحالة انصببت على جانب واحد فقط من الحالات التي يدرسها هذا الأسلوب وهو "الحالة الشخصية" أو الفردية التي تخضع للدراسة في مجال العلوم الاجتماعية بهدف تعميم ما يتوصل إليه الباحث من نتائج من خلال دراسته لتلك الحالة على باقي الحالات المشابهة. وجدير بالذكر أن هذه الانتقادات قد تصدق إلى حد كبير على هذا الجانب من الدراسة. بينما الباحثون في مجال

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٢.

الطب أو الهندسة أو الطب النفسي الذين يستخدمون هذا الأسلوب في دراسة حالات مفردة قد لا تصدق عليهم هذه الانتقادات إلى حد كبير. هذا فضلاً على أن أسلوب دراسة الحالة لا يقتصر فقط على كونه الحالة "شخصاً"، فقد تكون الحالة جماعة أو نظاماً اجتماعياً أو مجتمعاً محلياً أو مجتمعاً بأكمله، وإمكانية التعميم على الحالات المشابهة في الخصائص مع حالة المجتمع المحلي موضوع الدراسة القائمة، فعلى سبيل المثال قد أشار "عاطف غيث" في مقدمة دراسته لقرية "القيطون" أن هذه القرية نموذج يتشابه مع أعداد كبيرة من القرى لها نفس الخصائص ليس في المجتمع المصري فحسب بل في مجتمعات متعددة من العالم. ومن ثم فعلى الرغم من الانتقادات السابقة إلا أن أسلوب دراسة الحالة يعتبر من الأساليب المتميزة في البحث العلمي بصفة عامة.

الفصل الثامن

تحليل المضمون

تمهيد

- ١- تعريف تحليل المضمون وخصائصه.
- ٢- المجالات الأساسية لتحليل المضمون.
- ٣- أسس استخدام تحليل المضمون.
- ٤- فئات تحليل المضمون.
- ٥- وحدات تحليل المضمون.
- ٦- أمثلة واقعية لدراسات تحليل المضمون.
- ٧- تقييم تحليل المضمون:
 - أ - إيجابيات تحليل المضمون.
 - ب - سلبيات تحليل المضمون.

تمهيد:

بدأ العلم مسيرته بدراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية بالاسلوب المباشر عن طريق الملاحظة القائمة أساساً على استخدام الحواس الانسانية ثم التجربة، ولم يكن مقبولاً حتى بداية العصر الحديث الاعتراف بغير الاسلوب المباشر في تكوين جسم المعرفة العلمية في كافة ميادين المعرفة.

ومع تطور الحياة الاجتماعية وتشابكها وتعتها، أصبح هناك جانباً كبيراً من سلوك الأفراد لا يمكن ملاحظته بطريقه مباشرة، خاصة الظواهر الاجتماعية الماضية، ومن ثم ظهرت طريقة "تحليل المضمون" Content Analysis وأصبحت أسلوباً مقبولاً من أساليب البحث العلمي، ليس هذا وحسب بل الوسيلة الأناسية لدراسة عملية الاتصال في معناها، والأسس التي تقوم عليها، ودينامياتها، كما تتجسد في أحاديث الناس، وفي كتاباتهم، وفي نسق المعاني المتبادلة بينهم. ولقد ظهر استخدام طريقة تحليل المضمون لأول مرة في مجال الصحافة، ثم استخدم بعد ذلك في مجاا الدراسات الاجتماعية بصفة عامة، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، ثم ذاع صيته أثناء الحرب العالمية الثانية في مجالات وميادين بحثية متنوعة.

أولاً: تعريف تحليل المضمون وخصائصه:

لاشك يعتبر اسلوب تحليل المضمون من الأساليب المقبولة في البحث العلمي، فلقد حظى بالاهتمام مع بداية القرن العشرين، وأصبح أسلوباً متميزاً في البحث الاجتماعي يساعد في وصف وتفسير الظاهرة موضوع الدراسة، ويعرف "بيرلسون" Perelson تحليل المضمون بأنه "الاسلوب الذي يهدف إلى الوصف الموضوعي المنظم الكمي للمحتوى الظاهر للاتصال"^(١). ويعنى "بيرلسون" بمفهوم الاتصال كل الأفكار أو المعاني التي يمكن التعبير عنها ونقلها إلى الآخرين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة (رمزية)، والهدف المباشر للاتصال هو إنتقال المعاني أو المعلومات والاتجاهات من شخص أو جماعة ما إلى شخص أو جماعة أخرى.

(١) B.Berelson, Content Analysis in Communication Research, Free Press, 1965, pp. 12-13.

وجدير بالذكر أن تعريف "بيرلسون" قد شاع استخدامه في الكثير من المراجع العربية^(١). إلا أنه يأخذ على هذا التعريف تركيز "بيرلسون" على عملية الوصف الكمي للظاهرة موضوع الدراسة، فتحليل المضمون لا ينبغي أن يكون تحليلاً كمياً فقط، فهو أقرب إلى الوصف الكيفي عنه من الوصف الكمي. فتحليل المضمون يختلف عن أساليب التحليل والطرق الأخرى التي تعتمد على التحليل الكمي، فالبيانات Data التي يعتمد عليها هي الألفاظ أو الرموز الأخرى التي يتألف منها مضمون الاتصال، وذلك على العكس من التقارير الأثنوجرافية أو البيانات الرقمية والاحصاءات الأخرى^(٢). فتحليل المضمون تتمثل مادته الأساسية في الخطابات والرسائل والكتب والمحادثات، وبرامج الإذاعة والتلفزيون، والعروض المسرحية، والقصص والروايات، والحكايات والأمثال الشعبية والرسم والنحت.. الخ، وكل هذه المجالات أقرب بكثير إلى التحليل الكيفي وليس الكمي.

فالتحليل الكمي قد يكون مفيداً لو كنا بصدد تحليل مضمون فكرة محددة، أو قيمة معينة كالعدالة أو المساواة أو الديمقراطية.. الخ في عمل ما، أما إذا كان العمل موضع التحليل يمثل قطاعاً عريضاً من الحياة الاجتماعية- كالرواية مثلاً- فإنه من الصعب الاعتماد على التحليل الكمي نظراً لتعدد المتغيرات والأفكار وتشعبها وتداخلها هذا فضلاً عن تعدد القيم الاجتماعية المختلفة في العمل الأدبي الواحد، ومن ثم لجأ العديد من الباحثين إلى استخدام أسلوب التحليل الكيفي وبصفة خاصة في تحليل الأعمال الأدبية، ومن الأمثلة على هذه الدراسات:

(١) علم الاجتماع من خلال الأدب Sociology Through Literature والتي اتبع فيها "لويس كوزر" Lewis Coser أسلوب التحليل

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر:

— محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرائق البحث وأساليبه، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٧٣٦.

— غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٤٨.

— عبدالباسط عبدالمعطي، البحث الاجتماعي، محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٤١ — ٢٤٢.

— زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣٦٢.

(٢) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ٧٣٧.

الكيفى لعدد من الروايات والقصص القصيرة والمستزجات، وأكد على أهمية استعانة عالم الاجتماع بالأدب كأحد مصادر المعرفة الأساسية^(١).

(٢) الماركسية والأدب Marxism and Literature والتي اعتمد فيها "بريتشال" Jan H. Birchall على التحليل الكيفى لعدد من الروايات والقصص القصيرة موضعاً دور الأدب كأحد وسائل الضبط فى المجتمع^(٢).

(٣) دراسة "جورج لوكاش" Georg Lukacs عن "تولستوى" ونمو الواقعية Tolstoy and Development of Realism فقد حلل "لوكاش" بعض أعمال "تولستوى" الروائية تحليلاً كيفياً موضعاً دور "تولستوى" فى نمو وتطور الاتجاه الواقعى فى الأدب^(٣).

(٤) دراسة "ميشيل زراف" Michel Zeraffa عن الرواية كشكل أدبى وكمؤسسة اجتماعية The Novel as Literary Form and as a Social Institution وهذه الدراسة اهتمت بتحليل بعض الأعمال الروائية فى العالم الغربى Western World من منظور علم الاجتماع، وأوضح "زراف" أن Zeraffa أن الظاهرة الأدبية مرتبطة أشد الارتباط بباقي الظواهر الاجتماعية الأخرى، فالأديب فرد من أفراد المجتمع، يستمد مادته الروائية من المجتمع ويصوغها فى قالب فنى ليقرأها ويتأثر بها باقى أفراد المجتمع^(٤).

(٥) دراسة "البرشيت" M.C.Albercht عن العلاقة بين الأدب والمجتمع، والتي تتبع فيها جذور هذه العلاقة، وأوضح أن الأدب يعتبر إنعكاساً للحياة الاجتماعية^(٥).

(١) Lewis Cosern, Sociology Through Literature, op. cit. p. 34 .

(٢) Jan H Birchall, "Marxism and Literature", In, Jane Routh and Janet Wolfe, The Sociology of Literature: Theoretical Approaches, op. cit., pp. 90-108

(٣) George Lukace, Tolstoy and The Development of Realism, in. David Craig, Marxists on Literature: Anthology, Penguin Books, 1977, pp. 282-346.

(٤) Michel Zeraffa, The Novel as Literary From and as Social Institution, Presses University of Erance, Translated by petra Morrison and Tom Burns, In: Elizabeth Tom Burns, Sociology, Literature and Drama, op.cit., pp. 35-55

(٥) M.C.Alberchet, "The Relationship of Literature and Society", American Journal of Sociology, vol. 29, No.5, March, 1954, pp.36-69

- (٦) دراسة "ديانا ليورنسون" Diana Laurenson و"الآن سيونجود" Alan Swingewood عن علم اجتماع الأدب والتي حلت فيها مضمون العديد من الأعمال تحليلاً كيفياً، خاصة الجزء الذى قام بإعداده "سيونجود" والمعنون "تحو علم اجتماع الأدب" Towards The Sociology of Literature والذى عرض فيه تحليلاً كيفياً لبعض الروايات الاشتراكية والتي تعكس حالة الإغتراب Alienation التى يمر بها أفراد المجتمع الرأسمالى^(١).
- ولاشك يعتبر تحليل المضمون سواء كان كيفياً أو كمياً وسيلة أساسية لدراسة عملية الاتصال فى جوهرها والأسس التى تقوم عليها ودينامياتها كما تتجسد فى أحاديث الناس وكتاباتهم، وفى نسق المعانى والأفكار المتبادلة بينهم، ويمكن الإشارة إلى الخصائص الأساسية لتحليل المضمون على النحو التالى:
- ١- يستخدم أسلوب تحليل المضمون فى وصف محتوى مادة الاتصال سواء كانت مكتوبة أو مسنوعة أو مرئية- ولقد اقتصر هذا الأسلوب فى بداية الأمر على الأبحاث الصحفية، ثم اتسع مجال استخدامه مع بداية الثلاثينات من القرن العشرين ليشمل الكتب والرسائل والخطب والمحادثات والصور والأفلام السينمائية وبرامج الإذاعة والتلفزيون..الخ.
 - ٢- يهتم هذا الأسلوب بدراسة محتوى مادة الإتصال، وليس من الضروري أن يشغل الباحث نفسه بمحاولة التعرف على نوايا ومقاصد الكاتب أو المتحدث، وإن كان من الممكن تبين دوافع الكاتب أو المتحدث من خلال تحليل كتاباته أو أحاديثه^(٢).
 - ٣- يجب على الباحث عند تحليل مادة الإتصال أن يراعى الموضوعية التامة وأن يكون بعيداً من أهوائه الشخصية ودوافعه الخاصة التى قد تؤثر فى دقة التحليل.
 - ٤- ينبغى أن يتم تحليل مادة الاتصال بطريقة منظمة ومصنفة وفقاً لمعايير منطقية يحددها الباحث قبل بداية التحليل.

(١) D.Laurenson and A.Swingewood, "The Sociology of Literature", op. cit., pp. 169-256.

(٢) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٤١.

٥- ضرورة التأكد من أن المعانى التى اشتقها الباحث من مادة الاتصال تتفق مع ما يقصده الكاتب أو المتحدث ومع ما يفهمه القراء والمستمعون^(١).

ثانياً: المجالات الأساسية لتحليل المضمون:

بدأت الاستخدامات الأولى لتحليل المضمون فى مجالات الصحافة والأدب. فمع بداية العقد الثالث من القرن العشرين أيقن بعض الباحثين فى مجال العلم الاجتماعى إلى إمكانية الاستفادة من تحليل المضمون فى دراساتهم ويعتبر "بيترم سوروكين" P.Sorokin من أبرز الباحثين الذين استخدموا تحليل المضمون وذلك فى دراسته الشهيرة حول "الديناميات الاجتماعية والثقافية" حيث قام بتحليل بعض الأعمال الأدبية والفنية والفلسفية لتوضيح معانيها ودلالاتها الثقافية، ويدين تحليل المضمون لكل من "هارولد لازويل" H. Lossewell و"برنارد بيرلسون" Berelson لجهودهما فى توضيح معالمه، وفى عام ١٩٣٠ بذل "لازويل" جهداً واضحاً لإبراز أهمية تحليل المضمون وذلك من خلال الدراسات التى أجراها مع زملاء له، مما أدى بدوره إلى توسيع دائرة استخدامه فى دراسة الرأى العام والدعاية^(٢).

وفى عام ١٩٥٢ قام "بيرلسون" Berelson بدراسة مسحية نقدية لبعض تطبيقات تحليل المضمون، وأشار إلى أن هناك بعض الكتب والمقالات التى قدمت استخدامات مختلفة لبعض الإجراءات الفنية فى تحليل المضمون خاصة تلك الإجراءات التى استخدمت فى دراسة وتحليل مضمون عينات من الصحف، ولعل أهم اسهام "لبيرسون" هو تقديمه تعريف لتحليل المضمون يعتمد على التحليل الكمى للمحتوى الظاهر لمادة الاتصال -وان كنت لا أتفق معه فى هذا التعريف- وفقاً للمبررات التى ذكرتها من قبل. ويمكن حصر المجالات المختلفة التى يستخدم فيها تحليل المضمون على النحو التالى:

١- مجالات الاتصال والاعلام:

يعد مجال الاتصال والاعلام من أهم مجالات تحليل المضمون. فلقد استخدم هذا الاسلوب فى تحديد ماهية الاتصال، بمعنى وصف الخصائص والاتجاهات الأساسية فى محتوى الاتصال سواء على المستوى الشخصى أو

(١) المرجع السابق، ص ٥٤٢.

(٢) عبدالباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى: محاولة نحورؤية نقدية، مرجع سابق، ص ٢٤١.

الجمعي، وما ينطوي عليه تفاعل اجتماعي سواء كان إيجابياً أم سلبياً. ولقد استخدم أيضاً أسلوب تحليل المضمون في تحليل إدارة الاتصال ذاتها سواء كانت هذه الوسيلة مسموعة أو مرئية أو مقروءة أو رمزية وتحليل الهدف من الوسيلة ذاتها، وجدير بالذكر أن الوسيلة الاعلامية لكي تحقق الهدف التي تسعى اليه ينبغي أولاً أن تحدد سمات القائم بالاتصال وسمات متلقي الرسالة، وأن تراعى الأبعاد النفسية والاجتماعية لجمهور المستقبلين حتى تضمن وصول الرسالة الى المتلقي بالأسلوب الذي يحدث فيه الأثر المطلوب.

وهناك العديد من الدراسات التي استخدمت أسلوب تحليل المضمون في قياس آثار وسائل الاعلام، ومدى قدرة وسيلة اعلامية ما على تغيير اتجاهات وآراء وقيم وأنماط سلوك جمهور المتعاملين مع هذه الوسيلة الاعلامية. ومن أحدث الدراسات في هذا المجال دراسة "البعد القومي في قناة الجزيرة: دراسة حالة برنامج الاتجاه المعاكس"^(١).

ولقد استخدم الباحث في هذه الدراسة أسلوب التحليل الكيفي للمحتوى Qualitative Content Analysis للإجابة على عدة تساؤلات أساسية هي^(٢):

- ١- هل قناة الجزيرة الفضائية من خلال برنامج الاتجاه المعاكس تشكل مدرسة جديدة في الطرح القومي العربي الوحدوي؟
- ٢- هل تتبع الاسلوب الديموقراطي في الطرح من خلال مقدمة البرنامج؟ أي أن يكون هناك مساواة في طريقة طرح القضية سلباً وإيجاباً؟
- ٣- هل الطرح القومي يصطدم بحواجز أو قوى كبرى أم أن يتعداه ويطل على ما ورائها؟

٤- ما مدى جراءة الطرح في كل حلقة من حلقات البرنامج؟

أما عن عينة الدراسة، فقد حدد الباحث ثمانى حلقات متتابعة ابتداءً من حلقة ١٦/٣/١٩٩٩ وإنهاءً بحلقة ٤/٥/١٩٩٩. وحدد وحدة التحليل في الفكرة الأساسية للحلقة لكي تتماشى مع طبيعة التحليل الكيفي الذي حددته من

(١) أعد هذه الدراسة الدكتور سليمان جازع الشمري الأستاذ المساعد بفسم الاعلام - جامعة الملك سعود. وقناة الجزيرة قناة تليفزيونية فضائية تبث من دولة قطر، وعلى الرغم من حداثة هذه القناة حيث لا يتجاوز عمرها خمس سنوات إلا أنها استطاعت أن تجتذب جمهور المشاهدين - خاصة المثقفين - في العالم العربي. أنظر سليمان جازع الشمري، البعد القومي في قناة الجزيرة: دراسة حالة برنامج الاتجاه المعاكس، مطبعة دار الشروق، الدوحة، ١٩٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

قبل، والتعبير عن هذا التحليل برموز لفظية. أما عن فئات التحليل فقد حددها الباحث في البعد السياسى والذى أشتمل على ثلاثة قضايا أساسية:

١- قضايا ذات بُعد قومى عربى.

٢- قضايا ذات بُعد دولى مرتبطة أو متورطة مع قضايا عربية.

٣- قضايا ذات بُعد ديموقراطى (انتخابات، معارضة، تصويت).

ويُعد تحليل المضمون من أهم طرق دراسة وسائل الاتصال الجمعى بقصد الوقوف على مضمونها وما تحويه، ولقد لاقى هذا الموضوع اهتماماً متزايداً من قبل كثير من المتخصصين فى علم الاجتماع والمشتغلين بالرأى العام ووسائل الاتصال الجمعى، ومن الأمثلة على هذه الدراسات، دراسة عالم الاجتماع الأمريكى "أليكس انكلس" A.Inkles والتي حلل فيها ردود الأفعال السوفيتية نحو إذاعة "صوت أمريكا" وكانت وحدة الزمن هى الوحدة الأساسية للتحليل فى هذه الدراسة^(١). ولقد حظيت دراسة "ج ماير" J.Meyer عن علم اجتماع الفيلم Sociology of Film بأهمية خاصة فى هذا المجال، فقد قام بتحليل ١٥٠٠ فيلم من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٠ منها ٥٠٠ فيلم ظهرت عام ١٩٢٠ و ٥٠٠ فيلم ظهرت عام ١٩٢٥، و ٥٠٠ سنة ١٩٣٠، وصنف "ماير" Meyer هذه الأفلام وفقاً للموضوعات التى تعالجها. وهذا فضلاً عن تركيزه على ١١٥ فيلم قام بتحليلهم تحليلاً مركزاً، وجدير بالذكر كانت وحدة التحليل فى هذه الأفعال هى الشخصية الأساسية "البطل"، وما يصدر عنه من سلوك وأفعال^(٢). ولقد إتبع المستشرق الفرنسى "الأب جاك جوميه" Jac ques Jomier نفس هذه الطريقة فى تحليله لثلاثية "نجيب محفوظ" حيث ركز فى تحليله للثلاثية على الشخصية المحورية من حيث النشأة والتطور، وأشار إلى أن كل شخصية تمثل قطاعاً عريضاً من المجتمع المصرى^(٣).

٢- مجال التغير الاجتماعى:

يُعد مجال التغير الاجتماعى من المجالات الخصبة لتحليل المضمون، وبدأ استخدام هذا الأسلوب فى البحث الاجتماعى عام ١٩٣٠ عندما قام "بيترم

(١) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) J.Meyer, Sociology of Film: Studies and Documents, Faber, London, 1942, pp. 169 - 178.

(٣) الأب جوميه، ثلاثية نجيب محفوظ، ترجمة نظمي لوقا، دار مصر للطباعة، القاهرة، غير مبين سنة النشر.

سوروكين " P.Sorokin بدراسة التغيرات الثقافية والاجتماعية في أوربا الغربية على طول تاريخها^(١). واعتمد في هذه الدراسة على تحليل مضمون الأعمال الأدبية، والفنية، والموسيقى، والفلسفة في ضوء ما تتطوى عليه هذه الأعمال من مضمون ومعاني مختلفة، واستطاع أن يرصد حركة التغير الاجتماعي بشكل دقيق خاصة في المجالات السابقة. وكانت هذه الدراسة بمثابة نقطة الانطلاق الأولى للعديد من الدراسات في مجال التغير الاجتماعي بشتى أنواعه.

٣- مجال الدراسات النفسية:

من الأعمال المبكرة لاستخدام تحليل المضمون في الدراسات النفسية دراسة "لازويل" Lasswell عن استجابات المرضى النفسيين، حيث قام في عام ١٩٣٨ بتطوير إطاراً لتصنيف استجابات المرضى في المقابلات النفسية يشتمل على ثلاثة فئات هي:

١- الاتجاه نحو الذات Pro - Self.

٢- العداء للذات Anti - Self.

٣- الاتجاه نحو الآخر Pro.

واستخدم أيضاً "لازويل" وزملاؤه أسلوب تحليل المضمون في دراسة الرأي العام والدعاية استجابة للظروف التي عاشتها الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية. ولقد أمكن استخدام تحليل المضمون في دراسة الحالة السيكولوجية للقائمين بعملية الاتصال، وذلك من خلال تحليل أنواع الاتصال التي يقوم بها الأفراد كالخطابات، وسير الحياة، وبرامج الإذاعة والتلفزيون.. الخ. بإعتبارها مؤشراً لدوافعهم وبواعثهم ومن أبرز الدراسات في هذا المجال دراسة "شارل أوسجود" C.Osgood و "ايفلن والكر" E.Walker في سنة ١٩٥٩ حيث قاما بتحليل مضمون بعض خطابات الانتحار ومقارنتها بخطابات الأشخاص العاديين، ولقد استخدم نفس الأسلوب الباحث العربي المصري "مكرم سمعان" في تحليله لبعض الوثائق الشخصية للمنتحرين والشارعين في الانتحار بهدف معرفة الأسباب الحقيقية للانتحار وتوصيات المنتحرين^(٢).

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٢) عبدالباسط عبدالمعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

٤- مجال الدراسات العلاجية:

استخدم تحليل المضمون في كثير من الدراسات العلاجية سواء في مجال الخدمة الاجتماعية أو الطب النفسي. حيث يقوم الباحثون بتحليل مضمون التفاعل بين القائم بالعلاج والعميل بعد تسجيل عملية المقابلة بينهما بهدف الوقوف على طبيعة موقف المقابلة ومدى استجابة العميل للعلاج ونوعية هذه الاستجابة (توتر - ألم - إشباع - راحة - معارضة .. الخ)^(١).

٥- مجال الثقافة والمجتمع:

من أبرز استخدامات تحليل المضمون استخدامة بشكل مباشر في دراسة القيم الاجتماعية والثقافية، خاصة تلك القيم التي كانت سائدة في حقبة تاريخية، بهدفلقاء الضوء على بعض الخصائص الثقافية المميزة لمجتمع ما، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة عالم النفس "رالف وايت" R. White والتي قام فيها بتحليل مضمون كتاب "الولد الأسود" Black Boy "لريتشارد وايت" R. Wright بهدف تأكيد إمكانية دراسة القيم علمياً وتوضيح طبيعة ومدى تحليل المضمون كأسلوب في البحث العلمي يتميز بدرجة واضحة من الثبات والشمول وهناك دراسات أخرى على المستوى العالمي والقومي أتبعت طريقة تحليل المضمون في دراسة الخصائص الثقافية المميزة لمجتمع من المجتمعات، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة "لويس كوزر" Lewis Coser التي قام فيها بتحليل الخصائص الثقافية المميزة لقطاعات محددة من المجتمع الأمريكي من خلال تحليله لبعض الأعمال الأدبية مثل رواية "جزر السعادة" Blissful Isles "لدينيس دويدرت"^(٢). Denis Diderot التي تلقى الضوء على جوانب محددة من الثقافات الفرعية في المجتمع الأمريكي، ولقد أوضح "كوزر" من خلال تحليله لهذه الرواية أن عالم الاجتماع ينبغي أن يعتمد في تحليلاته السوسيولوجية على أكثر من مصدر من مصادر المعرفة لكي تكتمل الصورة الحقيقية لموضوع الدراسة، والأدب يعتبر أحد مصادر هذه المعرفة الهامة^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٢) Lewis A. Cosser. Sociology Throught Literature. op.cit.. pp 8-10.

(٣) Ibid. p. 9.

حظيت دراسة الظاهرة الأدبية من الناحية السوسيولوجية باهتمام متزايد خلال العقود الثلاثية الماضية، الأمر الذي أدى إلى ظهور العديد من النظريات والآراء التي توضح طبيعة العلاقة بين الأدب والمجتمع، ولاشك يعتبر ميدان سوسيولوجيا الأدب من الميادين الخصبة لتحليل المضمون، وهناك العديد من الدراسات على الصعيد العالمي والمحلي في هذا المجال، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة "لويس كوزر" Lewis Coser والتي قام فيها بتحليل العديد من الأعمال الأدبية -كالرواية والقصة القصيرة- وأكد "كوزر" في دراسته على ثراء الأدب بالمعلومات التي تفيد في إلقاء الضوء على العديد من جوانب الحياة الاجتماعية. ومن ثم قام بتحليل ٩٠ رواية وقصة قصيرة معظمها من الأدب الإنجليزي والأمريكي، هذا فضلاً عن بعض الروايات من الأدب الفرنسي والروسي والصيني. ولقد صنف "كوزر" المعرفة التي يمكن ان نستمدّها من هذه الأعمال الأدبية وفقاً للميادين الأساسية لعلم الاجتماع على النحو التالي:

١- الثقافة: Culture أشار "كوزر" إلى أن رواية "جزر السعادة" Blissful Isels "دنيس ديروت" Denis Diderot تعد بمثابة بحثاً في علم اجتماع الثقافة^(١).

٢- الضبط الاجتماعي: Social Control تمثل رواية "عالم العمال المهاجرين" The World of Migratory "جون استينبك" John Steinbeck ورواية "مدينة الشمس" The city of the sun "توماس كامبنيلا" Campanella أداة من أدوات الضبط الاجتماعي لما تحويه هذه الروايات من تأكيدات على القيم الاجتماعية الأساسية في المجتمع الأمريكي^(٢).

٣- التنشئة الاجتماعية: Socialization، من أهم الأعمال الأدبية التي أكد عليها "كوزر" ونظر إليها باعتبارها وسيلة أساسية للتنشئة الاجتماعية رواية "الأب الفاشيستي" an Autharitarian Father "سمويل بتلر" S.Butler،

(١) Lewis, A. Coser. Sociology Through Literature. op. cit., pp.8-10.

(٢) Ibid., p. 34-40.

ورواية "أريد أن أعرف لماذا؟" I want to Know why "لتشارود أندرسون" (١). Cherwood Anderson.

٤- الدور والمكانة: Role and Status، أكد "لويس كوزر" على الفائدة التي تعود على عالم الاجتماع الذي يهتم بدراسة الدور والمكانة حين رجوعه إلى بعض الأعمال الأدبية مثل رواية "الحرباء" Achameleon "لأنتون شيكوف" Anten Chekhov، ورواية "العالم كمسرح" The World as a Stage "لويليام شكسبير" (٢). W.Shakespear.

٥- التدرج الطبقي: Stratification تمثل رواية "انتظار على المحطة" Waiting at the Station "لويليام تاكرى" William Thackeray، "ورواية" ماذا يصنع الأمير What Makes a Peer "لدانييل ديفو" Daniel Defoe بعض الأعمال الأدبية الهامة التي جسدت حقيقة التدرج الطبقي في المجتمع ففي هاتين الروايتين أوضح "لويس كوزر" أن "تاكرى" و"ديفو" قد قاما بتسريح كل من المجتمع الأمريكي والمجتمع الإنجليزي وبيان الفواصل الطبقيّة أو التدرج الطبقي والسمات المميزة لكل طبقة اجتماعية في هذين المجتمعين (٣).

٦- القوة والسلطة: Power and Authority، يشير "كوزر" إلى أن رواية القوة وحدودها Power and Its Limits "لنورمان مايلر" Norman Mailer ورواية "فقر القوة" The Poverty of Power "لليفى تولستوى" Lev Tolstoi يمكن الإفاده منهما في إلقاء الضوء على بناء القوة في المجتمع (٤).

٧- البيروقراطية: Bureaucracy، يشير "كوزر" إلى أن رواية "حيرة البيروقراطية" Marze of Bureaucracy "لفرانك كافكا" F.Kafka ورواية "التعقيد المكتبى" The Circumlocution Office "لتشارلز ديكنز" Charles Dickens تمثل بحثاً في البيروقراطية بمشاكلها وتعقيداتها (٥).

(١) Ibid., pp. 58-60.

(٢) Ibid., pp. 63-67.

(٣) Ibid., pp. 130-137.

(٤) Ibid., pp. 150-155.

(٥) Ibid., pp. 178-191.

٨- علم الاجتماع السياسى: The Sociology of Politics تفيد رواية "كيف تصبح ديكتاتوراً" How To Become a Dictator "لسيلون" Ignazio Silone، ورواية "صوت الزعيم الفوضوى" The Voice of Demagogue "اروبرت ورن" Robert Warren فى إثراء المعرفة السوسولوجية خاصة فى مجال علم الاجتماع السياسى^(١).

٩- علم الاجتماع الحضرى: Urban Sociology، تعد رواية "المدينة ككابوس" The city as Nightmare "لجيمس تومسون" James Thomson ورواية القوة والتوازن فى لندن The Power and Rhythms of London لتوماس دى كونسى Thomas de Quincey ورواية البيكل العظمى ابارين The Anatomy of Paris "لبزالك" Balzac، من الأعمال الهامة التى تاقى الضوء على طبيعة الحياة الحضرية وقيمها المتميزة ومشاكلها المنفاقة^(٢).

١٠- الأسرة: The Family يشير "كوزر" أن من أبرز الأعمال الأدبية التى تنتمى إلى ميدان علم اجتماع الأسرة، رواية "عندما يكون الواجب اقوى من الحب" When is Duty is Stronger Than Love لـ Takizawa Bakin، والرواية الهندية "أهمية إنجاب ابن" The Importance of having a son (لكاتب هندي غير معروف) ولقد أكد "كوزر" أن هذه الرواية تعد بحثاً سوسولوجياً للأسرة الهندية والقيم الاجتماعية الموجبة لها، فهى تجسّد لقيم الأسرة بكافة معانيها، خاصة قيمة إنجاب طفل ذكر^(٣)، ولأنها تعتبر رواية "أسرة سعيدة" All happy Family "للفى تولستوى" Lev Tolstoi تجسّد القيم الأسرية، هذا فضلاً عن عرضها لنماذج مختلفة للأسرة التى تتعامل بالقبول لدى قطاعات عريضة من المجتمع^(٤).

١١- العلاقات العرقية: Race Relations، تمثل رواية "تعام الاختلاف" Learning Submission لبتر ابرهام Peter Abrahams، ورواية "لكى تكون زنجياً" To Be Negr لجيمس جونسون James Johnson من أبرز الأعمال.

(١) Ibid., pp. 205-212.

(٢) Ibid., pp. 233-240.

(٣) Ibid., pp. 265-270.

(٤) Ibid., pp. 270-283.

الأدبية التى عرضت لطبيعة العلاقات السلافية خاصة فى المجتمع الأمريكى^(١).

١٢- السلوك المنحرف: Deviant Behavior، أشار "كوزر" إلى أن رواية "الفيلسوف" The Philosopher للشيرود أندرسون "Sherwood Anderson"، ورواية الانتحار Suicide "لفولتير" Voltaire، ورواية "القرد فى التفهقر" The Monkey on the Back "لنيلسون الجرين" Nelson Algren من الأعمال الأدبية التى عالجت موضوع إنحراف السلوك الاجتماعى^(٢).

١٣- الأنومى: Anomie تعتبر رواية "الإنسان اللامعيارى" An Anomic Man ، لدنيس ديدورت Denis Diderot ورواية "صوت من تحت الأرض" A voice From Underground لمستوفسكى F.Dostoevski ورواية "القادم الثانى" The Second Coming "لويليام بتلر" William Butler، من أبرز الأعمال الأدبية التى تعكس صورة الإنسان المغترب Alienated Man، هذا فضلاً عن التغيرات المتلاحقة التى تحل بأنساق القيم الاجتماعية والمادية والتى تحول دون التكيف السريع لبعض أفراد المجتمع، مما تجعلهم فى النهاية عرضة للإنسحاب من المجتمع والعيش على هامش الحياة الاجتماعية^(٣).

ومن هنا تتضح أهمية تحليل المضمون كأسلوب متميز فى تحليل الأعمال الأدبية وإثراء ميدان علم اجتماع الأدب، ليس هذا فحسب بل كافة ميادين المعرفة السوسولوجية على النحو الذى أوضحه "لويس كوزر"، فتحليل المضمون يفيد فى التعرف على المغزى الحقيقى للأعمال الأدبية ومدى ارتباطها بالواقع أو تعبيرها عنه. ومن ثم يعد -بلا شك- دعامة أساسية للتحليل فى ميدان سوسولوجيا الأدب.

ثالثاً: أسس استخدام تحليل المضمون:

يستند استخدام تحليل المضمون على ثلاثة فروض أساسية وهى:

- ١- الهدف الذى يرمى إليه الكاتب أو المتحدث فى محتوى كتاباته، أو أحاديثه ومعرفة تأثير محتوى مادة الاتصال على أفكار الناس.

(١) Ibid., pp. 313.

(٢) Ibid., pp. 363-373.

(٣) Ibid., pp. 387-389.

٢- هل المعانى التى أشقها الباحث من مادة الاتصال تتفق بعد تحليلها مع ما يقصده الكاتب أو المتحدث، ومع ما يفهمه القراء والمستمعون. أو بمعنى آخر هل يلتقى المتحدث أو الكاتب مع القارئ أو السامع وكذلك الباحث عند نقطة واحدة، وهل هذه النقطة هى بالفعل المعانى والأفكار التى يهدف إليها الكاتب أو المتحدث^(١).

٣- الوصف الكمي والكيفي لمحتوى مادة الاتصال.

أما عن أسس استخدام تحليل المضمون فى الأعمال الأدبية فقد أستمد من الفكرة التى مؤداها أن الأدب يعكس Reflect الحياة الاجتماعية، ويصور واقع المجتمع الذى صدر عنه، وهذه الفكرة ليست فكرة جديدة، ولكنها سبقت فكرة تحليل المضمون بقرون عديدة، اذ ترجع إلى مفهوم أفلاطون عن المحاكاة Imitation إلا أن استخدام تحليل المضمون فى الدراسات الأدبية - وخاصة علم اجتماع الأدب- لم يخرج إلى حيز الوجود إلا منذ عدة عقود قليلة ماضية.. عموماً لقد أرتبط تحليل المضمون بالأعمال الأدبية للإجابة على ثلاثة فروض أساسية وهى:

- أ- هل الأدب يعكس المجتمع والثقافة السائدة فيه؟
- ب- هل الأدب يعد وسيلة أساسية من وسائل الضبط الاجتماعى فى المجتمع.
- ج- هل الأدب كوسيلة إعلامية يرتبط بالرأى العام ويؤثر فى الاتجاهات الاجتماعية والقيم وفى سلوك الأفراد والجماعات^(٢).

وأياً كانت هذه الفروض فهى تشكل فكرة أساسية مؤداها أن للأدب وظيفة اجتماعية فى المجتمع، وهذه الوظيفة ذات زوايا مختلفة وأبعاد متعددة، ويمكن القول أن أغلب الدراسات التى أستخدمت تحليل مضمون الأعمال الأدبية اعتمدت على نظرية الانعكاس Reflection Theory والتى توضح أبعاد التغير الذى طرأ على الحياة الاجتماعية بكافة جوانبها، ومن ثم تتضح أهمية الوظيفة الاجتماعية الأساسية لهذه النظرية فى علم الاجتماع بصفة عامة وسوسيولوجيا الأدب بصفة خاصة، ومن ثم أصبحت نظرية الانعكاس بمثابة

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص

٥٤١-٥٤٤.

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، ص ١٦٢.

إتجاه عريض لدى العديد من القائمين بالأعمال الفنية والأدبية، وهذا يؤكد على أهمية تحليل المضمون كأسلوب أساسي لتأكيد دور الأديب في تصوير الحياة الاجتماعية.

رابعاً: فئات تحليل المضمون:

ويمكن تحديد فئات تحليل المضمون في فئتين أساسيتين، يتفرع من كل منها عدة عناصر أساسية، وهذه الفئات هي:

١- فئات ماذا كتب أو قيل؟

٢- فئات كيف كتب أو قيل؟

أ- فئات ماذا كتب أو قيل:

تتنوع هذه الفئات وتتعدد، ويمكن الإشارة إلى أهمها على النحو التالي:

١- فئة موضوع الاتصال: وتبحث هذه الفئة عن الموضوعات التي تدور حولها مادة الاتصال، فعلى سبيل المثال كانت مواد الاتصال بعد حرب أكتوبر ٧٣ تدور حول تحرير الأرض المحتلة، إعادة فتح قناة السويس، إعادة بناء وتعمير مدن القناة، استئناف العمل بخطط التنمية.. الخ^(١).

٢- فئة اتجاه محتوى الاتصال: وتدور هذه الفئة حول آراء المتلقين لمادة الاتصال، ومدى استجابتهم لهذه المادة.

٣- فئة المعايير التي تطبق على محتوى الاتصال: والمقصود بهذه الفئة تلك المعايير التي من خلالها يتم تحليل محتوى مادة الاتصال.

٤- فئة القيم Values وتحدد هذه القيم من خلال الأهداف Goals والحاجات Wants التي تحتاج إلى إشباع، ومن الأمثلة على هذه القيم، بعض القيم الاجتماعية مثل حب الأسرة، والتواضع، والكرم، والمرؤة، والتسامح، والتعاطف.. الخ^(٢).

٥- فئة إشباع الحاجات. وهذه الحاجات قد تكون فردية وقد تكون جماعية، وقد يكون الإشباع سلبياً أي مخالفاً لما تعارف عليه المجتمع، وقد يكون إيجابياً متفقاً مع قيم ومعايير المجتمع.

(١) زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٤.

٦- فئة السمات Rait- والسمات قد تكون فرد أو جماعة، أو مجتمع محلي، أو نظام..الخ، فسمات الفرد أو الجماعة قد تكون السن، أو النوع، أو المستوى التعليمي، أو المهني، أو الحالة الانفعالية أو الاستعدادات الأخرى..الخ. وتختلف هذه السمات من فرد إلى آخر^(١).

٧- فئة الداعل Actor والتركيز في هذه الفئة يكون على الدور الذي يقوم به الفرد "الفاعل" داخل الجماعة التي ينتمي إليها.

٨- فئة المرجع أو المصدر: والمرجع قد يكون شخصاً أو جماعة، أو هيئة أو مؤسسة أو حكومة..الخ.

٩- فئة المكان الذي تصدر عنه مادة الاتصال: ولاشك تعتبر هذه الفئة من أهم الفئات عند تحليل مادة الاتصال، فمن المعروف أن للمكان (البيئة) تأثيراً واضحاً على الأفراد المنتمين الى هذا المكان.

١٠- فئة المخاطبين: والمخاطبون يمكن تصنيفهم إلى جماعات متعددة مثل فئة الشباب، والسيدات، والعمال، والفلاحون..الخ^(٢).

ب - فئات كيف كتب أو قيل:

يتخذ موضوع الاتصال عدة أشكال أو فئات مختلفة أهمها:

١- فئة شكل أو نموذج الاتصال: فقد يكون موضوع الاتصال رواية أو قصيدة شعر، أو برنامج إذاعي..الخ

٢- فئة الاطار الذي يتخذه الموضوع Form of Stetment، والاطار المطلوب هنا هو الكشف عن مدى تعبير هذا الإطار عن واقع ملموس من عدمه.

٣- فئة شدة التعبير Intensity والمقصود بها الدرجة الانفعالية لموضوع الاتصال، وعما إذا كان الإنفعال بها إيجابياً أو سلبياً أو يتخذ شكلاً وسطاً.

٤- فئة الاداة: والمقصود بها الوسيلة التي يستخدمها الباحث في إعداد مادته الاتصالية^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٠.

خامساً: وحدات تحليل المضمون:

هناك العديد من وحدات تحليل المضمون، ويمكن الإشارة إلى أهم هذه الوحدات على النحو التالي:

١- وحدات التحليل المبدئي:

أ- وحدات التسجيل ووحدة السياق: ويمكن أن تكون هذه الوحدة كلمة مفردة أو مصطلحاً، أو جملة أو فقرة..الخ.

ب- وحدة التصنيف ووحدة العدد: وعن طريق هذه الوحدة يتم تصنيف مادة الاتصال إلى وحدات متجانسة لكي يسهل تحليلها.

٢- وحدات التحليل النهائي:

أ- الكلمة Word: وتستخدم الكلمة في تحديد الألفاظ التي يستخدمها الأدباء في مجتمع ما، وفي هذه الحالة يقوم الباحث باستخدام الكلمة كوحدة أساسية للتحليل وعد التكرارات المختلفة لها في موضوع التحليل.

ب- الموضوع Theme: يعتبر الموضوع من أهم وحدات تحليل المضمون لأنه يكشف عن الآراء والاتجاهات الأساسية لمادة الاتصال.

ج- الشخصية Character: تستخدم الشخصية في تحليل القصص والدراما وتواريخ الحياة، فتحلل الشخصيات لمعرفة عما إذا كانت شخصيات خيالية أو تاريخية أو شخصيات ذات مغزى اجتماعي معين^(١).

د- المفردة Item: تختلف المفردة باختلاف وسيلة الاتصال فقد تكون كتاباً أو مثلاً، أو قصة أو حديثاً، أو خطاب أو برنامجاً إذاعياً..الخ.

هـ- مقاييس المساحة والزمن Space and Time Measures: وتستخدم هذه الوحدة عن طريق حساب عدد السطور أو عدد الأعمدة أو الصفحات أو الزمن الذي استغرقته أحاديث إذاعية من نوع معين، أو وحدات الطول في الأفلام السينمائية^(٢).

سادساً: أمثلة واقعية لدراسات تحليل المضمون:

هناك العديد من الدراسات الواقعية التي اعتمدت أساساً على تحليل المضمون سواء كانت هذه الدراسات على المستوى المحلي أو العالمي، ويمكن

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٥٠.

الإشارة إلى نموذجين من هذه الدراسات أحدهما على المستوى المحلى والثانية على المستوى العالمى على النحو القالى:

الدراسة الأولى: "ظاهرة لوسائل الإمام الشافعى": تكشف هذه الدراسة عن جانب هام من جوانب ثقافة المجتمع المصرى فمن المعروف أن هناك عادات شائعة بين أفراد المجتمع تتمثل فى التردد على أضرحة المشايخ وأولياء الله الصالحين، ونذر النذور لهم والاستعانة بهم على حل مشاكلهم وعرض شكاواهم، ليس هذا فحسب فقد وصل الأمر ببعض الناس إلى كتابة عرائض يضمنونها مشاكلهم ومطالبهم، هذا فضلاً عن أن هناك من يرسل إلى هؤلاء الأولياء رسائل بالبريد يطلبون فيها حل مشاكلهم.

وقام الدكتور "سيد عويس" بحصر الرسائل التى وردت إلى ضريح الإمام الشافعى فى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٨، وبتحليل ١٦٢ خطاباً من بين هذه الخطابات مستعيناً بأسلوب تحليل المضمون. وجدير بالذكر أن الباحث قد استند فى تحليله على الأسلوب الكمى كشكل أساسى، وإن كان قد استخدم الأسلوب الكيفى فى أضيق الحدود، وإنتهى الباحث إلى تفسير الظاهرة واطعاً فى الاعتبار مقومات الثقافة المصرية والعوامل التى أثرت فيها منذ عصر الفراعنة حتى عصرنا الحالى^(١).

الدراسة الثانية: "هل يعكس الأدب القيم العامة": قام بهذه الدراسة "ملتون البرشيت" M.Albercht بهدف توضيح العلاقة بين الأدب والمجتمع، ومدى تصوير الأدب للواقع الاجتماعى، ولقد اعتمد "البرشيت" فى هذه الدراسة على أسلوب تحليل المضمون، مستعيناً فى ذلك بنظرية الإنعكاس، Reflection Theory التى فسر على أساسها الإمكانية التى يعكس بها الأدب جوانب محددة من الواقع الاجتماعى كالقيم والمعايير الاجتماعية. ولقد اعتمد "البرشيت" أيضاً على نظرية الضبط الاجتماعى Theory of Social Control وذلك على اعتبار أن الأدب يعد وسيلة أساسية من بين وسائل الضبط الاجتماعى المتعددة التى تؤثر فى سلوك الجماعات والأفراد وقيمهم

(١) سيد عويس، ملامح المجتمع المصرى المعاصر، ظاهرة رسائل الإمام الشافعى، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناينة، القاهرة، ١٩٦٥.

وإتجاهاتهم المختلفة، وجدير بالذكر أن هذه النظرية الأخيرة قد حظيت باهتمام العلماء الاجتماعيين الماركسيين عند دراساتهم للأعمال الأدبية^(١).

ولقد حدد "البرشيت" مجال دراسته على الأسرة الأمريكية كما تعكسها بعض القصص الصغيرة Short Story لبيان مدى تمثيل الأدب للقيم السائدة في الأسرة الأمريكية، ومن ثم قام الباحث باختيار عينة عشوائية من القصص المنشورة في عام ١٩٥٠، واعتمد في استخراج القيم الأسرية والتي حددها في عشرة فئات أساسية على تحليل المضمون بإعتبار الفقرة هي وحدة التحليل، كما اعتمد على تحليل المواقف الاجتماعية وديناميات العلاقات الأسرية داخل القصص موضوع التحليل، وقام برصد القيم التي استخرجها من دراسته في إستمارة خاصة تتضمن القيم السابق الإشارة إليها. ولقد خلص الباحث من دراسته إلى أن عينة القصص التي درسها تعكس إلى حد كبير قيم الأسرة الأمريكية^(٢).

وخلاصة القول لقد حظى تحليل المضمون بأهمية خاصة في ميدان سوسيولوجيا الأدب بإعتباره إحدى الوسائل الأساسية والهامة التي يستعين بها الباحث في هذا الميدان لتوضيح الصلات الحقيقية بين مختلف الأعمال الأدبية والواقع الاجتماعي الذي تصوره.

سابعاً: تقييم تحليل المضمون:

لقد ثار كثير من الجدل والنقاش بين الباحثين في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلماء الاجتماع بصفة خاصة حول طبيعة "تحليل المضمون" من حيث كونه "منهجاً" أم "أسلوباً" أو طريقة في البحث أم أداة لجمع البيانات، ليس هذا فحسب، فهل تحليل المضمون يقتصر فقط على الوصف الكمي لمحتوى مادة الاتصال أم في وصف وتحليل وتفسير هذه المادة، أو بمعنى آخر هل تحليل المضمون قاصراً فقط على تقرير ما هو موجود في المحتوى الظاهر، لمادة الاتصال، أم أن يسبر أغوار هذا المحتوى ليقرر ما هو أبعد من الموجود.

(١) Viktor Shklovsky, on The Development of Literary Criticism and Poetry, on Andrew Field, The Completion of Russian Literature, Penguin Books, Ltd., Harm and Sworth, England, pp. 199-201.

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٦٥.

على أية حال، لقد تعارف لدى غالبية علماء الاجتماع أن تحليل المضمون أسلوباً متميزاً في البحث الاجتماعي يعتمد على التحليل الكمي والكيفي في وصف وتحليل وتفسير مادة الاتصال. ولهذه الطريقة في البحث مزاياها وعيوبها.

أ - إيجابيات تحليل المضمون:

١- يعد تحليل المضمون أحد الأساليب الهامة التي يمكن من خلالها الحصول على معلومات من ثنايا التراث الانساني سواء كان مقروءاً أو مرسوماً مباشراً أو رمزياً، وفي حقبات تاريخية تضرب بجذورها في أعماق الماضي حيث لا تتوافر معلومات مباشرة عن طبيعة الحياة الاجتماعية في هذه الحقب التاريخية.

٢- يتفرد تحليل المضمون عن باقي طرق البحث الاجتماعي بتمكين الباحثين من الحصول على المعلومات بطرق غير مباشرة دون الرجوع الى المبحوثين، ومن ثم يعطى احساس للباحثين بعدم التطفل والفضولية، فالباحث يستطيع أن يلاحظ دون أن يلاحظه أحد^(١).

٣- يعطى مزيداً من الحرية للباحثين للحصول على المعلومات دون التقيد بالزمان والمكان.

٤- يعطى تحليل المضمون الفرصة لتحليل مادة الاتصال أكثر من مرة عن طريق باحثين آخرين للتأكد من صدق ودقة التحليل طالما أن مادة الاتصال يمكن الرجوع إليها في أى وقت.

ب - سلبيات تحليل المضمون:

تأى طريقه من طرق البحث يكتنف تحليل المضمون بعض العيوب أهمها:

١- يعتمد تحليل المضمون على الوثائق (بأنواعها المختلفة) أو السجلات أو الآثار التي نحصل عليها من حقب تاريخية سالفة. ولانستطيع أن نجزم أن هذه المادة معبرة عن طبيعة الواقع الاجتماعي التي صدرت عنه، فغالبا كان يهتم المؤرخين القدماء بتسجيل أشياء بعينها تمثل أهمية خاصة بهم، فهم لا يسجلون كل الأحداث، ومن ثم فالمعلومات التي نحصل عليها يشوبها النقص، وقد تكون عرضة للتحيز من قبل المصدر (المُرسل) أو المؤرخ.

(١) محمد الجوهري، علم الاجتماع: النظرية المنهج الموضوع، مرجع سابق، ص ٣٣١.

٢- هناك احتمال أن تكون مادة الاتصال موضوع التحليل ذات طبيعة مثالية، فجدير بالذكر أن قدراً لا يستهان به من مواد الاتصال التي تقدمها وسائل الاتصال المختلفة في المجتمعات ولا تعكس الواقع الحقيقي.

٣- يهتم كثير من الباحثين في تحليل المضمون بقضية الكم أكثر من الكيف وذلك وفقاً لتعريف "بيرلسون" الذي يصف تحليل المضمون بأنه الوصف الكمي الموضوعي المنظم لأية سلوك رمزي (أو لمادة الاتصال). فلقد أوقع هذا التعريف كثير من الباحثين في مغالطة كبيرة من حيث تأكيده على ظاهر مادة الاتصال الكمي دون الانشغال بعمقها وجوهرها الكيفي. فالوصف الكمي للمحتوى الظاهر لمادة الاتصال ليعبر تعبيراً صادقاً عن الجوهر الحقيقي لهذه المادة، ومن ثم لا بد أن يتزامن الوصف الكمي والكيفي معاً في وصف وتحليل مادة الاتصال.

٤- لا يجب النظر إلى مادة الاتصال كما هي بالشكل التي تظهر عليه في الواقع، دون الأخذ في الاعتبار طرفي هذه المادة (المرسل والمستقبل) "فالمرسل" أو (منتج) هذه المادة فرد من أفراد مجتمع ما له خلفيته الأيديولوجية وإنتماءاته الطبقية ومصالحه التي يريد أن يعبر عنها من خلال هذه المادة، وحالته النفسية والاجتماعية التي تشكل تأثيراً على بعض متغيرات المادة وقيمه ومعايير المستمدة من واقعة الاجتماعية التي تحكم أبعاد فكره ومضمون رسالته. أما الطرف الثاني وهو "المستقبل" فهو أيضاً له خلفيته الثقافية والاجتماعية التي تؤثر وتتأثر بمضمون الرسالة (مادة الاتصال). فكل هذه الأبعاد ينبغي على القائم بتحليل المضمون أن يأخذها في الاعتبار.

٥- ان احتمال تحيز الباحث في تحليل المضمون كبير، وذلك لأن رؤية الباحث لمادة الاتصال لا يمكن أن تفصلها بسهولة عن أيديولوجيته ووعيه الاجتماعي وتنشئته العلمية. تأثير ذلك كله على فهمه لمادة الاتصال. ومن ثم قد يختلف أكثر من باحث في فهم وتحليل مادة محدده من مواد الاتصال.

الفصل التاسع

القياس الاجتماعي (السوسيومتري)

تمهيد:

- ١- تعريف القياس الاجتماعي (السوسيومتري).
- ٢- المجالات الأساسية للقياس الاجتماعي.
- ٣- أسس استخدام القياس الاجتماعي.
- ٤- أدوات البحث في القياس الاجتماعي.
 - أ - الاختبار السوسيومتري.
 - ب - السوسيوجرام.
 - ج - المصفوفة السوسيومترية.
- ٥- ثبات وصدق المقاييس السوسيومترية.
- ٦ - تقويم القياس الاجتماعي.
 - أ - إجابيات السوسيومتري.
 - ب - سلبيات السوسيومتري.

اختلف بعض الباحثين فى علم الاجتماع حول طبيعة القياس الاجتماعى Sociometry من حيث كونه منهجاً فى البحث أم أسلوب فى جمع البيانات، ولكل وجهة رأيه فى ذلك الا أنه بات واضحاً لدى غالبية المشتغلين بالبحث الاجتماعى التأكيد على أن القياس الاجتماعى أسلوب متميز فى بحث العلاقات والاتجاهات والقيم الاجتماعية لدى جماعات محددة من المجتمع. ولقد ارتبط القياس الاجتماعى بإسم مؤسس هذه الطريقة "جاكوب مورينو" J.L.Moreno حينما قام فى عام ١٩٣٤ بتحليل العلاقات الشخصية المتبادلة بين أفراد الجماعات الصغيرة فى كتابه "لمن البقاء" Who Shall Survive^(١) والقياس الاجتماعى أسلوب فى البحث يعتمد على قائمة مقننة من الأسئلة تدور حول طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين أعضاء جماعة ما، ويطلب من جميع أعضاء هذه الجماعة الاجابة عليها بشكل مستقل. وتدور هذه الأسئلة حول علاقات التجاذب والتنافر بين أعضاء الجماعة، واستطاع "مورينو" وزملاؤه تطوير طريقة القياس الاجتماعى فى بحوثهم الخاصة بالعلاقات الاجتماعية وبناء الجماعة، وعوامل تماسكها وتفككها، واستمراريتها..الخ. ويدور هذا الفصل حول التعريف بالقياس الاجتماعى وخصائصه، ومجالاته الأساسية، وأسس استخدامه، وأدوات البحث التى يستخدمها، وثبات وصدق الاختبارات السوسيومترية، واخيراً تقييم طريقة القياس الاجتماعى فى البحث السوسيولوجى.

١- تعريف القياس الاجتماعى وخصائصه:

القياس الاجتماعى أو (السوسيومتري) Sociometry مصطلح - من الناحية اللغوية - يتكون من شقين الأول Socio ويعنى "اجتماعى"، والثانى Metry ويعنى قياس. ومن ثم "السوسيومتري" هى قياس للعلاقات الاجتماعية داخل الجماعة على حد تعبير "مورينو". والقياس الاجتماعى من الأساليب الحديثة فى البحث الاجتماعى بصفة عامة والبحث السوسيولوجى بصفة خاصة، فلم تكن العلوم الاجتماعية حتى الربع الأول من القرن العشرين تعرف

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٠١.

سوى المقاييس الديموجرافية^(١)، وأصبح مع أسلوب القياس الاجتماعى هناك إمكانية لقياس العلاقات الاجتماعية بشكل علمى دقيق، وأصبحت السوسيومترية تمثل حركة علمية وطريقة للبحث لها تأثيرها الفعال فى البحث السوسيولوجى التجريبي.

ولقد عرف "جاكوب مورينو" السوسيومترية بأنها "طريقة للتعرف على درجة الانجذاب والتنافر التى يظهرها الأفراد تجاه بعضهم البعض"^(٢). وقد تكشف هذه الطريقة ما يحدث داخل الجماعة من تجاذب وتنافر وتفكك وتماسك، كما تكشف عن التنظيم غير الرسمى داخل الجماعة وكذلك المكانات والأدوار والمراكز الاجتماعية للأفراد من خلال تفاعلهم الاجتماعى مع بعضهم الآخر. وجدير بالذكر أن السوسيومترية لاتسعى لقياس الظواهر الاجتماعية بصفة عامة، وإنما تسعى فقط لقياس العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد الجماعة الاجتماعية، والتى تقوم على علاقات التجاذب والتنافر.

ولقد استخدم "مورينو" والسوسيوميتريون من بعده بعض المفاهيم فى دراستهم أهمها^(٣):-

١- النجم: Star: وهو الشخص الذى تتركز حوله معظم اختيارات افراد الجماعة، وهو فى الغالب يكون قائد الجماعة الرسمى أو غير الرسمى وهو الشخص المفضل الذى يحصل على معظم اختيارات الجماعة.

٢ - المعزول: Isolate، وهو الشخص الذى لا يحظى بقبول أعضاء الجماعة ولم يتلق أية اختيارات فى الاختبار السوسيومتري، وقد تكون العزلة بسيطة حينما لا يكون الفرد موضع اختيار أو نبذ من قبل افراد جماعة. وقد يختار الفرد من افراد خارج جماعته، ولا يختاره أحد من داخل جماعته.

٣- المهمل: Neglected، وهو الشخص الذى يحصل على بعض الاختيارات من افراد جماعته، ولكنه لا يحظى بإختيارات غالبية الأعضاء.

٤- المرفوض أو المنبوذ: Rejected وهو الشخص الذى يحصل على اختيارات عكسية (سالبة) من قبل أفراد جماعته، فعلى سبيل المثال اذا كانت

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(٢) محمد الجوهري، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٣) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٠٧.

اجابات أفراد الجماعة عن السؤال: من الذى لاتحب أن يكون عضوا فى الجماعة؟ متجه صوب شخص ما، فهذا الشخص يُعد منبوذاً.

٥- الاختيار المتبادل: **Mutual Choice**، ويعرف بالاختيار الثنائى أو الاختيار الزوجى، حيث يختار عضوين فى الجماعة كل منهما الآخر^(١).

٦- النبذ المتبادل: وهى علاقة الرفض بين شخصين حيث يرفض كل منهما الآخر.

٢- المجالات الأساسية للقياس الاجتماعى:

على الرغم من حداثة اسلوب السوسيومترى أو "القياس الاجتماعى" بالصورة التى حددها "مورينو" فى النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن موضوع القياس خاصة قياس القيم والاتجاهات والرأى العام تعتبر من الموضوعات التقليدية فى العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع والأنثربولوجيا وعلم النفس الاجتماعى. فلقد استخدمت العديد من الأدوات والأساليب فى قياس القيم الاجتماعية فى البحوث الاجتماعية كاستمارة البحث أو الاستبيان Questionnaire والاستبار أو المقابلة Interviewing، وتحليل المضمون Content Analysis، والاختبارات النفسية المتنوعة كالاختبارات الاسقاطية، واختبار "ريكرت"، واختبار الرورشاخ، واختبار تفهم الموضوع..الخ.

أما الأسلوب السوسيومترى فعادة ما يستخدم فى دراسة بناء الجماعات الاجتماعية، ونسق العلاقات الشخصية المتبادلة بين أعضاء هذه الجماعات، هذا فضلاً عن العديد من المجالات الصناعية والتربوية، والعسكرية، والترويحية، وغيرها. وبصفة عامة يمكن الإشارة الى أهم مجالات استخدام السوسيومترى فيما يلى:-

١- دراسة البناء الاجتماعى للجماعة:

يستخدم القياس الاجتماعى فى دراسة العلاقات الاجتماعية داخل الجماعات الصغيرة، فلقد استخدمه علماء الاجتماع والأنثربولوجيا وعلماء النفس الاجتماعى فى دراسة بناء وديناميات الجماعة من خلال تحديد الأدوار والمراكز وعلاقات الجذب والتنافر داخل الجماعة، هذا فضلاً عن دراسة

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

- عوامل تماسك الجماعة أو تفككها وتغيرها. ولقد دعى "مورينو" الى ضرورة توافر عدة شروط لدراسة بناء الجماعة من خلال السوسيومترى أهمها^(١):-
- أ - أن تكون الجماعة محددة المعالم، واضحة الحدود والأبعاد.
 - ب - أن يسمح للأشخاص بإختيار أو نبذ أى عدد من الأشخاص دون تحديد.
 - ج - أن يحدد نوع النشاط الذى يسمح للفرد أن يشارك فيه، بمعنى أن يحدد مجالات الاختيار أو النبذ.
 - د - أن يعرف أعضاء الجماعة أن نتائج الاختبار سوف تستخدم فى إعادة بناء الجماعة، فاختياراتهم سواء بالإيجاب أو السلب سوف تحدد الأشخاص الذين يشاركون المراكز المؤثرة فى بناء الجماعة فى المستقبل.
 - هـ - أن تتوافر السرية التامة فى الاختبار بحيث تتاح لكل فرد الحرية التامة فى الاختيارات التى يراها.
 - و - أن تكون الأسئلة المستخدمة فى عملية القياس مناسبة للمستوى الفكرى أو الثقافى لأعضاء الجماعة، فأسلوب السؤال الذى يوجه الى الكبار بالتأكيد سوف يختلف عن أسلوب السؤال الذى يوجه الى الأطفال، وكذلك الحال بالنسبة للمتعلمين وغير المتعلمين.
 - ز - توافر شرط التفاعل الاجتماعى بين الأفراد لفترة كافية من الزمن لكى تتاح فرصة كافية لأعضاء الجماعة لتكون علاقات فعالة سواء كانت علاقات جذب أو تنافر.

٢- مجال التنظيمات الصناعية:

استخدم القياس الاجتماعى بنجاح فى مجال التنظيمات الصناعية خاصة دراسة العلاقة بين التنظيم الاجتماعى الرسمى وغير الرسمى لدى جماعات العمال فى التنظيمات الصناعية. كما استخدم أيضاً فى دراسة أثر القيادة فى عملية الانتاج، وعلاقتها بتماسك جماعات العمل وأدائها، كما استخدم أيضاً فى قياس وتشخيص الروح المعنوية للعمال الصناعية وأثرها على عمليات الانتاج المختلفة.

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٠١.

٣- مجال التنظيمات العسكرية:

من المجالات الهامة التي استخدم فيها الاختبار السوسيومترى المجال العسكرى خاصة فى تكوين الجماعات العسكرية والاتجاهات نحو القادة، ودراسة الروح المعنوية للقادة والجنود قبل العمليات العسكرية وأثنائها وفى أعقابها. كذلك استخدم فى قياس اتجاهات أفراد الجماعة العسكرية نحو الأعداء والقضايا المتصارع عليها ومدى إيمانهم بالعمليات العسكرية وأثر ذلك على بناء الجماعة ووحدةها ومن ثم النتيجة النهائية للعمليات العسكرية.

٤- المجال التربوى:

استخدم القياس السوسيومترى بنجاح فى مجال التعليم بالمدارس للتعرف على طبيعة العلاقة بين التلاميذ بعضهم البعض، وبين التلاميذ وأعضاء الهيئة التعليمية، كما استخدم هذا القياس فى إعادة بناء الجماعات الدراسية، ومساعدة المعزولين من التلاميذ فى الاندماج فى الجماعة وممارسة أنشطتها^(١)، والتقليل من عمليات التسرب الدراسى والغياب والمساعدة فى عمليات التكيف الدراسى.

٥- مجال العلاج النفسى والاجتماعى:

يُعد مجال العلاج النفسى والاجتماعى من أبرز المجالات التى استخدم فيها القياس الاجتماعى، فلقد حظى القياس النفسى باهتمام العديد من علماء النفس الاجتماعى، وهناك مقاييس نفسية متنوعة طبقت فى مجالات شتى لمجال المدارس، والجيش، والمصانع، وجماعات النوادى، وفى مجال العلاج النفسى. ولقد استخدم أيضاً هذا الأسلوب فى مجال الخدمة الاجتماعية للتعرف على الأفراد الذين يعانون من سوء التكيف والتوافق الاجتماعى مع باقى أعضاء الجماعات التى ينتمون إليها، بهدف علاج هذه الحالات المرضية والعمل على إعادة توافقها مع بناء الجماعة.

٦- مجال القيم والاتجاهات:

لاجدال فى أن مجال القيم والاتجاهات يعد من المجالات الخصبة التى يستخدم فيها القياس الاجتماعى، فلقد استخدم هذا المقياس فى دراسة "القيم" فى العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع - الأنثروبولوجيا وعلم النفس - وعلى الرغم

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤١٧.

من غموض مفهوم "القيم" وعدم الاتفاق على تعريف محدد لها بين كافة الباحثين في ميدان التخصص الواحد إلا أنه أمكن تحديد بعض الخصائص العامة "للقيم" من منظور كل ميدان وقياس "القيم" وفقاً لهذه الخصائص العامة. فالقيم من وجهة نظر علماء النفس الاجتماعي هي عبارة عن "تنظيمات معقدة لأحكام عقلية وانفعالية نحو الأشخاص أو الأشياء والمعاني"، أو هي "مقياس أو مستوى أو معيار نستهدفه في سلوكنا ونسلم بأنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه"، أو هي "المسئولة عن الأحكام التي يصدرها الإنسان على أي موضوع أو موقف ويرى فيها الإنسان شيئاً من الحق أو الخير والجمال"^(١).

أما القيمة من وجهة النظر السوسيولوجية فقد ارتبطت عند بعض الباحثين بالمثل المجردة، والبعض الآخر بالرغبة والاتجاه، وهناك من عرفها في ضوء الحاجات الانسانية، أو من خلال الفعل الاجتماعي، أو المعايير التي تحكم سلوك الأفراد في المجتمع... الخ.

ولقد تنوعت مقاييس القيم في العلوم الاجتماعية بتنوع الأدوات والأساليب التي استخدمت في قياسها، كالمقابلة المقننة، واستمارة البحث أو الاستبيان، وتحليل المضمون أو المحتوى، والاختبارات النفسية المتعددة كالاختبارات الاسقاطية (اختبار تفهم الموضوع T.A.T والرورشاخ) هذا فضلاً عن المقاييس التي صممت خصيصاً لقياس القيم في مجال علم النفس الاجتماعي كاختبار "فرنون وألبورت" الذي نشر عام ١٩٣١، ومقياس "القيم الفارق" الذي أعده "برنس" Prince عام ١٩٥٧^(٢). ومن الدراسات السوسيولوجية التي استخدمت المقابلة كوسيلة لجمع بيانات عن القيم الاجتماعية دراسة "روبرت بل" R.Bell عن "الصراع الجيلي" Generational Conflict بين الأبناء والآباء من خلال بعض القيم. ومن الدراسات التي استخدمت استمارة البحث في دراسة نفس الموضوع دراسة (الدكتور السيد عبدالعاطي) عن صراع الأجيال في المجتمع المصري.

أما فيما يتصل بقياس الاتجاهات كأحد المجالات الهامة التي يستخدم فيها السوسيومتري، فلقد تنوعت هذه المقاييس بتنوع موضوعات الدراسة من

(١) عبدالباسط عبدالمعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٠.

ناحية وتتوَع الباحثين فى ميدان علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع من ناحية أخرى. وتنقسم أساليب قياس الاتجاهات الى قسمين الأول: يُعرف بالمقاييس اللفظية: ويتكون المقياس اللفظى من عدد من العبارات تختلف من حيث شدتها ومداها مثال: (موافق جداً — موافق — محايد — أرفض — أرفض بشدة) ويطلب من المبحوث تحديد موقفة من بعض العبارات وفقاً للمتغيرات السابقة. والثانى: يعرف بالمقاييس الاسقاطية والتي تعتمد على أساليب متنوعة كاختبار "بقع الحبر"، أو اختبار "تفهم الموضوع" أو اختبار "التداعى" الذى يستخدم العبارات الناقصة ويطلب للمبحوث تكملتها وغيرها. والهدف الأساسى من هذه الأساليب هو تهئية الجو المناسب للفرد ليعبر عما يدور فى نفسه من أفكار واتجاهات دون أن يتبين حقيقة المقصود أو الدلالة الحقيقية لاستجابته للمثير، ومن ثم تستخدم الأساليب للتعرف على ما فى نفس الفرد من أمور استخدمت فى قياس الاتجاهات*.

أ — مقياس البعد الاجتماعى:

استخدم هذا المقياس "بوجاردس" Bogardus سنة ١٩٢٥ لقياس اتجاهات الأمريكين نحو أفراد الشعوب الأجنبية، ولا يزال هذا المقياس يستخدم حتى اليوم للتعرف على اتجاهات الأفراد تجاه الأجناس الأجنبية والعنصرية المختلفة. ويشتمل هذا المقياس على سبع عبارات تعبر كل منها عن موقف محدد من مواقف الحياة الاجتماعية، وتقيس البعد الاجتماعى الذى يحسه المبحوث تجاه الأجناس أو الشعوب الأخرى. ويبدأ هذا المقياس بأقصى درجات التقبل وينتهى بأقصى درجات النفور، وهذه العبارات هى:—

- ١— أقبل الدخول معهم فى علاقة زواج.
- ٢— أقبلهم فى النادى الذى انتمى اليه كأصدقاء.
- ٣— أقبل أن يقيموا فى نفس الشارع الذى أعيش فيه كجيران.
- ٤— أقبلهم كموظفين فى نفس عملى فى نفس البلد.
- ٥— أقبلهم كمواطنين فى بلدى.

* لمزيد من التفصيل عن هذه المقاييس راجع:—

— د. عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق.

— د. عبدالرحمن العيسوى، علم النفس الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥.

— د. مصطفى سويف، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٧٠.

٦- أقبليهم كزائرين فقط لبلدي.

٧- أوافق على استبعادهم نهائياً من بلدي.

ولقد قام "بوجارس" بتطبيق هذا المقياس على الأمريكيين تجاه أربعة شعوب أخرى وهم الكوريون والانجليز والبولنديون والسويديون، فوجد أن الأمريكيين يتقبلون هذه الشعوب بالترتيب التالي: الانجليز - السويديون - البولنديون - الكوريون.

ويلاحظ على مقياس "بوجارس" للاتجاهات أن الشخص الذي سوف يوافق على العبارة الأولى فهو بالتالي سوف يقبل العبارة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة، فالذي يوافق على الارتباط بعلاقة زواج من فتاة من شعب معين لايمانع من قبول أفراد هذا الشعب في النادي الذي ينتمي إليه أو كجيران في الشارع الذي يسكن فيه أو كمواطنين في بلده. أما الشخص الذي يوافق على العبارة السادسة أو السابعة سوف يرفض الخمس عبارات الأولى^(١).

ب - مقياس ليكرت: Likert

يعتمد هذا المقياس على اختيار وحدات للمقياس تمثل درجات مختلفة من الاتجاه بصورة يمكن معها تحديد قيمة دقيقة لكل وحدة. فكل عبارة يمكن تحديد اتجاه الفرد منها بشكل رقمي دقيق، فعلى سبيل المثال أن لكل عبارة خمسة متغيرات (موافق جداً - موافق - محايد - أرفض - أرفض بشدة)، وبإمكان الباحث أن يعطي لكل متغير وزن معين حسب طبيعة الموضوع المراد قياسه، فإذا أعطينا للمتغير الأول (موافق جداً) (٥) درجات نعطي (الموافق) (٤) درجات و(المحايد) (٣) درجات و(أرفض) (٢) درجتان، و(أرفض بشدة) (١) درجة واحدة ويتميز هذا المقياس بالبساطة وسهولة تطبيقه على عينات متنوعة من أفراد المجتمع، إلا أنه يتطلب من الباحث جهداً كبيراً في تحديد العبارات التي تصلح لقياس اتجاهات جماعة ما نحو موضوع محدد.

ج - مقياس المقارنة الزوجية: Paired Comparison

استخدم هذا المقياس لأول مرة في قياس الاتجاهات لدى "ثرستون" Thurstone ويعتمد هذا المقياس في جوهره على المقارنة بين موضوعين بهدف تفضيل أحدهما على الآخر. فإذا أردنا مثلاً قياس اتجاهات الطلاب نحو المواد التي يقومون بدراستها، وكانت هذه المواد خمس مواد وهي مثلاً

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٥٢٠.

(السياسة - والاجتماع - والأسرة - والاحصاء - والفلسفة). فإننا سوف نحصل على عشر مقارنات وهي:-

- ١- السياسة والاجتماع.
- ٢- السياسة والأسرة.
- ٣- السياسة والاحصاء.
- ٤- السياسة والفلسفة.
- ٥- الاجتماع والأسرة.
- ٦- الاجتماع والفلسفة.
- ٧- الأسرة والاحصاء.
- ٨- الفلسفة والاحصاء.
- ٩- الفلسفة والاجتماع.
- ١٠- الفلسفة والأسرة.

ويمكن تصنيف هذه المقارنات وفقاً للآثار التالية:

ن (ن) (١)

عدد المقارنات الزوجية بالحدوث = ١٠

٢

ر = عدد الوحدات المراد المقارنة بينها. وبالتطبيق على المثال السابق = ٥

٥ (٥-١) ٥ : ٢٠

عدد المقارنات الزوجية الممكنة = ١٠

٢ ٢ ٢

ويتميز هذا المقياس بالسهولة والبساطة في التطبيق إلا أنه يعاب عليه حاجته إلى عدد كبير من المقارنات الزوجية كما زاد عدد الموضوعات التي يسعى الباحث إلى قياس الاتجاهات نحوها.

١- مقياس "تريستون" : Thurstone

دليل "تريستون" هذا المقياس في قياس الاتجاه العقلي في الكنيسة. ويعتمد هذا الأسلوب على اختيار وحدات للقياس تمثل درجات مختلفة من الاتجاه. بصورة يمكن معها تحديد قيم دقيقة لكل منها، وبحيث تكون متساوية الأبعاد^(١). وتتحدد خطوات هذا المقياس على النحو التالي:-

- ١- يقوم الباحث بجمع أكبر قدر من العبارات التي تمثل الاتجاه نحو الموضوع المراد قياسه بحيث تمثل درجات مختلفة من التأييد والمعارضة.
- ٢- تفحص هذه العبارات للتأكد من أنها ذات أطوال معقولة وأنها بسيطة وواضحة وتشير إلى الموضوع بشكل مباشر.

(١) عبدالباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص ٥٢٠.

٣- تكتب كل عبارة على بطاقة منفصلة، ثم توزع على عدد كبير من المحكمين الذين لهم صلة بموضوع القياس ويطلب منهم تصنيفها كل على حده حسب ما تتضمن من التأييد والمعارضة في ١١ فئة، يرمز لكل فئة بحرف من حروف الهجاء، وتعطى كل فئة درجة، فالفئة الأولى تعطى الرقم (١)، والوسطى (٦) والأخيرة (١١).

٤- يقوم الباحث بعد ذلك بإختيار الجمل التي يتكون منها المقياس والتي أجمع المحكمين عليها، وحذف باقى الجمل التي يختلف المحكمين فى تقديرها. ومن عيوب هذا المقياس اعتماده على عدد كبير من المحكمين فى اختيار وتصنيف بنود المقياس، هذا فضلاً عن صعوبة تطبيقه بالمقارنة بمقياس "ليكرت".

هـ - مقياس "جتمان": Guttman

ويعرف هذا المقياس بالأسلوب أحادى البعد أو طريقة التدرج المتجمع، حيث أنها تستهدف عمل مقياس يتزايد تجمعه كلما أقتربت العبارات من نهاية المقياس. فالشخص الذى يوافق على عبارة معينة لابد أن يكون قد وافق على جميع العبارات الأدنى منها. فإذا سألنا فرداً عن دخله ووجهنا اليه الأسئلة التالية:-

لا	نعم
()	()
()	()
()	()
()	()
()	()
()	()

فإذا أجاب الفرد بالإيجاب على السؤال الأول فلا بد وان يجيب بالإيجاب على بقية الأسئلة. وإذا أجاب بالنفى على السؤال الرابع فسوف يجيب بالنفى أيضاً على الأسئلة الأول والثانى والثالث وهكذا.

أما فيما يتصل بالمقاييس الإسقاطية التي تستخدم فى قياس الاتجاهات الاجتماعية، فهناك العديد من هذه المقاييس المصورة، حيث يعرض على الفرد صورة مثلاً لإجتماع نقابة من النقابات، أو صورة لقائد يعطى أو امره، أو

- رئيس، أو صورة لتلاميذ في المدرسة أو الجامعة أو صورة لطلاب يؤدون الامتحانات... الخ، ويترك للفرد حرية التعبير عن اتجاهاته نحو هذه الصور.

٣- أسس استخدام القياس الاجتماعي:

تستند طريقة القياس الاجتماعي على بعض الأسس النظرية التي حددها "جاكوب مورينو" مؤسس هذه الطريقة يمكن الإشارة إليها على النحو التالي^(١):

١- التلقائية والابتكار: Spontaneity - Creativity

المقصود بالتلقائية هو ترك الفرد بحريته في الاستجابة لمختلف المواقف الاجتماعية المراد قياس اتجاهه نحوها، وهي خاصية أساسية للقياس. أما الابتكار فالمقصود به الفعل المبدع ذاته، وليس هناك علاقة تماثل بين التلقائية والابتكار، فقد يكون الفرد تلقائياً بشكل واضح ولكنه ليس بالضرورة قادراً على الابتكار. وهناك أساليب مختلفة يمكن من خلالها قياس طبيعة التلقائية والابتكار.

٢- الذرة الاجتماعية: Social Atom

تقوم السوسيومتريّة على تصور أساسي يعرف بالذرة الاجتماعية أ، "النواة" التي يلتف حولها الأفراد حين يدخلون في علاقات شخصية متبادلة، سواء كانت هذه العلاقات عاطفية أم ثقافية أم اجتماعية أم تجارية... الخ. ومن ثم تصبح الذرة الاجتماعية هي المحور الأساسي لعلاقات التجاذب أو التنافر بين أفراد الجماعات الاجتماعية المختلفة.

٣- الدور: Role

من المعروف أن لكل فرد شبكة من العلاقات، فهو بمثابة "بؤرة" للعديد من أنماط الجذب والنفور، وتظهر هذه "البؤرة" بوضوح كلما تعدد الأدوار التي يقوم بها الفرد، وقد يكون بعض هذه الأدوار متآلف، وقد يكون البعض الآخر متصارع. وقام "مورينو" بتحليل مفهوم الدور الذي يمثل من وجهة نظره تكاملاً لعدد من العناصر الخاصة بالجمعية، والأدوار لا تصدر عن الذات، وإنما تتشكل الذات نتيجة للقيام بأدوار مختلفة. ويمكن تصنيف الأدوار وفقاً لثلاث فئات، الأولى: الأدوار السيكوسوماتية Psychosomatic Role وتتمثل في الأكل والمشى والنوم. والثانية: الأدوار السيكودرامية

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٥٥.

Psychodramatic Role مثل دور الأم والأب والمدرس، والثالثة: الأدوار الاجتماعية Social Roles كدور الزوج والزوجة والابن والأبنة.. الخ^(١).

٣- شبكة العلاقات الشخصية المتبادلة: Interpersonal Networks

والمقصود بهذه الشبكة هو عمليات التفاعل التلقائي بين الأفراد، وهذا التفاعل هو أساس تكوين الجماعات الاجتماعية المختلفة، وقد تتخذ العلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد شكل التجاذب Atraction من خلال عمليات الاختيار المتبادل بين الأشخاص، وقد تتخذ هذه العلاقات الشخصية شكل النفور Repulaion وهي العلاقات السلبية التي لا يختار الأشخاص فيها بعضهم البعض بشكل إيجابي بل قد يتخذ هذا الاختيار شكلاً عدائياً، وقد تتخذ العلاقات شكل اللامبالاة أو الحيادية عندما يججم شخص ما عن الاختيار السلبي أو الإيجابي للأشخاص الذين يختارونه أو يرفضونه.

٤ - أدوات البحث في القياس الاجتماعي:-

لاشك أن القياس الاجتماعي أو "السوسيومتري" كأي طريقة من طرق البحث الاجتماعي له بعض الأدوات التي يستخدمها في عملية جمع البيانات. ولقد استخدم الباحثون الذين اعتمدوا على هذه الطريقة في بحوثهم بعض أدوات البحث التقليدية كالمقابلة البورية Focussed Interview أو المقابلة المقننة Standardized Interview، واستمارة البحث Questionnaire ولايختلف استخدام هذه الأدوات مع الأسلوب السوسيومتري عن بقية أساليب البحث الأخرى. وهناك بعض الأدوات الأخرى التي ظهرت لأول مرة مع بداية استخدام السوسيومتري، كالاختبار السوسيومتري Sociometric Test، وأنسويوجرام Sociogram، والمصفوفة السوسيومترية Sociometric Matrix*.

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٦.

* لمزيد من التفصيل راجع:

- محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق.
- غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي، مرجع سابق.
- عبدالباسط عبدالمعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق.
- زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق.
- محمد الجوهري، علم الاجتماع، مرجع سابق.

أ- الاختبار السوسيومتري : Sociomatic Test

يعد الاختبار السوسيومتري أحد الوسائل الهامة المستخدمة في قياس العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجماعات الصغيرة لمعرفة طبيعة هذه العلاقات، وما تتسم به من تجاذب أو تنافر أو تجاهل أو لامبالاة بين الأعضاء المكونين للجماعة. ويختلف الاختبار السوسيومتري من حيث الشكل والمضمون. باختلاف موضوع الاختبار.

ويتكون الاختبار السوسيومتري من قائمة من الأسئلة التي تدور حول موضوعات محددة، وروعى في صياغتها بعض الشروط كالبساطة، والسهولة، والوضوح، وتناسب مستواها اللغوى مع المستوى الثقافى للمبحوثين. ولكي يحقق الاختبار السوسيومتري الهدف الذى يسعى اليه ينبغى: تحديد الجماعة موضع الاختبار تحديداً دقيقاً، تحديد معيار الاختبار (التفضيل) أو النبذ بين أعضاء الجماعة، تحقيق السرية التامة فى الاختبار لتكون هناك حرية كاملة فى التعبير عن الرأى، وتوافر شروط التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعة.

والهدف الأساسى من الاختبارات السوسيومترية هو ترتيب بناء الجماعة بشكل أكثر تنظيماً وإتاحة الفرصة لجميع الأعضاء فى المشاركة فى أنشطة الجماعة المختلفة، ومن ثم فالاختبار السوسيومتري يكشف عن مدى تماسك الجماعة، وما بها من تصدعات أو تكتلات، ويعطى صورة واضحة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة بين أعضاء الجماعة، هذا فضلاً على ما يتيح هذا الاختبار من حرية كاملة لأعضاء الجماعة للتعبير عن أنفسهم دون ضغوط فى اختياراتهم المختلفة للأعضاء الآخرين.

ولقد وضع "مورينو" عدداً من الاختبارات السوسيومترية المختلفة، مثل اختبارات التلقائية، واختبارات تمثيل الأدوار، واختبارات الهيئة الاجتماعية، واختبار السويودراما، واختبار السيكدراما، واختبارات المواقف.. الخ^(١).

(١) لويس كامل مليكة، سيكولوجية الجماعات والقيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ص

ب - السوسيوجرام: Sociogram

يُعد السوسيوجرام أحد الأدوات الأساسية في القياس الاجتماعي، والمقصود بالسوسيوجرام "خريطة العلاقات الاجتماعية" أو "المخططة الاجتماعية"، ويستخدم السوسيوجرام في قياس العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعة. تتكون السوسيوجرام يمكن أن نرسم لكل عضو من أعضاء الجماعة برمز معين أو رقم ونضعه داخل دائرة صغيرة يخرج منها سهم معين إلى الدوائر الأخرى حسب اختيارات كل فرد. وجدير بالذكر ليست هناك طريقة محددة لرسم السوسيوجرام، فيمكن استخدام مثلثات أو مربعات بدلاً من الدوائر لنرمز بها لكل فرد في الجماعة، وقد يكتب اسم العضو داخل الدائرة وقد يرمز له بحرف أو رقم معين. ويرمز للاختيار بخط يصل بين الدائرتين، ويرمز لإتجاه الاختيار بسهم في نهاية كل خط، أمام الاختيار المتبادل فيرمز له بسهم ذي رأسين. ولكي نوضح كيفية رسم خريطة العلاقات الاجتماعية "السوسيوجرام" نأخذ المثال التالي:—

"طلب من إحدى عشر فرداً في جماعة صغيرة أن يختاروا الذين يفضلون الخروج معهم في رحلة ترفيهية. بحيث يختار كل فرد عضو واحد فقط. وتم تقرير نتيجة الاختيار كما هو موضح في الشكل التالي:—

ويمكن تحديد أنواع العلاقات الاجتماعية التي كشف عنها السوسيوجرام فيما يلي:-

١- علاقات مركزية: وتبدو في إختيار بعض أفراد الجماعة "سيف" فكان موضع إختيار كل من (محمد) و (عمرو) و (إيهاب) و (مصطفى)، ومن ثم فسيف يعتبر "نجم" هذه الجماعة لأنه حصل على أكبر عدد من الاختيارات.

٢- علاقات تتابعية: والمقصود بها تتابع العلاقة من فرد الى آخر في عمليات الاختيار، كما هو الحال في علاقة "محمد" "سيف"، و"سيف" "بخالد"، و"خالد" "بعمرو"، و"عمرو" و"سيف" وتفيد تتابع هذه العلاقة على انتشار المعلومات او الشائعات وسرعة انتقالها لأن "محمد" سوف ينتقل الى "سيف" و"سيف" الى "خالد"، و"خالد" الى "عمرو"... وهكذا.

٣- علاقة متبادلة: وتظهر هذه العلاقة في تبادل الاختيار بين عضوين من أعضاء الجماعة، كما هو الحال في علاقة "هشام" "بأحمد" فكل منهما قد اختار الآخر، وهذا النوع من العلاقات يضعف من بناء الجماعة ويؤدي الى عدم تماسكها الداخلي، ويقلل من التعاون العام بين أعضائها.

٤- علاقة دائرية: وهي العلاقة التي تبدأ بعضو معين داخل الجماعة وتمر ببعض الأعضاء الآخرين ثم تعود الى نفس العضو. كما هو الحال في العلاقة بين "سيف" و"خالد" و"عمرو". حيث اختار "سيف" "خالد". واختار "خالد" "عمرو" واختار "عمرو" "سيف". ومثل هذه العلاقات على العكس من العلاقات المتبادلة، فهي تقوى من بناء الجماعة وتعمل على تماسكها، وتزيد من عملية التعاون بين أعضائها.

٥- علاقات منفردة: وهي علاقة من طرف واحد، وتظهر حينما يفشل الفرد في اجتذاب أى عضو من الأعضاء الآخرين نحوه، فهو يختار أفراد من جماعته، في نفس الوقت الذى يتجاهله كل الأعضاء. وتظهر هذه العلاقة في حالة كل من "إيهاب" و"مصطفى" و"عاطف" و"أشرف" و"إبراهيم". ويفضل بعض الباحثين رسم خريطة العلاقات الاجتماعية "السوسيوجرام" بكل إختيار على حدة، أى للإجابة على سؤال واحد فقط، بينما يفضل البعض الآخر رسم أكثر من علاقة على نفس الخريطة بحيث يرمز لأسهم العلاقات الموجبه باللون الأحمر مثلاً، والعلاقات السالبة باللون الأسود، أو استخدام الأسهم العادية للإشارة الى العلاقات الموجبة، والأسهم المتقطعة للعلاقات السالبة. كما هو موضح فى الرسم التالى:

ومن مزايا "السوسيوجرام" سهولة فهمه وبساطته هذا من ناحية، وتلقائية التعبير عن العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعة من ناحية أخرى. ومن ثم يفيد استخدامه في المراحل الأولى لدراسة المجتمع المحلي^(١)، لما يقدمه للباحث من صورة أولية عن طبيعة هذا المجتمع وأنماط التفاعل السائدة فيه، وسرعة التعرف على القادة والأفراد الأكثر مشاركة في حياة الجماعة، والأفراد الأقل مشاركة، والأفراد المعزولين اجتماعياً. ويفيد "السوسيوجرام" أيضاً في التعرف على "الزمر" أو الشل "الصغيرة داخل بناء الجماعة. ومن عيوب هذه الطريقة عدم التأكد من أن أفراد الجماعة على درجة من الوعي والأمانة في الإفصاح عن مشاعرهم بصدق تجاه الآخرين^(٢)، وقد يتلافى الباحث هذا العيب بتأكيد سرية الاختيارات لدى كافة أعضاء الجماعة. وثمة عيب آخر هو صعوبة رسم خريطة العلاقات الاجتماعية للجماعة موضوع الدراسة في حالة تعدد الاختيارات، هذا فضلاً عن أن السوسيوجرام يقيس فقط شكل العلاقة الاجتماعية أو اتجاهها ولا يفسر لنا كيف نشأت هذه العلاقة وكيف تطورت وأسباب وجودها.. الخ.

٣. المصفوفة السوسيومترية: Sociometric Matrix

تعد المصفوفة السوسيومترية إحدى الأدوات الهامة في القياس الاجتماعي. وتستخدم في قياس العلاقات الاجتماعية في جماعة ما، سواء كانت هذه العلاقة إيجابية

(١) محمد الجوهري، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٤.

ويرمز لها (+1)، أو سلبية ويرمز لها (-1)، أو محايدة، ويرمز لها (صفر). فإذا كان لدينا مكونه من ثمانية أعضاء، وطلب إليهم تحديد إختياراتهم الايجابية أو السلبية أو المحايدة بالنسبة لكل عضو، او بمعنى آخر أن يحدد كل عضو موقفه من الأعضاء الآخرين، فإننا سوف نحصل على المصفوفة السوسيومترية التالية:—

أعضاء الجمعة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	لمجموع
١		١-	١+	١-	١+	١-	١+	١+	١+
٢	١+		١-	١-	١+	١-	١-	١+	١-
٣	١+	١-		١+	١+	١-	١+	١-	١+
٤	١+	١+	١-		١+	١+	صفر	١+	٤+
٥	١-	١+	١+	١+		١+	صفر	١-	٢+
٦	صفر	١+	١+	١+	صفر		١-	١+	٣+
٧	١-	١-	صفر	١+	١-	١+		١+	صفر
٨	صفر	صفر	١+	١-	١+	١+	صفر		٢+
المجموع ع	١+	صفر	٢+	١+	٤+	١+	صفر	٣+	١٢

"المصفوفة السوسيومترية"

تشير السطور الراسية الى إختيارات الفرد الواحد لباقي أفراد جماعته، أو بمعنى آخر وجهة نظر الفرد لعلاقته بباقي أفراد الجماعة سواء بالايجاب أو السلب أو المحايدة (التجاهل). فعلى سبيل المثال أن الفرد رقم (٢) والفرد رقم (٧) تتساوى مجموع إختياراتهم الايجابية مع مجموع إختياراتهم السلبية، بينما يحظى الفرد رقم (٥) على أكبر نسبة من الإختيارات أو العلاقات الايجابية مع أربعة من أعضاء الجماعة قام بإختيارهم هو نفسه.

بينما تشير السطور الأفقية الى مجموع الإختيارات التي تلقاها الفرد من باقي أعضاء جماعة سواء بالايجاب أو السلب أو المحايدة. ونلاحظ أن الفرد رقم (٤) قد حصل على مجموع (+٤) إختيارات إيجابية، فهو بمثابة "النجم" بالنسبة لباقي أعضاء جماعته، بينما حصل الفرد رقم (٢) على مجموع (-١)، وعلى الرغم من ثلاثة من أعضاء الجماعة قد أختاروه بشكل إيجابي الا أنه تلقى أربعة إختيارات سلبية من باقي أعضاء الجماعة، فهو في النهاية (منبوذ) من غالبية أعضاء الجماعة، اما الفرد رقم (٧) فقد تلقى ثلاثة إختيارات بالايجاب وثلاثة إختيارات بالسلب وتجاهل من قبل العضو رقم (٣)

وكانت حصيلة اختياراته من قبل أعضاء جماعته (صفر)، وجدير بالذكر أن هذه النتيجة هي نفس نتيجة اختيار هذا العضو لباقي أعضاء جماعته.

٥- ثبات وصدق المقاييس السوسيوومترية:

تختلف الاختبارات أو المقاييس باختلاف الصفات أو الخصائص التي يسعى لقياسها، فكل صفة أو مجموعة من الصفات المتجانسة مقياس يصلح أكثر من غيره لقياسها، فالمقياس الذي يصلح لقياس التفاعل الاجتماعي بين جماعات اللعب لا يصلح مثلاً لقياس بناء السلطة في الوحدات العسكرية، والمقياس الذي يصلح لقياس القدرة على السمع لا يصلح لقياس الوزن أو الطول أو الذكاء .. الخ. ومن ثم أكد المشتغلون بالبحث الاجتماعي على أهمية ثبات وصدق المقاييس أو الاختبارات المستخدمة في إجراء البحوث الاجتماعية لضمان الوصول الى نتائج تعبر بشكل دقيق عن الواقع المدروس.

أ - ثبات المقاييس السوسيوومترية:

المقصود بثبات المقياس هو المطابقة التامة بين نتائج المقياس في المرات المتعددة التي يطبق فيها على نفس الأفراد. ويمكن تحديد أهم الأساليب الإحصائية كقياس الثبات على النحو التالي^(١):-

١- طريقة إعادة الاختبار: Test Retest

تتسم هذه الطريقة بالبساطة والسهولة حيث تقوم على فكرة إعادة نفس الاختبار على نفس عينة البحث مرة أخرى بعد فترة زمنية يحددها الباحث. ويحسب معامل ارتباط درجات المرة الأولى، ومعامل ارتباط درجات المرة الثانية والمقارنة بينهما للحصول على معامل ثبات الاختبار. ويعترض بعض الباحثين على مدى جدوى هذه الطريقة في التأكد من ثبات الاختبار لتأثرها بالفصل الزمني بين إجراء الاختبار الأول والثاني، فقد تختلف ظروف إجراء الاختبار في الموقفين مما يؤثر حتماً على تباين النتائج.

٢- طريقة التجزئة النصفية: Split - Half

في هذه الطريقة يقوم الباحث بتقسيم الاختبار (المقياس) بعد تطبيقه الى نصفين وحساب معامل ارتباط كل نصف على حدة ثم الحصول بعد ذلك على معامل ثبات الاختبار ككل من خلال المعادلات الإحصائية المناسبة لذلك.

(١) فؤاد البهي السيد، علم النفس الاحصائي، دار الفكر العربي، غير مبين سنة النشر، ص ٤٢٤.

فعلى سبيل المثال إذا كان الاختبار مكون من عشر أسئلة فيمكن اعتبار النصف الأول من الاختبار الأسئلة من رقم (١) الى (٥)، والنصف الثانى الأسئلة من رقم (٦) الى (١٠). وهناك أسلوب آخر لقسمة الاختبار بحيث يتكون النصف الأول من الأسئلة ذات الأرقام الفردية (١،٣،٥،٧،٩) والنصف الثانى الأسئلة الزوجية (٢،٤،٦،٨،١٠).

٣- طريقة الاختبارات المتكافئة: Equal Tests

تعتمد هذه الطريقة على تكوين صورتين متكافئتين ومتماثلتين تماماً للاختبار، وتطبيقهما في نفس الوقت على نفس الأفراد، ثم حساب معامل ارتباط الصورة الأولى من الاختبار ومقارنتها بمعامل ارتباط الصورة الثانية، ويدل معامل ثبات الصورتين المتماثلتين على معامل ثبات الاختبار.

ولقد أكد كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعى على عدم أهمية ثبات الاختبار السوسيومترى، فمن المفترض أن الاختبار السوسيومترى يعكس التغير الذى يحدث فى بناء الجماعة، وايضاً فى شبكة العلاقات بين أفرادها بعد فترة من الزمن، ومن ثم فإذا أعطى الاختبار السوسيومترى نفس النتائج بعد فترة من الزمن، فإن ذلك سوف يثير الشك فى الاختبار ولا يعتبر دليلاً على ثباته^(١). ولذلك فهناك صعوبة للتأكد من ثبات الاختبار السوسيومترى، هذا فضلاً عن اختلاف صور الثبات، فالتغير فى بناء الجماعة أو طبيعة العلاقات بين أعضائها سوف يزيد من صعوبة التأكد من ثبات الاختبار.

ب - صدق الاختبار السوسيومترى:

إذا كان المقصود بالثبات هو ثبات المعلومات أو البيانات أو الآراء أو المواقف والاتجاهات التى يظهرها المبحوثين تجاه الآخرين، فالصدق يعنى صدق الاختبار فيما وضع لقياسه، أو بمعنى آخر أن الصدق يعنى صدق أسئلة الاختبار من حيث صياغتها ومحتواها وطريقة تطبيقها على المبحوثين لتحقيق الهدف من الاختبار. ويرى كثير من الباحثين أن صدق نتائج الاختبار تعتمد فى جزء كبير منها على الصيغة التى يصاغ بها الاختبار وعلى الطريقة التى ينفذ بها.. الخ^(٢).

(١) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩٩.

ومن الضروري عند اعداد المقياس السوسيومتري التأكد من صدقه وصحته، وأن المقياس سوف يحقق الهدف الذى وضع من اجله أى قياس ما يجب قياسه. فعلى سبيل المثال إذا كنا بصدد قياس أطوال معينة فإنه يتعين علينا قياس هذه الأطوال بأطوال أخرى متعارف عليها "كالمتر"، أما إذا استخدمنا "الكيلو جرام" فى قياس الأطوال فسوف نكون غير صادقين فيما نقيس.

ولقد حدد "جيننجر" بعض الشروط التى ينبغى على أخصائى الاختبار السوسيومتري مراعاتها لضمان صدق بيانات الاختبار وهى^(١):-

١- صياغة كلمات وعبارات الأسئلة بدقة وسهولة بحيث تتاح للمبحوثين الفرصة لفهم الاختبار.

٢- إتاحة الوقت الكافى للإجابة على الاختبار.

٣- تحديد مسار السؤال للمبحوثين لكى يحدد المبحوث موقفه مقدماً للاتجاه الذى يسير فيه الاختبار.

٤- تقديم الموقف الذى يدور حوله الاختبار بشئ من الاهتمام والحماس.

٥- ضرورة استيعاب الباحث الذى يستخدم الاختبارات السوسيومترية لجميع اجراءات الاختبارات لمواجهة المفاجآت بأسرع ما يمكن.

وبصفة عامة أن مراعاة الباحثين لهذه الشروط عند تصميم الاختبارات السوسيومترية سوف يساعدهم على الوصول الى اختبارات على درجة عالية من الصدق وتحقيق الهدف الذى وضعت من أجله أى قياس ما يجب قياسه.

٦ - تقييم القياس الاجتماعى:

لاجدال فى أن الأساليب السوسيومترية المختلفة تعد احدى الطرق الهامة فى دراسة العلاقات الاجتماعية (الشخصية) بين أفراد الجماعات المختلفة، معتمدة فى ذلك على التفاعل التلقائى بين أفراد الجماعة. ويمكن الإشارة بإقتضاب الى أهم مميزات وعيوب السوسيومترية على النحو التالى:-

أ - إيجابيات السوسيومتري:

١- سهولة فهم الاختبارات السوسيومترية، وسهولة تطبيقها وتحليل بياناتها، فهى لا تحتاج الى معرفة أكاديمية متخصصة من قبل القائمين على تطبيقها.

(١) المرجع السابق، ص ٥٠٠.

٢- تستخدم الأساليب السوسيومترية في قياس العلاقات الاجتماعية الشخصية بين أفراد الجماعة بشكل تلقائي واقعي، ومن ثم فهذه الأساليب تفيد في اعطاء صورة واضحة عن نمط التفاعل الاجتماعي بين أعضاء الجماعة.

٣- يفيد السوسيوجرام في بعض المسائل التي تتعلق ببناء الجماعة واستمراريتها كالتعرف على طبيعة القيادة داخل الجماعة، والروح المعنوية، والكشف عن الزمر أو "الشلل" أو التكتلات داخل بناء الجماعة، هذا فضلاً عن تحديد الأفراد الذين يحظون بمكانة اجتماعية مرتفعة، والأفراد المشاركين اجتماعياً، والأفراد غير المشاركين.. الخ.

ب - سلبيات السوسيومتري:

- ١- تعتمد الأساليب السوسيومترية على مبدأ تلقائية العلاقات الاجتماعية وفي هذه النظرة تبسيط متزايد في تصور العوامل المؤثرة في السلوك الاجتماعي، فالسلوك الاجتماعي بلا شك يتأثر بعدد كبير من العوامل المتداخلة مع بعضها البعض، وليست التلقائية سوى عامل واحد فقط.
- ٢- لا تخلو السوسيومترية كنسق من الأفكار تأثيرها الواضح بالأيديولوجية الأمريكية، ليس ذلك وحسب، فلقد قرر "مورينو" الى انها تتناسب تماماً مع طبيعة المجتمع الأمريكي الذي يتيح الحرية والتلقائية. في تكوين الجماعات المختلفة.
- ٣- ان احتمالات التحيز في الأساليب السوسيومترية من القضايا التي يصعب تحديدها بدقة، ومن ثم يواجه الباحثون بصعوبة عدم التأكد من أن المبحوثين على درجة من الوعي والأمانة في الاعلان عن اختياراتهم بصدق تجاه أعضاء الجماعة الآخرين.

الفصل العاشر

إستثمارة البحث

تمهيد:

- ١- تعريف الاستثمار وأهميتها.
- ٢- أنواع الإستثمارات:
 - أ- استثمارة البحث
 - ب- الإستبيان
- ٣- مجالات استخدام الاستثمارة.
- ٤- الإجراءات المنهجية لبناء الاستثمارة.
- ٥- ثبوتات وصندوق الاستثمارة.
- ٦- تقويم الإستثمارة:
 - أ- مزايا الإستثمارة.
 - ب- عيوب الاستثمارة.

لاشك تُعد إستمارات البحث بأنواعها المختلفة من أهم أدوات البحث في العلوم الاجتماعية وأكثرها ريوغاً وإنتشاراً، لما تمتاز به هذه الأدوات عن غيرها من الأدوات الأخرى من جمع البيانات تتسم بالشمول والإتساع، في مقابل إختصار الجهد والتكلفة وسهولة المعالجة الكمية وإستخدام الاساليب الإحصائية المختلفة.

ويستطيع المتفحص لما كتب عن إستمارات البحث في كثير من المؤلفات العربية والأجنبية أن يلحظ بعض الخلط في تحديد أنواع الإستمارت، كإستمارة البحث ، أو الإستبيان، أو دائل الملاحظة، أو دليل المقابلة. ويمكن القول أن القاسم المشترك من هذه الأنواع المختلفة هو وجود " الإستمارة " تحتوى على مجموعة من الأسئلة التى تدور حول موضوع معين. إلا أن قد تعارف لدى الكثيرين من المشتغلين بمناهج البحث التفرقة بين نوعين من الإستمارات الأولى: إستمارة البحث من خلال المقابلة، Interviewing Schedule، تلك الإستمارة التى يقوم الباحث بتوجيه أسئلتها للمبحوثين فى موقف مقابلة. أما الإستبيان Questionnaire فهو تلك الإستمارة التى ترسل إلى المبحوث بطريقة أو بأخرى ويقوم بإستيفائها بنفسه وإرسالها إلى هيئة البحث " كالإستبيان البريدى " و"الإستبيان" هو وجود الباحث أو عدم وجوده فى موقف مواجهه مع المبحوث. أما فيما يختص بدليل المقابلة Interview Guide أو " دليل الملاحظة " Observation فهما عبارة أيضاً عن إستمارات تشتمل على أسئلة أو نقاط معينة ينبغى على القائم بالمقابلة أو الملاحظة أن يغطيها مع المبحوث خلال موقف المقابلة، أو موقف الملاحظة.

وبصفة عامة إن عملية إعداد إستمارات البحث فى العلوم الاجتماعية تخضع لعدة إجراءات منهجية متتابعة بدء من التفكير فى أسئلة البحث ومضومونها وصياغتها وإختبارها والتحقق من صلاحيتها. وسوف أتناول فى هذا الفصل تعريف الإستمارة وأنواعها المختلفة، ومجالات إستخدامها، والإجراءات المنهجية المتبعة فى بنائها، وكيفية التحقق من معامل الثبات والصدق، وأخيراً المزايا والعيوب.

أولاً: تعريف الإستمارة وخصائصها:

ليس هناك خلاف حول تعريف إستمارات البحث Questionnaires فهي من وجهة نظرنا عبارة عن " وعاء يضم مجموعة من الأسئلة بهدف الحصول على معلومات تدور حول موضوع أو موقف أو مشكلة معينة " أما إذا شئنا التخصيص، فيمكن تعريف "إستمارة البحث " عن طريق المقابلة الشخصية Interviewing Shedule بأنها " وعاء يضم مجموعة من الأسئلة الموجهة إلى أفراد بهدف الحصول على معلومات حول موضوع أو موقف أو مشكلة معينة من خلال موقف مواجهة يجمع بين باحث ومبحوث في آن واحد "

أما الإستبيان Questionnaire فهو عبارة عن " نموذج يضم مجموعة من الأسئلة التي تدور حول موضوع ما يتم إرساله إلى المبحوثين بطريقة أو بأخرى لينجيبوا على هذه الاسئلة ثم إعادته ثانياً إلى الهيئة المشرفة على البحث، ويتم ذلك دون مساعدة الباحث للمبحوثين في فهم الأسئلة أو تدوين الإجابة عليها^(١). وهناك تعريف آخر للإستبيان فهو " عدد من الأسئلة المحددة يرسل عادة بالبريد إلى عينة من الأفراد ويطلب منهم الإجابة عنها كتابة، فلا يتطلب الأمر شرحاً شفهياً مباشراً أو تفسيراً من الباحث " ^(٢). وهناك تعريف ثالث للإستبيان بأنه " وسيلة من وسائل جمع البيانات، وتعتمد أساساً على إستمارة تتكون من مجموعة من الاسئلة ترسل بواسطة البريد أو تسلم إلى الأشخاص الذين تم إختيارهم لموضوع الدراسة ليقوموا بتسجيل إجاباتهم على الأسئلة الواردة به وإعادته ثانية، ويتم ذلك بدون مساعدة الباحث للأفراد سواء في فهم الأسئلة أو تسجيل الإجابات عليها " ^(٣).

ويفرق "جود" W.Good و " هات" P.Hatt بين ثلاثة نماذج من الإستمارات وهي^(٤):

١- "الإستبيان" Questionnaire، وهو عبارة عن أداة تحتوى على مجموعة

(١) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

(٢) إبراهيم أبو لغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٣) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، صص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(1) Willan j. G ood & Paul K. Hatt, Methods in Social Resrarch, New York : Mc Graw- Hill Book co. Inc., 1952, p.133.

من الأسئلة بهدف الحصول على أجوبة لها يقوم المبحوث بالإجابة عليها بنفسه دون مساعدة الباحث.

٢- " إستمارة البحث " Schedule، فهي عبارة عن مجموعة من الاسئلة التي توجه إلى المبحوثين في موقف مقابلة شخصية مباشرة مع القائم بالمقابلة.

٣- " دليل المقابلة " Interview Guied، فهو عبارة عن مجموعة من النقاط أو الموضوعات التي يجب على القائم بالمقابلة أن يحصل على إجابة عليها من خلال مقابلته للمبحوث، ويعد " دليل المقابلة " من الناحية المنهجية أكثر مرونة من الشكليات السابقين من حيث الاسلوب وترتيب الأسئلة واللهجة التي يمكن للمقابل أن يوجه بها أسئلته للمبحوثين أثناء موقف المقابلة .

وبصفة عامة، أن هذه التعريفات ليس بينها خلاف كبير حول طبيعة الإستمارات " سواء كانت إستمارة البحث التي يتطلب ملؤها من خلال الباحث نفسه، أو الإستبيان الذي يقوم المبحوث نفسه بالإجابة على أسئلته وإرسالها للباحث، أو دليل المقابلة الذي يوجه الباحث نحو الموضوعات التي تفيد البحث أثناء المقابلة.

أما فيما يختص بأهمية "إستمارة البحث" و"الإستبيان"، فهما وسيلتان لا غنى عنهما في البحث الاجتماعي خاصة في دراسة بعض الموضوعات التي لا يمكن دراستها من خلال بعض الوسائل الأخرى كالملاحظة مثلاً فهي قاصره عن إعطائنا معلومات تتصل بمدى إدراك الأفراد للمواقف التي يتعرضون لها، أو اتجاهاتهم وعقائدهم وآرائهم نحو موضوعات معينة، أو مشاعرهم أو دوافعهم نحو سلوك معين، بينما تفيد إستمارة البحث أو الإستبيان في الحصول على مثل هذه المعلومات.

ثانياً: أنواع الإستمارات:

لاجدل في أن مصطلح " الإستمارة " مصطلح عام يستخدم للإشارة إلى " الإستبيان " فنقول " إستمارة إستبيان " Questionnaire، ويستخدم للإشارة إلى كشف البحث فنقول " إستمارة البحث " Schedule ويستخدم أيضاً للإشارة " دليل المقابلة " فنقول مقابلة أو " دليل مقابلة " Interview Guied .

ومن وجهة نظرنا يمكن التمييز بين نوعين أساسيين من الإستمارات الأول يعرف بإسم " إستمارة البحث " والثاني يعرف بإسم " الإستبيان " .

(أ) إستمارة البحث Schedule.

تعد إستمارة البحث أكثر أدوات جمع البيانات شهرة وانتشاراً في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة. وتقيد " إستمارة البحث " تقريباً في كافة البحوث الاجتماعية، فهي تستخدم في البحوث الكشفية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الظاهرة موضوع الدراسة، وتستخدم أيضاً بكفاءة أكثر في البحوث الوصفية لتقرير ما توجد عليه الظاهرة في الواقع، كما تستخدم أيضاً في البحوث التجريبية أو البحوث التي تختبر فروضاً سببية والبحوث التقويمية وبحوث المشروعات وغيرها. ويمكن القول أن إستمارة البحث تستخدم عادة في البحوث التي تتطلب جمع بيانات كثيرة عن الظاهرة أو المشكلة موضوع البحث. وسوف أتناول الإجراءات المنهجية لبناء الإستمارة وإعدادها للبحث في مكان لاحق من هذا الفصل.

(ب) الإستبيان Questionnaire.

كما هو معروف أن " الإستبيان " ترجمة للكلمة الإنجليزية Questionnaire ، ولهذه الكلمة نظائرها في اللغة العربية فهي تترجم أحياناً " إستقصاء " وأحياناً أخرى " إستفتاء "، وهذه المعاني تشير إلى وسيلة واحدة لجمع البيانات تعتمد على عدد من الاسئلة المعدة بشكل مبسط ومتسلسل ترسل للمبحوثين أما عن طريق البريد أو تسلم باليد، أو تنشر على صفحات الجرائد، والمجلات، أو على شاشة التلفزيون أو عن طريق الإذاعة، أو التليفون، ليجيب عليها المبحوثين ويقوموا بإرسالها إلى الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث^(١). ويتخذ الإستبيان عدة أنواع وهي:

١- الإستبيان البريدي: Mailed Questionnaire.

وهو ذلك النوع من إستمارات البحث التي ترسل للمبحوثين عن طريق البريد ثم يقوموا بالإجابة عليها وإرسالها ثانية إلى الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث. ويراعى في هذا النوع من الإستبيان أن تكون أسئلته واضحة وبسيطة ولا تعنى أكثر من معنى واحد محدد، وبلغة المبحوث التي يفهمها جيداً، وألا تكون كثيرة العدد حتى لا تسبب ملل للمبحوث. وينبغي على الباحث الذي يستخدم الإستبيان البريدي أن يضاعف

(١) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٤١.

حجم عينة البحث، لأن من المعروف أن نسبة الفاقد من هذا الاستبيان قد تصل إلى أكثر من ٥٠% . كما ينبغي أن يرفق مع الاستبيان مظروف مكتوب عليه عنوان الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث وملصق عليه طابع البريد حتى ييسر على المبحوثين إرسال الاستبيان. ويطلق على الاستبيان الذي ينشر على صفحات الجرائد أو المجلات وشاشات التلفزيون أيضاً اسم الاستبيان البريدي.

٢- الاستبيان غير البريدي: Non Mailed Questionnaire.

الاستبيان غير البريدي هو ذلك الاستبيان الذي يقوم الباحث أو أحد معاونيه بتوزيعه على المبحوثين ثم جمعه منهم بعد إستيفائه. و يتفق الاستبيان البريدي وغير البريدي في خاصية واحدة وهي أن المبحوث نفسه هو الذي يقوم بالإجابة على أسئلته دون مساعدة من الباحث. ويستخدم هذا النوع من الاستبيان في الحالات التي يمكن جمع المبحوثين في مكان واحد كالطلبة في المدارس والجامعات والعمال في المصانع والموظفين في المكاتب أو أي جماعة من الأفراد مجتمعين في مكان معين لغرض من الأغراض.

٣- الاستبيان التليفزيوني:

وهو الاستبيان الذي تتم الإجابة على أسئلته من خلال الحديث التليفزيوني بين الباحث والمبحوث. وعلى الرغم من سهولة هذا النوع من الاستبيان وقلة تكاليفه، إلا أنه لا يصلح للتطبيق إلا للفئات التي يتوفر لديها هذه الوسيلة في الإتصال.

وهناك تصنيفات أخرى للاستبيان ولكنها أقل عمومية، وتتداخل مع التصنيف السابق، فعلى سبيل^(١):

١- يصنف الاستبيان من حيث درجة التقنين إلى:

أ- استبيان مقنن Standardized وهو التي تعرض أسئلته على المبحوثين بنفس الصياغة ونفس الترتيب.

ب- استبيان أقل تقنياً Less Standardized وهو التي تترك الحرية للمبحوث لكي يجيب بعبارات ومفردات لغته.

٢- ويصنف الاستبيان من حيث طريقة التطبيق إلى:

أ- الاستبيان المدار ذاتياً من قبل المبحوث، كالاستبيان البريدي.

(١) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

ب- الإستبيان المدار ذاتياً من قبل الباحث، وهو ذلك الإستبيان الذى يطبق خلال موقف مقابلة شخصية بين الباحث والمبحوث.

٣- يصنف الإستبيان من حيث عدد المبحوثين إلى:

أ- الإستبيان الفردى وهو الذى يعطى للمبحوثين للإجابة عليه بمفرده.

ب- الإستبيان الجماعى وهو الإستبيان الذى يعطى للأفراد مجتمعين.

على أية حال هذه التصنيفات التى أشرنا إليها جميعاً ليست مستقلة بعضها عن البعض الآخر، ولكن بينها تداخل وتشابك كبير.

ثالثاً: مجالات استخدام الإستمارة:

كما أشرنا من قبل أن " الإستمارة يمكن إستخدامها تقريباً فى كافة البحوث الاجتماعية، ومن ثم فهناك تعدد واضح فى مجالات إستخدامها، وسوف أشير إلى أبرز هذه المجالات على النحو التالى:

١- مجال المسوح الاجتماعية العامة Public Social Survey.

وهى تلك المسوح التى تتناول جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية فى مواقف إجتماعية مختلفة، سواء كانت هذه المسوح على مستوى المجتمع المحلى (قرية أو مدينة) أو على مستوى المجتمع المحلى ككل. فعلى سبيل المثال قد يشمل المسح العام على مستوى مدينة ما النشاط التعليمى، والخدمات الصحية، والظروف المعيشية، والأحوال السكنية، وأنماط الجرائم، والمشكلات الاجتماعية، ومظاهر الصراع الطبقي أو العنصرى أو الطائفى، وأنواع العلاقات الاجتماعية السائدة، والنشاط السياسى والدينى والثقافى والترويحي والرياضى، ومستوى الخدمات العامة، وأحوال العمال وظروفهم الإقتصادية والاجتماعية إلخ. ولاشك أن " إستمارة البحث " تعد أفضل وسيلة يمكن إستخدامها للحصول على بيانات عن الجوانب الاجتماعية السابقة ذكرها.

٢- المسوح الاجتماعية المتخصصة Specialized Social Survey.

وهذه المسوح هى التى تهتم بدراسة جانب أو قطاع واحد من الحياة الاجتماعية فى مجتمع معين، مثل قطاع التعليم أو الصحة أو العمل أو البطالة، أو الجريمة أو غير ذلك. وتفيد إستمارة البحث كأداة أساسية فى دراسة مثل هذه الموضوعات.

٣- بحوث الرأى العام Public Opinion.

تعد الإستمارة من أهم الأدوات التى تستخدم فى قياس الرأى العام

نحو موضوعات محددة، وتستخدم أيضاً فى بحوث الاتجاهات وذلك لسهولة إستخدامها على قطاعاً كبيراً من أفراد المجتمع.

رابعاً: الإجراءات المنهجية لبناء الإستمارة:

لأشك أن الإجراءات المنهجية التى ينبغى إتباعها فى بناء الإستمارة لا تختلف كثيراً عن الإجراءات المنهجية المتبعة فى أدوات البحث الإجتماعى بصفة عامة من حيث تحديد المشكلة والهدف من بحثها، وتحديد نوعية البيانات المطلوبة، وتحديد مجتمع أو عينة الدراسة وغيرها. إلا أن محتوى الأداة سوف تختلف بالطبع من أداة إلى أخرى. وبصفة عامة هناك عدة خطوات ينبغى إتباعها عند تصميم الإستمارة لضمان فاعليتها فى تحقيق الهدف الذى صممت من أجله وهى:

١- تحديد مشكلة البحث:

قبل البدء فى الصياغة المبدئية للإستمارة، ينبغى أولاً تحديد مشكلة البحث تحديداً دقيقاً، وتقسيم هذه المشكلة إلى موضوعات فرعية، وتقسيم كل موضوع إلى عدة نقاط لى يسهل بعد ذلك صياغة أسئلة تغطى كل هذه النقاط الفرعية.

٢- تحديد نوعية المعلومات المطلوبة:

ينبغى على الباحث تحديد نوعية المعلومات اللازمة لى يستطيع تحديد الأسئلة التى سوف تتضمن الإجابة عليها هذه المعلومات، فهناك معلومات تتصل بالقيم والاتجاهات، وأخرى تتصل بأنماط السلوك والعلاقات المتبادلة، وكل نمط من هذه المعلومات يتطلب أسئلة من نوع معين.

٣- تحديد نوعية الأسئلة التى تشملها الإستمارة:

تتطلب عملية بناء الإستمارة تحديد نوعية الأسئلة من حيث درجة التعيين، فهناك أسئلة مقننة وأخرى أقل تقنياً، وهناك الأسئلة المباشرة، والأسئلة الإسقاطية، والأسئلة المفتوحة والأسئلة المغلقة..... إلخ. ولأشك أن كل شكل من هذه الأشكال السابقة يفيد دون غيره بشكل أفضل فى الحصول على بيانات معينة. والباحث المتخصص هو الذى يستطيع أن يحدد شكل الأسئلة المطلوبة لموضوع بحثه، فهناك بحوث كثيرة يفضل فيها إستخدام الأسئلة المفتوحة التى يتاح فيها الفرصة للمبحوثين الحرية الكاملة للإجابة على هذه الأسئلة، وهناك بحوث أخرى يفضل فيها إستخدام الأسئلة المغلقة لى تسهل على الباحثين عملية تحليل البيانات، فهى تمتاز بأنها أقل تكلفة وأقل جهد

بالمقارنة بالأسئلة المفتوحة. وجدير بالذكر أن هذه الاشكال المختلفة من الممكن إستخدامها فى إستمارة واحدة إذا إقتضت ظروف البحث ذلك.

٤- الصياغة المبدئية لأسئلة الإستمارة:

بعد أن يفرغ الباحث من تحديد نوعية المعلومات المطلوبة وشكل الأسئلة التى يمكن أن تتضمن هذه للمعلومات، يبدأ فى الصياغة المبدئية لأسئلة الإستمارة، وترتيب هذه الاسئلة وفقاص للأسس التى حددها من قبل. وفى حالة الأسئلة المقفولة يقوم الباحث بتحديد المتغيرات (الإجابات) الممكنة لكل سؤال على حدة.

٥- إعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية:

فى هذه المرحلة يقوم الباحث بإعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية حيث يقوم بترقيم الأسئلة وترتيبها حسب البنود الأساسية لموضوع البحث، ثم دراسة محتوى كل سؤال وبيان مدى أهميته، ومراجعة الإستمارة من حيث الشكل والمحتوى والإجراءات الفنية فى صياغة الأسئلة، والتأكد من مدى ملائمة صياغة الاسئلة للإسلوب الذى يفهمه المبحوثون.

٦- عرض الإستمارة على المحكمين:

بعد أن يفرغ الباحث من إعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية يقوم بعرضها على بعض المحكمين وهم خبراء فى البحث الاجتماعى للحكم على مدى صدق الإستمارة فى قياس الظاهرة أو مشكلة البحث التى صممت من أجلها. وبالطبع سوف يكون لهؤلاء المحكمين بعض الملاحظات على اسئلة الإستمارة ينبغى أن يأخذها الباحث موضع إعتبار ويقوم بتنفيذها ثم إعادة عرض الإستمارة مرة ثانية على نفس المحكمين للتأكد من صلاحيتها.

٧- الإختبار المبدئى للإستمارة:

فى هذه المرحلة يقوم الباحث بإختيار عينة صغيرة من مجتمع البحث (أو عينة البحث الأصلية) ويقوم بتطبيق الإستمارة عليها للتأكد من صياغة الأسئلة ووضوحها وحذف الأسئلة التى تثير إحراج المبحوثين والاسئلة التى يكون الإجابة عليها من كافة أفراد البحث " بنعم " أو " لا " لأنها سوف تكون فى عداد الاشياء المسلم بها بالنسبة لمجتمع البحث على الأقل.

٨- إجراء التعديلات اللازمة على الإستمارة وصياغتها فى شكلها الأخير:

بعد أن ينتهى الباحث من الإختبار المبدئى للإستمارة يقوم بإجراء التعديلات التى يراها ملائمة لطبيعة جمهور البحث وتفيد فى عملية جمع

البيانات اللازمة، وإعداد الإستمارة فى شكلها النهائى.

ويشير الدكتور غريب سيد أحمد إلى مجموعة من الشروط التى يجب توافرها فى بناء الإستمارة وهى^(١):

- ١- أن تكون الإستمارة قصيرة بقدر الإمكان.
- ٢- ألا تحتاج أسئلتها لإجابات مطولة.
- ٣- الصياغة بأسلوب سهل أو ألفاظ معروفة.
- ٤- ألا تشمل الأسئلة على وقائع شخصية.
- ٥- تدرج الأسئلة وتسلسلها.
- ٦- ألا يشتمل السؤال على أكثر من فكرة واحدة محددة.
- ٧- ألا توحى الأسئلة بإجابات معينة.

خامساً: ثبات وصدق الإستمارة:

لا يختلف ثبات وصدق الإستمارة كثيراً عن باقى أدوات البحث الاجتماعى، وما اشرت سابقاً أن الثبات يعنى ثبات المبحوثين فيما يدلون به من بيانات أو معلومات بعد إعادة سؤالهم مرة أخرى بعد فترة قليلة نسبياً مع ثبات المتغيرات والظروف المختلفة المحيطة بالمشكلة موضوع البحث أما صدق الإستمارة فالمقصود به^{يعنى} هو كفاءة الإستمارة فى قياس ما صممت لقياسه أكثر من غيرها من أدوات البحث الأخرى، أو بمعنى آخر أن هذه الإستمارة صادقة فى قياس مشكلة البحث. ويتطلب التحقق من صدق الإستمارة توافر معيار خارجى أو مقياس آخر يقيس نفس مشكلة البحث، ثم نقوم بتطبيق المقياسين على مشكلة البحث، وإيجاد معامل الارتباط (معامل الصدق) بين المقياسين وجدير بالذكر أن هناك أشكال مختلفة من الصدق، كالصدق الظاهرى، والصدق التنبؤى، والصدق التلازمى، والصدق التجريبي، وصدق المضمون..... إلخ.

سادساً: تقييم الإستمارة:

(أ) مميزات الإستمارة:

لاشك أن الإستمارة تعد من أكثر أدوات البحث إنتشاراً نظراً لما تمتاز به من خصائص أهمها:

(١) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٢٦.

١- تعد الإستمارة أقل أدوات جمع البيانات تكلفة من حيث النفقات والجهد والوقت، فهي لا تحتاج في جميع بياناتها إلى فريق من الباحثين كالمقابلة أو الملاحظة مثلاً.

٢- يمكن من خلالها الحصول على بيانات أو معلومات متنوعة من قطاع عريض من المجتمع.

٣- سهولة التعامل مع البيانات التي يتم جمعها من خلال الإستمارة كالتفريغ والجدولة والتحليل وإجراء المعالجات الإحصائية المناسبة.

٤- توفر إستمارة الإستبيان (البريدى) الفرصة للمبحوث للإجابة على الأسئلة في الوقت الذى يتناسب وظروف التفكير بشكل دقيق فى الإجابة قبل تدوينها.

٥- لا يجد الباحث صعوبة فى تطبيق الشروط المنهجية الدقيقة فى عملية إعداد الغستمارة وتطبيقها وتفرغ البيانات وتحليلها بالمقارنة بالأدوات الأخرى.

(ب) عيوب الإستمارة:

على الرغم مما تمتاز به إستمارة البحث من خصائص عديدة إلا إنها أيضاً بكتلفها أوجه قصور أهمها:

١- فى حالة إستمارة الإستبيان (البريدى) إن العائد من هذه الإستمارات يقل فى كثير من الأحيان عن النصف، نظراً لأمتناع نسبة كبيرة من عينة البحث عن الرد، ويمكن التغاضى عن هذه السلبية بمضاعفة عدد إستمارات الإستبيان المرسل إلى المبحوثين.

٢- قد تتأثر عملية جمع البيانات بإستخدام إستمارة البحث بنوع من التحيز سواء بالنسبة للباحثين أو المبحوثين.

٣- إذا كانت هناك بعض الصعوبات أو الأسئلة الغامضة فى الإستبيان البريدى، فليس هناك من يقوم بشرحها للمبحوث.

٤- يفضل بعض المبحوثين مناقشة أسئلة الإستبيان مع أقاربهم أو أصدقائهم وهذا بالطبع سوف يؤثر على رأى المبحوثين ويجعل إجاباتهم غير معبره عن أنفسهم.

٥- قد تحتاج بعض البحوث الاجتماعية إلى عدد كبير من الأسئلة وهذا يؤدي إلى ملل المبحوثين نظراً لطول وقت المقابلة.

الفصل الحادى عشر

الملاحظة

تمهيد:

- ١- تعريف الملاحظة وأهميتها.
- ٢- مجالات استخدام الملاحظة.
- ٣- أنواع الملاحظة:
 - أ - الملاحظة البسيطة:
 - الملاحظة بدون مشاركة.
 - الملاحظة بالمشاركة.
 - ب - الملاحظة المنظمة.
- ٤- الاجراءات المنهجية للملاحظة.
- ٥- ثبات وصدق الملاحظة.
- ٦- تقييم الملاحظة:
 - أ - مزايا الملاحظة.
 - ب - عيوب الملاحظة.

لاجدال في أن الملاحظة Observation تعد وسيلة هامة من وسائل جمع البيانات في كافة مجالات العلوم المختلفة، فلا يقتصر استخدامها على علم دون الآخر، كما انها قد استخدمت في الماضي كما تستخدم في الحاضر بغض النظر عن تطور الأساليب التكنولوجية التي تعين عليها. فلقد استخدمها الانسان البدائي لنفس الغرض الذي استخدمها فيه الانسان المتحضر من أجل التعرف على الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

ويرجع الفضل الى علماء الأنثربولوجيا في العصر الحديث الى لفت أنظار الباحثين الاجتماعيين الى اهمية الملاحظة كوسيلة أساسية لجمع البيانات، حيث أعتمد الأنثربولوجيون على الملاحظة بالمشاركة في دراسة المجتمعات البدائية. ولقد أكد رواد علماء الاجتماع الأوائل على أهمية الملاحظة في البحث الاجتماعي، فلقد أشار "سان سيمون" S.Simon الى أن البحوث في أي ميدان من ميادين العلم لا يمكن أن تتصف بالعلمية الا عندما تخضع للملاحظة الدقيقة. كما أكد "أوجست كونت" Conte على أن هدف علم الاجتماع الأساسي هو فهم المجتمع بكل مظاهره المختلفة، لكن لا يمكن أن يتحقق الفهم الدقيق الا من خلال المنهج العلمي، وتعد الملاحظة من أهم أسس هذا المنهج^(١).

وجدير بالذكر أن الملاحظة العلمية وما تتميز به من خصائص تُعد أحد المصادر الأساسية للحصول على المعلومات أو البيانات، ولقد بالغ بعض الباحثين في اعتبارها منهجاً مستقلاً من مناهج البحث العلمي. وتستخدم الملاحظة في جميع مراحل البحث الاجتماعي فهي تفيد في مرحلة البحوث الكشفية لاستكشاف بعض الظواهر الاجتماعية، أو الاستبصار بسلوك معين، كما تفيد أيضاً في مرحلة البحوث الوصفية كوصف سلوك الأطفال، أو جماعات العمل أو انفعالات جمهور في تجمع معين كجمهور كرة القدم أو الندوات الشعبية مثلاً، ولاجدال في أهمية الملاحظة في البحوث التجريبية التي تعتمد اعتماداً أساسياً على الملاحظة.

وبصفة عامة سوف يدور هذا الفصل حول الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث الاجتماعي مع التركيز على تعريف الملاحظة، وأهميتها،

(١) ليلي داود، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٩١.

وطبيعتها، وخصائصها، وأنواعها كالملاحظة البسيطة سواء بدون المشاركة أو بالمشاركة، والملاحظة المنظمة. ثم الاجراءات المنهجية للملاحظة، ومعامل الثبات والصدق، وأخيراً المزايا والعيوب.

١- تعريف الملاحظة وأهميتها:

هنالك العديد من التعريفات التي أشار اليها كثير من الباحثين عند تناولهم للملاحظة يمكن عرض بعضها فيما يلي:-

١- يعرف الدكتور "محمد طلعت عيسى" الملاحظة بأنها "الأداة الأولية لجمع المعلومات وهي النواة التي يمكن أن يعتمد عليها للوصول الى المعرفة العلمية، والملاحظة في أبسط صورها هي النظر الى الأشياء وادراك الحالة التي هي عليها"^(١).

٢- يعرف "كارتر جود" Carter V Good الملاحظة بأنها الأداة التي من خلالها نستطيع التحقق من سلوك الأفراد الظاهري، عندما يعبرون عن أنفسهم في مختلف مواقف الحياة اليومية^(٢).

٣- يعرف الدكتور "محمود قاسم" الملاحظة "توجيه الباحث حواسه وعقله الى طائفة خاصة من الظواهر لكي يحاول الوقوف على صفاتها وخواصها سواء كانت هذه الصفات والخواص شديدة الظهور أم خفية يحتاج الوقوف عليها الى بعض الجهد. وحينئذ فليس من الممكن أن نقول بأن الملاحظة عملية حسية بحتة تقوم فيها الحواس وحدها بتسجيل الظواهر التي يراد دراستها، ومعرفة القوانين التي تربط بينها، وذلك لأن العقل يقوم هو الآخر بنصيب كبير في ادراك الصلات الخفية التي توجد بين الظواهر، وهي الصلات التي تعجز الملاحظة الحسية عند ادراكها"^(٣).

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٩.

(٢) Carter v. Good & Douglas E. Scates, Methods of Research, Newyork, Appleton - Century Crofts, Inc., 1954, p. 647.

(٣) محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٣.

٤- يعرف الدكتور "عبدالباسط عبدالمعطي" الملاحظة تعريفاً مبسطاً بقوله "الملاحظة عبارة عن معاناة مباشرة لأشكال السلوك الذي ندرسه"^(١).
٥- ويمكننا تعريف الملاحظة بأنها "المشاهدة الحسية والعقلية لوقائع محددة طبيعية أو اجتماعية بهدف الحصول على معلومات تفيد في أغراض البحث العلمى".

أما فيما يتصل بأهمية الملاحظة، فلا أحد يستطيع أن ينكر دورها فى حياتنا اليومية العادية وفى فهم وإدراك البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة، هذا فضلاً عن استخدامها كوسيلة أساسية لجمع البيانات فى البحوث الطبيعية والاجتماعية. وكثيراً ما كانت الملاحظة الأصل فى الاكتشافات العلمية المبكرة والمعاصرة، فقد اكتشف "جليليو" قانون سقوط الأجسام عند ملاحظته ازدياد سرعة سقوط الجسم كلما أقترب من الأرض، واكتشف "توريشيللى" Toricelli نظرياته الخاصة بالضغط الجوى من خلال الملاحظة، واكتشف "نيوتن" قانون الجاذبية الأرضية من خلال ملاحظته الشهيرة لسقوط "تفاحة" على الأرض ومن ثم فالملاحظات الحسية كانت دائماً ولا تزال نقطة البدء فى كثير من النظريات العلمية.

وتعد الملاحظة خطوة أساسية من خطوات المنهج العلمى وخطوة جوهرية من خطوات المنهج التجريبي الذى تستخدمه كافة العلوم، فمن المعروف أن المنهج التجريبي يبدأ "بالملاحظة"، ثم فرض الفروض، وأخيراً التحقق من صحة هذه الفروض من خلال التجريب ثم استخلاص النتائج والتعميم. وإذا كانت الملاحظة خطوة جوهرية فى العلوم الطبيعية فهى خطوة أساسية أيضاً، فى العلوم الاجتماعية خاصة فى الدراسات التى تستخدم المسح الاجتماعى، ودراسة الحالة، والمنهج التاريخى وغيرها.

ونستطيع أن نستخلص بعض الخصائص العامة للملاحظة من خلال العرض السابق على النحو التالى:-

١- أن الملاحظة Observation تعد وسيلة أساسية من وسائل جمع البيانات والمعلومات فى البحوث الطبيعية والاجتماعية.

١. (١) عبدالباسط عبدالمعطي، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

- ٢- أن الملاحظة ليست قاصرة فقط على المشتغلين بالبحث العلمي، ولكنها تستخدم لدى كل أفراد المجتمع في حياتهم اليومية العامة والخاصة.
- ٣- أن الملاحظة لا تقتف فقط عند مجرد المعاينة الحسية المباشرة للأشياء أو الموضوعات أو المواقف المختلفة، بل هي عملية تجمع بين الإدراك الحسى من ناحية والإدراك العقلى من ناحية أخرى، فنحن لا نلاحظ فقط بحواسنا بل نعمل العقل أيضاً في عملية الملاحظة من خلال التحليل والتفسير والتصنيف والربط بين الأشياء.. الخ.
- ٤- أن الملاحظة العلمية الدقيقة هي ملاحظة مقصودة ومنظمة ومخططة وليست مجرد ملاحظة عشوائية عرضية، ولكن هذا لا يقلل من أهمية الملاحظات العشوائية التى تأتى بمحض الصدفة من اكتشاف حقائق علمية أو اجتماعية لم تكن معلومة من قبل.
- ٥- أن الملاحظة لا تقتصر فقط - كما تشير بعض التعريفات - على المعاينة المباشرة للأشياء، بمعنى أنها تركز فقط على الوقائع الآتية، ولكنها أيضاً تفيد في ملاحظة الوقائع الماضية بطريقة غير مباشرة ومن خلال ملاحظة بقايا تلك الوقائع وآثارها والوثائق المكتوبة عنها، وهذا النوع من الملاحظ لا يركز على الأحداث التاريخية ذاتها، وإنما يركز على الآثار والوثائق المتبقية عنها. فنحن نستطيع أن نلاحظ جوانب كثيرة من الحضارة الفرعونية من خلال الآثار المتنوعة الدالة عليها.
- ٦- تحتاج الملاحظة العلمية الدقيقة الى باحثين متخصصين ومدرّبين على موضوعات الملاحظة وعلى استعمال الأدوات الفنية التى تعينهم على دقة الملاحظات التى يقومون بها.
- ٢- مجالات استخدام الملاحظة:
- لا شك تتنوع موضوعات ومجالات استخدام الملاحظة العلمية بتنوع مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية. فكل علم من العلوم يهدف من وراء استخدام الملاحظة الى ملاحظة جوانب أو موضوعات محددة تقع فى نطاق تخصصه. ويمكن الإشارة الى المجالات العامة للملاحظة فيما يلى:-

* مجالات البحوث الطبيعية:

تستخدم الملاحظة العلمية المنتظمة بشكل فعال في كافة البحوث
المعملية (التجريبية)، هذا فضلاً عن استخدامها في ميادين عديدة من العلوم
التجريبية كعلم الفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، وفي مجال البحوث
الطبية وغيرها.

* مجال البحوث الاجتماعية:

تستخدم الملاحظة في العديد من العلوم الاجتماعية لدراسة
موضوعات شتى مثل:-

أ - التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية:

يستخدم علماء الاجتماع الملاحظة في دراسة التفاعل الاجتماعي
والعلاقات الاجتماعية سواء داخل الجماعات الصغيرة كالأسرة أو جماعة
العمل، أو الجماعات الكبيرة كالمجتمع المحلي. حيث يتم التركيز على دراسة
أنماط التفاعل كما يحدث في المواقف الطبيعية، مثل التفاعل في الحياة
الأسرية، أو في مواقع العمل المختلفة. ويستخدم علماء الأنثوجرافيا وعلماء
الأنثروبولوجيا الملاحظة بشكل فعال في دراسة المجتمعات المحلية.

ب - الدراسات السوسيولوجية المقارنة:

تعد الدراسات السوسيولوجية المقارنة من الدراسات الهامة في مجال
البحث السوسيولوجي، وفي هذه الدراسات يستهدف الباحث الى بعض
التعميمات عن طريق دراسة مؤسسات أو منظمات اجتماعية محددة، فيضع
إطار للملاحظة يطبقه في ملاحظته لعدد من المؤسسات أو التنظيمات. ومن
الأمثلة على هذا النوع من الدراسات المقارنة، الدراسات التي أجريت على
السجون، والمنظمات الصناعية، والتنظيمات البيروقراطية المختلفة^(١).

ج - الجماعات غير الرسمية:

يعد مجال الجماعات غير الرسمية من المجالات الهامة التي تستخدم
فيها الملاحظة بنجاح، فلقد استخدمت في كثير من الدراسات السوسيولوجية
لدراسة بناء الجماعات غير الرسمية وقيمتها ومعايير سلوكها وثقافتها، فمن
خلال الملاحظة بالمشاركة يمكن فهم بناء الجماعة فهماً متعمقاً. ولقد

١ (١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٤٥٨.

استخدمت الملاحظة في دراسة جماعات العمل في المجال الصناعي، ومن أشهر هذه الدراسات، الدراسة التي قام بها "ألتون مايو" Mayo وزملاؤه على مصنع "هاوثورن" Hawthorne Factory والتي توصلوا من خلالها إلى وجود بناء غير رسمي داخل جماعات العمل بالمصنع له تأثير ملحوظ على العملية الإنتاجية. كما استخدمت الملاحظة أيضاً في دراسة الجماعات غير الرسمية في الإدارات الحكومية والمستشفيات والسجون... الخ.

د - الدراسات الاستكشافية:

تستخدم الملاحظة بشكل فعال في المراحل التمهيديّة للبحوث الاجتماعية، بهدف استكشاف أو استطلاع بعض جوانب الظاهرة الاجتماعية موضوع الدراسة وزيادة ألفة الباحث بها، وتنمية بعض الفروض المتصلة بهذه الظاهرة والتي سوف تكون موضع دراسة في مراحل أخرى متقدمة من البحث الاجتماعي كالبحث الوصفي أو التجريبي.

هـ - الدراسات السيكولوجية:

يُعد مجال الدراسات السيكولوجية من المجالات الخصبة التي استخدمت فيها الملاحظة، كملاحظة سلوك الأطفال أثناء اللعب، أو سلوك جماعات معينة أثناء الأكل أو العمل. كما استخدمت الملاحظة بنجاح في بحوث علم النفس التجريبي خاصة في التجارب التي كانت تجرى على الحيوانات كالكلاب والقطط والفئران لقياس أثر "منبه" ما على "استجابة" تلك الحيوانات وتُعد تجارب "بافلوف" و"كهلر" من أشهر هذه التجارب.

٣- أنواع الملاحظة:

هناك تصنيفات عديدة للملاحظة، ولقد اختلفت هذه التصنيفات باختلاف وجهات نظر بعض الباحثين حول طبيعة موقف الملاحظة وطبيعة الموضوعات المراد ملاحظتها، وطبيعة القيود المفروضة على عملية الملاحظة ذاتها من حيث الدقة والاسلوب والأدوات المستخدمة. ومن ثم فهناك أكثر من معيار واحد لتصنيف الملاحظة، وفي ضوء كل معيار يتولد لدينا أنواع وأنماط كثيرة للملاحظة، ولكن هذه الأنواع ليست مستقلة بعضها عن البعض الآخر، بل هي متداخلة ومتراصة، ويكاد يكون الاختلاف بين أنواع كثيرة منها في الشكل أو التسمية فقط دون المحتوى أو الجوهر.

ومن المعايير التي أستند عليها الباحثون في تصنيفهم للملاحظة معيار القصد المسبق، ومدى تدخل العقل في عملياتها، ودرجة الضبط فيها، ومدى اندماج الباحث في موقف الملاحظة، ودرجة شمولية موضوعها، والهدف منها، ودرجة عمق الظاهرة المراد ملاحظتها، ومدى اتصال القائم بالملاحظة بالشئ الملاحظ. وكل معيار من هذه المعايير يتولد عن أشكال مختلفة للملاحظة :-

١- معيار القصد المسبق يصنف الملاحظة الى ملاحظة عرضية وأخرى مقصودة.

٢- معيار تدخل العقل في عملياتها يصنفها الى ملاحظة فجّة وأخرى علمية.

٣- معيار درجة الضبط يصنفها الى ملاحظة بسيطة وأخرى منظمة.

٤- معيار مدى اندماج الباحث في موقف الملاحظة يصنفها الى ملاحظة بغير المشاركة وأخرى بالمشاركة.

٥- معيار درجة الشمول يصنفها الى ملاحظة شاملة وأخرى بالعينة.

٦- معيار الهدف وطبيعة الدراسة يصنفها الى ملاحظة استطلاعية وملاحظة وصفية وملاحظة تشخيصية أو تجريبية.

٧- معيار درجة عمق الظاهرة المراد ملاحظتها يصنفها الى ملاحظة خارجية وأخرى داخلية.

٨- معيار اتصال القائم بالملاحظة بموضوع الملاحظة يصنفها الى ملاحظة مباشرة وأخرى غير مباشرة.

وبصفة عامة يمكننا القول أن الملاحظة تنقسم الى نوعين أساسيين:

الأول: الملاحظة العابرة (العضوية):

المقصود بالملاحظة العابرة أو العضوية، هي تلك الملاحظة التلقائية التي يقوم بها الفرد العادي في حياته اليومية من خلال إدراكه الحسي، دون أن يهدف الى تحقيق غاية علمية معينة، وهي ملاحظة بالضرورة غير مقصودة فالأفراد العاديين كثيراً ما يلاحظون أشياء كثيرة دون التعليق عليها أو تحليل الأسباب والظروف التي أدت اليها.. فالفرد العادي يتوقف في ملاحظته عند الحدود العملية المتصلة بحياته واهتماماته المباشرة، دون أن يحلل أسبابها وعواملها تحليلاً دقيقاً بعيداً عن المنفعة الشخصية الذاتية، ومن ثم ينتقل من ملاحظته الى أخرى بحسب ما توحى اليه بذلك مصلحته الخاصة، وهو بذلك

يفتقر الى المنهج العلمى الذى يربط بين الظواهر الملاحظة ببعضها البعض على أسس موضوعية^(١).

ويتضح هذا النوع من الملاحظة بشكل دقيق لدى الشعوب البدائية، حيث اعتمدت عليها لمعرفة الأشياء والبيئة المحيطة، وكونت على أساسها حصيلة معرفتها الحسية. فالرجل البدائى كان يتعرف على الأشياء والبيئة المحيطة من خلال حواسه المتعددة كالبصر والسمع واللمس والشم والتذوق، فكان يلاحظ تعاقب الليل والنهار، ويسمع صوت الرعد، ويلاحظ البراكين والزلازل والأوبئة المنتشرة، ولكنه يقف عند حد تلك الملاحظات الحسية فقط دون السعى نحو معرفة أسبابها وتفسير الارتباط بينها.

الثانى: الملاحظة العلمية: Scientific Observation

الملاحظة العلمية ملاحظة مقصودة وهادفة، وتعد من أهم أدوات البحث فى كافة العلوم. وفي هذا النوع من الملاحظة لا يكتفى الباحث بالاعتماد على حواسه فقط فيما يقوم بملاحظته ولكنه يستعين بعقله أيضاً فيما يلاحظه، كما يستعين ببعض الأدوات العلمية ووسائل القياس المختلفة التى تعينه على دقة الملاحظة وكلا فى اخطاء وخداع الحواس. وعلى الرغم من اختلاف الملاحظة العلمية عن الملاحظة العضوية من حيث تميز الأولى بالمنهجية والاعداد المسبق ووضوح الهدف، الا أنه يمكن القول أن الملاحظة العلمية هى امتداد للملاحظة العضوية، ويمكننا تصنيف الملاحظة العلمية إلى: ملاحظة بسيطة وتنقسم الى ملاحظة بدون مشاركة وملاحظة بالمشاركة. وملاحظة منظمة.

١- الملاحظة البسيطة: Simple Observation

وهى ملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائياً فى ظروفها الطبيعية دون إخضاعها لعمليات الضبط والتقنين، ودون استخدام أدوات دقيقة للقياس، فيما عدا بعض الخرائط والصور والمذكرات.

وتستخدم الملاحظة البسيطة فى كثير من الدراسات السوسولوجية خاصة الدراسات الاستطلاعية لجمع بيانات أولية عن الظواهر موضوع الدراسة. وتقيد الملاحظة البسيطة فى دراسة الجماعات الصغيرة، ومؤسسات المجتمع المختلفة، وأنماط العلاقات الاجتماعية بين الأفراد فى بيئة معينة

(١) ليلى داود، البحث العلمى، مرجع سابق، ص ١٩٢.

وتحت ظروف معينة، كالعلاقات التي تنشأ بين العمال في أحد المصانع، أو دراسة حياة المهاجرين من الريف الى المدينة. كما تستخدم الملاحظة البسيطة في مجال الدراسات السيكولوجية خاصة في ميدان علم نفس النمو أو علم نفس الطفل، وعلم نفس الشواذ. ففي مجال علم نفس النمو — على سبيل المثال — يقوم الباحث بملاحظة النمو الانفعالي والعاطفي واللغوي والاجتماعي للطفل خلال مراحل عمرية متتابعة، كما يلاحظ ألعاب الطفل في فترات متباعدة ويقارن بينها ليتعرف على أوجه التغيرات التي تطرأ على هذه الألعاب من تغيرات.

وبصفة عامة، أن الهدف الأساسي من استعمال الملاحظة البسيطة في ميادين البحث المختلفة هو جمع المعلومات عن المواقف المختلفة سواء كانت طبيعية أو اجتماعية تمهيداً لدراستها دراسة أكثر عمقاً وضبطاً. ويمكن أن تجرى الملاحظة البسيطة بأسلوبين:-

أ — الملاحظة بدون المشاركة: Observation Without Participation

الملاحظة بغير المشاركة هي "الملاحظة التي لا تتضمن أكثر من النظر أو الاستماع في موقف اجتماعي معين دون المشاركة الفعلية فيه، ويحاول الملاحظ — قدر الأمكان — ألا يظهر في الموقف. وقد يختلط بالجمهور وينصت الى ما يدور بين الأفراد من أحاديث وما ينطبع على وجودهم من انفعالات"^(١). وتستخدم الملاحظة بدون المشاركة في مواقف معينة لا يمكن الحصول على معلومات بخصوصها باستخدام أدوات أخرى، كالمواقف التي لا يرحب أعضاء الجماعة بملاحظتها من قبل الباحث، أو يخشى من تغير سلوك أعضاء الجماعة عند معرفة أن هناك من يلاحظها، ويمكن أن يقوم الباحث بملاحظة تلك المواقف من خلف ستار أو حاجز زجاجي حتى لا يثير تحفظ المشاركين في سلوكهم ويفقد طابع التلقائية. وجدير بالذكر أن هناك مواقف كثيرة لا يصلح فيها استخدام هذا النوع من الملاحظة كملاحظة بعض الصور الخاصة من التفاعل بين الزوجين أو بعض مظاهر السلوك المنحرف.

(١) ابراهيم أبولغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٧٨.

ب - الملاحظة بالمشاركة: Participant Observation

استخدمت الملاحظة بالمشاركة بنجاح في الدراسات الأنثروبولوجية، وهذا النوع من الملاحظة يتضمن اشتراك الباحث في حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم، ومساهمته فعلياً في مختلف الأنشطة التي يقومون بها في حياتهم اليومية، وفي فترة محددة وهي فترة الملاحظة.

وقد إنقسم المشتغلون بمناهج البحث حول إفصاح الباحث عن نفسه للمبحوثين، فهناك من يرى أنه ينبغي ألا يفصح الباحث عن نفسه ليظل سلوك الجماعة - تلقائياً بعيداً عن التصنع والرياء، وهناك فريق آخر يرى ضرورة أن يفصح الباحث عن شخصيته والهدف من تواجده بين أعضاء الجماعة. وبصفة عامة، قد يكون الرأي الأول محقاً إذا كانت فترة الملاحظة محدودة كالمشاركة في مظاهرة أو مشاهدة مباراة رياضية أو حدث ما وسوف ينتهي الموقف بإنهاء هذا الحدث كالمشاركة في إطفاء حريق أو إسعاف مصاب ..الخ، فمن الأفضل ألا يفصح المبحوث عن نفسه لكي يتسم سلوك المشاركين بالتلقائية. أما إذا كان موقف الملاحظة سوف يستغرق فترة طويلة تستوجب إقامة الباحث إقامة كاملة في مجتمع البحث لملاحظة كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأفراد المجتمع فمن الأفضل بل من الضروري أن يعلن الباحث عن شخصيته وسبب تواجده بين أعضاء الجماعة أو المجتمع المحلي، وبمرور الوقت سوف يألفه أفراد المجتمع، ويصبح وجوده بينهم أمراً طبيعياً، ويكون الباحث على هذا النحو غير مخالف لأخلاقيات البحث العلمي.

وتتفاوت درجات المشاركة من مشاركة كاملة - كما يفعله الأنثروبولوجيون - إلى مشاركة جزئية، فقد يندمج "الملاحظ" في حياة الجماعة التي يلاحظها. بحيث يصبح عضواً من أعضائها يشارك في جميع أنشطتها، وقد يشارك في بعض الأنشطة فقط. فعلى سبيل المثال لايمكن للباحث السوسيولوجي أن يصبح مجرماً بهدف دراسته لعصابة من المجرمين، أو يصبح عضواً حقيقياً في جماعة أو فرقة دينية يقوم بدراساتها.

وجدير بالذكر أن هناك قلة من الباحثين الذين ضحوا من أجل البحث العلمي في مواقف مختلفة ففي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية أجرى بحث على تعاطي المخدرات (الحشيش)، وقام أحد الباحثين بمشاركة المبحوثين في عملية التعاطي، وكان يصرف له كمية من المخدرات من قبل

السلطات لهذا الغرض. وفي قسم الأنثربولوجيا بجامعة الإسكندرية قام أحد الباحثين بدراسة رائدة عن "التسول"، للحصول على درجة الماجستير واستخدام أسلوب الملاحظة بالمشاركة واندس داخل جماعة المتسولين بمدينة الإسكندرية، وأصبح عضواً نشطاً بينهم، ولقد ساعده على ذلك بعض سماته الفيزيائية ليكون "ضرباً"، واستطاع أن يرصد ظاهرة التسول رصداً دقيقاً موضحاً أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية والبناء التنظيمي لجماعة المتسولين. واستعان "كوديل" وهو من علماء الأنثربولوجيا بأسلوب الملاحظة بالمشاركة في دراسة للعلاقات الإنسانية داخل إحدى مستشفيات الأمراض العقلية بالولايات المتحدة الأمريكية حيث قام متخفياً في دور مريض، وعاش مع المرضى والأطباء لمدة شهرين دون علم المرضى والأطباء^(١).

وينبغي على القائم بالملاحظة المشاركة أن يتعد عن التحيز لفئة من الفئات التي يدرسها، فإذا كان المجتمع المحلي موضوع الدراسة مقسم إلى طبقات فعلية أن لا ينحاز لطبقة معينة، وإذا كان يدرس أحد المصانع مثلاً فعليه أن لا ينحاز إلى جانب العمال أو إلى جانب الإدارة، ولكنه يحاول بقدر المستطاع أن يكون موضوعياً ومتوازناً في سلوكه مع كافة فئات المجتمع موضوع الدراسة. كما ينبغي على الباحث الذي يستخدم الملاحظة بالمشاركة - خاصة في البحوث الأنثربولوجية - أن يتعلم لغة أفراد مجتمع الدراسة إذا كان يدرس مجتمعاً غير مجتمعه، كالمجتمعات البدائية في أواسط أفريقيا مثلاً. وإذا كان الباحث يدرس مجتمعاً محلياً منعزلاً مثل "الواحات" أو النوبة" في مصر، أو بعض قرى الجنوب اللبناني عليه أن يتعلم لهجة هذه المجتمعات، وأن يحترم العادات والتقاليد السائدة احتراماً كاملاً، ولا يخرج عن حدود اللياقة في سلوكه مع أفراد المجتمع، لأن أي خطأ غير مقصود يقع فيه الباحث سوف يفسر تفسيراً سيئاً^(٢).

هو إذا كان "المجتمع المحلي" موضوع الدراسة منقسماً على نفسه أو يتضمن عدة "طوائف"، فينبغي على الباحث ألا يظهر بمظهر المتحيز لأحدى الجماعات أو الطوائف، فلا بد أن يحرص على أن تكون علاقته جيدة مع جميع فئات المجتمع، وأن يكون موضوعياً في اتصالاته بالأفراد موضوع البحث.

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٢١.

(٢) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

- وهناك بعض القواعد العامة لإستخدام الملاحظة بالمشاركة يمكن الإشارة إليها على النحو التالي^(١):-

١- التعرف على الخصائص الاجتماعية العامة للجماعة موضوع الملاحظة من واقع البيانات المنشورة المتاحة، سواء كانت تاريخية أو احصائية أو بحوث ميدانية أو غيرها.

٢- التعرف على القادة الرسميين وغير الرسميين، وإذا أراد الباحث أن تكون مشاركته صريحة فعليه الاستعانة بالاعباريين لتقييمه لمجتمع البحث.

٣- شرح ما سوف يقوم به الباحث للأخباريين، وهم بالتالى يقومون بتوصيل ذلك لمجتمع البحث.

٤- مشاركة أعضاء المجتمع إهتماماتهم العامة.

٥- ينبغي على الباحث عدم توجيه أسئلة حساسة الى أفراد البحث إلا بعد توطيد العلاقة الشخصية معهم.

٦- البعد عن ابداء الرأى فى بعض الموضوعات الحساسة التى قد تثير غضب بعض المبحوثين.

٢- الملاحظة المنظمة: Systematic Observation

الملاحظة المنظمة - ملاحظة تتسم بالدقة والضبط، فهي ملاحظة مُعدة ومخططة بشكل مسبق، وتستخدم وغالباً في البحوث التشخيصية أو التجريبية أو البحوث التى تختبر فروضاً سببية. وهذا النوع من الملاحظة غالباً ما يستعين فيه الباحث ببعض الأدوات التى تعينه على دقة الملاحظة وتتابعها، كاستخدام "استمارة الملاحظة" أو ما يعرف "بدليل الملاحظة"، أو استخدامه بعض الآلات كالميكروسكوب أو آلات التصوير وغيرها.

والهدف الأساسى من استخدام الملاحظة المنظمة هو جمع بيانات دقيقة عن الظاهرة موضوع البحث، لاختبار - صحة فرض أو مجموعة فروض معينة. ومن ثم ينبغي على الباحث أن يحدد بدقة الظروف التى تتم فيها الملاحظة من زمان ومكان وموضوع الملاحظة. ولاشك أن دور العقل فى هذا النوع من الملاحظة يكون فعالاً الى جانب الحواس، فى اكتشاف العلاقات التى تربط عناصر الظاهرة بعضها البعض.

(١) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

وقد يتم هذا النوع من الملاحظة في المواقف الطبيعية، وقد يجرى داخل المعامل المجهزة لهذا الغرض. والملاحظة المنظمة تستخدم بفاعلية في البحوث الطبيعية، كما تستخدم بنفس الفاعلية في البحوث الاجتماعية، حيث تستخدم في دراسة عمليات التفاعل الاجتماعي داخل الجماعات الصغيرة، مثل التفاعل في الحياة الأسرية، وفي مواقف العمل المختلفة، هذا فضلاً عن الدراسات العديدة التي يقوم بها علماء الأنثوجرافيا والأنثروبولوجيا.

وقد تستخدم الملاحظة المنظمة بأسلوب المشاركة أو بدون المشاركة، وأياً كان أسلوب الملاحظة المنظمة ينبغي على الباحث الاستعانة ببعض الوسائل التي تعينه على دقة الملاحظة، وأهم هذه الوسائل^(١):-

١- المذكرات التفصيلية:

وهي مذكرات يستخدمها الباحث لتدوين موقف الملاحظة وأبعاده المختلفة بدقة، فمن خلال تدوينه لدقائق الموقف الاجتماعي يمكنه فهم وتفسير بعض العلاقات القائمة بين أجزاء هذا الموقف.

٢- الصور الفوتوغرافية:

تفيد عملية التصوير الفوتوغرافي في الوقوف على جوانب الموقف الاجتماعي كما يظهر في صورته الواقعية لا كما يراه الباحث، كما أنها تجنب الملاحظ الخطأ الذي قد ينتج عن ملاحظة جوانب معينة تتماشى مع رغباته وإغفاله جوانب أخرى قد تكون أكثر أهمية. كما تفيد الصور الفوتوغرافية في الكشف عن جوانب التغير التي تحدث في جوانب كثيرة من حياة الأفراد والجماعات على فترات متباعدة.

٣- الخرائط:

تفيد الخرائط توضيح العلاقة بين البيئة الاجتماعية وبين التنظيمات الاجتماعية والقائمة بالمجتمع موضوع البحث، كما تعطى معلومات للباحث تساعد على دقة الملاحظة عند تفسيره لأبعاد الموقف الاجتماعي.

٤- استمارة البحث أو "دليل الملاحظة":

وهي عبارة عن استمارة مدون فيها أبعاد الموقف الاجتماعي الذي يجب على الباحث ملاحظته، فهي تساعد الباحث على تدوين البيانات المتصلة بموضوع الملاحظة دون غيرها.

(١) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، - ٤٣١:

٥- المقاييس السوسيومترية:

تعد المقاييس السوسيومترية المختلفة أحد الأساليب الهامة التي تعين الملاحظ على فهم أبعاد الموقف الاجتماعي الذي يريد ملاحظته، وهذه المقاييس يتقيد بشكل دقيق في ملاحظته وقياس العلاقات الاجتماعية خاصة بين الجماعات الصغيرة^(١).

٤- الاجراءات المنهجية للملاحظة:

تتطلب الملاحظة كأداة أساسية من أدوات جمع البيانات في البحث الاجتماعي توافر مجموعة من الشروط للحصول لملاحظة جيدة توفر بيانات ومعلومات دقيقة عن الموقف موضوع الملاحظة، ومن اهم هذه الشروط:-

١- يجب أن يقف الباحث (الملاحظ) على كل جوانب وأبعاد الظاهرة موضوع الملاحظة، والعوامل المؤثرة فيها، لأن اغفال بعض العوامل قد يؤثر في فهم وتفسير الظاهرة بشكل دقيق.

٢- ينبغي على الباحث تحديد وحدات ملاحظته، ومعرفة أنسب المواقف التي تظهر فيها هذه الوحدات أكثر من غيرها.

٣- يتعين تهيئة كافة الظروف الممكنة لتحقيق الإدراك الحسي الدقيق، ومن ثم ينبغي أن يكون "الملاحظ" متمتعاً بحواس سليمة تمكنه من ملاحظة ما يريد ملاحظته بدقة، وأن يكون خالياً من المعوقات الحسية الخلقية كالعمى الكلى أو الجزئي أو عمى الألوان أو أى نوع آخر ضعف البصر أو الصمم.

٤- يجب أن يتحرر الباحث من أى أفكار لدية سابقة عن موضوع الملاحظة حتى لا تؤثر هذه الأفكار في فهمه وتفسيره لواقع الظاهرة موضوع الملاحظة. ولكن ليس معنى ذلك أن يكون الباحث مجرد آلة تصوير للواقع، فالمقصود أن لا تسيطر عليه أفكار معينة مسبقة قد تخالف ما هو موجود في الواقع^(٢).

٥- ينبغي على الباحث الاستعانة بالأجهزة أو الآلات الحديثة التي تمكنه من تحقيق ملاحظة دقيقة، ففي كثير من المواقف أو الموضوعات لا يكفي فيها الاعتماد على الحواس المجردة.

(١) لمزيد من التفصيل راجع ما كتبناه عن القياس الاجتماعي في الفصل التاسع.

(٢) محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص

وبصفة عامة يمكن تحديد الاجراءات المنهجية للملاحظة في الخطوات التالية:-

١- تحديد مشكلة البحث:

لاشك أن أول خطوة في البحث أياً كان نوعه تتمثل في تحديد المشكلة المراد بحثها تحديداً دقيقاً من حيث الحجم، والأبعاد، والأهمية، والأهداف التي يسعى البحث لتحقيقها، وفي ضوء ذلك يستطيع الباحث تحديد طبيعة ملاحظته، وتحديد نوعها وأهدافها، وجوانبها. فمن المعروف أن طبيعة مشكلة البحث هي التي تفرض على الباحث الاجراءات المنهجية التي ينبغي عليه أن يسير وفقاً لها، ومن ثم فتحدد مشكلة البحث سوف يحدد للباحث نوع الملاحظة، فقد تكون ملاحظة منظمة أو بسيطة بالمشاركة أو بدون المشاركة..الخ.

٢- تحديد إطار الملاحظة:

المقصود بإطار الملاحظة هو :-

أ- تحديد وحدة الملاحظة سواء كانت (فرد، أو جماعة، أو مجتمع محلي...الخ)

ب - تحديد زمن الملاحظة، فعلى الباحث أن يحدد بدقة مدة الملاحظة، وهذه المدة قد تستغرق دقائق معدودة وقد تستمر لمدة عام كامل كما يحدث في البحوث الأنثربولوجية. أيضاً ينبغي تحديد عدد فترات الملاحظة، هل هي فترة واحدة أو أكثر من فترة، والمدة التي تفصل بين كل فترة وأخرى.

ج - تحديد مكان الملاحظة، سواء كان هذا المكان في سكن الأسرة، أو في مكان العمل، أو في المدرسة، أو في المستشفى أو في الشارع أو في السوق..الخ. وتحديد المكان يعد جزءاً أساسياً من عملية الملاحظة، وبالتالي فلكل مكان طبيعته التي تتناسب مع نوع ما من أنواع الملاحظة.

د - تحديد الجوانب التي يراد ملاحظتها، وهذا بالطبع سوف يوجه الباحث نحو ملاحظة أشياء بعينها، ويركز ملاحظته بدقة حول الجوانب التي سوف تحقق أهداف البحث، والحصول على البيانات والمعلومات التي يسعى للحصول عليها دون غيرها.

٣- اختيار الملاحظين وتدريبهم:

لاجدال في أن "الملاحظ" يلعب دوراً أساسياً في عملية الملاحظة والوصول الى المعلومات الدقيقة والموضوعية عن الظاهرة أو المشكلة موضوع الملاحظة، فالملاحظ يعد أحد المتغيرات الأساسية في هذه العملية،

وهو المسئول الأول عن نجاح الملاحظة أو فشلها، ومن ثم حظيت مسألة اختيار الملاحظين وتدريبهم بالأهمية من قبل المشتغلين بالبحث الاجتماعي لخطوة ضرورية لتحقيق ملاحظة علمية دقيقة. وهناك بعض الخطوات التي ينبغي أن يسير عليها برنامج تدريب الملاحظين أهمها:-

أ- تعريف الملاحظين بالمشكلة موضوع الملاحظة، وأهميتها، والهدف من دراستها، والجوانب التي يتحتم ملاحظتها، والأسئلة التي سوف يوجهها الباحث للمبحوثين، وكيفية التعرف في المواقف المختلفة التي يحتمل أن تواجه الملاحظ أثناء الملاحظة.

ب - تدريب الملاحظين على كيفية تسجيل الملاحظة، بدءاً بتسجيل الأفكار الرئيسية، ثم الأفكار الفرعية، ثم التفاصيل الدقيقة... وهكذا. وبالطبع تختلف عملية التسجيل من ملاحظة الى أخرى ومن موقف الى آخر حسب طبيعة المشكلة المراد ملاحظتها وطبيعة نوعية الملاحظة ذاتها.

ج - ينصح كثير من المشتغلين بمناهج البحث بأن يتلقى الملاحظون تدريباً نظرياً وميدانياً على عملية الملاحظة وتسجيلها قبل قيامهم الفعلي بذلك. وهنا يتم اصطناع موقف مشابه لموقف الملاحظة، وجماعة تشبه الجماعة الفعلية التي سوف يقومون بملاحظتها. ومن الأفضل أن يقوم الملاحظون بالملاحظة في هذه المواقف المصطنعة دون استخدام جدول دقيق للملاحظة، وهذا يعطى فرصة أكبر للملاحظين للتعرف على جوانب هامة، من الظاهرة موضوع الدراسة لم تكن محددة مسبقاً، ومناقشة هذه الجوانب بعد الملاحظة مع القائم بالتدريب والملاحظين، ثم تحديد الفئات الرئيسية للملاحظة وكيفية تسجيلها^(١).

٤- تسجيل الملاحظة:

يعد تسجيل الملاحظة من الخطوات الهامة في عملية الملاحظة، ويختلف المشتغلون بالبحث الاجتماعي حول عملية التسجيل، فهناك من يفضل التسجيل الفوري (الأنى) لتجنب أخطاء التحيز والنسيان، وهناك من يفضل التسجيل عقب إنتهاء الملاحظة لتجنب وخوف المبحوث، وتشككه في نوايا الملاحظين وغيار التلقائية في السلوك. وهناك فريق ثالث يرى أن الباحث

(١) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٨٧ - ١٩٠.

يدون رموز معينة أو أفكار رئيسية أثناء الملاحظة، ثم يقوم بترجمتها إلى ما لاحظة بالتفصيل بعد إنتهاء الملاحظة.

عموماً قد يختلف أسلوب التسجيل من باحث إلى آخر، ومن ظاهرة إلى أخرى، إلا أن يتحتم أن يكون هناك أسلوب واحد بين جميع الملاحظين في تسجيل الملاحظات في البحث الواحد، بمعنى إذا اشترك أكثر من باحث في ملاحظة "التفاعل الاجتماعي لجماعة ما" ينبغي أن يتبع كل الباحثين نفس الأسلوب في تسجيل ملاحظاتهم. كما ينبغي أن يتدرب هؤلاء الباحثون على أسلوب التسجيل قبل قيامهم بالفعل بذلك.

وهناك طريقتان يمكن إستخدامهما لتسجيل الملاحظة^(١):

أ - التسجيل الزمني للحوادث: أي ترتيب حوادث الملاحظة حسب زمن وقوعها. ويمكن للباحث إعداد جدول تسجيل فيه زمن الملاحظة، ونوعها، وتفسيرها.

ب - تنظيم المادة الملحوظة في موضوعات أو فئات معينة: وفي هذا الأسلوب يفضل أن يقوم الباحث بإعداد قائمة بالموضوعات أو الفئات قبل ابتداء الملاحظة لتسهيل عملية التسجيل وفقاً لهذه الفئات أو الموضوعات. ويفضل أن يجمع الباحث بين الأسلوبين في عملية التسجيل، وأن يراعى عدم الخلط بين الحوادث الملحوظة وبين التفسيرات الشخصية، والاهتمام بتسجيل جميع التفاصيل، والعناية بتحليل الملاحظات، عقب الانتهاء من الملاحظة مباشرة.

٥- تفريغ الملاحظة:

بعد أن ينتهي الباحث من تسجيل الملاحظة، يقوم بتفريغها وفقاً للفئات أو البنود المتفق عليها من قبل، وإعداد جدول لكل فئة من هذه الفئات، ولكي يسهل عليه بعد ذلك القيام بعملية التحليل الكمي، والقيام بالمعالجات الإحصائية المختلفة.

٦- تحليل بيانات الملاحظة وتفسيرها: بعد أن ينتهي من تفريغ بيانات الملاحظة وفقاً للجدول المعدة لذلك، يقوم بعملية التحليل الكمي والكيفي لهذه البيانات، وتفسيرها في ضوء طبيعة موقف الملاحظة، ونتائج الملاحظات التي أجريت على مواقف متشابهة.

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق،

٧- استخلاص نتائج الملاحظة والتوصيات: وتعد هذه الخطوة من أهم خطوات الملاحظة، حيث يقوم الباحث باستخلاص النتائج التي تؤكد صدق فروض أو عدم صدقها، ثم يطبع الباحث بعض التوصيات الخاصة بطبيعة الظاهرة موضوع الملاحظة، كالتوصية بإجراء بحوث مستقبلية على جوانب محدده من الظاهرة، أو الأخذ في الاعتبار بعض المشكلات التي لم تكن متوقعة قبل إجراء الملاحظة. وغيرها.

٨- كتابة تقرير الملاحظة: وهو الخطوة النهائية في إجراء الملاحظة، حيث يقوم الباحث بإعداد تقرير عن ما تم القيام به بدءاً بتحديد مشكلة البحث وإنهاء بأهم النتائج والتوصيات، وأهم المشكلات التي أعتضت سير الملاحظة، وكيفية التغلب عليها.

خامساً: ثبات وصدق الملاحظة:

لاشك أن عملية ثبات الملاحظة وصدقها في العلوم الطبيعية يمكن التحقق منها بشكل فعال ودقيق من العلوم الاجتماعية. والمقصود بصدق الملاحظة هو "صدق عملية الملاحظة" - أي الإجراءات التي أتخذها الباحث في تحقيق الملاحظة - في قياس ما يفترض قياسه، فالصدق هنا المقصود به صدق الملاحظة كأداة. ويمكن التحقق من صدق الملاحظة بأسلوبين:

الأول: قيام أكثر من باحث بملاحظة موقف ما، مستخدمين نفس الأسلوب والأدوات في ملاحظاتهم، وإيجاد المعالجات الإحصائية الملائمة، وحساب دقة الاتفاق بين الملاحظين، ومن ثم يمكننا تحديد معامل صدق المقياس (الملاحظة).

أما الأسلوب الثاني: يتمثل في قيام "الملاحظ" بإعادة ملاحظته لموضوع الملاحظة بنفس الأسلوب الذي أستخدمه في المرة الأولى، وإيجاد معامل صدق كل ملاحظة على حدة والمقارنة بينهما، وبالتالي كلما تقاربت نتائج المقياس في المرتين كلما دل على صدق المقياس والعكس صحيح.

وجدير بالذكر أن هناك علاقة وثيقة بين صدق الملاحظة وثباتها، فما يمكن أن يقال عن الصدق يقال عن الثبات. ولكن الدقيق لثبات الملاحظة هو ثبات المعلومات أو البيانات التي نحصل عليها عن طريق الملاحظة لو كررنا نفس موقف الملاحظة مرة أخرى أو عدة مرات، مع مراعاة ثبات العوامل المحيطة - بقدر الإمكان - في كل المواقف التي يعاد فيها تكرار الملاحظة إلا

أن تطبيق الأساليب الإحصائية في الحصول على بيانات ثابتة من خلال الملاحظة كأداة أساسية في البحث الاجتماعي لا يزال يواجه ببعض العقبات، ومن ينصح بعض المشتغلين بمناهج البحث بضرورة توافر بعض الشروط للحصول على مستوى أفضل من ثبات وصدق الملاحظة، وأهم هذه الشروط^(١):-

١- ضرورة الأخذ في الاعتبار "الاطار المرجعي" لموقف الملاحظة، وفقاً لنظرية "الجماعة المرجعية"، وهي نظرية رائدة في العلوم الاجتماعية، بمعنى كنا بصدد ملاحظة سلوك أو أنماط التفاعل لجماعة ما ولتكن "جماعة الأسرة" في مجتمع معين، فلا بد أن نأخذ في اعتبارنا الاطار المرجعي لهذه الجماعة (الأسرة) وما ينطوي عليه هذا الاطار من قيم وعادات وتقاليد وأعراف وتطلعات، قد يختلف تماماً عما هو موجود في أسرة أخرى في مجتمع آخر أو في المجتمع ذاته.

٢- ضرورة تحديد الوحدات التي يرغب الباحث في ملاحظتها، قبل البدء في الملاحظة، هل الملاحظة ستتركز حول "فرد" كقائد الجماعة أو شيخ القبيلة مثلاً، أم سوف تتركز حول "جماعة ما" كجماعة الأسرة أو "جماعة اللعب" أو "جماعة العمل"، أم سوف تتركز حول "المجتمع المحلي" ككل، والمجتمع المحلي هنا قد يكون "قرية" أو "مدينة" أحد "أحياء المدينة" كذلك ينبغي على الباحث تحديد الوحدة الزمنية والمكانية للملاحظة.

٣- ضرورة الأخذ في الاعتبار أن هناك فروقاً فردية بين الملاحظين قد ترجع إلى عامل الخبرة، والتخصص، هذا فضلاً عن الفروق الفيزيائية الحسية، وهذه الفروق بالطبع قد تنعكس على عملية الملاحظة، ومن ثم ينبغي تدريب الملاحظين تدريباً جيداً على عناصر الملاحظة حتى يمكن تقليل الفروق الفردية في الملاحظة.

٤- ضرورة تبسيط إجراءات الملاحظة إلى أدنى حد ممكن، وترتيب عناصرها بالشكل الذي يسمح بتسجيلها دون عناء من الملاحظين.

(١) زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص. ٢٠٢.

٥- تدريب الملاحظين على مواقف مشابهة ميدانيا للموقف موضوع
الملاحظة، فمن المعروف أنه كلما زادت فترة تدريب الباحثين كلما زاد معامل
ثبات وصدق الملاحظة.

سادساً: تقييم الملاحظة:

لا جدال في أهمية الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث في كافة
العلوم الطبيعية والاجتماعية، وهي أداة أساسية لا بديل لها في بعض الدراسات
الاجتماعية كدراسة سلوك الأطفال في اللعب، او دراسة النمو الحركي والفعل
واللغوي.. وغيرها. ولكن هذا لا يعني أن الملاحظة كأداة للبحث لا تخلو من
العيوب وبصفة عامة يمكن الإشارة إلى اهم مميزات وعيوب الملاحظة على
النحو التالي:-

أ - مزايا الملاحظة:

للملاحظة عدة مميزات أهمها:

- ١- تتيح الملاحظة للباحث الفرصة لتسجيل السلوك الملاحظ وقت
حدوثه مباشرة، وهذا يقلل من احتمالات الخطأ أو التحيز أو النسيان.
- ٢- الملاحظة هي الأداة الوحيدة التي يمكن من خلالها دراسة سلوك
أفراد الجماعة بشكل تلقائي دون تحريف.

٣- تفيد الملاحظة في التعرف على بعض جوانب الحياة الاجتماعية
بشكل فعال كالعادات الاجتماعية، وأسلوب التفاعل بين أفراد الجماعة،
وعمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال، والطرق الجماعية في حل المشكلات،
وغیرها من الموضوعات التي يفضل استخدام الملاحظة في دراستها دون
غيرها من أدوات البحث الاجتماعي.

- ٤- تفيد الملاحظة في الحصول على معلومات وبيانات حول سلوك
من لا يستطيعون التعبير قولاً أو كتابة، كالأطفال، أو البكم، أو المصابون
بحالات مرضية معينة كالصرع، أو المدمنين وغيرهم.

ب - عيوب الملاحظة:

- ١- لا يمكن استخدام الملاحظة في دراسة أشياء قد حدثت في الماضي
بشكل مباشر، كذلك يصعب من خلالها التنبؤ بما سوف يحدث في المستقبل من
أنماط مختلفة من السلوك، فهي تفيد فقط في تقرير ما يحدث أثناء فترة الملاحظة.

٢- هناك بعض أنماط السلوك الاجتماعي التي يصعب أو يتعذر معها استخدام الملاحظة، كما هو الحال فيما يختص بالسلوك الجنسي داخل نطاق الأسرة، أو الخلافات العائلية التي لا يفضل أن يطلع عليها أحد. خارج نطاق العائلة^(١).

٣- قد تتعرض المعلومات التي يحصل عليها الباحث من خلال الملاحظة أخطاء كثيرة بعضها ناتج عن تحيز الباحث أو حالته النفسية والجسدية كتعب الحواس أو قصورة أو خداعها، وبعضها ناتج عن تحيز المبحوثين أنفسهم وتغيير موقفهم لشعورهم أنهم تحت الملاحظة.

٤- قد تتعرض البيانات التي يحصل عليها الباحث من خلال استخلاصه لبعض الآلات في الملاحظة إلى أخطاء ناتجة عن عيوب في هذه الآلات ذاتها بسبب أعطال فنية أو التآكل أو الصدأ أو التقادم.. الخ، مما يؤثر على دقة الملاحظة.

٥- قد يصعب على الملاحظة الوقوف على جميع الظروف المحيطة بالظاهرة موضوع الملاحظة، نظراً لتعدد الظاهرة الاجتماعية وتشابكها، وتعدد العوامل المؤثرة فيها، ومن ثم قد يغفل الباحث ملاحظة بعض الأشياء الجوهرية، وتسرعى إنتباهه بعض الأشياء الشاذة أو الغريبة.

وعلى الرغم من هذه العيوب إلا أنه يمكن القول أن الملاحظة كأداة بحث قد حققت إسهامات فعالة في البحث خاصة في العلوم الطبيعية التي تعتمد على المقاييس الكمية والرياضية في الملاحظة، وإن كانت هذه المقاييس قد حققت نجاحاً في البحث العلمي في كافة العلوم الطبيعية، فهي تستخدم الآن بشكل فعال في كثير من البحوث الاجتماعية.

(١) إبراهيم أبولغد، ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٨٤.

الفصل الثاني عشر

المقابلة

تمهيد:

- ١- تعريف المقابلة وخصائصها.
- ٢- مجالات استخدام المقابلة وأهميتها.
- ٣- أنواع المقابلة.
- ٤- كيفية إجراء المقابلة.
- ٥- ثبوتات وصدق المقابلة.
- ٦ - تقييم المقابلة:

(أ) مزايا المقابلة.

(ب) عيوب المقابلة.

تعد المقابلة Interview أهم وسائل البحث الاجتماعي، لأنها تجمع بين مميزات أدوات البحث الأخرى كالملاحظة Observation وإستمارة البحث Questionnaire ولقد إستخدام المقابلة كأداة أساسية لجمع البيانات في كثير من العلوم الاجتماعية وبعض العلوم الطبيعية، وتقيد بشكل مباشر في المراحل الأولى للبحث في الكشف عن الأبعاد الهامة للمشكلة، وفي تنمية الفروض، وفي التعرف على بعض القضايا المثيرة للإستبصار. وتعد المقابلة أكثر أدوات البحث الاجتماعي مرونة بحيث تسمح للباحث ملاحظة الموقف الكلي التي تجرى فيه المقابلة، وتوضح ما قد يكون غامضاً من أسئلة المبحوثين.

وتتكون المقابلة من ثلاثة عناصر أساسية، الأول هو القائم بالمقابلة Interviewer، والثاني المبحوث Interviewee والثالث موقف المقابلة، ولاشك أن هناك ارتباط وتداخل بين هذه العناصر على نحو يؤثر بشكل مباشر في النتائج العامة للمقابلة. ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة القائم بها، ومدى فهمه لدوافع السلوك، بالإيجاب أو السلب في هذا الموقف^(١). ويحتاج إجراء المقابلة إلى مهارة خاصة للباحثين، وخبرة وتدريب، يتم إكتسابها عن طريق الممارسة الواقعية في الميدان والتفاعل مع جمهور المبحوثين.

عموماً، يدور هذا الفصل حول التعريف بالمقابلة وخصائصها، ومجالات إستخدامها، وأهميتها، وأنواعها المختلفة، وكيفية إجرائها، وثبات وصدق المقابلة، وأخيراً مميزاتها وعيوبها كأداة أساسية للبحث.

أولاً: تعريف المقابلة وخصائصها:

لاشك أن المقابلة Interview من الأدوات الهامة التي يستخدمها المتخصص في البحث الاجتماعي، كما يستخدمها الإنسان العادي في حياته العامة، فكثيراً ما تستخدم المقابلة في الحصول على معلومات أو إجابات عن أسئلة معينة لدى عامة أفراد المجتمع. إلا أن المقابلة التي تستخدم في البحث العلمي المتخصص تختلف عن المقابلة التي تتم بين الأفراد العاديين.

وهناك تعريفات عديدة للمقابلة أو " الإستبصار " يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال:

١- يعرف " روبرت كاهن " Robert Kahn المقابلة بأنها " الإسلوب المتخصص للإتصال الشخصي والتفاعل اللفظي الذي يجري لتحقيق غراض خاص، والذي يركز فيه الباحث على بيانات ومعلومات خاصة ويستبعد ماعداها

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٤٦٣.

من المعلومات والمواد الدخيلة والغريبة وغير الجوهرية في الموضوع^(١).
٢- يعرف الدكتور نجيب إسكندر المقابلة بأنها " التبادل اللفظي وجها لوجه بين القائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو أشخاص آخرين "^(٢).
٣- عرض الدكتور جمال ذكى والسيد يس إلى عدة تعريفات للمقابلة لباحثين مختلفين أهمها^(٣):

أ- يعرف " ما كوبي " و " ماكوبي " E.Maccoby & N.Maccoby، المقابلة بأنها " تفاعل لفظي يتم بين فردين في موقف مواجهة، يحاول إحداهما إثارة بعض المعلومات والتعبيرات لدى الآخر، والتي تدور حول خبراته أو آرائه ومعتقداته ".

ب- تعرف " بولين يونج " P.Young المقابلة بأنها " طريقة منظمة يتمكن الفرد من خلالها سبر غور حياة فرد آخر غير معروف له نسبياً، كما تعتقد أن هذه الوسيلة تعد الوسيلة المثلى للباحث الاجتماعي ".

ج- يعرف " إنجلش " و " إنجلش " B.English & C.English المقابلة بأنها " عبارة عن محادثة موجهة يقوم بها فرد مع آخر أو أفراد آخرين، هدفها إثارة أنواع معينة من المعلومات لإستخدامها في بحث علمي، أو الإستعانة بها على التوجيه والتشخيص والعلاج ".

د- يرى " بوجاردس " Pogardu " أنه لا يمكن فهم المواقف الاجتماعية إلا إذا توصلنا إلى معرفة الإتجاهات والقيم الإنسانية، ولا يمكننا التعرف على هذه الإتجاهات والتغير الحادث فيها إلا عن طريق المقابلة الشخصية ".

هـ- أكد " جود و هات " Good & Hatt على أن المقابلة " عملية من عمليات التفاعل الاجتماعي الذي يعنى فى جوهره أخذ أو عطاء، غير أنها عملية موجهة لتحقيق أغراض معينة "^(٤).

والملاحظ أن هذه التعريفات على الرغم من تنوعها إلا أنها تتفق على عدة خصائص للمقابلة أهمها:

- (أ) أن المقابلة نوع من التفاعل اللفظي بين فردين أو أكثر.
- (ب) أن المقابلة هادفة بمعنى أنها تسعى إلى تحقيق هدف ما من وراء موقف المقابلة.

(١) عمر الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢) نجيب إسكندر وآخرون، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٤٥.

(٣) جمال ذكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، صص ٣٠٩-٣١٠.

(٤) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

(جـ) أنها محددة بمكان وزمان ومباشرة أى وجهها لوجه، إن كان هناك بعض الباحثين الذين يشيرون إلى أنواع أخرى للمقابلة تتم بشكل غير مباشر كالإتصال الهاتفى أو التليفونى.

(ء) أنها عملية أخذ وعطاء بين الباحث والمبحوث وأن نجاحها يتوقف إلى حد كبير على لباقة وخبرة الباحث فى إختياره لأفضل ظروف لأتمام المقابلة.

وبصفة عامة فالمقابلة هي عملية تفاعل لفظى بين باحث ومبحوث

(أو مبحوثين) فى موقف مواجهة بهدف الحصول على بيانات أو معلومات تساعد الباحث على القيام ببحث علمى أو إستخدامها فى عمليات التوجيه أو التشخيص أو العلاج أو التخطيط..... إلخ.

ثانياً: مجالات استخدام المقابلة وأهميتها:

لأجدال فى ان المقابلة تعد من الوسائل الهامة فى عمليات جمع البيانات والمعلومات على إختلاف أنواعها والهدف منها. ولقد إحتلت "المقابلة" هذه المكانة - خاصة فى البحث العلمى - نظراً لما تمتاز به من سهولة ومرونة فى موقف المقابلة الذى يتسم بالبعد عن التكلفة والقيود والشكليات. وكالما كان موقف المقابلة مرناً كلما شجع المبحوث على التعاون مع الباحث والتعبير عن نفسه أو عن آرائه وإتجاهاته بحرية دون تحيز.

وتكمن أهمية المقابلة أيضاً فى تغلغلها فى كافة جوانب الحياة الاجتماعية، وهذا فضلاً عن إستخدامها لأغراض بحثية متنوعة. ويمكن الإشارة إلى أهم مجالات استخدام المقابلة على النحو التالى:

١ - مجال الحياة العامة:

كثيراً ما نستخدم المقابلة فى مجال حياتنا العامة، فهي تشغل جانباً كبيراً من حياة كل فرد فى المجتمع تقريباً، فالمدرس يقابل تلاميذه فى قاعة الدرس، ويقابل أولياء الأمور المدرس لمعرفة المستوى الدراسى لأبنائهم، والمحامى يقابل عملائه ممن لديهم مشاكل قضائية، والطبيب يقابل مرضاه فى عيادته أو فى منازلهم، ومدير العمل يقابل الموظفين والعمال لمعرفة مشاكل العمل، وينطبق ذلك على كل فئات المجتمع كالصحفيين والمهندسين ورجال الشرطة، والنيابة، والدين، والأعمال، والدعاية، والإعلان، وممثلى شركات التأمين، ومقدمى البرامج الإذاعية والتلفزيون إلخ.

وجدير بالذكر أن لكل فئة من الفئات السابقة أسلوبها الخاص فى المقابلة، وإلمامها بالأسس والمبادئ أو الأساليب التى تساعد على نجاحها، فموقف المقابلة الذى يجمع بين طبيب ومريض أو بين رجل شرطة وأحد المجرمين سوف يختلف عن طبيعة موقف المقابلة بين رجل دين وأحد أتباعه أو مريديه.

٢- مجال البحث العلمى:

تستخدم المقابلة فى كثير من مجالات البحث العلمى، كمجال البحوث الاجتماعية، والخدمة الاجتماعية، والتعليم، والإدارة، والطب، وعلم النفس الاجتماعى، والأمن، والقانون، والتجارة، والصناعة..... إلخ. من مجالات البحث العلمى. فتستخدم المقابلة كأداة أساسية فى غالبية المسوح الاجتماعية سواء كانت فى مجال علم الاجتماع أو الانثر بولوجيا. وتعد المقابلة وسيلة أساسية أيضاً فى بحوث السكان، ومسوح رأى العام، والوعى الصحى... إلخ.

٣- مجال التشخيص والعلاج:

تعد المقابلة أحد الوسائل فى المجال الطبى، فلا غنى عنها لدى الأطباء فى تشخيص المرض وتحديد أساليب العلاج. كما لا غنى عنها لدى الأطباء النفسيين، والعاملين فى العيادات النفسية، كذلك تعد وسيلة ضرورية للاخصائين الاجتماعيين فى مقابلة الذين يعانون من مشاكل إجتماعية سواء فى مجال المدرسة أو بيئة العمل. فالمقابلة التشخيصية Diagnostic Interview أساس العلاج الناجح فى المجال الطبى والتربوى والاجتماعى.

٤- مجال المهارات والقدرات الخاصة:

تستخدم المقابلة كوسيلة أساسية فى عمليات الاختيار والانتقاء للمتقدمين لطلب وظائف معينة، أو المتقدمين لطلب الدراسة فى الكليات والمعاهد العسكرية، والمتقدمين لدراسة علوم معينة تتطلب مهارات خاصة ككليات ومعاهد الفنون والعمارة وغيرها.

ثالثاً: أنواع المقابلة:

لا جدال فيما تحلته المقابلة من أهمية خاصة بين أدوات البحث الأخرى، حيث لا يوقف إستخدامها عند حدود تخصص معين، أو علم من العلوم الاجتماعية، ومن ثم تتنوع المقابلة بتنوع التخصصات المختلفة من ناحية، وتنوع الهدف منها ودرجة التقنين وعدد المتواجدين فى موقف المقابلة من ناحية أخرى عموماً يمكن الإشارة إلى أكثر تصنيفات المقابلة شيوعاً كما يلى (*):

❖ راجع على سبيل المثال لا الحصر:

- جمال ذكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢١٢.

- مصطفى سويفى، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠،

ص ٣٩٢.

- محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٦٧.

- عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٥٣..

(أ) تصنيف المقابلة حسب الهدف منها:

١ - المقابلة لجمع البيانات Collect Data.

وهي المقابلة التي يسعى فيها الباحث للحصول على معلومات أو بيانات معينة من عينة البحث، كالمقابلات التي تستخدم في البحوث المسحية، وبحوث دراسات الحالة وغيرها. ويفيد هذا النوع من المقابلات في وصف وتفسير واقع إجتماعي أو إقتصادي محدد. وغالباً ما يستخدم هذا النوع من المقابلات للحصول على معلومات وبيانات تتصل بآراء الأفراد وإتجاهاتهم نحو موضوعات محددة. ويستخدم هذا النوع من المقابلات في البحوث الكشفية أو الإستطلاعية بهدف التعرف على الأبعاد الأساسية للمشكلة موضوع الدراسة، كما تستخدم أيضاً في عمليات الإختبار المبدئي عند تصميم إستمارة البحث.

٢ - المقابلة التشخيصية: Diagnostic Interview

يشيع استخدام هذا النوع من المقابلات لدى العاملين بالمهن الطبية والنفسية والاجتماعية (الأخصائي الاجتماعي)، حيث تستخدم المقابلة التشخيصية في تشخيص حالات العملاء من المرضى وذوي المشكلات الاجتماعية المختلفة، ويسعى القائمون بهذه المقابلات إلى التعرف على أبعاد المرض أو المشكلة الاجتماعية وأسبابها المختلفة.

٣ - المقابلة العلاجية: Clinical Interview

تأتي المقابلة العلاجية كمرحلة تالية للمقابلة التشخيصية خاصة في دراسة المشكلات الاجتماعية، وقد تتزامن المقابلة العلاجية مع المقابلة التشخيصية في موقف مقابلة واحد كما هو الحال في الموقف الذي يجمع بين الطبيب والريض العضوى. وبصفة عامة أن الهدف الأساسي من المقابلة العلاجية هو رسم خطة لعلاج " العميل " وتخفيض حدة التوتر الذي يشعر به المريض الإستفادة من إمكانات البيئة الاجتماعية المحيطة. وعموماً هناك تداخل واضح بين الأنواع الثلاثة السابقة من المقابلة، فالمقابلة العلاجية - مثلاً - تعتمد اعتماداً كبيراً على نتيجة المقابلة التشخيصية، والمقابلة التشخيصية بدورها لا يمكن أن تكون دقيقة إلا إذا اعتمدت على بيانات ومعلومات يمكن الحصول عليها من خلال النوع الأول من المقابلة.

٤ - المقابلة التوجيهية: Advisedly Interview

وهي المقابلة التي تستخدم في أغراض التوجيه والإرشاد والنصح والإستشارة، سواء كان هذا التوجيه تربوياً أو نفسياً أو صحياً أو اجتماعياً أو إقتصادياً أو دينياً..... إلخ.

٥- المقابلة الإختبارية: Examining Interview

يكثر استخدام هذا النوع من المقابلات في ميادين عديدة من الحياة الاجتماعية. والهدف الاساسى من هذه المقابلة هو إختبار من تجرى مقابلته أو قياس معارفه أو قدراته أو ميوله وإتجاهاته أو مهاراته أو قوة شخصيته.....إلخ. ويستخدم هذا النوع من المقابلة في إختبارات القبول للكليات والمعاهد الاكاديمية المتخصصة بصفة عامة، والكليات والمعاهد العسكرية، والفنية، والمعمارية، بصفة خاصة. كما تستخدم أيضاً في إختبار الموظفين المتقدمين لشغل وظائف معينة يتم الإعلان عنها مسبقاً.

(ب) تصنيف المقابلة حسب عدد الأشخاص المشاركين في موقف المقابلة:

١- المقابلة الفردية: Individual Interview

لاشك تعد المقابلة الفردية أكثر أنواع المقابلات شيوعاً وإنتشاراً، وهى التى تجرى بين باحث واحد ومبحوث واحد فى موقف مواجهة.

٢- المقابلة الجماعية: Group Interview

وهى المقابلة التى تجرى بين أكثر من شخص فى موقف واحد، وقد تكون هذه المقابلة بين باحث واحد ومجموعة مبحوثين فى وقت واحد، كالمقابلات التى تجرى بين باحث وجماعة الاسرة، أو جماعة الدرس. وقد تكون المقابلة الجماعية بين مجموعة باحثين ومبحوث واحد، كالمقابلات التى يجريها فريق من الاطباء لتشخيص حالة مرضية معينة، وقد تكون المقابلة الجماعية بين مجموعة من الباحثين من ناحية ومجموعة من المبحوثين من ناحية أخرى فى موقف واحد.

(ج) تصنيف المقابلة حسب طول الإتصال:

هناك مقابلات لا تستغرق من الباحث والمبحوث وقتاً طويلاً وتعرف " بالمقابلة ذات الإتصال القصير " Short- Contact- Interview، وغالباً ما تتكون هذه المقابلات محددة الهدف بشكل دقيق كالمقابلات التى يجريها مندوبى التسويق لسلع إستهلاكية معينة ويريد معرفة آراء المستهلكين لهذه السلع، أو المقابلات التى يجريها الباحثون فى مجال الإعلام حول آراء وإتجاهات رجل الشارع حول موضوعات محددة. وفى المقابل هناك مقابلات ذات إتصال طويل أو ممتد على فترة طويلة من الزمن Prolonged Interview، فقد يستغرق وقت المقابلة بضع ساعات، وقد يتكرر موقف المقابلة أكثر من مرة لإستكمال موضوع المقابلة.

(٤) تصنيف المقابلة حسب المهن والميادين المختلفة:

تُصنف المقابلة حسب المهن والميادين التي تستخدم فيها إلى مقابلة طبية، ومقابلة قانونية، ومقابلات الخدمة الاجتماعية، والمقابلة الإكلينيكية، والمقابلات التي تجري مع طالبي التوظيف أو العمل في مهن معينة....

(٥) تصنيف المقابلة حسب درجة المرونة في موقف المقابلة:

يمكن تصنيف المقابلة حسب درجة مرونتها إلى مقابلة مقننة، ومقابلة غير مقننة، ومقابلة بؤرية، ومقابلة غير موجهة، والمقصود بالتقنين هو مدى حرية الباحث في لقاء الأسئلة وصياغتها وترتيبها.

١- المقابلة المقننة: Standardized Interview.

وفي هذا النوع من المقابلة يقوم الباحث بتحديد أسئلة المقابلة مسبقاً وصياغتها بالأسلوب الذي يتفق مع المستوى الثقافي للمبحوثين وترتيبها بالشكل الذي يخدم أغراض البحث ويقوم الباحث بتوجيه الأسئلة إلى جميع المبحوثين بنفس الأسلوب وببنفس الترتيب. وتكوين الإجابات أيضاً بنفس الأسلوب الذي يجيب فيه المبحوثين على الأسئلة " المفتوحة " كذلك تعيين الإجابات التي يشير إليها فقط المبحوثين بالنسبة للأسئلة " المقفولة ". وغالباً ما يتم تدريب الباحثين على هذا النوع من المقابلات ووضع قائمة من التعليمات التي يلتزم بها كل الباحثين في جميع مقابلاتهم. وتفيد عملية التقنين في إمكانية القيام بمقارنات دقيقة للمعلومات التي يدلي بها المبحوثون طالما أن أسلوب القياس واحد، وأن الأفراد يستجيبون لنفس الأسئلة ويخضعون لنفس الظروف بقدر الإمكان أثناء المقابلة.

٢- المقابلة غير المقننة:

تختلف المقابلة غير المقننة عن المقابلة المقننة في أنها تتسم بقدر كبير من المرونة بالنسبة للباحث أثناء موقف المقابلة، فعلى الرغم من أن الباحث يقوم بإعداد أسئلة كلا النوعين مسبقاً إلا أنه لايسمح له بتعديل أو تبديل الأسئلة في المقابلة المقننة، بينما يسمح له بذلك في المقابلة غير المقننة حيث بإمكان تغيير صيغة الأسئلة، وإضافة أسئلة جديدة، وحذف بعض الأسئلة التي يرى أنها تثير مخاوف أو قلق أو حرج المبحوثين.... إلخ. ولقد استخدم هذا النوع من المقابلات في البحوث الانثربولوجية، والسوسيولوجية، خاصة في الدراسات الإستطلاعية، وفي الفحوص الإكلينيكية السيكولوجية، وفي الحصول على بيانات متعمقة عن الاتجاهات والقيم والدوافع الاجتماعية. ويحتاج هذا النوع من المقابلات إلى مهرة عالية من الباحثين المدربين وخبرة في مجال البحث، وعلى الرغم مما تتسم به من حرية وتلقائية في إجراء المقابلة، إلا أنها يعاب عليها صعوبة تحليل نتائج هذه المقابلات بشكل كمي هذا من ناحية، وطول الوقت الذي تستغرقه من ناحية أخرى.

٣- المقابلة البؤرية: Focused Interview

يرى كثير من الباحثين أن الهدف الاساسى من المقابلة البؤرية وهو تركيز الاهتمام على خبره معينة صادفها المبحوث و الآثار المترتبة على هذه الخبرة وتفيد هذه المقابلة فى فى البحوث الإستطلاعية ويقترح " روبرت ميرتون R.Merton " بعض الخطوات التى يمكن أن يسترشد بها الباحث فى استخدام هذا النوع من المقابلات، وأهم هذه الخطوات^(١):

- أ- تحديد الاشخاص الذين سوف تجرى عليهم المقابلة، والذين يشترط ممارستهم لخبرة معينة، تتصل بالمشكلة موضوع البحث.
- ب- ضرورة إعداد الباحث " دليلاً للمقابلة " ليكون موجهاً للباحث للموضوعات التى ينبغى مناقشتها أو الإستفسار عنها اثناء موقف المقابلة. ومن الضروري أن تدور المناقشة حول الموضوعات التى حددها الباحث فى " الدليل ". وجدير بالإشارة إلى أن " دليل المقابلة " ينبغى أن يتسم بالمرونة فيما يتصل بأسلوب الاسئلة وترتيبها وطريقة إلقتها على المبحوثين.
- ج- ينبغى على الباحث أن يكون ملماً بموضوع البحث، وأن يقوم بتحليل أبعاد الموضوع تحليلاً مبدئياً بهدف التعرف على عناصره الاساسية.
- د- ضرورة التركيز اثناء المقابلة على الخبرات الذاتية للأفراد الذين تعرضوا للموقف (موضوع المشكلة). وهذا يعنى أن القائم بالمقابلة ينبغى عليه أن يتأكد من أن المبحوثين قد أشتركوا فى موقف معين كروية فلم سينمائى، أو سماع برنامج إذاعى معين، أو قراءة كذاب يدور حول موضوع محدد..... إلخ.

٤- المقابلة غير الموجهة: Non-Directive-Interview

يشيع استخدام هذا النوع من المقابلات فى المقابلات العلاجية Clinical Interview، وهذا النوع من المقابلات يختلف عن المقابلات البؤرية، فإذا كان هذا النوع الأخير يركز على خبرة محددة مر بها المبحوث، فالمقابلات غير الموجهة تهتم بكافة الخبرات التى مر بها المبحوث، فهى تدور حول جوانب الشخصية بأكملها لمحاولة الوقوف على المشكلات الخاصة بسوء التوفيق أو التكيف الإنفعالى والاجتماعى، وغالباً ما تجمع هذه المقابلات بين أهداف التشخيص والعلاج. ويمتاز هذا النوع من المقابلات بالمرونة التامة التى تسمح للمبحوث التعبير بتلقائية وللباحث فرصة افضل للحصول على معلومات تتعلق بالمبحوث والبيئة الاجتماعية المحيطة به.

(١) جمال ذكى والسيد يس. أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢١٦.

ويقوم الباحث في المقابلات غير الموجهة بتحديد فئات الأسئلة فقط قبل إجراء المقابلة، ويمكن له أثناء المقابلة أن يعدل الأسئلة، ويبدلها، ويغيرها، ويضيف إليها، أو يحذف بعضها حسب ما يتطلبه موقف المقابلة وظروفه المبحوثين وأوضاعهم الثقافية والاجتماعية. وعلى الرغم من أن هذا النوع من المقابلات يفيد في إثراء البحث بالمعلومات، إلا أنه يصعب مقارنة المعلومات التي يدلى بها المبحوث مع بعضها البعض مما يجعل إمكانية الوصول إلى تعميمات أمراً صعباً.

وبصفة عامة، أن التصنيفات السابقة لأنواع المقابلة ليست تصنيفات، مانعة جامعة، ولكن بينها تداخل وتشابك كبير، فعلى سبيل المثال لا يمكن فصل المقابلة التشخيصية عن المقابلة العلاجية أو الإكلينيكية، وتداخل هذين النوعين مع المقابلة غير الموجهة:..... وهكذا.

رابعاً: كيفية إجراء المقابلة.

لأجدال في أن المقابلة كأحد الأدوات الأساسية في البحث العلمي الاجتماعي تحتاج لمجموعة من الإجراءات المنهجية والميدانية لضمان نجاحها وتحقيق الهدف من استخدامها. ويمكن تحديد هذه المتطلبات المنهجية في مطلبين أساسيين ومرتبطين فيما بينهما، الأول: هو الإعداد للمقابلة، وما تتضمنه عملية الإعداد من نواح مختلفة، والثاني: هو القيام بعملية المقابلة ذاتها أو ما يعرف بإجراء المقابلة Interviewing.

(أ) الإعداد للمقابلة:

تشمل عملية الإعداد للمقابلة عدة أمور أهمها:

١- تحديد موضوع المقابلة والهدف منها:

يعد تحديد موضوع المقابلة والهدف منها أولى خطوات الإعداد للمقابلة، وفي ضوء الموضوع والهدف يستطيع القائم بالمقابلة، تحديد نوعية المقابلة ذاتها التي سوف يستخدمها في البحث، وأيضاً تحديد التقنين والتوجيه.

٢- تحديد المواقف التي سوف تستخدم المقابلة من أجلها:

ولاشك أن هذه المواقف تحدد وفقاً لمشكلة البحث والهدف منه، ونوعه، والفروض التي يسعى الباحث لإختبارها إذا كان البحث من النوع الذي يختبر فروضاً^(١).

(١) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

٣- تحديد " عينة البحث " :

وهم الأفراد الذين سوف يجرى معهم الباحث المقابلات، وفي ~~البحوث الاجتماعية~~ لابد أن تخضع عملية اختيار العينة للشروط المنهجية المتعارف عليها في تحديد حجم العينة وأسلوب سحبها، ومدى تمثيلها للمجتمع الأصلي.... إلخ. وينبغي أيضاً أن يقوم الباحث بتحديد ~~أفضل الأماكن~~ لأجراء المقابلات وأنسب الأوقات التي تتلائم وظروف المبحوثين.

٤- صياغة أسئلة المقابلة: Questions Formulation

تتطلب المقابلة إعداد ما يعرف " بدليل المقابلة "، وهذا الدليل يضم مجموعة من الأسئلة يختلف درجة ترتيبها وتقنيها باختلاف نوع المقابلة. وهناك أسلوبان في صياغة أسئلة المقابلة، الأسلوب الأول هو استخدام الأسئلة المفتوحة أو الأسئلة المغلقة النهائية، والأسلوب الثاني هو استخدام الأسئلة المباشرة والأسئلة غير المباشرة.

فالأسئلة المفتوحة Open-Ended Questions هي الأسئلة غير محددة النهايات، والتي يترك فيها المبحوث التحدث كيفما يشاء دون تقيد بإجابات معينة، ودور الباحث في هذا النوع من الأسئلة يقتصر فقط على توجيه المقابلة توجيهها عاماً وفقاً لهذه الأسئلة، ويقوم بتسجيل إجابات المبحوث على هذه الأسئلة ويفيد هذا النوع من الأسئلة في المقابلات الحرة أو غير الموجهة. أما الأسئلة المغلقة النهائية Closed-Ended Questions والتي يطلب فيها من المبحوث أن تكون إجاباته ملائمة لتصنيف الموضوع مسبقاً للإجابات المحتملة. ويفيد هذا النوع من الأسئلة في البحوث التي تهتم بالتحليل الإحصائي والكمي أساساً وتظهر بوضوح في المقابلات المقننة^(١). وغالباً ما تستخدم الأسئلة المفتوحة في البحوث الكشفية أو الاستطلاعية.

وينبغي على الباحث أن يراعى بعض الاعتبارات عند صياغته لأسئلة المقابلة أهمها " لغة الأسئلة " التي يجب أن تتناسب مع المستوى الثقافي والاجتماعي للمبحوث، هذا فضلاً عن تجنب الأسئلة المركبة أو التي تحمل أكثر من معنى، وتجنب الأسئلة التي تثير إحراج أو حساسية المبحوث، ويجب أيضاً استبعاد الأسئلة الإيحائية التي توجه المبحوث إلى إجابة يرغب الباحث فيها، هذا فضلاً عن تنظيم الأسئلة وتتابعها.

٥- اختيار القائمين بالمقابلة وتدريبهم:

تعتبر هذا الخطوة من أهم خطوات الإعداد للمقابلة، فإجراء المقابلة

(١) محمد علي محمد. علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

عمل فنى من الدرجة الأولى ونجاحها يتوقف إلى حد كبير على سلوك وميارة القائم بها وقدرته على التفاعل مع المبحوثين والحصول على المعلومات التي يحتاجها. ومن ثم ينبغي إنتقاء الباحثين الذين سوف يقومون بإجراء المقابلات بدقة في ضوء سماتهم الشخصية وخبراتهم، ومدى إلمامهم بموضوع البحث. هذا فضلاً عن ضرورة إعداد برنامج لتدريبهم على عملية إجراء المقابلة وفقاً لخصائص وطبيعة " عينة البحث " ويؤكد " نادل " Nadel و " كلاكهون " Kluckhohn على ضرورة إخضاع القائمين بالمقابلة للتدريب على موضوعات مثل " البحث الحقلى وإجراءاته " وطرق تطبيق المقابلة، والملاحظة من خلال خبرة الآخرين، وأساليب تسجيل المعلومات، ومبادئ العلاقات العامة Public Relations^(١).

(ب) إجراء المقابلة Interviewing Technique.

لاشك أن عملية إجراء المقابلة هي عملية مكاملة لعملية الإعداد لها، فليس هناك انفصال بين العمليتين، فعلى سبيل المثال قد يلجأ القائم بالمقابلة بصياغة بعض الأسئلة التي تتطلبها مواقف المقابلة أو تعديل بعضها أو حذف بعضها الآخر أثناء عملية إجراء المقابلة. وبصفة عامة، هناك بعض المتطلبات أو الاعتبارات الهامة التي ينبغي على الباحث مراعاتها لنجاح المقابلة أهمها:

١- بدء المقابلة:

يتوقف جانب كبير من نجاح المقابلة على عملية بدء المقابلة، فينبغي على القائم بالمقابلة أن يبدئها بمقدمة مبسطة حول موضوع المقابلة، وأهميتها، ولماذا أختير هذا المبحوث، هذا فضلاً عن تعريف المبحوث بالقائمين بالبحث سواء كانوا أفراداً أو هيئة علمية أو أكاديمية، والتأكيد له على سرية المعلومات أو البيانات التي سوف يدلى بها، وأن هذه البيانات هي فقط لأغراض البحث العلمى. وتنصح " مارجرىيت ستاسى " القائم بالمقابلة أن يبدأها بتساؤل أساسى " أتستطيع مساعدتى ؟ " (٢). فمثل هذا السؤال سوف يضيف على جو المقابلة نوع من الود بين القائم بالمقابلة والمبحوث.

٢- تهيئة جو المقابلة:

تؤكد كافة المشتغلين بالبحث الاجتماعى على أهمية تهيئة الجو المناسب للمقابلة، والذي يتمثل فى إختيار الزمان والمكان المناسبين للمقابلة، وطالما أن المقابلة هي عملية تفاعل وإتصال أو أخذ وعطاء وإفضاء بمعلومات دقيقة، وطالما أن المبحوث

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى. مرجع سابق، ص ٤٧١.

(٢) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٥٧.

تأثر في إستجاباته بكافة عناصر موقف المقابلة مثل البعد عن الضوضاء، وعن مضايقات المقطاعات الشخصية والهاتفية، وعن الأماكن الرسمية، وعن الأماكن التي لا تسمح التقاليد بالإجتماع فيها. كما ينبغي على الباحث أن يختار وقت المقابلة بشكل يتناسب وظروف المبحوث بعيداً عن أوقات العمل، والإلتزامات المنزلية، وظروفه الصحية والنفسية، وسنه ونوعه (ذكر أم أنثى)، فهناك بعض المجتمعات التي تفرض قيوداً بالنسبة للوقت أو الأماكن التي تتواجد فيها الإناث خارج المنزل. ومن ثم لا يجوز مقابلة المبحوث أثناء عمله، إلا إذا كانت المقابلة تتعلق بهذا العمل وصاحب العمل أو الهيئة المشرفة عليه تسمح بمثل هذه المقابلات في مكان العمل، كما لا يجوز مقابلة زوجة في حالة غياب زوجها من قبل باحث، إذا كانت تقاليد المجتمع لا تسمح بذلك، وفي هذه الحالة يمكن الإستعانة بباحثه بدلاً من الباحث، كما لا يجوز أن تكون مدة المقابلة طويلة بدرجة لا يتحملها المبحوث نظراً لسوء صحته، أو إضطرابه النفسي، وأو كبر سنه، أو لكثرة مشغوليته، كما لا يجوز تحديد موعد لمقابلة فتاة أو سيدة في وقت أو مكان لا يتفق مع تقاليد المجتمع وقيمه.

وبعد تهيئة الجو النفسي والاجتماعي من العوامل الأساسية لنجاح المقابلة، فالحفاظ على بناء علاقة ودية طيبة بين القائم بالمقابلة والمبحوث، يشجع الأخير على الإستجابة وتدفعه إلى التفكير فيما يقول إلى الإفصاح عما لديه من معلومات حول موضوع المقابلة، وتبعث لديه إحترام الذات والثقة بالنفس والشعور بالطمأنينة وتبعد عنه مشاعر الخوف والخجل والتردد^(١). وينبغي على القائم بالمقابلة أن يظهر للمبحوث المشاعر الطيبة والصداقة المخلصة، والتفهم لمشاكله والإهتمام بها، وأن ينصت ويهتم بكل ما يقوله ويتجاوب معه ويشاركه وجدانياً، وأن يكون منتبهاً لكل ما يظهر على المبحوث من تغيرات جسمية وإنفعالية مثل إحمرار الوجه أو تغير نبرة الصوت، أو مظاهر القلق والتصرف نحوها بما يفيد في إستمرارية المقابلة ونجاحها.

كما يجب على القائم بالمقابلة أن يتجنب كل ما يسبب إحراج المبحوث أو يؤدي إلى قلقه وتوتره النفسي، وأن يتجنب مقاطعته أثناء الحديث إلا بالتوجيه الخفيف، وأن يتجنب إتهامه بأنه يخفي حقائق معينة إلا في حالات معينة قد يفيد الإتهام فيها، وأن يتجنب الخصومة مع المبحوث، وأن يتجنب إصدار أحكام أخلاقية على من يقابله وعلى إجاباته، وأن يتجنب التقيد الزائد بالشكليات من حيث الجلوس، وطريقة الحديث.

(١) عمر الشيباني. مناهج البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

٣- توجيه الاسئلة في المقابلة:

يعد توجيه الاسئلة في المقابلة من العمليات الأساسية التي يتوقف عليها نجاح المقابلة، وهناك بعض الاعتبارات التي ينبغي على القائم بالمقابلة أن يأخذها في اعتباره عند توجيه الاسئلة للمبحوثين أهمها:

أ- ينبغي على الباحث أن لا يبدأ بتوجيه اسئلة منصبة على موضوع المقابلة مباشرة، فقد يثير هذا الموضوع بعض مخاوف وقلق المبحوث.

ب- يفضل التدرج في الاسئلة، بحيث يبدأ القائم بالمقابلة بالاسئلة التي تثير اهتمام المبحوث، ثم الاسئلة المتخصصة ذات الصلة بموضوع البحث، وأخيراً الاسئلة الأكثر تخصصاً.

ج- ينبغي أن يكون التدرج في الاسئلة متوافقاً مع التدرج الذي ينشأ في العلاقة الودية بين الباحث والمبحوث.

د- ينبغي على القائم بالمقابلة أن يوجه أسئلة المقابلة برفق متجنباً أسلوب التحقيق.

هـ- يجب أن يمنح القائم بالمقابلة المبحوث الفرصة كاملة في الإجابة بالشكل الذي يرغب فيه، فلا يجب أن ينبهه في أن يزيد من سرعته في الإجابة أو يأنى في إجابته.

و- لا ينبغي توجيه أكثر من سؤال في وقت واحد، حتى يستطيع المبحوث أن ينظم أفكاره بالنسبة لكل سؤال.

ز- في حالة المقابلة الغير مقننة ينبغي توجيه الاسئلة بالإسلوب الذي يفهمه المبحوث، أما في حالة المقابلة المقننة ينبغي توجيه الاسئلة بنفس الإسلوب وبنفس الترتيب لجميع المبحوثين.

ح- يجب أن يظل القائم بالمقابلة ممسكاً بزمام المناقشة بحيث يوجهها إلى الناحية التي تحقق اهداف البحث، دون أن يترك الأمر للمبحوث يوجهه كيفها يشاء^(١).

٤- تسجيل المقابلة:

يختلف بعض المشتغلين بالبحث الاجتماعي حول أفضل إسلوب لتسجيل إجابات المبحوثين. فهل يتم التسجيل بشكل فوري ومباشر لكل ما يدلى به المبحوث من معلومات أم إختزال ما يدلى به المبحوث من بيانات في رموز معينة أو جمل قصيرة لحين الإنتهاء من المقابلة؟ أم ترك عملية التسجيل إلى ما بعد الإنتهاء من المقابلة؟

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٦٧.

عموماً يؤكد الباحثين على ضرورة تسجيل بيانات المقابلة بشكل واضح ومباشر في حينها بعد كل سؤال، من الأخذ في الاعتبار الدقة والموضوعية ورفض الإجابات المبهجة أو الناقصة، كي لا يقع الباحث في خطأ النسيان أو التحيز. بينما يؤكد آخرون على عدم تسجيل بيانات المبحوثين أثناء المقابلة لأن عملية التسجيل من شأنها أن تثير مخاوف المبحوثين وتدفعهم إلى الإفتراف والتكليف، وتمنعهم من الإنطلاق التلقائي في الإجابة فلا يعبرون تعبيراً صادقاً عن آرائهم، ومن ثم ينبغي فقط تسجيل البيانات الأولية (كالاسم والسن، والحالة الاجتماعية، والتعليمية، والوظيفية، والعنوان.... إلخ) ثم يتم التسجيل بيانات المبحوث بعد إنتهاء المقابلة.

وينصح الدكتور عبد الباسط محمد حسن، بعدم تأجيل تدوين إجابات المبحوثين إلى ما بعد المقابلة، فقد أظهرت البحوث الميدانية المختلفة أن معظم الإعتراضات على تسجيل بيانات المقابلة في حينها لا أساس لها من الصحة، فالخوف والتكلف وعدم الإنطلاق من قبل المبحوثين، كلها أمور يمكن التغلب عليها في بداية المقابلة بتهيئة جو المقابلة وخلق الظروف الملائمة لها هذا فضلاً عن أن تسجيل إجابات المبحوثين يشعرهم بجدية الموقف مما يجعلهم يهتمون بالإجابة والتدقيق منها^(١). وهذا الشعور يبعث في نفس المبحوث الرضى ويدفعه لمزيد من التعاون.

وهناك فريق من الباحثين يفضل استخدام آلات التسجيل في تسجيل المقابلة، كما لهذه الطريقة من مميزات تتمثل في توفير الجهد والوقت والدقة أثناء المقابلة هذا فضلاً عن إمكان الرجوع إليها في أى وقت، إلا أن هذه الطريقة يؤخذ عليها أنها قد تثير شكوك المبحوث وتخوفه من تسجيل حديثه، كما أن الاستجابات المسجلة آلياً صعبة التفريغ وتستغرق وقتاً طويلاً في هذه العملية. وبصفة عامة، إذا فضل الباحث أجهزة التسجيل الآلية، فعليه ألا يخفي هذه الأجهزة عن المبحوث بحجة عدم إثارة مخاوفه وأن يجعله يتصرف تلقائياً، فإذا قام الباحث بذلك فهو يخالف المسؤولية الأخلاقية تجاه مبحوثيه، وقد يؤدي هذا التصرف إلى عواقب وخيمة بالنسبة للبحث إذا عرف المبحوثون ذلك، ومن ثم فلا بد من إخبار المبحوث بتسجيل المقابلة مسبقاً وأخذ موافقته صراحة على ذلك.

(١) المرجع السابق، ص ٤٧.

٥- إنهاء المقابلة:

يرى كثير من الباحثين أن عملية إنهاء المقابلة أصعب بكثير من البدء فيها، فمن الضروري كما يشير "جود وهات" Good & Hatt إنهاء المقابلة في جو من الود واللباقة من قبل الباحث، نظراً لحاجته إلى العودة مرة أخرى لإستيفاء أو إستيضاح بعض المعلومات من المبحوث ويفضل أن يحول الباحث نهاية المقابلة إلى مناقشة عامة بين صديقين، فقد يساعده ذلك على إنهاء المقابلة بصورة أفضل^(١).

خامساً: ثبات وصدق المقابلة:

المقصود بصدق المقابلة، أن هذه الأداة وما تشمل عليه من أسئلة "صادقة" في قياس ما يراد قياسه في الواقع، بمعنى إذا إستعملت مرة ثانية على الأفراد أنفسهم وفي نفس ظروف وشروط المرة الأولى سوف تعطى نفس النتائج السابقة. ومن ثم فالصدق المدقصور هنا هو صدق الأداة "المقابلة" في قياس ما صممت لقياسه.

أما ثبات المقابلة، فالمقصود به ثبات المبحوث فيما يدلي به من معلومات بعد إعادة مقابلته. مرة ثانية بعد فترة محددة. جدير بالذكر أن صدق المقابلة وثباتها يتأثران بعوامل عديدة كوضوح المقابلة، واسلوبها، والظروف التي أجريت فيها. ويستطيع الباحث أن يتأكد من ثبات وصدق المقابلة من خلال عدة إجراءات أهمها:

١- صياغة بعض الأسئلة تعرف باسم "أسئلة المراجعة"، وهي تكرر بعض الأسئلة بصياغة جديدة، والهدف الأساسي من هذه الأسئلة هو إختبار صحة أسئلة أخرى. ويفضل أن لا تأتي هذه الأسئلة متسلسلة مع الأسئلة الأصلية، بل تتوزع داخل أسئلة موضوعات أخرى، ثم يقارن الباحث بين إجابة المبحوث على الأسئلة الأصلية وأسئلة المراجعة للتأكد من صدق المبحوث وثباته في إجاباته. ومن الأمثلة على "أسئلة المراجعة" المقارن بين ما يصرح به المبحوث من إجمالى دخله الشهرى، ومجموع بنود إنفاق الشهرى.

٢- عقد مقارنة بين إجابات المبحوث اللفظية، وبين الأدلة الموضوعية المتصلة بهذه الإجابات، كالمقارنة بين دخل المبحوث ومستويات إنفاقه، أو ممتلكاته^(٢).

٣- عقد مقارنات بين بيانات المقابلة وبيانات أخرى يمكن التنبؤ بوجود ارتباط بينها سواء كانت هذه البيانات نظرية تدعمها نظريات منطقية معينة، أو عملية

(١) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

(٢) نجيب إسكندر وآخرون، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

مستقاة من نتائج بحوث ميدانية سابقة.

سادساً: تقييم المقابلة:

لا جدال في أن المقابلة كأداة أساسية من أدوات البحث الاجتماعي تعد من أكثر الوسائل شيوعاً لما تمتاز به من خصائص تفتقدها بعض الوسائل الأخرى، ولكن هذا لا يعني أنها خالية من بعض العيوب، فلكل أداة من أدوات البحث حدودها في البحث الاجتماعي.. وبصفة عامة يمكن الإشارة إلى أهم مزايا المقابلة وعيوبها على النحو التالي:

أ- مزايا المقابلة:

١- تتميز المقابلة بالمرونة، حيث تتيح للباحث فرصة الاجتماع مع المبحوث. وجهاً لوجه، فيستطيع القائم بالمقابلة أن يشرح له معاني بعض الكلمات أو العبارات^(١).

٢- تفيد المقابلة في دراسته المجتمعات المحلية التي تزداد فيها معدلات الأمية، فهي تتلائم مع المجتمعات المحلية خاصة الريفية في المجتمعات النامية.

٣- تتيح المقابلة للباحث فرصة التعرف على جوانب مختلفة من شخصية وحياة المبحوث، وتعفى القائم بالمقابلة من طرح بعض الأسئلة التي قد تثير حرج أو حساسية المبحوث لأمر يمكن ملاحظتها بسهولة كالحالة السكنية

(بناء المسكن، نظافته، أساسية، موقفه، حجمه) أو المستوى المعيشي للمبحوث.

٤- تفيد المقابلة في مناقشة بعض الأمور التي قد تثير إنفعال أو عواطف المبحوث، كالتوافق الزوجي، أو المشاكل الزوجية، ومثل هذه الموضوعات لا يستطيع الباحث بحثها بوسائل أخرى.

٥- يستطيع الباحث القائم بالمقابلة أن يتأكد من صحة البيانات التي يدلي بها المبحوث، خاصة البيانات التي قد يبالغ فيها المبحوث كمستوى الدخل والتعليم ومستوى المعيشة، فيمكن للباحث المقارنة بين ما يدلي به المبحوث من بيانات وبين الواقع الذي يلاحظه.

٦- في المقابلة يجيب المبحوث عن الأسئلة دون أن يتأثر بغيره من الأفراد كما يحدث عادة في الاستبيان، كذلك توجه الأسئلة بالترتيب والتسلسل الذي يرغب فيه القائم بالمقابلة ولا يُطلع المبحوث على باقي الأسئلة التي قد تؤثر على إجابته.

٧- يستطيع القائم بالمقابلة أن يحصل على إجابات عن جميع الأسئلة التي يطرحها على المبحوث، بينما نجد أن نسبة كبيرة من " إستمارات الاستبيان "

(١) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٤٩.

لا يجيب المبحوثين عليها بسبب عدم وضوحها أو فهمها أو نسيانها.

٨- تُمكن المقابلة القائم بها الحصول على بيانات من جميع المبحوثين، فتعطي تمثيلاً أكبر وأدق للمجتمع.

٩- تتيح المقابلة الفرصة للقائم بها مقابلة المبحوث، أكثر من مرة إذا تطلب الأمر ذلك لتوضيح بعض البيانات أو استكمالها.

١٠- تفيد المقابلة في الحصول على بيانات حدثت في الماضي، أو التعرف على أشياء يمكن التنبؤ بها في المستقبل، وهذه الميزة تفتقدها وسائل أخرى.

ب- عيوب المقابلة:

على الرغم من المميزات السابقة، إلا إنها لا تخلو من بعض العيوب أهمها:

١- تتطلب المقابلة الكثير من النفقات والجهد والوقت، فهي تحتاج إلى عدد كبير من القائمين بالمقابلة وتدريبهم على إجراءاتها، خاصة إذا كانت من المقابلات المسحية التي نفترض فيها أن تغطي عدداً كبيراً من الأفراد. ويحتاج القائمون بالمقابلات إلى نفقات كبيرة للانتقال، كما تحتاج المقابلة إلى فترة زمنية طويلة للإنتهاء منها.

٢- تعتمد المقابلة اعتماداً كلياً على التقرير اللفظي الذي يدلي به المبحوث، وقد يكون هذا التقرير صادقاً أو غير صادق، وقد يؤخذ على علته وقد يحاول الباحث التأكد من صدق هذا التقرير ولكن هناك بعض الأسئلة التي يصعب التأكد من صدق الإجابة عليها خاصة إذا كانت هذه الأسئلة من النوع المخرج، أو تتصل بأمور خاصة يحرص المبحوث على عدم معرفة الناس موقفه منها. وتزداد صعوبة المقابلة في المناطق الريفية التي يتشكك سكانها في حقيقة القائم بالمقابلة، وتتضح الصعوبة أكثر في الإجابة على أسئلة الدخل فرتباطها بالضرائب.

٣- أن احتمالات الصدق والثبات في المقابلة أقل من الأدوات الأخرى خاصة إذا تعدد القائمين بها ولم يتدربوا تدريباً خاصاً على المواقف التي سيواجهون بها. كذلك الحال إذا كان دليل المقابلة غير معد إعداداً دقيقاً^(١).

٤- قد تقع المقابلة في خطأ التحيز من قبل القائم بالمقابلة نظراً لموقفه الأيديولوجي أو إنتمائه الطبقي وقيمه وأخلاقياته المهنية^(٢).

٥- أن تعدد القائمين بالمقابلة يجعلها أكثر عرضة لخطأ التحيز نظراً لتعدد الأدوار الاجتماعية والمستويات الثقافية لهؤلاء الباحثين وقدراتهم الذاتية على فهم

(١) جمال ذكي والسيد يس، اسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٦١.

الواقع والحكم على الأشياء. وتتعكس هذه الفروق بلا شك في تفسير المظاهر الإنفعالية والتعبيرية والسلوكية التي يبدونها المبحوثون أثناء المقابلة مما يؤثر على صحة النتائج والوصول إلى تعميمات دقيقة.

٦- تحتاج المقابلة إلى خبرة، ومهارة، ودقة، وجهد كبير في تحليل بياناتها، فالمقابلة تتطلب من القائم بها أن يصف ويحلل ويفسر بدقة وقائع سلوك المبحوثين من خلال البيانات التي حصل عليها.

٧- بما أن المقابلة تعتمد على ذاكرة المبحوث في الإجابة على الأسئلة التي تتطلب معلومات دقيقة ماضية فمن الممكن أن يقع المبحوث في خطأ التحيز الناجم عن ضعف الذاكرة.

على أية حال، أن هذه العيوب لا تقل كثيراً من مكانة المقابلة وأهميتها بين وسائل جمع البيانات، كما تمتاز به من خصائص لا يتوافر لدى بعض الوسائل الأخرى كالملاحظة أو الاستبيان. ولكن على تحقيق المقابلة الهدف العلمي الموضوعي لا بد من التأكد على أهمية الإعداد لها إعداداً جيداً، وانتقاء القائمين عليها وتدريبهم على الإجراءات الميدانية تدريباً كافياً.

٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول

البحث الاجتماعي: المفاهيم التصورية والقضايا النظرية

١١	تمهيد
١٢	١- المعرفة العلمية
٢١	٢- مفهوم العلم ووظائفه
٢٨	٣- قضايا البحث العلمي
٣٥	٤- القوانين والنظريات العلمية
٤٦	٥- البحوث والنظريات العلمية
٥٢	٦- أخلاقيات البحث الاجتماعي

الفصل الثاني

نشأة البحث الاجتماعي وتطوره

٥٧	تمهيد
٥٨	١- مرحلة ما قبل ظهور الاجتماع
٧١	٢- مرحلة النشأة المبكرة لعلم الاجتماع
٩٣	٣- مرحلة المداخل البحثية السوسولوجية الحديثة

الفصل الثالث

طبيعة المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية

١١٥	تمهيد
١١٦	١- تعريف المنهج العلمي وخصائصه
١٢٣	٢- خطوات المنهج العلمي
١٣٦	٣- المنهج العلمي ودراسة الظواهر الاجتماعية
١٤٦	٤- حدود المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية

الفصل الرابع

المنهج التاريخي

- ١٥٥ ----- تمهيد
- ١٥٦ ----- ١- تعريف علم التاريخ والمنهج التاريخي
- ١٦٣ ----- ٢- تطور الاهتمام بالمنهج التاريخي
- ١٧٤ ----- ٣- المسلمات العامة للمنهج التاريخي
- ١٧٦ ----- ٤- خطوات المنهج التاريخي
- ١٨٠ ----- ٥- مصادر المنهج التاريخي
- ١٨٨ ----- ٦- حدود استخدام المنهج التاريخي

الفصل الخامس

المنهج التجريبي

- ١٩٣ ----- تمهيد
- ١٩٥ ----- ١- التعريف بالتجريب
- ٢٠١ ----- ٢- تطور الاهتمام بالمنهج التجريبي
- ٢١٧ ----- ٣- الخصائص العامة للمنهج التجريبي
- ٢١٩ ----- ٤- خطوات المنهج التجريبي
- ٢٢٤ ----- ٥- أنواع التعميمات التجريبية
- ٢٣٠ ----- ٥- حدود المنهج التجريبي

الفصل السادس

المسح الاجتماعي

- ٢٣٧ ----- تمهيد
- ٢٣٨ ----- ١- تعريف المسح الاجتماعي وخصائصه
- ٢٤١ ----- ٢- مجالات المسح الاجتماعي
- ٢٤٨ ----- ٣- المبادئ العامة للمسح الاجتماعي
- ٢٤٩ ----- ٤- خطوات المسح الاجتماعي
- ٢٦٠ ----- ٥- تصنيف المسح الاجتماعي
- ٢٦٦ ----- ٦- أدوات البحث في المسوح الاجتماعية
- ٢٦٨ ----- ٧- تقييم المسح الاجتماعي

الفصل السابع

دراسة الحالة

٢٧٧	تمهيد
٢٧٨	١- تعريف دراسة الحالة وخصائصها
٢٧٩	٢- مجالات دراسة الحالة
٢٨٣	٣- أساليب دراسة الحالة
٢٨٧	٤- خطوات دراسة الحالة
٢٩٠	٥- أدوات البحث في دراسة الحالة
٢٩٧	٦- تقييم دراسة الحالة

الفصل الثامن

تحليل المضمون

٣٠٣	تمهيد
٣٠٣	١- تعريف تحليل المضمون وخصائصه
٣٠٧	٢- المجالات الأساسية لتحليل المضمون
٣١٥	٣- أسس استخدام تحليل المضمون
٣١٧	٤- فئات تحليل المضمون
٣١٩	٥- وحدات تحليل المضمون
٣١٩	٦- أمثلة واقعية لدراسات تحليل المضمون
٣٢١	٧- تقييم تحليل المضمون

الفصل التاسع

القياس الاجتماعي (السوسيومتري)

٣٢٧	تمهيد
٣٢٧	١- تعريف القياس الاجتماعي (السوسيومتري)
٣٢٩	٢- المجالات الأساسية للقياس الاجتماعي
٣٣٧	٣- أسس استخدام القياس الاجتماعي
٣٣٨	٤- أدوات البحث في القياس الاجتماعي
٣٤٤	٥- ثبات وصدق المقاييس السوسيومترية
٣٤٦	٦- تقييم القياس الاجتماعي

الفصل العاشر

استثمار البحث

- ٣٥١ ----- تمهيد
- ٣٥٢ ----- ١- تعريف الاستثمار وأهميتها
- ٣٥٣ ----- ٢- أنواع الاستثمارات
- ٣٥٦ ----- ٣- مجالات استخدام الاستثمار
- ٣٥٧ ----- ٤- الإجراءات المنهجية لبناء الاستثمار
- ٣٥٩ ----- ٥- ثبات وصدق الاستثمار
- ٣٥٩ ----- ٦- تقييم الاستثمار

الفصل الحادي عشر

الملاحظة

- ٣٦٣ ----- تمهيد
- ٣٦٤ ----- ١- تعريف الملاحظة وأهميتها
- ٣٦٦ ----- ٢- مجالات استخدام الملاحظة
- ٣٦٨ ----- ٣- أنواع الملاحظة
- ٣٧٦ ----- ٤- الإجراءات المنهجية للملاحظة
- ٣٨٠ ----- ٥- ثبات وصدق الملاحظة
- ٣٨٢ ----- ٦- تقييم الملاحظة

الفصل الثاني عشر

المقابلة

- ٣٨٧ ----- تمهيد
- ٣٨٧ ----- ١- تعريف المقابلة وخصائصها
- ٣٨٩ ----- ٢- مجالات استخدام المقابلة وأهميتها
- ٣٩٠ ----- ٣- أنواع المقابلة
- ٣٩٥ ----- ٤- كيفية إجراء المقابلة
- ٤٠١ ----- ٥- ثبات وصدق المقابلة
- ٤٠٢ ----- ٦- تقييم المقابلة



Bibliotheca Alexandrina



0697222